

أحمد ضحية

صانع الفخار

رواية

مانع الفتنار



اسم الكتاب: صانع الفخار

اسم الكاتب: أحمد ضحية

نوع العمل: رواية

الرقم الدولي EBIN: 16-1-389-250627

الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني

الطبعة الأولى: 2025م / 1447هـ



دار بسمة للنشر الإلكتروني



00212771814934



دار بسمة للنشر الإلكتروني (المغرب)



Darbassma1@gmail.com



المملكة المغربية

كل الحقوق
محفوظة

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. كما لا يجوز بأي صورة نشر أو إعادة طبع أي جزء من هذا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو كان، أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلا بموافقة خطية من الناشر أو المؤلف. ©

طانع الفخار

رواية

أحمد ضحية





الإهداء

وإليك يا صديقي، وأنت تغوص في المرأة زويدًا زويدًا، إلى أن
تصل إلى مركز الظلال، فتحضنك العتمة!

أحمد



هذه الملحمة

1. آلام ذاكرة الطين، الطبعة الأولى عن دارمدارات للطباعة والنشر والتوزيع، الخرطوم، 2016.
2. ود دبرك بن زرزور الدورّي، لم يسبق نشرها.
3. المقدّس سرّه، الطبعة الأولى عن دارلوتس للطباعة والتوزيع والنشر الحر، القاهرة، 2020.
4. المنشق: ريبورتاج المرايا والظلال، الطبعة الأولى عن دار بسمّة للنشر الإلكتروني، المغرب، 2021.

1. الأم ذاكرة الطين

"رواية عن الأسرار العاطفية للبلاد الأسيرة، كما تناقلها في البلدة القديمة، ود دبرك ورؤاة سوق ود أمجبو، والمقابر وراء السوق الصغير.. حول صراعات النساء ومصطربات الرجال، في البلدة القديمة وتاريخها الغامض!".



يستعيد صانع الفخار، كل لحظة أغفلتها الذاكرة مرارًا وتكرارًا، وهو في حالة من الصدمة، لا يصدق أن الكنداكة أجمل راهبات معابد الكون والبلدة القديمة، قد رحلت عن هذا العالم القاسي، وتركته وحده لمجابهة قدره الرهيب! لا يستوعب حتى الآن، أن ذلك الفجر البعيد، كان فجر الوداع الأخير!

لا زال مسكونًا بذات إحساسه بها، منذ الوهلة الأولى، التي كمن فيها يتأمل جسدها، تحت الضوء الشاحب، وهي عارية تستحم.. لحظتها استقر في أعماقه شك عظيم، في قدرة جسده على الاقتراب من أنثى سواها.. الإحساس ذاته ظلت تؤكد له، وهو ينتظر سيرها نحوه.. كأنها تمضي نحو قدرها بخُطى حثيثة، وكان كأنه ليس هنا!

ترى هل سيشعر جسد الخزين بـ (أم عيون)، التي أهداها إياه أمير
الجنكوز؟!

هتفت به: "زوّجتك نفسي" ..

فدنا منها كعوليس وهو يدنو من كاليسو الجميلة، في مساء
عتيق.. موغل في القِدَم، كذاك المساء!

دنا الخزين من أم عيون خطوتين، فدنت أقرب من حبل الوريد.
تماهيا في بعضيهما، كليهما لم يكونا هما، بل شيئاً أشبه بروح صانع
الفخار الأول، وهي تتأمل عالمًا لم يُولد بعد، وخلق لم يُخلق بعد،
وتفكر في هذا الخلق، الذي ستغير رأياها فيه بعد خلقه، وتتمنى
استبداله بخلقٍ جديد!

طوّق الخزين (نيننا)، فيما كان صانع الفخار في مساء بعيد، بعيد
يحيط خصر الكنداكّة، بذراعيه المعروفين ويقبلها بنهم، يلتهم في
شفاهها ثمرة الرّغبة السرمدية، التي وُلدت في الأزل! وإحدى يديه
تنزلق ببطء شديد.. تتسلل وتجوس في عشبها النديان! ويجيبها:
"زوّجتك نفسي" ..

ويطفو جسدهما في هالة من التوتر والانفعال الحميم، وكل
الأحاسيس الغامضة، التي تسرّبت من روح صانع الفخار، لتغطي
فضاء البلدة الوادعة عند منحدر النّهر، تغطي على صوت الجنكوز!
وفيما هو يشدّها إليه يرجع الصدى مرددًا:

"زوجتك نفسي بيبي..بيبي" ..

فيرتج جسدهما كزلزلة اكتمال الخلق، ثم يرتحيان، وبهمدان،
تفوح منهما رائحة الثمرة الأزلية، ومزيج القرنفل والقرفة والحبهان
والعرق!

اغتسلا في ماء الجاسر المحموم، ثم تهالكا على قيف النَّهر،
كطوابي البلدة القديمة الموعودة بالأسى والجنون!

وفيما "جادين جانو" يسترد نظراته التي تراقب "ود دبرك" من
نافذة الغرفة المطلة على أزقة البلدة الغارقة في الشجن، تغرقه
تأملاته، في طيف (نيننا) حبيبة آخر أحفاد الخزين، وهي تعبر على
الضفة الأخرى من المخطوطة، فيما تعبر على خاطرهما ذكرى لقاتمها
الأول بالخزين الحفيد، عندما كانت تستحم في النَّهر، تطفئ لهيب
عُربها المشتعل!

ضمها الخزين إلى صدره، وأخذت أصابعه النحيلة تتسلل إلى
ظهرها، فتسرّبها شعور دافئ زلق، أشعل فيها بوحًا لا حدود له!

تنقلت أصابعه تجوس في العُش، الذي كان يمور كنتُوريغلي!
والحرق المشتعلة داخله تبتل بالصهد وتمضي أصابعه بعيدًا، تتخلل
انكفاءات طياتها بشغف، لتفتح كل شيء فيها، على لهفة وشوق
عارمين! مدفوعين بإحساس همجي، متوحش..

لحظتها، في الجاسر المتفرّع من النّهر، مضى نبضه يُغرقها، في
أكثر أحاسيس الوجود كثافة وخذراً ولذّة!

في هذا المكان بالذّات، وفي لحظةٍ مماثلة لهذه اللحظة بالذّات،
التقى صانع الفخار بالرّاهبة الكنداكة، والتقى المقدّس سرّه بأُم
عيون، وجادين ب(هيلدا)، وود دبرك بعشوشة، فكان بينهم جميعاً
ما كان! لحظة واحدة تنطوي على شقيقاتها الفارقات! يتقدم فيها
صانع الفخار وهو صامت، ولسانه يتمتم بكلمات مبهمّة، أمره الجلاد:

"مُدَّ يدك اليمنى.."

فمدّها، فقطعها وألقاها أمامه، فلما وقعت على الأرض، أخذ
إبهامه وكتب مكرراً كلمة واحدة، في مزيج الدّم والتراب:

"الحق!"

وأمره مرّةً أخرى:

"مُدَّ يدك اليسرى.."

فمدّها، فقطعها ولما وقعت على الأرض، كتبت وسطاه:

"الحق!"

ثم أمره:

"مُدَّ رجلك اليسرى.."

فمدها.. فقطعها، ثم قال "اليمنى" فقطعها، وسمع النَّاسِ صوت الخزين يهتف:

"المحبة أولها حرق، وأوسطها غرق وآخرها قتل!".

ثم حَزَّ الجِلاَد رأس صانع الفخار الأكبر، وأحرق جسده وأعضاءه المقطوعة، في كومة واحدة، وألقى برماده في نهر البلدة القديمة.

وتجمع أولياء البلاد الأسيرة، عند جبل بعيد، سيُعرف بعد عشرات السنوات، بجبلِ الأولياء، وبكوا بكاءً شديداً، مُرّاً، وقرروا خراب البلاد الأسيرة، لكن طيف صانع الفخار، فج العتمة ولوّح لهم وهو يقول:

"لقد سامحت" ..

ثم غادر..

كلمات مثل (مغادرة)، (رحيل)، (انفصال)، كانت تكتسب عند الخزين و(نينيا) أو أي عاشقين آخرين، قسوة لا حد لها، وتأخذ معنىً مختلفاً، كالغدر والخيانة والقتل..

كل شيء يتمزق الآن، حتى الذكريات تبدو غامضة، وأمل اللقاء مرّة أخرى أو العودة، يبدو كحلمٍ بعيد، هائم في حرارة مشاعر مضطربة.

داخل كليهما، كانت تصطبغ ذات الأسئلة، إذا قَدِّر لهما أن يلتقيا مرّة أخرى، هل كانا يجدان البلدة القديمة ذاتها، تلك البلدة التي غادرها كلاهما، إلى اتجاه مختلف؟ هل هي نفسها تلك البلدة الوادعة، عند منحدر النّهر، حيث يتفرّع منه الجاسر؟

هل هي.. هي بأبراج حمامها، ورائحة طين جروفها وإعصارها الصيفي، الذي يحمل في نواته غضب غبار البلاد الأسيرة كلها! ليلقيه على عتبات البيوت الطين والقش، فيكظمه الأهالي! أن كل شيء مثلهما يغادر إلى الأبد!

المغادرين.. المغادرين الذين بقوا على قيد الحياة، بعد أن وصلوا راجلين، أو على ظهور دوابهم، أو أولئك الذين رست بهم الفُلك، في قلب الصعيد، كانوا يعلمون أن داخل هذه الغابات، يعيش أحفاد أسلافهم الذين ظلوا عبر التاريخ، يتسللون إلى هنا قبل كل جلاء..

احتضنت هذه الغابات عبر مراحل التاريخ المهمشين، وكل الهاربين من الظلم والقهر والاستعباد، كما احتضنت المنفيين والذين لم يحدّ عشقهم للحرية حد.

كان غبن كل هؤلاء وأولئك، يتراكم عبر العصور، وأرواحهم تصبح ككرات لهب مدمرة، لو أُطلقت من عقالها على البلاد الأسيرة، لأحرقتها شبرًا شبرًا..

في هذه اللحظة بالذات، التي رمى فيها الفُلك مراسيه، جسد لهم صانع الفخار نفسه.. خرج من قلب النهر حوله التماسيح، وأفراس النهر وسمك البلطي العملاق، والحوريات صويحاته الوفيات، جميعهم خروا ساجدين على الماء، وعندما رفعوا كانت السماء قد صفت، وتلاشى الغبار العالق في الفضاء، واختفى البعوض والناموس والدُّباب الأخضر، وبدا لأول مرة ضوء الشمس هادئًا، وريًا ولطيفًا!

قبل عشرات السنوات، عندما لم تكن هناك سدود، على الجانب الآخر من الجدار العازل عند منحدر النهر، فاض نهر البلدة القديمة وطوّقها وكاد يُغرقها، فجاء النَّاس إلى الخزين، الذي مضى معهم وخاطب النهر:

"ارجع بحق الحق، إنها وصية صانع الفخار!"

فرجع!

□□□

ها أنا أهيّم لا ألوي على شيء.. أنا ود دبرق بن زرزور الدّوري، أقضي ليلتي حيث يتعب جناحي عن حملي، لم أعد آبه لشيء! منذ هجرت عشوشة أخذت أنغشى من أن لأخر تلك الأعشاش، التي تتاجر في المتعة، مثل عش نورسة الساحل، المتصل بسلسلة من الأعشاش، ذات المداخل المتصلة ببعضها البعض، والتي تجدها غالبًا محاطة

بغربان مثليون، بلابل سحاقيات، شحارير ودوري من عشاق الجنس الجماعي..

في هذا المناخ السيخ، تعرّفت على صديقي يمام.. وتساكنا معًا في عشي، فكلانا كان وحيدًا يعاني آلامه وحده! لكن سرعان ما ندمت على صحبته ومساكنته، فقد كان يمام فوضويًا، قدرًا لا يهتم بنظافته الشخصية، وعندما ينام يخج شخير جسي الهزيل خجًا، وكانت كل عاداته نقيضة لعاداتي.

في إحدى الليالي تجاوزت الساعة الثانية عشرة منتصف الليل، دون أن يظهر يمام، نمتُ وأنا أشعر بشيء من القلق، فكرتُ في أنه ربما يكون قد تعرض لمكروه!

ظللت مستيقظًا إلى أن سمعت زقزقته عند الفجر، وأحسست بحفيف أجنحة، ونقر منقار خارج العش.. وحين أطلت، وجدته محنيًا على الغصن السميك عند مدخل العش، خلفه طيف لم أتبينه في البداية.

لوهلة لم أصدق عيني، إذ كان طيف حبيبتي شحرورة، نظرت إليهما مذهولًا! كانت كعادتها يفوح من ريشها مزيج رائحة القمبيل والريحان البري، وقد بدت مخالفا على ضوء الفجر، نظيفة، لامعة وريشها مستويًا بعناية لا تخطئها العين!

لم تكلف نفسها عناء تحيتي، ركت بعد حركة التفاف مسرحية في زاوية من العرش، ثم شرعت تخلع ريشها، تكشف عن خصرها المستفز.

"الآنسة شحرورة"

قال يمام وهو يشير إلى الركن حيث أنام:

"ستنام هذه الليلة هنا، إنها متعبة قليلاً".

"في ركني على ريش النعام؟".

"نعم"

تركتهما غاضبًا دون أن أنبس زقزقة واحدة، وظللت أحلق في سماء البلدة، حتى انقضت سحابة النهار؛ فالتمسست شجرة اعتدت ارتيادها، أسترق النظر من النافذة التي تطل عليها، ورأيتها..

رأيت هيلدا تدخل إلى الحمام، فانسربت من النافذة، لأحط على كوة الحمام.

كانت خيوط الماء تسيل على جسدها المتحفز، الذي على وشك الانتفاض، فيما كانت تعبث بجسدها تحت الدش، ويدها تنزلق وجادين ينفجر عن شهوته، راسمًا خريطة للمدينة المفقودة على جسدها المرتخي.. ثم خرجا متكئين على عريهما.. فطرت محلقًا في

سواء البلدة أنتقي نافذة أخرى، فقاداني جناحي إلى مبنى الاعتقال
السري..

زقرقت من نافذة إحدى الزنازين، التي اعتدت إنفاق بعض
الوقت عليها، فرأيت المعتقلين، أحصيتهم.. ربما زاد عددهم عن آخر
مرة..

رأيت أحدهم في جلسته نفسها التي أراه عليها دائماً، مقعياً
ككلب في ركنٍ قصي، ورأسه بين كفيه، وزقرقت مرةً أخرى مصوبواً،
وقبل أن يرد أحدهم غادرت كوة الزنزانة أرفرف أمام وجوههم
كالمعتاد، وفي المساء عدت إلى عشي أملاً أن يكون صديقي يمام
وشحورته قد غادرا إلى غير رجعة!

انزويت في ركنٍ قصيٍّ من العرش أتلصص على المكان الموحش
الذي خلى منهما، وأنا أتخيل انزلاق جسميهما في ريش النعام.. ربما
كانا عاريان، أو مرةً أخرى يخلعان آخر ريشة تستر عريهما.. لم يكن ثمة
صوت أو طيف.. لم أتبين سوى الرائحة المميزة للشحرورة، والتي لا
تزال عالقة بأنفي!

لكنني كنت لا أزال أحس بهما يندسان في ريش النعام، طردتُ
هواجسي وانزويت في ركني ساحباً على جسدي المنهك، حزمة من ريش
الدجاج البري، ثم تمددت.. كنت مسهداً فلم أستطع النوم طيلة
الليل، وربما نمت فقد شعرت بوجودهما.. الشحرورة لم تتكلم (ربما
تكون نائمة)، لكن يمام كانت تصدر منه زقزقة متأوهاً.

غادرا عند الظهيرة، وخلال ذلك الوقت كله لم يتبادل تغريدة واحدة، خلّفت الشحرورة وراءها مرّة أخرى رائحتها المزيج التي سكنت قش العش قشة فقشة.

حين صرت وحيداً، غطيت على نفسي مدخل العش، ورحت أتمشى في فوضاي واضطرابي، وأزقزق في غبن وغضب دون توقف.

وأخيراً، مع بداية الغروب، عندما لم يبق في عشي أي أثر لرائحتها النفاذة.. تمددت مرّة أخرى في ركني المفروش بربش النعام، كانت كل ريشة تصر على أن تحكي لي بالتفصيل ما جرى! فيما بدأت الريح تعصف بصخب في الخارج.

بعد بضع ساعات سمعت رفيف أجنحة يمام، في البداية ظننت أنها الريح، ثم بدأ المطر يهطل؛ فرميت بنظري خلال قش العش، ورأيت الناس يمرون راكضين وهم يحاولون درء المطر عن أنفسهم، وحدثتني نفسي أن أطيّر في هذا الجو المكفهر.

كانت الأرصفة والدكاكين مضاءة، لا تخلو من سابلة وزبائن يهرولون، وامرأة عجوز تحاول الاحتماء بمظلة على طرف الشارع، وكلب يركض مسرعاً، وقطة تموء مبتلة وهي تدخل الدكان المقابل، وسكران يمشي على الطريق بخطى متعثرة، شعرت بشيء ما يشدني إليه، وسمعت أحدهم من الجهة المقابلة للشارع ينادي عليه:

"المريود... المريود".

التفت ناحية الصوت، ثم رفع رأسه متطلعًا حيث "ركوت"، كما لو أنه يعرف أنني أقف هناك، أراقبه، لا بد أنه قال شيئًا، فقد رأيت شفتيه تتحركان. بعد ذلك استمر في خطاه المترددة، كثيرة التعرج، والتراجع، والتشكك، والتعثر.. كان يبدو خائفًا!

حين اجتاز المريود الشارع، فجأة توقفت عربات العسس المألوفة.. خرجت من الشوارع المتقاطعة لتحاصره في شبه دائرة، ونزل منها عسس برشاشاتهم القصيرة، أخذوا يهتفون فيه بصوت واحد:

"ثابت.. ثابت مكانك".

فعدت إلى عشي، وأنا اشعر بأنني أغرق في هذا العش، الذي بدا لي، الآن، باردًا وكبيرًا جدًا لوحدي، ومن خلال قش العش أخذت أتابع ببصري العربة التي أقلت المريود، وخطر لي أن اطيير فوقها وأرى أين يأخذونه.

واصلت عربات العسس ابتعادها، وسط حشد من مدرعات الجنكوز، التي كانت تنزلق بعنف فوق المطر الذي بلل التراب فجعله زلغًا.

حلقت فوق العربة، التي تقل المريود تمامًا، وانخفضت بجناحي إلى نافذته، استدار ونظر إلى مبتسمًا وهو يومئ برأسه، كأننا صديقان قديمان.

يُحكى أن تاجرًا زوج ابنتيه: واحدة لفلاح، والأخرى لصانع فخار..
وبعد عام سافر الرجل ليزور ابنتيه، فقصد أولاً زوجة الفلاح، التي
استقبلته بفرح. وحينما سألتها عن أحوالها، قالت:

"زوجي استدان ثمن البذور، واستأجر أرضًا وزرعها.. فإذا
أمطرت السماء، فنحن بألف خير، وإن لم تمطر فإننا سنتعرض إلى
مصيبة!".

فتركها وذهب لزيارة ابنته الأخرى.. زوجة صانع الفخار، التي
استقبلته بفرحٍ ومحبة. وفي جوابها على سؤاله عن الحال والأحوال
قالت:

"زوجي اشترى ترابًا بالدين، وحوله إلى فخار، ووضعه تحت
الشمس ليجف، فإن لم تمطر فنحن بألف خير، وإن أمطرت فإن
الفخار سيذوب وسنتعرض إلى مصيبة!".

عاد الرجل إلى زوجته التي سألته عن أحوال بنتها، فقال لها:

"إن أمطرت الطمي خدك ونوحى، وإن لم تمطر الطمي خدك
ونوحى!".

هذا هو حال صانع الفخار مع البلاد الأسيرة.

□□□

لدى استيلاء الحاكم العام على السلطة ذات فجر بعيد، أعلن في بيانه الأول، أنه سيحوّل البلدة إلى جنة أرضية، ينعم فيها أهالي البلاد الأسيرة بالرخاء والرفاهية والسلام.

حتى أن بإمكان الذئب أن يتآخى مع الحمل، دون ريبة، فينام الحمل قريّر العين هانها.

ولم يمض سوى وقت قليل، حتى ذهبت كل وعود الحاكم العام أدراج الرّياح!

فقد تتالت كوارث الطبيعة، واجتاحت الأوبئة البلاد الأسيرة، تحصد الأرواح دون رحمة، واشتعلت الحروب في دار الريح والصعيد ودار صباح، وأصيب النَّاس بالفزع وفقدوا صوابهم.. إذ ما عادوا يجدون ما يأكلون، أو قطرة ماء يشربونها، بعد أن تقلصت وجباتهم اليومية إلى وجبةٍ واحدة!

وكان العالم.. كل العالم يعرف بأن شعب البلاد الأسيرة، أصبح على عهد هذا الحاكم.. شعبًا من المشردين والمطاريد واللاجئين والجياع!

فأخذوا يرسلون لهم كل أنواع الإغاثات، من طعام وعصائر وخيام وأدوية، لكن ظلت الأخبار كما هي لم تتغير!

فحار أهل الخير الطيبون في الجوار والعالم الواسع! وأرسلوا عيونهم إلى البلاد الأسيرة، ففوجئوا بأن كل شيء متوفر:

الأكل والشرب والعلاج والأموال.. لكنهم لم يجدوا شعب البلاد
الأسيرة.. كان شعب البلاد الأسيرة قد اختفى؟!

□□□

"لقد أحرق العسس صانع الفخار في فناء الكنيسة العتيقة!"

فُتِل صانع الفخار بذات الطريقة، التي أُعِدِم بها أسلافه، من
حاخامات وقساوسة كنيسة البلدة القديمة، في الأزمنة الغابرة!

إذ صلبه عسس الحاكم العام الجنكويزي، على صليب من
خشب "اللעות" سيئ الرائحة وأشعلوا فيه النار!

بعدها بسنواتٍ قليلة.. عندما بدأ بعض الأهالي يفيقون من
هول الصدمة، جعلوا من يوم مقتله على ذلك النحو، ذكرى سنوية.

كما اتخذت كنيسة البلدة القديمة، من هذه الذكرى بداية
لتقويم جديد، أطلقوا عليه "تقويم ود أم جبو"، الذي بمرور الوقت
أصبح تقويمًا لإحياء ذكرى شهداء الإيمان، المنادين "بفصل الدين
عن الدولة".

ولا يزال هذا التقويم يستعمله المزارعون في برية البلاد الأسيرة
الواسعة، لتتبع تغيرات الفصول الزراعية، وكذلك في التأريخ
للأحداث العظيمة "كسنة نجع النَّاس لديارسافل.. أو عندما ضرب

تمساح "أب كبلو اللّية" أو عندما ضلّت القرنطية طريقها من التّهر إلى زنديه، فسقتها فداديات (البريزية) المريسة" ..

وهكذا تغلغل التقويم الجديد في كل المناشط الاجتماعية للبلدة القديمة.

"لقد أحرق العسس صانع الفخار في فناء الكنيسة العتيقة!"

في اللحظة ذاتها التي كانت روح صانع الفخار تصعد إلى السماوات العلى، كان الخزين يجلس على "بنبره" المعتاد ذاته، الذي ظل يجلس عليه منذ عشرات السنوات، كلما غشى أنداية "مستورة كحل الليل".

بينما جميع من في الأنداية سُكارى يتداعون ويحكون كلامًا غير منتظمًا، عن أمجادهم الضائعة في هذه البلدة الضائعة..

إذ يتهدد التوم ود أب قرن وهو يغني وقد هاجت به الأشجان:

"حليل موسى يا حليل موسى..

حليل موسى الأمو جاموسة

حليل موسى اللي الرجال خوسة

ما بيأكل الملاح أخضر..

ولا بيشرب الخمر يسكر..."

فيقاطعه ود الزين:

"أقيف يا أختينا.. حليلو في شنو؟ زول لا بياكل الملاح الأخضر، ولا
بيشرب المريسة يسكر، تقولوا حليلوا؟! حليلو في شنو؟! والله
عجائب!"

ثم يتهد وهو يضيف:

"والله أيام زمان يا عم.. يا عم منو؟"

"الخبزين"

"والله أيام زمان يا عم الخبزين الواحد كان يشرب أربعين عبار في
اليوم، وما يسووا ليه أي حاجة.. إنت عارف جبارة الهمباتي ده، أبوه
لما مات خلا لهوشي وشويات.. قروش زي الهم في القلب.. عليّ الطلاق
ضيعهم كلهم على الإخوان.."

فيقاطعه صوت سابل السترم بعيد:

"على الإخوان ولا على الفداديات ستات المراس.. قلة عقل
وقلة رأي.."

فيرد الهمباتي:

"كله ما مهم.. المهم الرجالة.. عليّ الطلاق تاني كان ورثت.. تاني
أضيعهم.. أفرقهم وأعدم الملين.. المهم الرجالة.."

فيقاطعه سابل السترمرة أخرى:

"زمن خاين. الصرفت عليهم دم قلبك، على اليمين هسه لما
يشوفوك في الشارع، يفوتوليك الدرب.. سلام الله ما يدوك ليهو..".

فتثور مواجد الهمباتي ويتنحج:

"تف يا دنيا تف.. وحياة الحرام أنا كنت أحرق في اليوم جنيه أو
جنهين مريسة ومزة بس!".

فيأتي صوت ود الزين غاضبًا:

"يا زول أوزن كلامك.. أنا الأجعص مني منو؟!".

ثم ينشد:

"يا مهدية حكمك ما بقالي*

سويت العبد في راسي دلالي

يطير أب رقعة يسكن في الضهاري*

ويجي التمباك محمل بالرحالي

ونشق السوق نعلب في السجاري*

ويقح شرموطنا بينات الجراري..".

وكان سابل السترينتبه للتو فيحتد غاضبًا:

"أوزن كلامك إنت يا ود الكلب"

فيرد عليه ود الزين ورزاز المريسة يتطايير من فمه:

"كلب أبوك أنا يا بلاع الدّمم.. عليّ الحرام نسيبتك كان ما
لحقتني كنت... أنا أخوك يا أم زمام".

ويحاول أحدهم أن يدوبي فيوقفه آخر:

"قلنا ليك ألف مرّة ما عايزين دوبايا.. عايزين دلوكة.. اضربن يا
بنات..".

فيقول آخر:

"آي والله.. خصوصًا كان ضربتها الخادم ديك".

"ها يا زول ها.. الخادم دي المرة الفاتت كسرت الدلوكة"..

كل هذه الثثرات كانت تدور حول الخزين، الذي كان كأنه غير
موجود، فقد كان محلّقًا في سماوات بعيدة، ليس بإمكان أحدهم
ممن حوله التحليق معه فيها!

كانت أصوات السُّكاري ترتفع وتنخفض.. ونذر معركة بين ود
الزين والهمباتي تلوح في أفق الأنداية، التي بدأت الشمس من خلال

فتحات سقوف رواكيبها، تلوح في الأفق البعيد، تجرر أذيالها نحو
المغيب..

هتفت عشمانة السقاية بوجه ود الزين والهمباتي، وهي تغمز
لسابل الستران يسكت:

"الروقة يا جماعة.. قلنا الروقة..".

فيتدخل حمد الأعرج:

"أيوة الروقة.. عليّ الطلاق هسه ألبع واحد أشق راسو.. ولا شنو
يا الخزين؟".

ويلتفت نحو الخزين، الذي لم يكن يسمعه.. بينما يزمجرود
الزين في وجه الهمباتي:

"يا زول أبعد دمك مني.. أنا كعب.. أنا بطل..".

فيتدخل سابل الستر:

"أقيف يا زول، حرّم تقعد، الحكاية شنو؟".

"الزول ده حرّم أنا شايفو عشرة عشرة من أمبارح..".

"عملت ليك شنويا نصاب يا سلباط؟".

"عليّ الطلاق يا جماعة، الزول ده نحننا أولاد كاس مما قمنا..
وأكلنا العيش والملح مع بعض، إمبارح انتهز عدم جيتي الإنداية، فقام
غمز للرسالة صاحبي".

"لا حول الله! الزول اتلوم لوم كبير.. عيب عليه والله".

"عليّ الحرام أنا ما غمزت ليها هي، أنا غمزت لحسنة، وكان
مكضبيني اسألوها".

"في ذمتك الكلام ده صحي يا حسنة".

"هي الذمة حارة، النصيحة كدي.. غمز لينا نحننا الاتنين".

"كذابة. حرم كذابة. يا خادم يا سكرانة يا ما عندك ذمة".

"يا زول إنت غلطان.. اطلب السماح من الراجل.. والعفو لله
والرسول.. إنتوناس أخوان وأولاد كاس".

□□□

اتكأت منصوره على "الصريف" حول القطية التي تتوسط
الدَّار، وهي تجيب أمها في حزن ولوعة:

"لقد قتلوا صانع الفخار".

لحظتها كل ما مرّت به في حياتها مع صانع الفخار، كان يتراءى أمام ناظرها، وكأنها وقائع حدثت للتو، فيما كانت روح صانع الفخار تحلق، عابرة سماء الدّار، تلوح بابتسامة آسية في وداعة الحزن!

في تلك اللحظة المجيدة، الغارقة في حُجب التاريخ البعيد، والتي أيقن فيها (صانع الفخار الحفيد) أن منصوره هي المرأة التي ظل يحلم بها، بعد أن فرغ وقتها على يدي معلمه "الخبزين ود طبله" من تلقي كل ما يحتاجه المرء من معارف ضرورية بالحب والنساء، عندما تفتق مراهقته للتو، عن غرائزها وتباغته بنهما.. فقرر خطبتها، فابتسم الخبزين ابتسامة شاحبة ولم يفُه ببنت شفة.



إحداهن قالت: "إذا حلمت كرجل بصانع الفخار، فهذا لا يشكك في رجولتك، بل ينبئ عن سيرتك ومسيرتك في العمل المتواصل الدؤوب، الذي سيعود بأفضل الثمار، أما إذا كان الحالم أنثى، فهذا يعني أنها تنشغل بأمور تسعدها".

الفخار هو مهنة الأحلام، في صراعها التليد مع الصبر على ألم لا حدود له! لذا كان ألم منصوره في تلك الأمسية البعيدة، الغارقة في ظلمات التاريخ، والتي سبقت بليلة واحدة، تلك الظهيرة المكفهرة بمقتل صانع الفخار.. ألمًا خارقًا للعظام والشرابين والأوردة.. تخلل روحها وتغلغل في مشاعرها، التي لم تهدئها صلواتها يومًا!

فقد طبع حزنها في تلك اللحظة، بالطابع الخاص نفسه لحزن صانع الفخار! فصارت نهباً لهموم مهمة، لا تدري مصدرها، حرمتها النوم، فنهضت من عنقريها وأشعلت لمبة الجاز، التي أحاط "قيطانها" سياج من الزجاج الدائري الشفاف، وأخذت تتجول جيئةً وذهاباً.. هنا وهناك، في فضاء "راكوبة" القطية الصغيرة التي تتوسط الدار، المزروبة "بالطرور والشوك والقنا والعيدان والشراقن".

بينما أمها الغارقة في نوم عميق، كانت هي الأخرى متناهشة بالكوايبس التي تخترق أحلامها من آن لآخر!

كان في داخلها يتولّد تدريجياً إحساس غامض.. متوتر.. من فرط هيمنته على كيائها.. شعرت بجلدها يتنمل.. وكل شعرة فيه تنبت على نحو مباغت منتصبه لوحدها!

خرجت منصوره من قطيتها إلى فناء الدار، تستنشق شيئاً من هواء الليل المنعش، الذي لم يبعث فيها ما ألفتته من النشوة، التي اعتادتها عندما يداهما الأرق ويتأكلها السهاد، في مثل هذه الأوقات من السنة، عندما تكون الشمس حامية طوال اليوم.

فنسائم الليل عادة ما تنبئ منصوره، أن فجر الغد ستشرق فيه الشمس بنفس حنانها وشجنها وحنينها الأزلي المفقود!

كانت تلك الليلة إذن، ودوناً عن كل الليالي التي مرّت على حياتها، ذات سموم لافح وهواء راكد، بطريقة غير مألوفة في البلدة القديمة، حتى أنها لاحظت ظهيرة ذلك اليوم، عندما ذهبته إلى سوق ود أم

جيو، المجاور لمقابر البلدة القديمة، أن شيئاً ما في وجوه النَّاس
وأشكالهم مختلف عن المعتاد! لكنها لم تستطع تحديده!

وبدت لها أوراق الشجر متساقطة بكثافة، والتي عندما تحملها
ريح "السموم" تنشر في الجور ورائح عطنة، هي مزيج من رائحة البول،
والغائط، والدخان والحريق!

كما لاحظت أن طيور السمير المهاجرة، التي حطت على سماء
البلدة، جاءت في غير موسمها! وقد أشاعت في نفوس الأهالي الطيبين،
شعوراً غامضاً بالقلق! بدا لها كل ذلك ينذر بشيء كارثي غريب وشيك
الوقوع!

في طريق عودتها إلى دارها، أنستها أفكارها المبلبلية، إلقاء التحية
على الخزين ود طيلة، عندما مرت به وهو في مجلسه المعتاد، يتحلق
حوله النَّاس، ليستمعوا إلى حكاياته بنهم غريب! بدا لها هو الآخر،
نهماً أكثر غرابة عن المؤلف!

سارت منصوره ببطء حتى دخلت مسكنها..

ما بالننا نقفز قفزاً ونتعجل الحكيم؟! سنأتي لاحقاً لنحكي عن
أحلامها وأحلامه، التي شطرها من شطرها شطرين، تاركاً الفخار
وصانعه، وذاكرة الطين المشتركة بينهما في حيرة تامة، إزاء اللامبالاة
العامة، التي احتلت فضاء البلدة القديمة على نحو مباغت!

في مراجعة جادين جانو الحفيد، لما حفلت به منحوتات صانع
الفخار الجد، اكتشف أن الطين هو القاسم المشترك، بين كل
حضارات البلاد الكبيرة.

فأهم السمات الثقافية المميزة لهذه الحضارات، كانت أو اني
الفخار، التي على درجة رفيعة من الصقل، بالإضافة إلى الأواني
الفخارية الأخرى، التي على هيئة حيوانات وأشكال مختلفة.

كذلك صناعات الحديد والخناجر النحاسية، والمصنوعات
الخشبية المزخرفة في أشكال بديعة، والملابس المخيطة على قلانس
جلدية، والمصنوعات الخشبية المطعمة بالعاج والمايكا وعناقيرب
الخشب و"القد" التي تتميز بمساند من الصوف للرأس.

تقول النبوءة.. التي اكتشفت مبنوثة في إحدى مخطوطات
صانع الفخار الأكبر، أن روحه وعقله سيولدان مرة أخرى بعد مئات
السنوات، في صبي يافع يدعى جادين، وهو ليس من سلالة صانعي
الفخار، لكنه مغرم مثلهم بتشكيل الطين!

كما أن روح وجمال حبيبته (الكيرا) هي الأخرى ستتمص روح
(ست البنات) حبيبة المختر، الذي كشفت عنه النبوءة!

وتضيف النبوءة.. أن قتل صانع الفخار الحفيد سيكون علامة
فارقة، في تاريخ وحياة البلاد الأسيرة، التي ستجد نفسها على حافة
الهاوية، عند مفترق الطرق من كل أجزائها! عندما يصاب سكانها
فجأة، بداء اللامبالاة!

إذ يصبحون فجأة متبلدي الأحاسيس ومداهنين.. باردي
المشاعر وثقلاء مملين! جميعهم: زعماء العشائر والقبائل.. أصحاب
العمل والعمال.. أهل الثقافة، والفن، والأدب، والسياسيين.. رجال
الدين وشيوخ، ومريدي الجماعات، والطرق، والطوائف.. أرباب
المعاشات.. الشباب والأطفال والنساء.. المزارعين..

حتى أن المواليد الجدد، كانوا يولدون بلا ضمير.. يخلون من تلك
البراءة التي عُرفوا بها، هكذا جميعهم في لحظة من اللحظات الغارقة
في الأسى، المتلفعة بالعمتة، استيقظوا من نومهم، فوجدوا أنفسهم
يفتقرون لصفاتهم التي توارثوها من أسلافهم عبر آلاف السنوات.. لا
مبالين بما يجري حولهم، دون أن يجدوا تفسيراً لما حلَّ بهم؟

باستثناء جنكوز الطبقة الحاكمة من آل المقدس سرُّه وتور
الجر والترح، لم ينجُ من هذا الداء حتى الزوار العابرون لسهل البلاد
الأسيرة، في طريقهم إلى مكان ما، في عالم يستشري فيه داء الإحباط
والقنوط!

لكن كان هؤلاء العابرون، ما إن يتمكنوا من عبور البلاد
الأسيرة، حتى يغرقوا في الأسئلة، حول حقيقة الطبقة الحاكمة، التي
تزعم أنها الفرقة الناجية، فتقودهم الأسئلة إلى شكوك لا أول لها ولا
آخر!

في تلك اللحظة بالذات ولد جادين جانو (الصغير).. الذي عند
مقتل صانع الفخار، كان لتوه قد فرغ من تعلم المشي والكلام!

إذن في تلك اللحظة التي كان شعب البلاد الأسيرة كله، قد أصيب بهذا الداء الكريه، لم يكن ثمة ناجون، يشيدون حضارة الجنس البشري، في هذا الجزء من العالم المنبوذ من جديد! فقط شخص واحد (وفقًا للنبوءة) هو شخصيًا.. جادين جانو!

□□□

كان حاكم البلاد الأسيرة سعيدًا جدًا، بحالة اللامبالاة والتبذل العام، الذي أصاب شعبه، لكن مع ذلك لم تفارق مزاجه تلك العصبية، التي عُرفت عنه، بل رغم سعادته المتوهمة، كان في حالة أشبه بالجنون والخبل، وهو يحادث حراسه حينًا وزوجاته أو وزراءه حينًا آخر!

"هل أنا عصبي؟ عصبي! ربما.. لكنني لست ضعيفًا!"

فيجيبه العسس الجنكوي ذات الإجابة المعتادة:

"كلا يا سيدي. والحق يُقال إن حواسك في كل يوم يمر تصبح أكثر حدة!"

وتهمس زوجاته العديداً بحنوٍ مفتعل:

"أنت لست ضعيفًا.. بل تزداد قوّة أكبر في كل يوم يمر يا حبيبي" ..

في الحقيقة كان وجه الحاكم العام، عاجزًا عن التعبير عن مشاعره الخاصة، بتلك التيارات المحتدمة في مكان ما داخله، إذ كان

في كل يوم يمر يدوي أكثر فأكثر وتقلص ملامحه.. ومع ذلك كان يقاوم قدره بشدة.. متشبثًا بالحياة، رغم أنف كل قوانين الطبيعة، والزمن وواقع البلاد الأسيرة الرث البائس.

وكان لتكريس نزعة الحياة التي تشبث بها دون فكاك، يتزوج في كل عام، ليخفي سرًا شائعًا في أرجاء البلاد الأسيرة!

إذ كان الحاكم العام في الحقيقة مثل كثيرين من جنكويز نظامه وحزبه، مشكوك في رجولته! لذا كان يرسل الخطاب، إلى كل أنحاء البلاد الأسيرة، ليأتونه بعروس بكر صغيرة! ظانًا أن شعبه لا يعرف السر، الذي يحاول إخفاءه!

وكان في أرجاء البلاد الأسيرة.. خصوصًا إنداياتها، من حين لآخر، يتجدد الجدل حول معنى الدعارة في دولة نظام الحاكم العام!

وبينما يركز رواد الإندايات، على الدعارة كتجارة سلعتها المرأة وزبائنها الرجال، كان الأفندية يركزون على دعارة الرجال، فكل النوعين كانا قد تفشيا في نظام الحاكم العام الجنكويزي!

لذا بات مألوفًا في الإندايات أن يحكي أحدهم عن علاقاته بنساء يكبرنه سنًا، بعضهن زوجات لمسؤولين كبار في الدولة الجنكويزية الباطشة..

"كل شيء يتم في السر".

وينبري آخر:

"إن دعاة الذكور أكثر سخاءً مادياً".

فيعلق حمد الأعرج:

"أياً يكن الأمر، فإن دعاة الذكور، مثل دعاة النساء، لا فرق".

لم تعد البلاد الأسيرة كما كانت.. أضحى هناك شبكات تقوم بتسهيل لقاء الذكور والإناث والذكور والذكور والإناث، وقد ساهم في ذلك بعض زوجات المسؤولين الجنكويزين، حتى أنهم لم يعودوا يأبهون كما في السابق، أن تتم في سرية تامة، وفي فضاءات مغلقة وحيث ضيق، بعد أن أصبحت مع سياسات الخصخصة والتحرير "قطاعاً كبيراً متمدداً كالأخطبوط".

"حكى لي زميلي في المطبعة، كان ينتمي للحزب الحاكم، أن البلدة القديمة، وحواضر البلاد الكبيرة عرفت مؤخراً، جماعة من كبار المسؤولين في الحزب الحاكم، دأبوا على تنظيم جلسات حميمية وسهرات بحضور زوجاتهم.

فكانوا من حين لآخر ينظمون ليالي حمراء من نوع خاص، وممارسة مجون نادر جداً.. كانوا يعقدون لقاءات بالتناوب في مقر إقامة أحدهم، وتعد الولائم وتداركؤوس الخمر المستورد ولفافات البنقو وأنواع المخدرات الأخرى، في جو تسوده الموسيقى الغربية والشعبية، فترقص الزوجات مع أزواجهن ومع غير أزواجهن، وكلما

نالت الخمور من العقول تزيد التصرفات مجونًا، يحضن مسؤول زوجة الآخر، وزوجة هذا الأخير تختلي بزوج أخرى، هكذا دواليك..

وأكد لي أن هذه الجماعة دأبت على تنظيم مثل هذه السهرات الفريدة من نوعها، وهي جماعة تضم بعض المتنفذين في الميليشيات الأمنية الجنكوزية، ومندوبين ورؤساء بعض المصالح الحكومية" ..

وهكذا -لصرف الشعب عن هذا السر الخطير- مضى الحاكم العام تورالجر الثالث، ناشراً الرذيلة في الشعب، ممعناً في إدارة البلاد الأسيرة، على هواه! مفتعلاً الحروب والمجاعات والأوبئة، ليشغل الناس عن قضايا البلاد الحقيقية.

ثم أخذ يقولب الشعب، بعد أن دمر قيمه المتوارثة، فحوّل جزءاً كبيراً منه إلى مجموعات ترأقب بعضها البعض، وترأقب في الوقت نفسه ما تبقى من الشعب الذي أخذ يجمعه في مؤتمرات بين آن وآخر، يختمها باعتقال البعض وتعذيبهم ثم حرقهم في أفران ضخمة، صنعها خصيصاً لهذا الأمر!

وكان يزجي وقت فراغه بلعب لعبة الحرب، في الصعيد ودار الريح، فيغتصب جنده النساء، بعد أن يتم قتل الرجال وحرق قضاطهم وزروعهم! ونهب مواشيهم وتشريدهم في قبل الأرض الأربعة!

وما أن يبلغه جنده بهذه الأخبار، حتى يبدأ في شرب البنقو، الذي يغليه له طباخه الخصوصي، في براد صنع في الشرق الأقصى البعيد، خصيصاً لهذا الغرض!

وبعد أن "يُسطل" تمامًا يضحج وينام، تطارده كوابيس وخيالات الأرواح المعذبة لضحاياه.. وضحايا الحكام السابقين من أسلافه، عبر عصور وتاريخ البلاد الأسيرة، فتنتابه الحمى ويئن.. يتأوه.. ويعرق جسمه حتى يبتل فراشه بعرقه، الذي كانت له رائحة البول.

مع ذلك كان الحاكم العام حساسًا جدًا! فعادةً عندما يتعب من فعل كل هذه الأمور، يختلي بنفسه، حتى يظن الناس أنه قد فارق الحياة، فتسكن أرواح ضحاياه في مرقدتها وتهدأ. ويشعر الشعب بالتحول لبرهة، لا يلبث أن يقطعها الحاكم العام، باقتحام وحدتهم وعزلتهم، بالإعلان عن أحد المؤتمرات الفاشلة!

كان القادمون من تخوم دارالريح ودارصباح، العابرون للبلاد الأسيرة. قد ترسخ في اعتقادهم، أنهم كالعادة سيرون شعب سهل البلاد المشرد، نائمًا في الدروب الوعرة، والطرق الضيقة غير الممهدة، التي تحيطها البرك والمستنقعات من كل جانب.. وهم يحملون ببلاد سعيدة، تخلو من الحاكم العام وعسسه وجنده وحزبه ومليشياته الجهادية!

العابرون ترسخ في ذاكرتهم أيضًا مشهدًا مكررًا: حزب الحاكم العام يطارد الأهالي والمشردين، بالهراوات والعصي والأسلحة، ويشغتهم ضربًا وقتلًا!

كان الحاكم العام بوجهه القبيح، وصوته الأجش وعيونه المركبة، التي تتحرك في كل اتجاه، كعيون الذباب الأخضر.. هو

المطلوب رقم واحد لعدالة العالم، بين حكامٍ قلائل. فالعالم نادراً ما عرف حكاماً متهمين بجريمة الإبادة الجماعية، وجرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية في حق شعوبهم!

الزعيم الطائفي الذي آلت إليه مقاليد حكم سهل البلاد الأسيرة، قبل أن ينقلب عليه الحاكم العام، ذات فجر مكفهر.. في البدء رحب به الأهالي كثيراً، واستبشروا بعهده خيراً، وكانوا يستمعون إلى خطاباته المملة، لساعات طوال في محبة.. وقتها كان الخزين المستلقي طوال الوقت على "برشه" في "الراكوبة" أمام "كرنكه"، لا يفتأ يحذرهم من وعوده الزائفة، إلى أن انقلب عراب الجنكويز عليه وعلى بطانته لفسادهم، ونصب الحاكم العام بدلاً عنه. الذي ما إن مكّن لنفسه، حتى نسي كل الوعود والتعهدات، وفعل بشعب سهل البلاد الأسيرة ما لم يفعل الحداد، فأخذ الناس يتذكرون من وقت لآخر، تحذيرات الخزين القديمة، بعد أن تبين لهم أن لا خير في هذا أو ذلك!

وبعد أن عاد المطاريد والنازحين واللاجئين، من المنافي البعيدة بعد عشرات السنوات، وكونوا في البلاد الأسيرة مستعمرةً جديدة، لإحياء ذكرى الأسلاف.. عادت البلاد الأسيرة مرةً أخرى سيرتها الأولى! اللامبالاة!

"البلاد الأسيرة ميئوس منها!"

يقول أحدهم فيما يفرق الجميع في الصّمت! كانت اللامبالاة في سهل البلاد الكبيرة، تتفشى، فتشمل الشجر والحجر والطير والحشرات والزواحف، وعموم الحيوانات.

بل وطالت حتى رموز التاريخ الوطني الوفيات منذ عهد سحيفة! فقد تراكمت وقائع أخطائهم، وانفجرت بوجه الجميع، لتمزق أراضي السهل. دون أن تنتاب أحدهم حيرة، أو ذهول، أو أسى، أو ندم، أو أي نوع من أنواع المشاعر الإنسانية أو الوطنية فقط: اللامبالاة والتبلد!

كأن سهل البلاد الأسيرة ليس سهلهم، وكأن البلاد الأسيرة ليست بلادهم؟! كانت أحاسيسهم قد تعفنت، وأرواحهم قد نخرها السوس، بعد أن قوليم الحكام العامون والزعماء الطائفيون المتعاقبون، فلم يعودوا يشعرون بشيء!

كانت المهمة الأولى لصانع الفخار فيما بعد هي: أن يبرهن لنفسه ولهؤلاء، أنهم لا زالوا يملكون إحساسهم بما يجري حولهم، وأن بإمكانهم أن يهتموا بهذا الذي يجري، فيتمكنون من إصلاح حالهم وحال السهل!

لطالما خطر على بال صانع الفخار، منذ بدأ يعي حالة اللامبالاة والتبلد العام، في طفولته الباكرة، سؤالاً ملتبساً. أيهما اللامبالي: هو أم سكان سهل البلاد الأسيرة؟ وهل اللامبالاة وباء أم حالة عارضة أو متأصلة كالصفات الثابتة؟ أم رغبة للتعويض النفسي، عند الفشل

في الإجابة على أسئلة البلاد الأسيرة الوجودية المحيرة، التي يطرحها
واقعها كل يوم؟

الفضاء العام الذي كان يحيط بأحد صانعي الفخار المتعاقبين
في كل عصر، حتى لحظة وقوعهم في قبضة عسس الزعيم الطائفي أو
الحاكم العام، أقل ما يوصف به أنه معقد ومتشابك الوقائع
والأحداث، بدءًا به هو نفسه: جادين جانو.. بهويته المصاغة في
مجتمعه المحلي، في إطار الهوية العامة للبلاد الأسيرة، والتي كانت
أشبه بمجموع هويات متباينة نشطة، داخل حقل الهوية العامة، غير
محددة الملامح!

ثم نظام التعليم العام، والمعارف التي استقاها من الخزين ود
طبله.. وهكذا، كانت تفاعلات كل هذه العناصر داخله، لا محالة
تفضي للأسئلة، التي شغلت باله وبال كثيرين غيره في البلاد الأسيرة
والجوار عبر العصور!

كان عندما لا يجد إجابة، يشعر بالإحباط، ويبدأ مرة أخرى جادًا
في البحث عن إجابات، تهدئ توتراته!

بعد أن آل أمر البلاد الأسيرة إلى الطوائف والجماعات
الجهادية.. سطع نجم صانع الفخار، كخطيب أريب بين مفترقات
الطرق والأسواق الصغيرة ومنعرجات الدروب.. وأصبح له مريدون في
كل مكان يحل به.

ولم تكن حكومات الطوائف والجماعات الجنكوية، قادرة على فعل شيء ضده سوى اعتقاله، حتى تلك اللحظة التي انقلب فيها عراب الجنكويز على كل شيء، ذات فجر معتم! معلناً عن بدء عهد تور الجر الثالث الحاكم الجنكويزي العام!

وقتها كان صانع الفخار في ذروة كفاحه، ولم يعد بحاجة لارتياح خلوة الخزين ود طيلة، التي فارقها منذ وقت بعيد، بعد أن نهل من معارفه ما نهل..

وهو الوقت نفسه الذي فجرت فيه الجماعات والطوائف الجنكوية المخلوعة من قبل العراب والحاكم العام، حروباً أهلية طالت كل أطراف سهل البلاد الأسيّة، ووضعت صانع الفخار بمواجهة أكبر أسئلة حياته..

سؤال البقاء والاستمرارية على قيد الحياة، فما أن تم إطلاق سراحه حتى هرب إلى غابات دار الرّيح ووديانها، يحرض الأهالي على الثورة ضد الحاكم العام، الذي كان بدوره قد أعلن عن مكافأة كبيرة لمن يرشد عنه.

وقتها كان التعب والإرهاق قد نالا منه، بسبب هروبه المتواصل، وعدم تناول ما يكفي من طعام وشراب، فسقط مغمى عليه في دغل من أعشاب التّال، تحت إحدى أشجار القمبيل، على أطراف إحدى بلدات دار الرّيح.

وعندما أفاق، وجد نفسه مغلولاً بالسلاسل وحوله الجند،
وجموع الأهالي محتشدين! وفي الليلة نفسها بعد أن صُلب وأُحرق،
وظافت روحه بأركان وفضاء البلدة القديمة. خسف القمر، فخرج
الأهالي يقرعون على الطبول يطلبون الرحمة!

وثارت ضوضاء داخل إنداية مستورة كحل الليل والإندايات
المجاورة، فهرع حمد الأعرج يسأل عن الخبر:

"الحكاية شنويا مستورة يا خيتي".

"ماك سامع؟ القمره "خنقت" والله الزمن ده الناس عمايلن
بقت كعبة، خلوزيارة الفقرا وخلوضبح الكرامة".

فقاطعها حمد الأعرج:

"أبدأ والله السبب منكن أنتن ديل ستات المريسة".

"سجبي! كيف مننا نحننا يا حمد؟".

"أنتن الزّمن ده قاعدات تزيدن المريسة مويه، عشان كدي
القمره خنقت، والله يستربعد ده على الشمس".

في النهار التالي لخسوف القمر، لم يكن للإندايات سيرة سوى ما
داربين السرة كحل الليل وحمد الأعرج.

ووفقاً لما ذكره زميله عامل المطبعة للخبزين، أن خسوف القمر كان بسبب الفساد الذي استشرى في البلاد الأسيرة، وأخذ يتآكلها كما تأكل النار الهشيم!

وهكذا أخذ يحكي له ما يدعم رأيه على خلفية تاريخه السابق في الحزب الحاكم، أن زوجة أحد الضباط الكبار تعرفت على أحد زملائه من الجند، الذين يستدعون لحراسة مناسبات الضباط، وتطورت علاقتها به، فأصبح في غياب زوجها في مناطق العمليات، يعاشرها معاشرة الأزواج، تارة في بيتها خلصة، وأحياناً كثيرة خارجه.

وكان من الواضح أنه يتقاضى مبلغاً مالياً عن "مجهوداته الوطنية" فظن أن من حقه طلب المزيد، بعد أن عانى الكثير في مهمته كحارس مناسبات، ومكلف بمهام أخرى ترهقه كثيراً! الأمر الذي أدى إلى حدوث مشاجرة بين العشيقين!

تأثرت زوجة الضابط بالحادث، وغضبت غضباً كبيراً مستطيراً على خليلها، فانقطع حبل الود بينهما، إذ شعرت بأنه خدش "كبرياءها" ولم تنسَ له ذلك، فتم العثور على جثته المخترقة بعدة رصاصات، في السوق الصغير، خلف مقابرود أم جبو!

وكالعادة في مثل هذه الحالات، قُيِّدت القضية ضد مجهول!

□□□

بعد أن يفك حمد الأعرج ريقه بعبار مريسة، من أنداية السرة كل صباح، يتوجه إلى سوق ود أم جبو، حيث يلتقي برفاقه "السُّكاري" وتدور بينهم الحوارات المعتادة، إذ يقول عبد الله أب فاطر:

"وين يا زول عليّ الطلاق، الليلة حليلة الفدادية، عندها مريسة تسكر الحجر، مريسة حمرة زي عين الديك.. ها ها ها...".

"أقيف يا زول عليّ الطلاق، أنا بشرب لي أربعين سنة، ما شفت زي مريسة مستورة كحل الليل، حرم فكيت الرِّيق بفرد قرعه، وهسه شايف النَّاس رهاب رهاب، وأضاني طرشت تب".

"ها زول، حرم تندم، وتقول ضراني، ارح معاي".

"عليك يمهل وعلينا يسهل – كل زول بيعجبو الصارو".

ويقضي حمد الأعرج حاجياته في السوق سريعاً، وهو يسعى لإرسال ابنه بها إلى البيت:

"الأمين أخوي وصل معاك الولد ده البيت".

"خبارك إنت متأخرليه؟".

عايز أمشي أجز الحمار، وبعدين أغشى الفقرا دايرلي حجاب".

"أوعك يا عم حمد من الهناية ديك..".

ويمرريده على لحيته وهو يقول مستنكرًا:

"أبوك يا محمد بعد العمرده كلو".

"خير، في وداعة الله، اركب يا ولد في الكارو".

وبينما يمضون باتجاه الحلة يتخذ هو طريقه متسللاً، إلى إنداية السرة كحل الليل، في أطراف البلدة القديمة، بعيداً عن سوق ود أم جبو.

كلمة "ود أم جبو" التي اقترنت باسم الكنيسة العتيقة عند مقرن النيلين، هي في الأصل كلمة "الجب" ذات نفسها، بمعنى البئر!

فود أم جبو فضلاً عن كونها محل مورد ماء أهالي البلدة في العصور القديمة، فهي في العصور الحديثة مقابر أولئك الأسلاف، الذين كانوا يردون إلى بئرها للتزود بالماء!

وهكذا بعد أن غادر المستعمرون الإنجليز سهل البلاد الأسيرة، أصبحت ود أم جبو وصفاً دقيقاً لهذه البلاد الفاشلة!

على أنقاض المعابد النوبية القديمة، أنشأ يهود البلدة القديمة، على أرض ود أم جبو معبداً كبيراً، حلّت محله المباني الجديدة التي توسعت فيها، كنيسة المقرن العتيقة، بعد أن هجر اليهود البلاد على عهد الحاكم العام تورالجر الثاني، بُعيد الاستقلال المزعوم، إثر تأمر الطوائف والحكام الجنكويز العامون، حتى على مقابرهم! التي قاموا

بمسحها عن ظهر الوجود، وأنشؤوا محلها الحوانيت والمطاعم
ومحال المرطبات!

إذن كنيسة ود أمجبو التي أنشأها الخزين الجد، والتي انطوت
ذاكرتها على ماضيها النوبي واليهودي، في ماضيها العريق، نهضت على
مساحة واسعة من أراضي ود أم جبو، وتوسعت أكثر، على عهد
الحاكم الروماني نبيرون في القرن الأول، بعد صعود المخلص يسوع
بأسبوع واحد، إلى السماوات العلى.

مخطوطات صانع الفخار تقول، أن ود أم جبو هو اسم الخزين
الجد نفسه! قبل أن يُعرف باسم الخزين ود طبله، في ذلك الزمان
السحيق، والذي كان قد كتب أول مخطوطة، ظلت مرجعًا مهمًا عن
تاريخ البلاد الأسيرة في العصور اللاحقة، ما يفسر كثير من العادات
والتقاليد، التي لازمت أهل البلاد الأسيرة حتى الآن!

كتعميد المختونين والعرسال والنساء في أربعين النفاس، في
النيل. والاحتفاء بسعف النخيل، ورسم الصليب بالكحل على جبين
المواليد الجدد.

فقد كان لكنيسة ود أم جبو، تأثيرًا كبيرًا على لاهوت البلدة
القديمة، وفي تكوين شخصية سكانها، بتكريس قيم التواضع والمحبة
والتسامح والعمل الجماعي.

إذ كانت مدرسة قائمة بذاتها، كما أشارت مخطوطات صانع
الفخار، حتى أن قديسين كثر من كل أرجاء المعمورة، كانوا يحرصون

على زيارتها، لتبادل الأفكار مع قساوستها. حتى أن بابا الفاتيكان، الذي يتم اختياره بعد موت أو عجز كل بابا، كان لا يُنصَّب ما لم تتم مراجعة كنيسة ود أم جبو.

برع قساوسة كنيسة البلدة القديمة، في إنشاء الترانيم وصناعة اليقين، وتأليف الموسيقى وابتكار الأياقين والأنسجة، والمشغولات اليدوية.

الأمر الذي قاد مدرسة الكنيسة، إلى تطوير اللُّغة "المروية" من لغة شفاهية إلى لغة مكتوبة، تزامن مع ذلك اتباع أسلوب في الحفر على الخشب، ليستخدمه المكفوفون في القراءة والكتابة، قبل ميلاد السيد بر ايل بأكثر من خمسة عشر قرناً!

وهكذا مع تحويل اللُّغة "المروية" إلى لغة مكتوبة، ظهرت العلوم والآداب، التي تلغفها العالم بشغف، قبل أن يقف طويلاً، ليتأمل الطابع المأساوي لحياة البلاد الكبيرة، عبر التاريخ!

كما عبرت عنه فنون مدرسة كنيسة مقرن النيلين! وهكذا كانت كنيسة البلدة القديمة، تشعر دائماً بتفويض إلهي، كي تُصلح الخلاف المعقد بين كل الكنائس والأديان.

وقد قيل عن أساقفة البلدة القديمة، أن التحوُّلات التي طالت البلاد الكبيرة، بدأت مع إهمال القساوسة للاعتكاف والتعبد والتأمل، وانشغالهم بالاجتماعات واللقاءات بالسياسيين أسلاف الثلاثة الكبار!

إذ بدأ دور البلدة القديمة الريادي عندئذ يتقلص، كانت بداية هذا الأمر عندما بدأ الحاكم العام الجدد، التدخل في شؤون الإيمان بالكنيسة، وقد كان رد أساقفتها في البدء:

"أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله".

منذها بدأ الحكام العامون يخوضون حربهم المقدسة، لثني الكنيسة عن عزمها، فاعتقلوا وعذبوا ونفّوا قساوسة كُثُر من الذين لم يقابلوا ذلك بمقاومة عنيفة! إذ كانوا يحرصون على التكرار في مخاطبة رعاياهم:

"رُدَّ سيفك إلى مكانه، لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يُهلكون".

وهكذا -منذها- مضى الحكام الجنكويز العامون في حربهم الشرسة، التي بلغت ذروتها في اتهام كنيسة البلدة القديمة، باتباع تعاليم الديانات السابقة لليهودية، بالتالي الهرطقة!

ومضوا يخططون لاحتكار الدين لأنفسهم، بدلاً عن القساوسة، ليتمكنوا من تكريس حكمهم في البلاد الأسيرة إلى الأبد! وقادتهم أفكارهم الشريرة إلى أن هذا لن يتحقق، إلا بأن يُبطلوا القوانين المستقلة للكنيسة، التي كان قساوستها يصرون على أن تكون منفصلة عن الدولة.

وبالرغم من كل هذا، فقد ظلّ قساوسة كثيرون مخلصون
وثابتون على إيمانهم بفصل الكنيسة عن السياسة.

وإذا كان ما حدث مجرد مؤامرة من الحكام العامّين، الذين
تعاقبوا على البلاد الأسيرة، كعقاب للكنيسة، لرفضها الخضوع
السياسي. فمن الجانب الآخر أحنى قساوسة كُثُر رؤوسهم لعاصفة
الحكام العامين! وأصبحوا علماء لهم، يبررون لهم الجور والاستبداد
ويمدونهم بالذرائع! بل وحوّلوا الكنيسة إلى أضخم مركز استخباري
شبهه التاريخ من خلال "الاعتراف!"

فخر كنيسة البلدة القديمة كان دائمًا هو الاضطهاد، الذي بدأ
قبل قرون طويلة، عندما استُشهِد القديس المُبَشِّر الخزين الجد، بعد
جَرّه من قدميه عن طريق جنود الحاكم العام، الذين جاؤوا به كل
شوارع البلدة القديمة وزُقاقاتها. مفتتحًا عصور اضطهاد القساوسة
وأهالي البلاد الأسيرة المؤمنين! على يد كل الحُكَّام العامين المتعاقبين،
لدرجة أن قساوسة كُثُر، كان يتم تعذيبهم ونفيهم حتى على يد أخوتهم
المسيحيين.

عندما بدأ العرب يتو افدون للمرة الأولى، وبعد أن احتلت
جيوش الأتراك سهل البلاد الأسيرة في المرة الثانية، على عهد الخلافة
المصرية، ومن ثم تلى ذلك احتلال البلاد الأسيرة للمرة الثالثة..

أعلنت هذه الأحداث أن ثمة تغييرات كبيرة وحاسمة، على وشك
الحدوث في البلاد الأسيرة!

بهدهوء، ولكن بانتظام، تغيّر وجه البلاد الأسيرة، وأصبحت غاليبتها إسلامية في مطلع القرن التاسع عشر.

وهكذا وجد المسيحيون وأصحاب الديانات الأخرى، أنفسهم مواطنين من الدرجة الثانية! في سياق التهميش العام، الذي تم عبر سلسلة معقدة من التحالفات وعلاقات المصاهرة والإجراءات والقوانين، عبر تاريخ البلاد الأسيرة.

في الأيام التي تلت مقتل صانع الفخار، والاختفاء الغامض للخرزين، كانت البلدة القديمة لا تزال متلفعة بكل أنواع المشاعر الغريبة! فقد بات هواؤها مختنقًا وتربتها قاحلة، وأشجارها جافة متساقطة الأوراق.. سماؤها قاتمة، وكل شيء فيها يفوح بروائح التحلل والعطن..

حتى النَّاس في دروبها الضيقة، كانوا بدلًا عن التحايا، يتبادلون السباب والشتائم البذيئة المقذعة، كما أن أسراب الطيور المهاجرة، التي جاءت على غير موعدها - فقد كان الوقت نهاية الصيف "القيطوني" - الذي اتسم به هذا الجزء من كون مهدد بالزوال.. غيرت رأيها وهاجرت مرّة أخرى، عائدة إلى موطنها!

كان ذلك الصيف الصاهد، الذي شهدت إحدى ظهيرات المنصرمة، مقتل صانع الفخار، عطنًا.. متسخًا.. مخيفًا وغريبًا إلى أقصى حد، دونًا عن كل فصول الصيف، التي تعاقبت على البلدة القديمة، عبر تاريخها العريق.

حتى أن مقابر "ود أم جبو" المجاورة للسوق "الورا"، في الصبيحة التي تلت مقتل صانع الفخار، فوجيء بها الأهالي كلها منبوشة! أرماس أسلافهم من الموتى الأماجد، قد اختفت في غموض تام! دون أن يجدوا لذلك تفسيراً!

واللافت للنظر أن ثمة تغييراً لم يطرأ على حياة الإندايات، بل ازداد عدد روادها الذين كانوا يجيئون من كل فجج البلدة القديمة، لفض اكتئابهم مؤقتاً، بالغزل في نساء وبنات بعضهم البعض، عندما يبدأ أحدهم بمدح المريسة والمزّة، فيعقبه الآخر:

"ينصر دينك يا مريسيلا.. أهوكده ولا بلاش".

فيرد عليه آخر:

"هو في حد يقدر يعمل البن زي مريسيلا".

فيقاطعه آخر:

"الكلام موش البن.. الكلام مريسيلا ذاتها.. أحب الله.. ديني أنا يا الأعرج".

فيبتسم جبارة الهمباتي ويقول:

"أموت أنا في مريسيلا، وخدود مريسيلا، وعيون مريسيلا".

وسابل السترزوج مريسيلا جالس لا يتفوّه بشيء، كأن شيئاً لم يكن! فتقطع عليهم عشمانة الساقية حديث الغزل والضحك العالي والخفيض، الذي تشوبه خشخشة الصدور، بتأثير تدخين القمشة والتبغ، الذي كانوا يلفونه أثناء جلستهم، بأيادٍ راعشة، لا تعرف أصابعها الناحلة الثبات، إلا عندما يمسك أحدهم ورقة لف التبغ، ويبرمها وأعضاء شلته من حوله يتصايحون:

"أهو كودي انعل أبو البحاري ذاتو".

"وحياة سيدي الحسن تلف واحدة تاني".

"الله يحرق ميتينكن، أنا مكنة، أمّا كلام فارغ".

"ينصردينك، إنت مكنة ونص".

"بطل الكلام الفارغ يا شيخ، وأدينا كاس".

ويبدأ التوم ود أب قرن في سرد حكاية جديدة من حكايات البلدة القديمة، فبعد أن يتنحج يقول للأذن المشرعة الظمأى لهذا النوع من المسامرات:

"حرم الناس الليلة في سوق ود أم جبو، ما عندهم كلام غير الخفير وحرمه".

"ياتو خفير؟".

"خفيرنا السابق للجوار، قبال تعديلات الحاكم العام الأخيرة".

فيضحك حمد الأعرج:

"حرم كلامك صاح، سفاراتنا برا كلها مع نظام السجم ده
أصبحت خفارات.. المهاجرون من البلاد الأسيرة في الغربية، يموتون
من الجوع والبرد وما في خفير واحد يجيب خبرهم".

"البرا براهم الكاتلهم الجوع والبرد.. النَّاس الجوه ذاتهم كل يوم
يومين جثتين وتلاتة من الجوع".

"الملعونة ما لها؟".

زوجة الخفير المعني عُرُفت بين ملاً البلدة القديمة، أنها عندما
تزور البلاد الأسيرة في الإجازات، لا ترتدي سوى اللباس المحتشم،
الذي يليق بزوجة مسؤول يمثل بلاده في الخارج، لكن بمجرد أن تضع
قدمها خارج البلاد الأسيرة، تنسلخ عن جلدها، وتعود امرأة أخرى غير
تلك التي تعرفها البلدة القديمة!

فعند مصب النهر في الجوار، تتفنن في ارتداء الثياب القصيرة
الضيقة الشفافة، التي تكشف كل شيء دون أن تخفي أي شيء!

وحسب أحد العاملين في الخفارة، الذي بأمر من زوجها كان
يرافقها لحراستها وخدمتها وتسهيل كل شيء لها، يقول التوم ود أب
قرن:

"كانت تتصرف وتبدو أكثر "تحرراً" و"انفتاحاً" من العاهرات، بل تقوم أحياناً كثيرة بممارسات لا تقبلها العاهرات! إذ تقضي سهراتها في العوَّامات التي على النيل والكباريات والملاهي المشهورة باستقبال المثلثيات، كما أنها تفضل الزهة في بعض الشوارع التاريخية في وسط البلد، التي تعتبر مكاناً مفضلاً للمثلثيات، وفي جُعبتها سلسلة من المغامرات في أكثر من مكان".

ومع ذلك كانت دموع نساء البلدة القديمة الشريقات، عندما تطرق مثل هذه الحكايا أذونهن، تفيض مرارة، وتصبح نهراً هادراً، لم تكن دموعهن مجرد دموع فحسب.. إذ كانت تحدث في الأرض جروحاً غائرة، أشبه بمسارات جديدة لشعب البلاد الأسيرة، الذي هيمن عليه الحزن العام!



في تلك الظهيرة التي أُحرق فيها صانع الفخار في فناء الكنيسة، كانت زوجات الحاكم العام العديداً، باستثناء صغراهن، تفقن للتو من نوم عميق.

كُنَّ لحظتها يشعرن، كما لو أن سعادة الدنيا كلها تجمعت في أحلام ليلة البارحة، التي هي ذكريات سرّية مع عشاقهن العديدين.

وهكذا مضت صغراهن، تدغدغ صدرها وفخذيها بحنو، ليندفع الدّم حاراً في شرابيينها، فترتخي أعصابها المشدودة، مع

الفرقة المكتومة لغصن النيمة، التي ناءت بأسراب الطيور المهاجرة،
التي كانت قد قررت الرّحيل!

لحظتها امتد شعاع الشمس، مخترقًا غشاوة السماء الغائمة،
عابرًا خلال نافذة غرفتها، فأحدث في نفسها، تأثيرًا غامضًا، أشعل
فيها المخاوف والهواجس والظنون.

إذ بعد ذلك خيم على فضاء البلدة دخان أسود! انبعث من
مكان مجهول في الفضاء الرّحيب، فشدت صغرى زوجات الحاكم
العام صدرها بتكاسل، تحاول أن تقاوم في ثناؤها المتكرّر، بقايا
نُعاسها، دون أن تكثرث!

كان كل شيء حولها لا يزال عبثًا بأحلامها الليلية الجريئة:
الضوء الخامل، وحفيف أوراق شجيرات الجهنمية الحمراء، في باحة
القصر الجنكويزي.. خريز الجدول الذي تتكى على شفته، غرفة أحد
الحراس من عشاقها السريين، و آثار البلبل التي جفت على أوراها
الممتلئة!

الطريقة التي أُعدم بها صانع الفخار، رسمت في أذهان الأهالي،
استفهامات لا أول لها ولا آخر، كان في مقدمتها طبيعة علاقتهم بهذه
البلاد.. البلاد الأسيرة.

وهكذا قادت هذه الأسئلة دار الريح، لتصبح مستودعًا ضخماً
للسلاح، وفيما شهده ذلك العصر أيضًا، الانتعاش الرّهيب والرواج
الكبير لهذه التجارة.

كما شهد شيوع القتل والحروب والدمار والخراب، الذي طال كل شيء، بعد أن امتلأت دارالريح بالسلاح، حتى فاضت بكل أشكال وألوان المليشيات والغزاة من دول الجوار!

كان واضحًا أن دارالريح تتعرض لمؤامرة محلية – إقليمية ودولية مريكة! فقد أصبح الأهالي الذين فتهم الحاكم العام، ليقتلوا بعضهم البعض منقسمين.. يميزون أنفسهم وفقًا لهوياتهم وسحناتهم وعقائدهم الضيقة! لم يعودوا يشعرون بانتمائهم جميعًا لسهل البلاد الأسيرة، بذات القدر!

في مثل هذا المناخ اللعين، اكتشف الخزين الحفيد، أن الأشكال المتعددة للجماعات والطوائف، قد استغلت لتحقيق مصالح إثنية وطائفية، تتعلق بمجموعة الحاكم العام والثلاثة الكبار وأقربائهم في الجماعات والطوائف.

وهكذا كانت تلك نقطة البداية للخزين الحفيد، لبحث في الإجابة عن سؤال الذات، وهكذا اعتزل الخزين الناس، واختفى في وديان دارالريح، ولم يظهر إلا وجند رئيس الوزراء الجنكويزي المخلوع، يعتقلونه على خلفية تظاهرات عارمة، قادها صانع الفخار!

لكن ما أن أُطلق سراحه بُعيد الانقلاب على رئيس الوزراء الجنكويزي، حتى مضى يحرض الأهالي إلى أن نال منه التعب، واعتقله الانقلابيون!

عندما بلغ صانع الفخار الحفيد سن المراهقة، حاول أن يُجيب عن الأسئلة التي كانت تقضُّ مضجِع الخزين، ولمعرفته بأن شعب البلاد الكبيرة لا زال يؤمن بالدجل والشعوذة، قام بكتابة رُقي وتعاويز ب(العمار) على لوح خشبي، ثم غسله في النيل بالمريسة، ليُشرب منه أهل السهل!

ثم فعل الشيء نفسه في وديان دارالريح، حتى يتأكد أن ما من كائن حي في البلاد الأسيرة، إلا وقد شرب من هذه الرقي والتعاويز المذابة في المريسة والماء!

وهكذا فوجيء ذات صبيحة باكرة، ريانة بدعاش طمي النيل و"همبريب" الوديان، المشبع برائحة "السعدة والسناسنا وصندل الردوم)" بأرض سهل البلاد الكبيرة من أقصاها إلى أدناها، ترتج وتزلزل بإيقاعات هي مزيج من "الكمبلا والمردوم والتم تم والجراري والشاشاي)" و..

إيقاع واحد ومتوحد يتخلله غناء عذب بكل لُغات البلاد الأسيرة! كأن السكان كأنهم يفيقون للمرة الأولى منذ آلاف السنوات!

ومنذ أن سمع جادين جانو بتلك النبوءات البعيدة، التي هي في الحقيقة جزء من تاريخ البلاد الأسيرة وسيرتها ومسيرتها، ظلت تداهم ذات الخواطر، التي كانت تداهم صانعي الفخار، كما كان هو يتخيل خواطر صانعي الفخار!

فصانع الفخار الحفيد منذ طفولته الباكرة، هيمنت على حياته تلك الرؤى الغامضة، عن الحياة والموت والكون وأسئلته المعقدة!

الرؤى ذاتها التي راح في غيبوبتها لثلاث أيام عندما أنجبته أمه للتو- وقتها! - فانهمك تحت وطأتها -عندما كبر- مشكلاً الطين، أشكلاً لا تخلو من نبوءاتٍ محتملة، أسهمت في تشكيل حياته وحياة من حوله، بل وحياة "جادين جانو- الحفيد"، الذي كان يتراعى له خلال الوجوه الملتفة حول الخزين!

من عاداته التي لم يخالفها يوماً واحداً منذ طفولته الباكرة، حتى اللحظة التي سبقت مقتله حرقاً، في ساحة كنيسة "البلدة القديمة"، المطلة على مقرن النيلين.. هي وقوفه عند كل صباح.. عند شروق الشمس، متأملاً سهل البلاد الأسيرة الرسوبي المنبسط، على مد الأفق المترامي، في انحداره الطفيف.

كان يرى بعين خياله كل المرتفعات التي تتخلله: الغابات، الجبال، التلال، القيزان والجروف الصخرية..

كان يرى النيل الذي يشق السهل قسمين، كفلقتي نواة واحدة، فيقول في نفسه كم هووس بالفخار:

"ترى كيف تكونت هذه التربة، التي سقتها دماء الأسلاف عبر آلاف السنوات؟! التربة الرملية في إقليم الصحراء وشبه الصحراء، في السافل ودار الريح؟ وهشاشتها وافتقارها للخصوبة.. ترى كيف تكونت هذه التربة الطينية في الوسط ودار صباح، الغنية بالخصوبة

والجمال الأسمر.. ترى كيف تكونت هذه التريبات الحديدية الحمراء،
منخفضة الخصوبة والقابلة للتدهور في الصعيد.. وهذه التريبات
الرسوبية السلتية على ضفاف النيل.. وأشقائه من أنهار دائمة
وموسمية.. ووديان تتخلل سهل البلاد الأسيرة الواسع.. الممتد..
بخصوبتها العالية بسبب الطمي، الذي يجددها كل عام.. وهذه التربة
البركانية الخصبة في دار الريح، وما تمثله من لغز محيّر في عالم الطين
والخصوبة!!؟

يتهدد الخزين وهو يتجرع من برمة الأرياب، كأسًا مترعةً بالمريسة
مربوطة الزبد:

"كان صانع الفخار إذن مغرمًا بالطين وكل ما يتصل به!".

ويتردد في فضاء ذاكرته صوت منصورة:

"لقد أحرق العسس صانع الفخار في فناء الكنيسة".

ما أن تناهى إلى مسامع الخزين، خبر مقتل صانع الفخار، حتى
شعركان نفحة قويّة من اللهب، تشوي جلده وتحرق عظامه، لحظتها
فقط.. فقط لحظتها.. شعركم هو طاعنًا في السن.. ووحيدًا وبائسًا
إلى أقصى حد.

في الحقيقة الخزين الذي ما إن بلغ سن الأربعين، منذ عشرات
السنوات؛ حتى توقف تيار الزّمن، ولم يعد العمر يتقدم به ولا يومًا

واحدًا، يشعر الآن بنفسه، كقلعة قديمة قاومت كل أثار السنين، تهد وتهدم الآن.. الآن فحسب!

عاد بذاكرته إلى الوراء.. أيام صباه.. عندما ارتحل إلى دار الريح، لينهل من معارفها، وعاد بعد سنوات طويلة، فانتبه أهالي البلدة، الذين وجدهم قد طعنوا في السن، أنه كما هو لحظة فارقهم!

كأنه لم يلبث بعيدًا عنهم سوى يومًا أو بعض يوم.. كأنه خرج بالأمس فقط وعاد! ومنذها أخذ يلاحظ، الخُطى البطيئة لسنوات عمره، إلى أن توقفت باتناد عندما بلغ سن الأربعين!

الآن يشعر بأن كل السنوات، التي أغفلها الزّمن تتجمع في لحظةٍ واحدة، تخترق عظامه ووحدته وأساه! فيتقوس ظهره؛ يحدودب!

لم يتزوج الخزين ود طيلة مطلقًا كما كان شائعًا عنه، لكن في الحقيقة لم يكن ذلك صحيحًا! ربّما شاع ذلك بسبب نذره حياته لمريديه، الذين يتحلقون حوله كل يوم، لينهلوا من معارفه الواسعة، لا تغشاه الوحدة، حتى بعد أن ينفضوا من حوله، إذ يخلفون وراءهم أطياف حكاياته وأسئلتهم، التي يظل يسامرها، إلى أن يطل يوم جديد، فيجيء المريدون مرّة أخرى.. يلتفوا حوله.. كان مجلسه عامرًا دومًا بالأصدقاء والبصابين والعسس، والمتدينين، والمجاهدين المزعومين وأشباههم!

في اللحظة التي جاءه فيها خبر مقتل صانع الفخار، كان للتوقد أنهى ترتيبات زواج صانع الفخار مع أم منصوره، صرف المريدون

الذين تحلقوا حوله بإشارة من يده، واختلى بنفسه لحين من الوقت،
قبل أن يمضي إلى إنداية السرة كحل الليل، لا يلوي على شيء!

في اللحظة ذاتها كانت منصوره تستعيد قلق وأرق ليلة البارحة!
وتلك المشاعر الغامضة التي انتابتها.. الآن..

وعلى حافة الموت، تكشف كل المشاعر الغامضة عن
مكنوناتها، وفارقها ذلك القلق الذي استبد بها لوقتٍ طويل، بعد أن
تسلل إلى أعماقها، وأحكم حصاره على مشاعرها.

كان وجه منصوره يستحيل الآن، إلى كيانٍ جامد، ليس له
شبيه.. ليس بالإمكان عبره قراءة حقيقة ما يجول في خواطرها
الملتبئة، إذ كان وجهها لا يفصح عن شيء محدد البتة، مع أن كل من
رأها لحظتها، كان يعلم أنها تخبئ خلف جموده، آلام وعذابات من
المستحيل كبحها!

كما لو أنها قد حلت محل قلبها، وراحت تضخ في شرايينها الأسى
والعذاب، اللذان لا حدود لهما.

كانت منصوره تعلم أن من هو مثل صانع الفخار لا يخشى
الموت، وكذلك كانت تعرف منذ وقت بعيد، أن هذا اليوم آتٍ لا
محالة، وأن لا مفر منه.

"لقد فعل كل ما ينبغي عليه فعله".

همست وهي تعزي نفسها، في أنه لم يمض إلى حتفه، دون أن يخلف للقادمين آثاره.. المنحوتات التي خط عليها صانع الفخار رموزاً معقدة، هي الشفرة لهوية البلاد الأسيرة، والتي تم التواطؤ عليها من قبل الحكومات المتعاقبة المسماة وطنية، وغالبية أحزاب البلاد الأسيرة. وعدد كبير من المثقفين والسياسة وقادة الرأي العام، إلى جانب منظمات طوعية، وأحزاب دينية احتيالية، وطوائف اشتهرت باستغلال الدين في السياسة؟!!

جادين جانو المهووس بجمع أعمال صانع الفخار، وكشف أسرارها على الملأ، بدأ رحلة بحثه عن منحوتات صانع الفخار الأكبر.. المتفرقة في كل أنحاء البلاد الأسيرة، بالبحث عن ذاته والتعرف عليها، بحيث أصبحت ذاته هي نقطة البداية، لسبر أغوار سؤال الهوية المشفر في منحوتات صانع الفخار، التي في الوقت الذي خلى المتحف الوطني ودار الوثائق المركزية منها تماماً، تفرقت ما بين الخزائن الخاصة للسياسيين الفاسدين، ومتاحف العالم الواسع، لكون مهدد بالزوال في أية لحظة! نتيجة الحروب والأوبئة وكوارث الطبيعة، وفساد الحكومات الجنكوية واستبدادها!

أكثر ما لفت نظره.. تلك المخطوطات القديمة، التي تعود بتاريخها، إلى الوقت الذي كانت فيه اللُغة "المروية" هي اللُغة الرسمية للبلاد الأسيرة، إذ لم تظهر الكتابات بكلتا اللُغتين المروية والعربية، قبل منتصف القرن السادس عشر، وفقاً لمدونات صانع الفخار- الحفيد الذي أشار إلى كتابات ترصد التاريخ الاجتماعي

والعرفاني والطائفي على عهد سلطنة دارفاز، ككتاب طبقات الخزين
عثّام، أو مخطوطة كاتب الطلبة، أو طبقات المرفعين راجل الليل اب
كراعا بزا، وغيرها من الكتب القيمة والهامة، التي ترصد أوجه الحياة
المختلفة. خبأ صانع الفخار أسرارًا كثيرة في منحوتاته العديدة، عبر
كل سنوات عمره التي عاشها منذ الطفولة، حتى مات مختبئًا
ومطاردًا ومحترقًا في ساحة الكنيسة الكبيرة؟!

هذه الأسرار استعبر عن نفسها عبر السنوات، التي تلت مقتله
مصلوبًا ومحترقًا! كان صانع الفخار يستقي بعض موضوعاته في
النحت، بإلهام خفي من أنبياء غامضين! يتراءون له في الحلم.. في
الليالي التي يغيب فيها القمر، وتصبح أضواء النجوم شحيحة؟!!

فكانت هذه الأعمال بالذات تجيء مشقّرة برموز، هي مرجع
مباشر لإمالة اللثام، عما يريد أن يقول بالضبط في كل أعماله، ومن
نبوءاته التي راجت في العصر "المروي"، أن مملكة ستولد في سهل
البطانة، مرتحلة من موقعها الأصلي، وبالفعل بعد عشرات
السنوات، وبسبب البحث المتواصل عن المزيد من الطين الخصب،
نقلت "كرمة" عاصمتها من "نبته" إلى "البجراوية" جوار "كبوشية"،
بعد أن وضح أن منطقة "البركل" الصحراوية، لا تفي باحتياجات
السكان والحيوان، زيادة على ضيق الشريط الزراعي على النيل.

فالبجراوية مطلة على سهل البطانة، وهو سهل واسع، وأرضه
خصبة، وأمطاره نسبيًا غزيرة، كما أن مكنونات طين البجراوية
تحتوي على خام الحديد، خصوصًا في الصخور، بالإضافة إلى وجود

أشجار كثيرة، يمكن استخدامها، في إيقاد "كماين" صهر الحديد وصناعة الفخار..

"ليس في الأمر عجب!".

هكذا كان جادين جانو- الحفيد، يهمس في سرّه، عندما تنتابه الدهشة، إثر فك شفرة أي رمز من الرموز، التي حفلت بها مشغولات صانع الفخار، لكونه كان كُفئًا في علم الحركة، الرياضيات، التشفير، علم الخرائط، الرسوم والجمال.

كان صانع الفخار ولدى تأمله النيل، يفكر في حياة الناس ومعاشهم، في هذا الجزء من سهل البلاد الأسيرة، كيف بإمكانهم أن يحيوا دون النيل.. فهم ليسوا كأهل دار الريح، الذين تمتلئ وديانهم بمياه الأمطار والسيول المنحدرة عبر الصحراء من أعالي تبستي.. فهذا الجزء من البلاد الأسيرة.. النيل بمثابة شريان حياته، ودونه لا حياة لهم!

وهكذا أفضت به تأملاته لوضع خريطة متكاملة، لأماكن الاحتياطيات الجوفية، التي تفوق حجم مياه النيل، وتذخرها البلاد الأسيرة، كما خط مشاريع سدود على وديان دار الريح، لإحياء نهر هور القديم، الذي يربط دار الريح بالبلدة القديمة، بمحاذاة درب الأربعين، ليتخطاها حتى يصل دار الريح بدنقلا العجوز أيضًا!

"لا يبدو أن هناك حدودًا لعبقرية صانع الفخار!".

أول مرّة تعرف فيها "جادين جانو- الحفيد على صانع الفخار
الجد" عندما حدثه معلمه -الخبزين ود طبله- الذي عندما يتذكره
الآن.. في قيده بأغلال العسس، يرى نفسه عابراً الفناء الكائن في قلب
البلدة القديمة، يمشي بخطى متندة في الزقاقات الضيقة، بعد أن
يعبر السوق "الورا" ومقابر "ود أمجبو" ..

كان وقتها كأي طفل صغير متسخ ومعقّر بالتراب، يعبر بلدة
معزولة في الجغرافيا والتاريخ.. الله وحده يعرف كيف تكوّنت في هذه
العزلة الغامضة! السياسيون ليس لديهم وقت لمعرفة ذلك! هو وحده
-كما يعتقد في قرارة نفسه- يشارك الله هذا الاهتمام بالكيفية التي
جاء بها هؤلاء ليصبحوا عشوائيين، لا مبالين!

عندما تفضي به أفنية البلدة الضيقة، إلى زواياها المفاجئة
و"كوشها" يفارقه الإحساس بالاتساح! كان يشعر بنفسه نظيفاً جداً
مقارنة بما حوله من أوساخ!

وفي نهارات الصيف قد يستظل في طريقه بظل نيمة يتيمة، قبل
أن يواصل الماضي قُدماً، إلى حيث يسكن "الخبزين ود طبله"، الذي
عندما يصله -غالبًا- يجده يصارع انهيار "الكرنك" الذي يعيش فيه،
غير آبه لمواء القطط المرتعبة والكلاب المدعورة حوله.. والفئران التي
لم تعد تبالي بأي انهيارات حولها، بعد أن سارعت للاختباء عميقاً في
جحورها!

كان الخزين بوجهه المعروق، والعرق المتقاطر على جبينه،
كسيل تتخدهه سدود التغضنات، يحاول البحث عن ركن لم تطاله
ركامات الانهيار أو الحريق، "فكرنكه" دائماً في حالة انهيار أو حريق..
ومع ذلك دائماً هو هادئ ووقور كأن شيئاً لم يكن!

كل شيء فيه يتبدى نحيلاً حتى شفثيه المبتسمتين في لا مبالاة
كعادتهما.. يتحرك الخزين غير متعجل.. إذ سرعان ما سيبي ما تهدم
من جديد! فقد كان تجسيدا للحكمة الأزلية، التي وردت في نبوءة
صانع الفخار الجد:

"أنت من طين لتبني!"

عندما يتجمع الناس في "النفير" لمساعدته في إعادة بناء
"كرنكه" من جديد.. يسرد لهم، كيف تواجد في العالم الآخر.. ويروي
لهم عن الأرضة والسوس، اللذان تخصصا في هدم "كرنكه" كأنه
يحكي عن أمر معتاد لا غرابة فيه!

كانو يحبون طريقته في الحكى.. يأتونه من كل فج عميق.. من
الدروب الوعرة والشوارع الضيقة في البلدة القديمة، ومن الأحياء
وراء السوق "الورا" وتخوم مقابر "ود أم جبو"، بعضهم يجلب له
طعاماً وبعضهم يجلب ثياباً.. ويكتفي "الغيتون كيتاً فيه" بالسؤال:

"لطالما حكيت لنا عن أن "السوس والأرضة" هما ما يتسببان
في انهيار "كرنكك".. فماذا عن حريق "كرنكك" هذه المرة؟".

فيرد بهدؤ:

"إنه السوس أيضاً".

كان الخزين عادةً يجلس ليحكي للناس وهو عار الصدر، لكن مع ذلك لم يكن ثمة من ينتبه لعُريه أو كثافة شعر صدره! وكان دائماً أمامه صحن لا يخلو من شرائح "شرموط الضان أو الكجيك الجاف"، الذي يقضمه بين أن وآخر في تلذذ واستعذاب!

أحياناً يستلقي على جانبه في "البرش"، الذي يحرص أن يكون محاذياً "لبنبره" العتيق، الذي لا يحركه من أمام مدخل "الكرنك" تحت ضل "اللالوبة" المعمرة، التي بمثابة شاهداً على عصور متعاقبة للحياة والناس، في هذا الجزء من العالم المهموم والخزين!

أصدقاؤه وجلساؤه الدائمون، غير الوجوه الأخرى المتغيرة، ثلاثة: أعمى يحرص على ارتداء بدلة أعضاء الحزب الجنكويزي الحاكم، رغم أنه لا ينتمي لهذا الحزب، ومُقعد أباكم يعطي جلساءه الإحساس المزمّن بالقرف، ومدى اكفهرار هذه الحياة البائسة، وجادين جانو الحفيد بعقله الوقاد ونظراته الثاقبة، التي تشي بقدرتها على اختراق كل شيء تقع عليه!

يجلسون بالقرب منه مثل سلسلة، غير أمهين بمضايقة السابلة لهم.. أولئك العابرون من كل فجاج الأرض، وأيضاً إلى فجاج الأرض.. عندما يتوقفون عن المسير، لنيل قسط من الراحة وشرب شيء من "المريسة أو العسلية أو الكانجي مورو!".

كان جادين أحيانًا، يدون بعض الحكايات أو الملاحظات كيفما اتفق.. في أي شيء يجده أمامه يصلح للكتابة عليه، لكن في الوقت نفسه كان لا ينشغل عن مراقبة كوة "القطية" المجاورة.. حيث تسكن منصوره.. الصبية ذات القوام الفارع النحيف الأسمر، التي كانت ترمي بأذنها في مثل هذه اللحظات وتمدهما، تلتقط كل حكايات الخزين ونبوءاته.

المرّة الأولى التي رأى فيها جادين جانو منصوره، تكاد تكون مطابقة لأول مرة يرى فيها صانع الفخار الحفيد منصوره.. إذ كانت الشمس في كبد السماء. والبلدة غارقة في قيلولة غائضة، لا حدود لها، سموم هجير الصيف، جعل البلدة ساعتها، كأنها قوزرمللي ناي وبعيد عن كل شيء.. يغلي كآتون يحرق كل شيء، إلى درجة أن أحدًا ليس بإمكانه أن يتوقع، أن يكون بوسع أي كائن حي، أن يغيّر مصيره في هذه اللحظة بالذات!

كانت منصوره دائمًا ما ترتدي على كنفوسها ثيابًا بسيطة، تبدو غريبة للوهلة الأولى، إلى أن يعتاد عليها البصر! وكانت دائمًا ناعسة العينين كأنها لم تنام لقرون طويلة، وأكثر ما كان يميزها: إكليل "الريحان" الذي تضعه على رأسها، لامةً به شعرها الذي تركه حُرًا على سجيته دون مشاط!

يستدير جادين بوجهه الدائري الصغير، وملامحه الدقيقة، ولوهلة يحاول طرد الأفكار، التي تتحدّر من رأسه؛ فتثقل على بصره، يتراجع! فيما يهمس إليها صانع الفخار بكيانه كله، دون أن تنبس

شفتيه بينت شفة! فتهرع منصورة بكل تألقها.. تقطع المسافة بين
قطيتها ومجلس الخزين بسرعة الجن، وتجلس في الوسط بين جادين
وصانع الفخار، الذي لا يشعر لحظتها بأي غرور ذكوري!

إذ يكون وقتها محتلاً بالألق والغبطة والرضا التامين!

نساء القطاطي المجاورة.. العابسات السمينات العانسات
اللعيونات، يغرن من جمال منصورة! واللائي كنَّ "كيتاً" فيها، عندما
يعاشرن أزواجهن أو عشاقهن، يتخيلن أن من يعاشرن في هذه
اللحظة، هو صانع الفخار بشحمه ولحمه!

كُنَّ يضمرنَ لمنصورة كرهاً عميقاً، إذ كنَّ يشعرن باختلافها
عنهن، لكنهن لم يكن قادات على تحديد هذا الاختلاف!

وعندما يعين من التفكير، كن يتوهمن عشاقاً على صهوات
جياذ بيض، يتراكضون لإنقاذهن من أبراج خيالاتهن المرتفعة!

وكن يرين ظلالاً لحدائق يتوهمن أنها جنات الخلد، ويرين
أنفسهن حوريات، تجري في دوراتهن الشهرية رائحة المسك وليس
الطمث!

لولم تكن للخزين مثل تلك الحكايات العجيبة، التي غدَّى بها
عقول النَّاس، لما كانت لهن مثل هذه الخيالات الخارقة! ولما عشقن
الخوض في الحكايات المزعومة عن منصورة وصانع الفخار، في
الأماسي الطويلة للأيام، التي تلي مؤتمرات الحاكم العام! فما عدا

حكايات الخزين، لم يكن لهؤلاء النسوة البائرات، أي متنفس عن قسوة البلدة وقوانينها وتمييزها ضدهن!

سكان البلدة القديمة، كان موضوعهم الأساسي، الذي يتداولونه في ملتقيات أفراحهم وأتراحهم، هو علاقة صانع الفخار بمنصورة، وغالبًا ما شرعت بهذه الأحاديث، تلك المرأة التي يتنادم زوجها الآن مع إحدى البائرات، في السوق الورا، أمام جزارة السمك.

وربّما أن زوج أخرى في هذه اللحظة بالذات، بينما هو في كنتينه، خلف مقابرود أمجبو، يهجم عليه أحد الزبائن، الذين يلفظون في هذه اللحظة أنفاسهم الأخيرة بسبب تقدم السن، لأنه تحرش بزوجته، وفي الحقيقة الزوجة هي التي تحرشت به! فأهالي البلدة من صيادي السمك "المراكبية"، الذين بالكاد يكسبون قوت يومهم.. والعمال المتعبون، والرعاة والمزارعون الحائرون، بعد أن قضى الحاكم العام على أحلامهم في الحرث والنسل.. لم يعد أحدهم يقوى -كما في الأيام الخوالي- على العودة إلى عشه مع إحدى النسوة العابرات! فقد كانت كل الوظائف في أجسامهم قد تعطلت، ولم تعد أعصابهم تعمل كما ينبغي، إلا عند ارتياد الإندايات، خصوصًا بعد أن قتل الحاكم العام، معظم رجال البلاد الأسيرة في الحروب المتفعلّة، وشرّد البعض الآخر، بينما اختار العدد الأكبر من تعداد السكان المتبقين، مغادرة البلاد الأسيرة واللجوء، ولسان حالهم يقول:

"أرض الله واسعة!"

هذا غير المساجين والمعتقلين دون ذنب جنوه! وهكذا أصبحت
البلاد الأسيرة، بحاجة لمعجزة كي لا يكون فيها نساء بايرات! ولهذا
السبب بالذات، نسوة البلدة القديمة كنّ يغزّن من منصوره وحكايتها
مع صانع الفخار!

كانت منصوره عندما تختلي بصانع الفخار وتستلقى في حضنه،
تيمّم وجهها شطر السماء، وتغطّ في نوم عميق، فلا يعود يشغلها
وقتنذ شيء عن مر اقبه سحب خيالها، وهي تشهق في السماوات
البعيدة، تشارك الخالق مرئياته السريّة! لا يوقظها سوى تنحج
صانع الفخار، الذي يطفق يحدثها بما تكره: أحلامه و أفكاره عن
اللامبالاة والتبلد! فقد كان عندئذٍ تفكيرها ينصرف إلى خشيتها ففده.

لكن يومًا بعد يوم، كانت حدة كراهيتها لهذه الهموم العامة،
تتضاءل شيئًا فشيئًا، إلى أن تلاشت واختفت تمامًا، فأصبحت
تشاركه هذه الأحلام، التي أصبحت بمرور الوقت ليست أحلامًا! بل
صوتًا واحدًا متوحّدًا عاليًا ومرتفعًا.. يقضّ مضجع كل سكان البلاد
الأسيرة!

كان صانع الفخار كمعلمه الخزين يحب "شرائح الشرموط
المجفف" في نهارات صيف البلاد الأسيرة الغائظ.. يأكله بتمهل، كأنه
يستعذب السباحة في أنهار الخمر، التي حكى له عنها الخزين! كان
يستعذب طعمها، بعد أن يشمها على مهل، كأنه يشم "شربوتًا معتقًا"
ليتأكد من مدى جودته!

إذن بعد عشرات السنوات، كان الخزين ود طيلة، لا يحكي عن صانع الفخار أو ينقل خبراته، للأجيال الملتفة والمتحلقة حوله عبر تاريخ البلاد الكبيرة، إلا بعد تناول شرموطه الجاف ومريسته المفضلة:

"أقول لكم.. والحق ما أقول.. أن عالم الحياة الأخرى عالم فاتن وبديع، فكل ما هناك يختلف عما لدينا في هذه البلدة القاحلة.. أول مرة سافرت إلى هناك، تملكني الرُعب! فبكيت مثل طفل صغير وجسمي كله ينتفض، كنت مرتبِّغًا، لا أدري ماذا أفعل.. فطفقت أمشي على غير هُدى، إلى أن مررت بحفرة عميقة مشتعلة بنييران عظيمة.

كانت صرخات وبكاء أصوات معذِّبة، تأتي من أعماقها السحيقة، فسألتهم:

"من أنتم؟"

فردوا جميعا بصوتٍ واحد:

"نحن الجنكوز حكام البلاد الأسيرة المتعاقبون."

وعند هذه اللحظة من الحكاية.. نسوة البلدة البائرات، اللواتي تحيط قطاطهن بمجلس الخزين، يتأوهن ويندبنَ وهن يرددن:

"سجّي يا يمّه!!".

فینتعث الخزین ویعمق من صوته، ونکایة فیهن یقول:

"إذا وقع أحد بحب امرأة في هذه البلدة الضالة، فهو هالك لا محالة، فهناك حفرة مخصصة لهذا الغرض".

وبغته تغمر عيون منصوره كآبة وحشية، فتطفق تقضم بشرهه
"شرموط الكجیک" الذي علمها صانع الفخار أن تحبه، وينظر إلى
أحد الذين يرتدون بدلة حزب الحاكم العام:

"وهناك حفر خاصة بالعسس والبصاين والجند والمليشيات
الجهادية".

"ماذا عن أهالینا؟".

"لقد بحثت عن أمي وعن أبي وجدي".

"وهل وجدتهم؟".

"كنت قد عدت من رحلتي قبل أن أجدهم، لكنني في طريق
عودتي التقيت صانع الفخار الأكبر، مستلقيًا تحت شجرة سدر،
متوسدًا ثعبانًا ضخماً.. كان مبتسمًا في دعة وحبور.."

"صانع الفخار؟!".

"لا، الثعبان.. حكى لي أنه لقي حنفة قبل ثمانية آلاف سنة.. على
أيدي جند السلطان".

"الثعبان؟!".

"لا، صانع الفخار الأكبر".

عند هذه الجملة يُغرق الصمت المياغت مجلس الخزين، ولا يعود الأهالي إلى طبيعتهم، إلا بعد مرور وقت ليس بالقصير، حين يتعالى صراخ عجوز، لم يسبق لها أن عاشرت رجلاً حتى طعنت في السن، صبيهاً وقحاً لأنه ناداها بجِدَّتِي، الأمر الذي هدد ذكريات أحلامها في الزّمان البعيد.

كان الخزين عادة يختتم في نهاية المطاف حكاياته (أدركت شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح) وكان في ذلك إشارة إلى الحاكم العام لا باعتباره عاقراً فحسب، بل باعتباره عنيناً أيضاً، كما تقول الشائعات!

وبعد كل حكاية، كان الدمع ينهمر مدراً من عيني منصوره الناعستين، بعد أن تغرورقا بالكحل، وتنداح من عرقها رائحة الريحان والسعدة البرية!

وفي نشيجها تعدل منصوره من الإكليل على رأسها، وتترك يدها طيّعة في حضان كف صانع الفخار.

كان الخزين هو الرّجل الوحيد من بين الأهالي المغمورين، الذي استطاع اختراق قصر الحاكم العام، ومنحته إحدى زوجاته

العديدات نفسها في كرم ورضا، وهي تندب حظها على هذه اللقاءات
السرية المختلصة!

كانت في لحظة الوداع الوشيك، إثر كل لقاء تفيض الدموع من
عينها مدرارة، وكان هو عندما يتسلل من قصر الحاكم العام، لا
يقصد كرنكه، بل يمضي لينام في إنداية السرة كحل الليل، حيث -
وكما يتوقع تمامًا- في طريقه إلى الإنداية.. وعندما يمر بيت حمد
الأعرج في ذات التوقيت، من كل مرة، يجده عند مدخل زربيته، التي
أمام بيته وهو يهتف بحماره وولده، ليدور الحوار ذاته الذي يسمعه
كل مرة:

"حاو حاو.. يا ولد أمسك الحمار.. كتف الغنماية أمسك دالك..
اربط التورغادي لا ينطح رفيقو".

فيسأله ابنه:

"يا با هناك في شنو؟ الخدم الكتارديلك، متلمات هناك في شنو؟
يا شناتن؟".

"يا ولد البو، خلي الفصاحة واحبس الهيايم وإنت ساكت".

ويترك أمر الهيايم لابنه ويمضي في أثر الخزين..

"هوي يا خدم سلام عليكن".

"حباب حمد الأعرج.. كيفك يا أبو محمد".

"القرعة أسرعى يا بت".

فتناولوه عشمانة الساقية قرعة المريسة، التي يأخذها بلهفة
ويبدأ في الشرب، وهو يقول متلمظاً شفاهه الرقيقة، الناحلة
واليابسة:

"يا زولة دي مريسة عليّ الطلاق تكتف عديل كده".

فترد عليه السرة كحل الليل:

"هنياك، يا بت أطبقي لخالك".

"لا لا حرم، طلاق تلاتة، فكيت الرّيق خلاص".

يتجشأ وهو يلتفت لعشمانة:

"يا بت امرقي أربعة جرار غادي.. الليلة براى ما معاي زول".

فتسأله:

"الكلام السمعتوده صحي؟".

"سمعتي شنو؟".

"الباح بعد إنت مشيت عبد الله أب فاطر حكالنا حكاية
عجيبة".

"المسوخ قال شنو؟".

"قال سوق ود أمجوما فهو سيرة غير سيرة مرة الحاكم العام الصغيرة، النَّاس شافوها في القيْف جهة المقرن تمشي وتجي ليها مدة".
"وعرفوها كيف؟".

"عرفوها بعد ما اتشاكلت مع حارسها، فقامت القيامة وحضروا مسئولين جنكويز كبار في المنطقة".

وفي الحقيقة كان حمد الأعرج يعلم أن زوجة الحاكم العام تمضي إلى شاطئ النَّهر لتروح عن نفسها في الأمسيات الرائقة، وكثيراً ما رأها جادين جانو تروح وتجيء وحيدة، وهي تخط بقدميها على الرَّمْل أشكلاً غامضة! وحارسها يقف على مبعده منها، وفي الأوقات النادرة التي كان يغيب فيها، كانت ترافق شاباً مراهقاً! ثارت كثير من الأقاويل حول علاقتها به.

وكان الأهالي المتبطِّلون الذين ليس لديهم شغلة أو مشغلة كثيراً ما يمضون إلى الشاطئ في الأمسيات يراقبون من خلف دغل الهشاب الذي على ضفة المقرن، وهم يمنون أنفسهم بالقرب منها، يتأكلهم الحرمان!

□□□

الآن، وروحه تغادر جسده المصلوب المحترق في فناء الكنيسة، تطوف في أرجاء البلدة القديمة وتستعيد ذكريات حياته فيها، يرى نفسه: يدور حول السوق الصغير ومقابر ودمجوبو، عابراً إلى السوق الورا، فتعود به الذكريات إلى الخلف، حيث يقف وود الخزين أحياناً يعابثن التوم ود أب قرن الإسكافي، أو يجلسان عند قهوة ود أب دوم، يتداولان مع روادها الأحاديث التي لا تثمر..

يبحث عن الأب جميل، ويشاهد عناق الكنيسة والجامع القريب، الذي احتل جزءاً كبيراً من أرض ود أم جبو.. شاهد ذكريات.. لكنه لم يشاهد أحداً يمر في منتصف السوق القديم، ربما لأن الأهالي جميعاً لحظتها متحلقين حول جسده المصلوب المحترق، هناك.. في فناء الكنيسة العتيقة!

حاول فتح أبواب الحوانيت القديمة، لربما هناك روح سكير قديم كحمد الأعرج في انتظار أصدقائه، أو أحد السابلة المتعبين، لطول ما قطعوا من فيافي وغفار.

غلبه النوم على قارعة الطريق في هذا السوق.. فنام متكئاً على جدار الحانوت، سوق قديم ورجل قديم.. وحكايا الخزين الضاربة بجذورها، في ذاكرة المكان الذي هدته السنون!

كان السوق إذن خاوٍ لا من الناس فحسب، بل حتى من الحياة نفسها، فحتى القطط تهرب من وجهه.. قطعة سوداء تقفز نحو الحائط القريب، كان يشعر بالحسرة والشوق لتلك الأيام، عندما

كانت فوانيس الجازتضيء السوق القديم، إلى أن يعلن صباح
الديكة ميلاد صباح جديد دون أن تنطفيء!

وقتها كان يصحو باكراً.. قبل شروق الشمس، ككل أهالي البلدة
القديمة، الذين لا يوجد بينهم عاطلاً أو معطلاً، تساءلت روحه:

"ماذا جرى لأهل هذه البلدة؟".

في هذه الحوانيت والزوايا والنحوت، التي تزين الأسوار العالية
والجُدُر، التي نمت عليها الطحالب الخضراء والفطريات، كأنها تؤرخ
لماضي البلدة القديمة، بسوقها الذي هو عصب حياتها وأنشطتها
الدوَّوبية، التي لا تهدأ في حركة العمال والصُّنَّاع، كالحائكين
والإسكافيين والدباغين، والدهَّانين، والخشَّابين والحدادين.. في هذه
الحوانيت كان النَّاس، يجدون كل احتياجاتهم بأبخس الأثمان.. فما
الذي جرى؟

كان سوق البلدة القديمة يجتذب السياح الوافدين، والزوار
القادمين من القرى القريبة المجاورة، التي كانت تفتقد لمثل هذه
الأسواق، تتسوق وتقضي حاجاتها منه.. وقد كان السوق عند أهالي
البلدة القديمة يسمى "البندر" لكن أهالي البلدة القديمة، كانوا
يفضلون إطلاق اسم "ود أمجبو" على سوقهم، دوناً عن كل الأسماء!

يتأمل جادين جانو إحدى الهوامش، التي خطها الخزين بقلمه
البوص، على إحدى تدوينات صانع الفخار، وهو يقول في نفسه:

"ولعل سوق ود ام جبو في البلدة القديمة، كان مثلاً حيًا لما يفضلون من خيارات حياتهم، والذي كان إلى ما قبل سنوات قليلة، قُبيل مقتل صانع الفخار، سوقًا يعج بالحوية والحياة، أما اليوم" .. وروحه تحلق في فضاءات البلدة القديمة، كان السوق قد أقفر من تجاره وعماله وباعته وصناعيه وعشايه، الذين يداوون الأهالي بالأعشاب.

كما خلى من تجارته الرائجة في تلك الأيام البعيدة، إذ لم يعد هناك مشتررون أو باعة، فأضحى بلقعاً يباباً.. يلفظ أنفاسه الأخيرة ببطء! إن الذي عاش تلك الفترة الذهبية، يوم كان هذا السوق "في عزّه" لا يسعه إلا أن يتحسر على تلك الأيام الخوالي، وعلى ما آلت إليه هذه الحوانيت "المغلقة" الواقعة على جانبيه، وقد بدت حزينة كئيبة.. بعد أن كانت في يوم من الأيام عامرة.. لا يسعه إلا أن يتحسر على ما أصابها من خراب وهجران، بعد أن هجرها الأهالي!!

وإن الذي تسوقه قدماء اليوم ليمر في وسطه، لا يسعه إلا أن يحزن ويتألم على هذا الوضع المزري، وهذا الإهمال الواضح لكل أجزائه..

وعلى بعد مسافة قصيرة من هذا المقهى، الذي يعج مدخله بالدلالين، الذين يبيعون ويشترون ويقايضون كل شيء وأي شيء، كان سوق الخضار بمثابة خط فاصل بين السوق الصغير والسوق الورا أو سوق ود أمجبو، الذي يشمل سوق العناقريب، الذي أكثر ما تميز به صناعة البروش، والنطوع والسحارات التي تحتاجها النساء

لحفظ أغراضهن؛ فسوق العناقير ربما لهذا السبب بالذات، كان لا يفرغ من زبائنه.. كخلية النحل.

وكان يطيب للشيوخ وكبار السن والسُّكاري المتقاعدین، الذين كانت لهم في شبابهم صولات وجولات والنساء بالذات، الجلوس في هذا الجزء من سوق ود أمجبو. لأسبابٍ خفية غامضة، لا يدرون حتى هم أنفسهم كنهها!

وأكثر ما يميز سوق ود أمجبو، أنه ملتصق بالكنيسة العتيقة، الملتصقة بالجامع الكبير، الذي لا يبعد كثيرًا عن مقر الحاكم الجنكويزي العام.

ستمر عشرات، بل مئات السنوات، لكن سيظل سوق ود أم جبو يحمل آثار عزه القديم ومجده البائد، الذي تكشف أحفوريات صانع الفخار عن معالمه المفقرة، في ذلك العصر الكارثي.

وفقًا لمخطوطات صانع الفخار، أن من قام بتشيد هذا السوق هو الخزين الأكبر، أثناء حكم نبيرون لروما في القرن الأول الميلادي، وقد كان في البدء مفتوحًا.. والأضلاع التي تشكله الآن مستحدثة، فأحد أضلاعه تم إنشاؤه في أواخر العهود النوبية، قبيل سيطرة العرب بقليل.

أما الضلع الآخر فقد شُيد على عهد حكام الفونج، وسلاطين دار الريح الأقوياء. وبهذا المدخل توجد عدة مداخل: مدخل للسوق الصغير.. ومدخل لسوق مقابرود أم جبو.. ومدخل لسوق السمك

وجزارات الكمونية والدواجن، ومدخل للكنيسة القديمة والجامع الملاصق لها.

كان سوق ود أم جبواذن يبدأ طريقه من حيث الجامع والكنيسة، وجزارة السمك والكمونية، ثم يتجه شرقاً حيث ينهض في بداية صفوف دكاينه دكان الخردوات، الذي يطيب لدرأويش البلدة القديمة، الجلوس تحت كشاشته.

كانوا بثياهم الملونة يجلسون في هدوء، وهم يتبادلون أسرارهم! وبدءاً من الصف الذي يلي دكان الخردوات، يمكن للمار أن يمرّ بشخصيات هذه السوق الثابتة والمميزة واحداً واحداً كلماً أوغل في المسير.

فالمرحوم رزق كان يحترف من المهن والحرف كل شيء، بدءاً بصناعة الطواقي والمناديل والقفاف، مروراً بقلع الأسنان المسوسة ووضع حدوات الخيل وقص أظلاف المواشي، بالإضافة إلى كونه حلاقاً وطبيباً وحجّاماً، والذي كان يسبغ على السوق جواً من المرح والسرور بنكاته و"مقالبه" البرينة، التي لا ينافسه فيها سوى حمد الأعرج، والتي لم يكن ينجو منها أحد!!

وظمبل صاحب الشخصية القوية، الذي قلماً كنت تراه مبتسماً.. والذي كانت مطرقته تترك وقعاً داوياً يرن في أرجاء السوق كله..

وجبارة الهميّاتي وسابل السترو.. وغيرهم كثيرون.. خطروا على روح صانع الفخار فردًا فردًا في هذه اللحظة الفاصلة التي تفارق فيها روحه جسده المحترق.. تخيلهم وهم يخرجون متعثرين الخطى تجاه بيوتهم، بعد أن أفسد عليهم فتوات البلدة القديمة جلستهم في الأنداية، يتوهمون أشياء لم تحدث، ويضيف خيالهم لأشياء حدثت تفاصيل جديدة، ويحذف عن وقائع ما حدث تفاصيل أخرى إذ يقول أحدهم:

"والله يا جماعة أنا من الصباح عيني ترفّ ويدي ترجف، عارف الليلة اليوم ده ما بيعدي على خير".

"يا زول علي الطلاق أنا خلاص نفسي مرقت من أنداية السرة وتاني ما ح أشرب عندها".

"علي الطلاق.. علي الطلاق..".

وينسى ما يود أن يقول.. فيشدّ آخر مقود حماره وهو يقول:

"هع هع أقيف. يعني هسه الأولاد الخربولينا قعدتنا ديل هم أرجل مننا.. عليّ الطلاق ما فيهم رجل واحد.. عرعرشوف الحمارده عليك النبي التقول سكران".

"إنت يازول، سوق الحمير عليّ الطلاق أصبح زي النَّار، الحمار الكان بخمسين جنيه هسه بقى بمية".

"ناروين.. علي الطلاق إنتوسكر انين هسه هنا في نار؟".

"يازول عليّ الطلاق سكران إنت براك، أقول ليك الحمير شافن النَّار، تقول لي عكازي وقع، يعني ما يقع.. أصلو عكاز موسى، عليك النبي عصا ملسا ويقول عليها عكاز.. ده كلام ده".

فيقاطعم أحدهم متوهمًا إيقاع دلوكة ونخلات: "هي هي كدي اسكتو سامعين؟ صوت دلوكة جاي من ورا النخلات ديك.. عرعر عليك الله شوف الحمار ده عاقد قفاه كيفن تقول خايف".

"أبوك يا فاطمة أنا خايف؟ يعني عاقد قفاي خوف؟ عليّ الطلاق.. يعني.. هنا.. هنا الكلام".

ويسقط من على ظهر حماره، بينما يهرب الحمار راكضًا، تجاه قلب البلدة القديمة:

"حاو. حاو. هش.. يا سيدي الحسن".

"حسن منو؟ يا زول القايم في الطريق ده عشر ما فيش حسن هنا".

"يا أخوانا نحن رحنا.. الحمير دي شكلها كده رجعتنا لإنداية السرة تاني، وهربت لغادي.. الحمير دي الظاهر سكرت".

"لا لا شوف ديك ما يaha ميضنة كنيسة ود أم جبو؟".

"وينو؟ ما شايف جامع الكنيسة هنا!"

"عليّ الطلاق نسكرو من زمن حفروا البحر، جنس ده ما حصل علينا.. الملعونة الظاهر أدتنا من مريسة كبس التور".

"يا جماعة إنتو ناس واعيين، عيب تقولو ضهبننا.. لازم تجهزوا ليكم عذر من هسه".

"أنحنا كلامنا هين قاعدين نكوس الليل كلو للحمير الضايعة، لكن الحمير ذاتا عذرنا شنو؟".

وبوصولهم إلى بيوتهم.. يهتف ابن أحدهم:

"أبوي انت سكران".

"يا ولد كفى -كفنك برش- دحين دي دقن مريسة؟!"

وعندما يسمع الجيران بوصولهم تتهاوس النسوة:

"كافي البلا وحايد المحن من الشيايب العياب، السكر وقلعة الفكر".

كانت روحه تطوف بهم فردًا فردًا، وتستمع إلى ما يقول كل واحد منهم لرفاقه، فيبتسم وهو يرى فيما يرى الناس، يلتفون حول أصحاب حوانيت سوق ود أم جبو، الذين كانوا في معظمهم متحدثين بارعين، يستأنس الأهالي بقصصهم الممتعة، وأحاديثهم السلسة

ونكاتهم المرححة، التي تغذيها حكايات الخزين، التي تفيض بالحكمة والطرافة.

كل حركات المقاومة والمعارضة والهيئات الثورية، كانت تخرج من قلب هذا السوق، ولهذا السبب بالذات أصبح الحكام المتعاقبون يستهدفونه، إلى أن وصلوا به إلى هذا الحال البئيس!

كان شاغلو السوق كرواد الإندايات، دائماً ينقسمون إلى معسكرين: قسم مع الحاكم العام وآخر ضده، وكثيراً ما كانت تدور بينهم معارك حامية الوطيس، قد يحتدم فيها النقاش، لدرجة الشتائم والسباب البذيء المقذع والعراك بالأيدي. لفرض آرائهم، إلى أن يتمكن العقلاء من فض هذه الاشتباكات..

ليعودوا في اليوم التالي، وكأن شيئاً لم يحدث البارحة!! هكذا كان أهالي البلدة القديمة، في تلك الأيام الخوالي! وهكذا ودعت روح صانع الفخار سوق ود أم جبووهي تتحسر على أمجاده الغابرة!

وروح صانع الفخار، تحلق في فضاء سوق ود أمجبو والبلدة القديمة، وجسده يحترق هناك في فناء تلك الكنيسة العتيقة، كانت كل أسرار الخزين تنفتح كالإلهام على فضاء ذاكرته..

فمن الأسرار الخفية للخزين، والتي أبداً لم يطلع عليها أحد سواه حتى الأطراف المباشرين لهذه الأسرار، أنه في لحظة ما، بعيدة.. توسطت سنوات غابرة في انصرام الزمان، وبينما كان الخزين يسكن وحده في هذه البلدة، التي لم تكن وقتها مأهولة، بسبب ما حل بها

وبسكانها القدماء من أسلافه من دمار على مر العصور.. فقد بدأ السكان الجدد يتوافدون إليها، يحيون ذكرى أسلافهم الغابرين! بعد أن شيّد فيها الخزين أول كرنك عرفته في تاريخها القريب.

بعدها غادر البلدة إلى دارالريح لحين من الوقت، وعندما عاد كانت برفقته امرأة فارعة، أنجب منها جدّة منصوره، ماتت تلك المرأة بعد فترة قصيرة، بعد أن أنجبت له فتاة جميلة، ستكون في مقبل الأيام هي الجدة المباشرة لمنصوره.

ورثت منصوره لون جدتها وقوامها الجميل، وشعرها الأسود الطويل، فضلاً عن عينيّ الخزين اللتين كعيني صقرعجوز.

لم يطلع أحد أبداً على هذا السر، بل حتى أن منصوره ووالدتها لم تكونا تعرفان أن الخزين في الحقيقة هو جدّهما! لذلك كان الخزين سعيداً جداً، وهو يراقب تلك المشاعر البطيئة المتنامية، التي تدنو حثيثاً؛ لتصل قلب منصوره بجادين!

كان صانع الفخار يرى روحه تخرج من أعماقه.. تحلق فوق رؤوس العسس، وجموع الأهالي المتعلقين يشهدون لحظة إعدامه..

ثمة تصفيق متقطع وزغاريد شاحبة، تمتزج في لهب النيتران المشتعلة حوله.. ثمّة رصاصات تتلاشى في الألسنة المتطائرة، ومن بين مشاهد كل هذه المهزلة، رأى طيف الخزين يبصق في جموع الناس بازدراء ومقت شديدين!

في اللحظة نفسها كان الحاكم العام يلقي على النَّاس بيانه،
حول الخونة والخوارج العملاء والمرتزقة شذاذ الآفاق.. المخزيين
الذين سيجعل منهم أمثلة لآخر الزَّمان!

كان الحاكم العام يُلقي بخطابه في هستيريا وهو يجوب شوارع
البلدة ودروبها، وسط الهتافات العالية لحزبه..

في هذه اللحظة ذاتها.. الفارقة بين عالمين يعلنان انتقال روح
صانع الفخار إلى مثواها المؤقت، وميلاد روحه مرّة أخرى في صانع
فخار جديد.. في هذه اللحظة المحاصرة برائحة القلق والحرائق
والرّماد، رأى الحاكم العام منصوره بين جموع الأهالي: عينان
لامعتان، شفاه رقيقة، أنف دقيق، وشعر مشط في جدائل كبيرة
يتخللها الودع الملون!

بدت له منصوره في فستانها البسيط، ووجهها الذي لوحته
شمس البلاد الأسيرة، أجمل أنثى في الكون تقع عليها عيناه! فتوقف
عن إلقاء خطبته لاهت الأنفاس، وأشار إلى حرسه الخاص تجاهها.

في تلك الظهيرة، كانت منصوره التي تستعد للاقتران بجادين، قد
ارتدت أجمل ثيابها، بعد أن مشطت لها أمها شعرها، على ذلك النحو
الذي يقلق ذكورة الرجال ويقض مضاجعهم.

ثم جلست على بنبرها الحميم لتستمع لنبوءات أمها، التي
تفرغت لحظتها لتخط الودع وتقرأ مستقبل ابنتها الوحيدة..

كانت ترى في الودع فراشة تطير في هجير الظهيرة، وتسقط
محترقة.. ثم تنبعث من جديد وتحلق بعيدًا بعيدًا في الهواء!

فيما عدا الخزين ومنصورة، لم يكن أحد يعرف أن أمام صانع
الفخار أيامًا معدودات، ليفارق بعدها هذا العالم الكارثي الشائن!

في اللحظة نفسها، بينما كانت روح صانع الفخار تحلق عاليًا إلى
طمأنينتها، كانت تلك الفراشة تلحق بها، وترتعش روحه دون وجل
وتهدأ.. تعانق الفراشة.. تتوحد معها، يستحيلان معًا إلى بريق في
اللانهاية.

□□□

في الصبيحة التي سبقت صبيحة مقتل صانع الفخار بثلاثة
صبيحات، قالت السرة كحل الليل لمستورة رمش العين:

"قصة غريبة لا يصدقها عقل!.."

"قصة شنو؟"

"عشمانة قالت كانت شغالة خادمة في بيت الوزير."

"والزمن ده كلو ساكتة ما قالت بغم!"

يبدو أن عشمانة التي كانت تسمع فضايح قصر الحاكم العام
ورجاله، التي يتبادلها رواد الأنداية كل يوم، قد شعرت بنوع من

الاستفزاز حفزها للإدلاء بدلوها، فحسب حكايتها، أن زوجة ذلك الوزير تربطها علاقة مشبوهة بأحد الشبان المعارضين المثقفين العاطلين، والذي كان في الواقع حبيبها هي عشمانة نفسها، قبل أن تتعرّف عليه زوجة الوزير تدريجيًّا، خلال زياراتها لبعض أقاربها في البلدة القديمة.

وتضيف عشمانة أنه عندما توطدت العلاقة بين الشاب وزوجة الوزير، بدأت هذه الأخيرة، من حين لآخر، ترسلها لإحضار دواء خاص من الصيدلية، ودفعها حب استطلاع للسؤال عن فائدة ذلك الدواء، الذي بدا لها أن ثمنه غاليًّا، إذ كان ثمن الحبة الزرقاء الواحدة منه يفوق المئة جنيه، وبعد البحث والسؤال علمت بفوائده والأغراض التي خصص لها!

كما لاحظت عشمانة أنه كلما طالبتها زوجة الوزير بإحضار الحبة الزرقاء، كانت تعلم أنها تكلم حبيبها في الهاتف، وبعد ذلك تغادر البيت وتقضي الليلة خارجه، وهكذا علمت عشمانة بأن مشغلتها على علاقة مع حبيبها، وأضحى تعرف بأن اقتناء الحبة الزرقاء من الصيدلية يعني غياب سيدة البيت، وأنها ستنعم بالراحة وتتخلص من طلباتها التي لا تنتهي، وبذلك تنعم المرأتان معًا بليلتيهما، إلى أن اكتشفت زوجة الوزير علاقة عشمانة بذلك الشاب، فحزرت في نفسها، فطردها من خدمتها وقطعت علاقتها بالشاب!

"عليك الله ده كلام بيدخل العقل!".

"ما لوما بيدخل العقل، يا ما تحت السواهي دواهي يا يمّه".

جاء صوت أحد الفتوات قاطعاً ونستهما:

"الليلة ما في مريسة ولا شنو".

"اتفضل ادخل لجوه".

الفتوات الذين كانوا يفسدون على سُكاري البلدة القديمة
جلساتهم، كانوا بمثابة الوقاية والدرع الذي تتحطم عليه استفزازات
السُّكاري التي يطلقونها بسبب وبدون سبب، حينما يقدمون على
الإنديايات، يدخلونها واحدة تلو الأخرى، يسخرون من هذا ويتحدثون
لذلك، يذرعون الإندياية جيئةً وذهاباً، عليهم يجدون سبباً للشجار،
وعندما يعيهم البحث عن سبب، يهتف أحدهم وهو ينظر بعين
واحدة، بعد أن يكفي طاقيته على عينه الأخرى:

"أي واحد يفتح خشمه نحن هنا.. تعالي جاي يا بت.. عندكن
شنو الليلة".

"كلو في.. مريسة.. عرقى.. بقنية.. عسلية.. طلباتكم".

"خمسة قز ايز عرقى وخمسة برمة مريسة وعشرة عبار كانجي
مورو".

فمهتف أحدهم دهشاً:

"أبو الزفت.. أهو الطلب كدي ولا بلاش".

فيتساءل آخر:

"يا خي ديل بجيبو القروش دي من وين؟".

"يا خي اتكلم براحة.. النَّاس ديل صعيين خالص لو سمعوك".

"صعيين على مين؟ أنا عليّ الطلاق جدي الماك بارم ديلو.. وما سائل في أي واحد هنا.. عارف ولا ماك عارف.. أما مسخرة وقلّة أدب.. قال صعيين.. صعيين على منو.. صحي اللي ما بيعرفك بيجهلك، واللي ما من بلدك ما بيعرف رطانتك".

"يا خي بالله اسكت خلينا نتكيف.. يا خي ما لك وما المصايب".

"مصايب بتاعة مين، أقوم أنيك ليك أبو حلتهم ذاتو هسه دي.. مع هع أنا الصعب المتكّل بالشعب".

فينهض أحد الفتوة غاضبًا:

"يلا.. كلو برا.. ما عايزو ولا زول هنا".

فتركض نحوه عشمانة:

"العكر عليك مزاجك منو.. سجم خشم أمويا يابا".

"الزول الوهم دالك".

فتقبل عليه عثمارة:

"ما لك عايز تخرب علينا.. قوم يا زول امرق برا".

"أمرق أنا يا بنت الكلب والله كان جا الحاكم العام ذاتوما
يمرقني".

ويحرك عصاه ويتحسس سكينه:

"أما عجائب شوف بالله ديل.. خسرانين دم قلبنا.. برمتين
مريسة وقزازه عرقى.. الراجل البيطلعي لسه أموما ولدتو".

"يا زول أخيرليك قوم امرق بالحسنى".

فيمد يده ليضرب عثمارة التي تصيح:

"ووب عليّ أنا.. تضربني أنا يا المايل المتهامل.. يا بابا يضربك
الضرب شقاق العناقريب".

وهنا يقترب الفتوة:

"يا خادم أبعدي غادي خليني النجمهوليك".

"يعني عاجباك نفسك وقايل بتطلعني من هنا يا ود الغلفاء".

ولا يتركه الفتوة يكمل كلامه، إذ ينهال عليه ضربًا ويحمله بين
ذراعيه ويقذف به خارج سور الإنداية.. فيما يتضاير الجميع، ويبدأ

البعض من الزباين المخضرمين في التسلل خارج الإنداية، بينما يبقى
المستجدون مكانهم.. ويعلو الصخب:

"كتلو.. جدعو.. ووب علي.. سجمي.. سجم خشم أمو..".

وهنا تتدخل السُرّة رمش العين:

"أما خمج.. الدوشة ليكم شنو.. كلوزول في محلو..".

فيقاطعها الفتوة:

"خلاص يا حاجة السُرّة نزلي البيرق وفضي لينا الإنداية من
النّاس الوهم ديل.. إحنا اشترينا الشراب كلو".

وتزگرد عشمانة وهي تقول:

"أها سامعين حديث الجنيات الفناجر.. كل زول يشرب كاسو
ويبقى مارق".

وهنا يتحدث كبير الفتوات:

"كمان عليّ الطلاق ما تاخدي ولا مليم من أي زول.. حتى العيفة
الجدعناه بره ده حسابو علينا".

فيطنطن البعض: "انعل أبو البيجي الإنداية دي تاني".

□□□

المرة الأولى التي التقى فيها الخزين بتلك المرأة البدوية، الجدّة الكبرى لمنصورة، أدرك أن القدر سطر له مصيراً غامضاً لا مفر منه! أخذ يحكي لها عن البلدة التي يحلم بتشييدها بين مقرن النيلين، على أنقاض البلدات التي طالها الخراب والدمار عبر العصور السحيقة لتاريخ البلاد الأسيرة، فأومأت برأسها موافقة، فابتسم وهو ينتجى بها في جوف دغل من أشجار النّال..

استسلما لرعيهما الذي يحفز عُريه ملمس النّال ورائحة قويّة قوامها العرق الزّئخ تقتحم رائحة النّال فتمتزج بها! وتجعل لخياشيمهما ملمس أعصابهما المتحفزة.

عندما أفاقا من غيبوبتهما لم يكونا يعلمان كم من الوقت قد مضى عليهما، في تلك اللحظة بالذات، كانت جدّة منصوره تنمو في أعماق تلك المرأة البدوية.

تذكر الخزين ود طبله كل ذلك عندما تنهى إلى مسامعه، خبر مقتل صانع الفخار محترفاً، في فناء الكنيسة العتيقة! و..

وبعد أن تهدأ المواجد والتوجدات والمحن والإحن والعداوات والغبائن.. بعد عشرات السنوات ستغني الحكامات بوحى منصوره أخرى، أغاني مشحونة بكل بذاءات العالم، ضد الحاكم العام وحزبه.. أغنية واحدة ضد الثلاثة الكبار، وأحزاب البلاد الكبيرة المخنثة!

وبالتالي يسدل الظلام أستاره، وأول من ينسحب سيكون هو صانع الفخار الحفيد ومنصورة الحفيدة ذات نفسيهما! سيسيران متعانقين: صانع الفخار طاعن في السن، يتهادى نحياً متعب النظرات، ومنصورة لا تزال كفتاة رشيقة القوام لم تهدها السنوات، لكن فارقتهما رائحة السعدة والريحان، ولم تعد ترتدي إكليلها البري! وتشيعهما نظرات العجائز، اللواتي لم يعدن بائرات، بل جدات لأحفاد كُثُر يعمرّون البلاد التي كانت أسيرة.. لكنهن ما زلن يرين إكليل منصورة.. كأنه الأمس القريب!

وعندما يخطر على بالهن موت صانع الفخار محترقاً، يشهقن، وكأن شهيقهن زفرات الموت! ثم يقلن خلال زفراتهن الحارّة:

"كانت منصورة قديسة.. كما كان صانع الفخار.. واحسرتي!"

ذات لحظة غارقة في تهاويم الزّمن، سرقت منصورة صانع الفخار! سرقت قلمه العتيق، الذي أهدها إليه الخزين، والذي كان قد ورثه عن أسلافه، الذين اشتروه من أحد حراس منزل صانع الفخار الأكبر قبل آلاف السنوات!

كان قلمًا من شجر قنا وديان دار الريح، التي تستوطن تحته وفي لبابه حبيبات الذهب.. كل ما يميزه أنه عتيق وعزيز على قلب صانع الفخار، فهو القلم نفسه، الذي خط به كل صانع فخار من أسلافه، أحلامهم وتهاويمهم عن البلاد الأسيرة وفيها! فعلت منصورة ما فعلت، لأنها كانت ترغب في الاحتفاظ بروح صانع الفخار، مقيمةً معها طوال

الوقت.. فمنصورة كانت كتومة تظن أنها تعلم كل شيء.. وفي الحقيقة لم تكن تعلم أن البشر جميعًا، وصانع الفخار نفسه، إنما هم أقبية معتمة.. العبور من فوهاها بقدر ما هو محفوف بالمخاطر، بقدر ما هو مليء بالأسرار، والمخاوف، والهواجس، والظنون!



في تلك الظهيرة القائضة كانت أندية السرة كحل الليل، لا حديث لروادها سوى الشائعة التي تسرّبت في فضاء البلدة القديمة عن: الجنرال الذي ضبط زوجته في فراشهما، مع أحد جنوده..

كان الجنرال قد خرج من مقر إقامته، بعد أن أخبر زوجته أنه سيغيب أياما قليلة، للقيام بمهمة خارج المدينة، إلا أن الحاكم العام أعفاه من تلك المهمة فعاد إلى البيت.

فتح الباب فصادف ابنته الصغيرة وسألها عن أمها، فأجابته أنها داخل غرفة النوم مع الجندي، ليضع لها مرهما على ظهرها، فهم الجنرال الوضع، وأمر طفله بالتزام الصمت، ومضى من الباب الخلفي ليختبئ بعد أن أمر ابنته بالمكوث مكانها، وخرج من الباب الخلفي ليوهم زوجته وعشيقها، أنه لم يحضر بعد، وبعد أن فرغت الزوجة وعشيقها من مغامرتهم سألت الجندي:

"هل أجد لديك بعض النقود، فالجنرال ترك لي شيكًا ولا وقت لي للتوجه إلى البنك لصرفه".

ولم يكن الجندي يملك سوى ورقة نقدية واحدة من فئة المئة جنيه مدها إليها، مسكتها ووضعها على منضدة بجانب سرير النوم، سمع الجنرال من مخبئه كل ما دار بينهما وغادر المكان خلسة، دون إحداث ضجيج.

والجندي في طريقه إلى خارج الدار، حيًّا رئيسه الجنرال التحية العسكرية المعتادة، ثم سبقه نحو الباب لفتحه كما كان يفعل دائمًا، وبعد أن حيًّا الجنرال زوجته، ولج غرفة النوم واستحوذ على ورقة المئة جنيه دون علم زوجته.

بعد ذلك أخذ زوجته وابنته إلى محل إقامة أصهاره دون أن يكشف الأمر لزوجته أو للجندي، اجتمعت الأسرة في الصالون، فأخرج الجنرال ورقة المئة جنيه، وبدأ يعبث بها بين أصابعه متعمداً إظهارها لزوجته. عندما رأت الطفلة الورقة النقدية، طلبت من والدها منحها إياها، فقال لها بصوت متزن واثق:

"لا أستطيع منحك هذه الورقة، إنها غالية عندي غلاء عمري، يمكن أن أعطيك حياتي إلا هذه الورقة، اسألي أمك لماذا؟".

فهمت الأم البرقية ومغزاها.. ولم تمض سوى أيام قلائل، حتى تم العثور عليها في غرفة نومها، وحولها بركة من الدماء التي سألت من شرايين معصمها بغزارة!

كانت أم منصوره الأربعية النّاحلة نادرًا ما تضحك، ولم تكن تبكي قط، يبدو أن كل ما هو ضروري لإثارة الضحك والدموع، قد انتهى بالنسبة لها.

وعندما كانت تضحك تأتي البسمة غامضة مهمة، وكأن قواها لم تعد كافية لذلك، كانت ومنصورة تعيشان بمفردهن، دون رجال في حياتهن.. في قطية صغيرة، مسيجة بالطرور، على مبعده من "كرنك" الخزين، في طرف فناء البلدة القديمة.

ماتت أمها العجوز منذ زمن بعيد، دون أن تخبرها بأصلها وفصلها، بعد أن زوجها لأول طارق على بابها، الذي لحق هو الآخر بأما بعد أيام قلائل من زواجه منها، تاركًا منصوره تنمو في أحشائها..

وهكذا وجدت منصوره وأما أنفسهن، يعيشن بمفردهن كأنهن امتدادًا لبعضهما. لا تأبهان لحسبٍ أو نسب، فقد عودتهما الحياة الحرمان من كل عزيز لذيها!

لكن مع ذلك كانت أم منصوره أشد ما تخشاه، أن تفارق الحياة دون أن تترك لابنتها سندًا، لذا وفي تلك الصبيحة البعيدة، عندما همس الخزين في أذنها، بأن صانع الفخار، أفصح عن رغبته في الاقتران بابنتها، لم تتمكن من إخفاء فرحتها، فملأت فضاء، كما كان الخزين يعرف.. لم يكن جزعًا ولا منصوره كذلك، لكن كان الخزين بين آني وأخرت تغشاه غيمات من أمي شفيف، تمطر على الراكوبة

أمام كرنكه فيبتل التراب بالدموع! فيشعر بأنه ليس كما ظل يظن في نفسه: يمتلك زمام الأمور والمبادرة..

كان مجرد ترقب انتقال صانع الفخار إلى عالم آخر غير هذا العالم، يفجر في نفسه كل مكان ضعفه، لذا كان عندما يخرج إلى مريديه أثناء هذا الترقب المميت، يتعمد أن يحكي لهم حكايا طويلة لا أول لها ولا آخر، عن الموت والحياة والعالم الآخر، الخالي من الهواجس والظنون!

بل أخذ يتعمد لدى الجلوس إلى حواريه، أن يكون عراقيه وسرواله الطويل نظيفاً على غير عادته، فكانوا يشعرون بأن ثمة شيء فيه متغير على غير العادة، لكن لم يجروا أحدهم على النبس بينت شفة، إلى أن دهموه بالخبر الذي ظل يترقبه لوقت طويل:

"أحرق العسس صانع الفخار في فناء الكنيسة".

حاول إضفاء شيء من السكينة على روحه، حاول وقف التآكل الذي كان خبر الموت يشعله يستشري في جسمه المهودود، كالتوابي العتيقة على ضفتي النهر!

لحظتها بدى لهم وجهه خالياً من تلك التعابير التي ألفوها فيه، كانت عيناه مثبتتين بجمرتين منطفئتين في رمادهما، بدا لهم كمن يحمل أثقالاً يئن تحت وطأتها. وكانت كل حكاياته عن الموت لحظتها، تطوف فوق رؤوسهم، التي بللتها الصدمة، لكن دون ذلك الصوت العميق الريان بالحنين والذكريات..

"كان صانع الفخار الأكبر يسبق عصره بمئات السنوات، وقد ورث عنه صانع الفخار الحفيد هذه الموهبة!"

فهو من اخترع لغة التشفير ورموز تقنيات فك الشفرة، ورسم تصاميم أولية للأجهزة الداخلية للجسم البشري، أظهرت الخواص التي يتحدث عنها علماء هذا الزمان؟!

حكاية صانع الفخار الأكبر إذن، سيطرت على فضاءات وعوالم "صانع الفخار الحفيد" وشكلت حياته على النحو الذي قاد لأن يموت مصلوبًا في فناء الكنيسة، كما مات صانع الفخار الجدد، محترقًا في قطية نائية عند أطراف إحدى قرى دار الريح!

ولد صانع الفخار الحفيد في السنة ذاتها، التي فاض فيها نيل دار صباح وهطلت الأمطار الغزيرة، فتقطعت بالناس السُّبُل، وتهدّمت بيوتهم، وانتشرت كل أنواع الأوبئة والأمراض المجهولة، التي لم تكن تلبث أن تصيب أحدهم حتى يفارق الحياة!

مثل كل أقرانه من أبناء البلاد الكبيرة، مضى صانع الفخار الحفيد، في طفولته إلى خلوة الخزين، ينهل على يديه علوم الأولين والآخرين.. وهكذا تحددت هويته في مجتمع البلدة القديمة، حيث تعلم من والده صانع الفخار الأب لغته المحلية السائدة في دار الريح، إلى جانب اللغة العامة السائدة في البلاد الأسيرة!

تعليمه في الخلوة على يد الخزين، فتح عقله على عوالم واسعة خارج حدود هذا المجتمع المحلي المحدود الذي نشأ فيه، كان عقله وقادًا، فيومًا بعد يوم مع تلقي التعليم المدني، والدراسة في الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، تنامت معارفه، واشتعل داخله صراع خفي، لا يمكن تفاديه، بين عالمه المحلي والعوالم الأخرى، الأمر الذي فتحه على آفاق لا حدود لها. فكان يسرح بخياله بعيدًا.. بعيدًا عن حدود دار الريح، ودار صباح، والصعيد، والسافل.

الفترة التي تلت مقتل صانع الفخار الحفيد، شهدت الكثير من المآسي، مثل تنامي الاحتراب القبلي وكوارث الطبيعة. والفقير المدقع الذي شمل كل أنحاء البلاد الأسيرة، بعد أن هربَ الحاكم العام وبطانته كل الثروات، وعاثوا خرابًا ودمارًا!

كان ظل السلطة قد اختفى عن بنادر وحواضر وأطراف البلاد الأسيرة، وتصاعدت أعمال حرق القرى والسلب والنهب، وأصبح الأهالي البسطاء يقتلون بعضهم بعضًا دون أسباب وجيهة.

وكان الجميع يعلمون أن سبب هذه الفوضى العارمة، التي تضرب بأطنائها في كل شيء، هو الحاكم العام الجنكويزي نفسه، الذي كان لا يزال يصصر على رفض تسليم رأسه، للمحكمة الجنائية الدولية! وبطانته وعسسَه وجنده، الضالعين معه من قمة رؤوسهم إلى أخامص أقدامهم، في كل ما حل ويحل بالبلاد الأسيرة، بعد أن أشعلوا فيها الفتن، وزرعوها بالعداوات والغباين والإحن!

وهكذا تأجج الصراع بموالاتة الحاكم العام، لأطراف ضد أخرى حتى بلغ انفراط عقد السلام مبلغاً لم تشهده البلاد الأسيرة طوال عصورها وتاريخها الغابر.

شهدت البلاد الأسيرة الإيذان بميلاد عهد جديد من الدّم والمآسي والدموع، تمخض عن الانفصال التام للصعيد، الذي أثر الابتعاد عن جغرافيا البلاد الموحدة، بعد أن أعياه إيجاد مسوغات للبقاء مع هؤلاء القوم، المغضوب عليهم والضالين!

وهكذا بدأت تنتشر الحركات المسلحة، الهادفة للقضاء على الاستعمار المحلي الذي يمثله الجنكوز الثلاثة الكبار والحاكم العام وحزبه.

كانت قوات الحاكم العام منذ وقت مبكر قد تحركت بعديها وعتادها، بعد أن سلحت أطرافاً ضد أخرى، وأطلقت العنان للمليشيات بالعيث فساداً في دار الرّيح ونهبها، وقتل وترويع الأمنين من أهلها الأبرياء، الذين دفعت بهم للسير أياماً وليال طويلة، عبر الحدود في رحلة تيه، هي الأبطع عبر تاريخ البلاد الأسيرة!

في تاريخ هذه البلاد القديم والحديث، هناك الكثير من حالات الجنكوز، استخدمتهم السلطات الحاكمة في جيوشها النظامية، وكقوات صديقة، للحرب عنها بالوكالة.. مجندة إياهم من شتى البقاع، فالجنكوز نجدهم في جيش إسماعيل باشا الغازي عام 1821 وفي صفوف الجيش الإنجليزي المصري في حربه ضد القوات

المهدوية، وفي مقتل الخليفة ود تورشين في أم دبيكرات في نوفمبر 1899 حيث أظهرت الصور جنودًا "سود البشرة"، ليس من الممكن أن يكونوا إنجليز أو مصريين أو أرمن!

ونجد الجنكوز أيضًا ضمن القوات الإنجليزية الغازية لدار الريح عام 1916 وفي صور مقتل سلطانها علي دينار بعد عام.

وذات القوات كانت يوم مقتل السحيني عام 1921 وبعد الاستقلال المزعوم من الاستعمار الخارجي في يناير 1956 وأيلولة البلاد الأسيرة لحكومات الاستعمار المحلي، نجد الجنكوز ضمن مليشيات الحكومات الطائفية ومليشيات الحكام العامين التي تعاقبت على حكم البلاد الأسيرة، والتي خاضت بهم حروبها المقدسة ضد المهمشين في الأطراف.

وجنكوز دار الريح الآن بهذا المعنى، هم امتداد لذلك الإرث غير النَّاصع، للنظم التي تعاقبت على الحكم، حينما تلجأ السلطة في لحظات ضعفها لخلق كيانات موازية، لجيشها النظامي، للحرب عنها بالوكالة.

إذن استخدام الحاكم العام في حربه المقدسة الجنكوز ضد أهالي دارالريح البسطاء، لم يكن أمرًا جديدًا!

حتى تلك اللحظة الغادرة، إثر غارة مشتركة للجنكوز وجيش الحاكم العام، واعتقال صانع الفخار، ذات ليلة غاب فيها القمر واشتد عواء الريح ذارًا رمال الوديان، في عيون البلاد الأسيرة، وتكبيله

بالأغلال، تمهيداً لترحيله إلى البلدة القديمة، لحرقه في فناء الكنيسة العتيقة!

وهكذا بقتل صانع الفخار حرقاً على الصليب، اختبأت الأسرار داخل شفرات رموزها، كخلفية مأساوية لأسئلة الذات والهوية في البلاد الأسيرة!

لكن مع ذلك.. هنا وهناك، كان شبح صانع الفخار، يظهر للأطفال الرضع، وهم يمصون حلمات أئداء أمهاتهم، فيبتسمون في دعة وحبور، والحليب يتسائل من بين شفاههم الرقيقة.

ظل جادين جانوظيلة حياة معلمه الخزين ود طلبة- ينصت باهتمام لكل حكاياته عن "صانع الفخار الأكبر" الذي ولد في اللحظة ذاتها، التي بدأت فيها الممالك المسيحية، تتكون على أنقاض العالم القديم للبلاد الأسيرة، بوصول أول بعثة أرسلت من القسطنطينية إلى بلاد النوبة، برئاسة قس يُدعى "جوليان" عام 543م بمساندة الإمبراطورة "ثيودورا".. فمكث "جوليان" ونجح في نشر المسيحية بين النوبيين، والتي كانت أساساً قد وجدت لنفسها قاعدة في البلدة القديمة، قبل عدة قرون.

ثم خلف "جوليان" "لونغينس" في عام 569م والذي قضى فترة سبعة سنوات، وهو يعمل بين النوبيين، ثم سافر إلى الصعيد عام 580م.

وقتها كانت مملكتي "النوبيين" و"علوة" تؤمنان بمذهب اليعاقبة، بينما كان أهل "المغرة" يدينون بالمذهب الملكاني، وعندما اتحدت مملكتا النوبيين والمغرة فيما بين عامي 650-710م وصارتا مملكة واحدة، مكن اتحادهما من قيام مقاومة قوية ضد غارات العرب من ناحية، وإنهاء الصراع السياسي الديني والطائفي من ناحية أخرى، مما ساعد على التطور الثقافي.

إذن كان ميلاد من سيعرف "بصانع الفخار" في كل مرة يولد فيها، تكون هذه المرة بمثابة لحظة فارقة من منعطفات تاريخ سهل البلاد الأسيرة، بما تحمله روحه من روح ذلك العصر، بلحظاته المتحفزة بالعبقرية والجنون..

لحظات تمثل عالمًا بكامله، بقدر ما انطوى على الأسرار الباطنية والسحر والدجل والشعوذة، وجرائم واحتيالات الساسة الطائفيين الأفاقين، وأرباب السوابق في تجارة الرق.. حفل بفنون المعمار وهندسة الزراعة، ونمو الثروة الحيوانية والغابية، والصناعة والتجارة.. و..

ويُقال إن صانع الفخار الأكبر، هو من أعطى طريق الملح ودرب الأربعين اسمهما؟! فدرب الأربعين الذي يبدأ من الفاشر، على تخوم الصحراء الكبرى في دار الريح، وينتهي عند إمبابة في صحراء الجيزة، في الجوار أسفل النهر.. توضح خرائط صانع الفخار العديد من المواقع على امتداده، خصوصًا أن للطريق نفسه امتدادًا آخر، يبدأ من

الفاشرويتوغل غربًا ليصل دار الريح، بممالك الجوار القديمة، حيث منبع الريح عند تخوم الأطلسي الرهيب.

إذن كان الطريق "درب الأربعين" يتكى على صحرائه، بين عالمين يقفان عند شفاه الشمس وهي تبتسم، من وراء البحر الملوّن، وهي تنهي ابتسامتها عند الأطلسي وتغيب.

في أسفاره عبر هذا الطريق من الفاشرإلى أمبابة، حسب الأيام والليالي فوجدها أربعين يوما وليلة، فأطلق عليه اسم "درب الأربعين" ومنها سار بصيت الطريق الركبان والحدادة، حتى تنهى عبر التاريخ إلى جادين جانو، الآن.. وهويكابد ما يكابد، من أحلام صانع الفخار والخزین المنسية، متأملاً أفق البلاد الكبيرة الرّحيب، من خلف نافذة غرفته المطلة على مقرن النيّلين.

كان تاريخ "درب الأربعين" إذن -على حسب خرائط ومخطوطات صانع الفخار، التي حصل جادين جانو على بعضها -بطرق غاية في السرية والتكتم- منذ منتصف القرن الأول قبل الميلاد. فرضته ضرورات فك العزلة، والتواصل بين شعوب سهل البلاد الأسيّرة والجوار.

أشار صانع الفخار في مخطوطاته إلى طرق أخرى، ظلت تربط شعوب سهل البلاد الواسع بالعالم، وهي الطريق التي تربط بين دار الريح والممالك المنتشرة، في حوض تشاد ويمر بكبكاوية، ومنها إلى كردفان وسناروشندي والبحر الملوّن.

بعد مئات السنوات ستصبح هذه الطريق، شريانًا حيويًا يربط دارالريح كلها، بمنبع الريح على تخوم الأطلسي، كما يربطها بالأراضي المقدسة، خلف البحر المملون في دار صباح.

فعبّر هذه الطريق يمضي الحجيج من "كانم وبرنو" من ممالك دارالريح العريقة، في طريقهم إلى الحجاز.. حجيج كثيرون تتقطع ببعضهم السبل بين الأهل والأوطان، وبعضهم يطيب له المقام اختياريًا، وآخرون يتم ترغيبهم من سلاطين دارالريح الأقوياء، لتعليم الناس فيقيمون ويصبحون فيما بعد أحد المكونات الأساسية، لشعوب سهل البلاد الواسع.

ثمّة طريق أخرى تربط دارالريح بطرابلس وتونس، يوليه صانع الفخار أهمية خاصة، لا تقل عن أهمية درب الأربعين، إذ تعود أهميته للاهتمام المتزايد لدى سلاطين دارالريح الأقوياء، بالحصول على الأسلحة من شمال أفريقيا لتأمين مملكتهم، التي برزت على نحو مباغت من أعماق "جبل مرّة"، لتمثل منارة تلقي بضوئها على دار صباح ودارالريح الكبيرة حتى تخوم الأطلسي، وهو أيضًا لا يقل أهمية في مخطوطات صانع الفخار، عن الطريق التي تربط فاشر السلطان بأسبوط، في منحدر النهار الموازي "لدرب الأربعين".

كانت كل هذه الطرق، تحمل في داخلها عوالم صغيرة متحركة، تتمثل في مجتمعات القوافل، المنظمة تنظيمًا دقيقًا، لا يخلو في إدارته من تراتبية تعني بكل شيء، حتى جوانب الأمن تجاه هجمات قطاع الطرق، ولصوص الصحراء والجنكوز.

وهكذا كانت حركة مجتمعات القوافل وأنشطتها، لا تبدأ منذ نقطة البداية حتى نقطة النهاية.

بعد مئات السنوات في محطات هذا الدرب، عثر الكشاف "جاك رينولد" على مخطوطات مهمة لصانع الفخار، أدى فك شفرات رموزها، لاكتشاف أن "وادي هور" في دارالريح هو نهر قديم بطول ألف كلم، حيث ينبع من هضبة جبل مرّة ويلاقي النيل بالقرب من "دقلا العجوز"، وأنه كان يُستخدم أيضاً -نهر هور- لربط دارالريح بالبلدة القديمة، حاضرة البلاد الأسيرة. اهتمام سلاطين دارالريح الأقباء المتعاضم، بكل هذه الطرق، وخاصة درب الأربعين وطريق الملح، ترتب عليه التجهيزات الكبيرة التي تُجرى على طول هذه الطرق، من حفر الأباروصيانتها، وإقامة الحبوس لتأديب قطاع الطرق، وإقامة الربط لعابري السبيل والحجاج فيما بعد.

وربما السبب الأساسي لهذا الاهتمام، هو أن السلاطين وجيوشهم، كانوا هم الممولين الأساسيين للقوافل، وكما أن الطريق "درب الأربعين" ارتبط في وجدانهم، بأحداث دينية مهمة عبر السنوات.. آخرها تلك الكساوي، التي كان يبعثها أولئك السلاطين إلى خُدّام الحرّمين الشريفين، وأهل الحجاز الفقراء والمعدمين!

وباستثناء المعلومات التي أوردها صانع الفخار، لم يهتم أحد عبر العصور بإعطاء أي نوع من المعلومات، التي تميّط اللثام عن هذه الطرق، سوى ما تم تناقله شفهيًا وغذاه الخيال الشعبي.

يسأل أحدهم حمد الأعرج:

"يعني يا عم حمد العرب ديل هم عرب بطاحين ودناقلة وفور
وشكرية وهندندوة ودينكا و أنقسنا ولا عرب تانيين؟".

"عرب وبس.. عرفت عرب يعني شنو؟ يعني العرب، العرب،
العرب".

"لكن بقوا عرب كيف؟".

"يا ابني ديل من يومهم عرب".

"طيب الجعليين ما جدهم الفضل بن العباس".

"يا ابني ده كلام جرايد ساكت.. الفضل ده وحياتك كان عاقر..
القصة تاريخ ولا كوار..".

"طيب جو من وين؟".

"سؤال زي ده إلا يرد عليه المهدي".

"واشمعنا المهدي؟". "لأنونوبي من جزيرة لبيب، وكمان بعد ده
كلو جده الرسول.. موش حاجة غريبة؟!".

خدم صانع الفخار كمهندس للقصر الملكي في علوة، وكمهندس
زراعي في المغرة، وكمهندس طرق في سوبا، وتنقل في أرجاء البلاد
الأسيرة متتبعًا صوى الساري وعلامات الطريق، التي تفضي بطريق

الملح إلى تخوم ممالك الساحل، أو تقود درب الأربعين عبر منعرجات اللوى إلى منحدر التهر.

وبحسب "الخبزين طيلة" أن صانع الفخار الأكبر ولد في "جبال كتري" في قلب البلاد الأسيرة وتعلم على يد "الفقراء الرُّحل"، وعمل في طفولته مزارعًا بالأجرة في "حلالات وقرى دار الريح"، وعندما اشتد عوده ارتحل إلى دار صباح، فكان له ما كان في قصور الممالك النوبية.

كتاباته ومخطوطاته كتبت بلغة الفور والنوبية القديمة، الممزوجتين في لغات الصعيد ودار صباح، ما جعل هذا المزيج اللغوي المحير من الرموز، عصيًا على البوح بكل مكونات ما يريد صانع الفخار أن يقول؟!؛

بانتقاله من دار الريح، التي تعتمد في حياتها على مياه جوف الأرض والمطر، إلى دار صباح التي يشكل النيل شريانها.. وأمام رهبة هذا النيل، ابتدع صانع الفخار طرق الري الفيضي والحوضي.

"كان صانع الفخار يمتاز بخيال واسع وأصابع ماهرة!".

عندما شعر من حوله في القصور، بتنامي نفوذه، أخذوا يدبرون المكائد للقضاء عليه! فوقتها كانت بطانة الحاكم العام، قد فرغت لتوها من التخطيط، لفرض سلطتها وتكريسها لأطول وقت ممكن، باستخدام الأفكار والأهداف السياسية النابعة من عقائد الناس، وتوظيفها لخدمة الحاكم العام.

فقد كانت هذه البطانة تعتقد أن عقائد الأهالي ليست مجرد عقائد فحسب، إذ هي أيضًا نظام سياسي واجتماعي وقانوني واقتصادي، يصلح لصياغة البلاد الأسيرة كدولة مقدسة! تستمد حياتها وسلطانها على الناس، مباشرة من الإله الذي يحكم العالم!

وكان أن حدث أن قام بعض العسس المتطرفون، بمحاولة قتل أحد زعماء الجوار، وحرق مركزًا تجاريًا ضخماً عند تخوم الأطلسي الرهيب، منذها وقد توجهت الأنظار والاهتمامات، إلى ميليشيات الحاكم العام وحزبه الحاكم، لدراسة أفكاره وتحديد مدى خطورتها، على أمن واستقرار البلاد الأسيرة والجنس البشري بعامة، وهكذا أخذ العالم يعقد المؤتمرات تلو المؤتمرات، للوصول إلى نتائج بهذا الشأن.

كان صانع الفخار الحفيد يرى:

أنه لا يوجد فرق بين أفكار هذا الحزب وعقائد الأهالي، فعقائدهم هي نفسها ما عبرت عنه بطانة الحاكم العام في حزبه، وهكذا لم تعد المشكلة في الأفكار التي يحملها حزب الحاكم العام بحد ذاتها، بل في مصدرها وطبيعتها وكيفية عملها في الناس، لدرجة تقبلهم تهديدها لحياتهم!

إذ لم يكن صانع الفخار يرى فرقًا بين هذه العقائد وتجلياتها ومظاهرها وممارساتها العملية، في خطابات الحاكم العام، لذا كان يرى أن من الخطل الفصل بين أفكار هذا الحزب، والعقائد التي يؤمن

بها الناس! كطريقة وأسلوب للحياة محتشد بالنواهي، والأوامر،
والفساد، والإفساد.

كان صانع الفخار يُدرك أن هذه العقائد تخرج عن حدود
خصوصيتها، لدى تأويل حزب الحاكم العام لها، بما يخدم أغراض
السلطة وأهدافها، ويؤمن لها وجودًا شرعيًا هي بحاجة إليه، ولذلك
كان يرى الأمور بطريقة مختلفة، إذ يعتقد أن إيمان البعض أو
إلحادهم، هو شيء يخصهم وحدهم، وفقًا لقناعاتهم الفردية، وذلك
أن القناعات لا يمكن حسمها بقرارات السلطة، وهكذا طور مفهومًا
للحرية والاختيار، شاع كثيرًا في أنحاء البلاد الأسيرة، لكن عجل بتأمر
بطانة الحاكم العام عليه!

وكان صانع الفخار عندما ينظر لكل هذه الطوائف، التي أنشأتها
بطانة الحاكم العام. يدرك أن البلاد الأسيرة كوطن تمضي إلى حتفها،
بحلول الطائفة محل هذا الوطن، الذي هي نقيضه!

إذن كانت الطائفية بمرور الوقت قد سادت، وتوارى سهل
البلاد-الوطن.. وتفشى القمع والفقري كل تفاصيل الحياة، لكن
منذ تلاشت الفروقات بين عقيدة الناس وممارسات الحاكم العام..
لم تعد البلاد "كوطن" تحتمل هيمنة الطوائف، التي تنذر بتهديد
وتبديد كل ما هو جميل!

في قيلولاته المتباعدة، كان صانع الفخار يتكى على جذع النيمة
العجوز، على مشارف البلدة المترعة بالأسى والأحزان.. يلقي برأسه إلى

الخلف، ويغمض عينيه. فيتداعى إلى فضاء ذاكرته صوت الخزين، يحدثه عن الطائفية وخذاعها للناس واستعبادهم، وانتزاعها لأحلامهم من بين تلافيف أشواقهم وتطلعاتهم، لتشييد امتيازاتها الخاصة، وسلطتها وسلطانها عليهم!

فالطائفية كحزب الحاكم العام، لا تأبه لخير المجتمع ورخائه، بل تعيش من تخلف الناس واختلافاتهم وجهلهم، ولتكريس تلك الاختلافات والتخلف، تتحالف مع كل ما من شأنه القضاء على معارضتها، الذين لا تتورّع عن قتلهم معنوياً، وإهدار دمهم بتكفيرهم وتنفيذ الحدود فيهم.. إرهابهم ومحاربة كل ما يمكن أن يوجد به العقل البشري لتنمية حياتهم!

إذ ترى أن ما طرحه مقدساً، يستمد نفوذه من قدسية العقائد، وأي اختلاف معه هو اختلاف مع المقدس نفسه! وهو ما يهدد البلاد الأسيرة بالزوال، إذ يعصف بالمجتمع، لأنه خارج وجدان الأمة!

كان الخزين يرى أن التشريع لحياة الناس، يجب أن يكون متعددًا المصادر، فحياة الناس وميولهم أوسع من أن يتم تحديدها بمصدر وحيد، يتقاصر عن شمول ما بلغه العقل البشري وحياة الأهالي من تطور!

إذن تمكنت الطائفية وحزب الحاكم العام أخيراً من تحويل إنسان البلاد الأسيرة إلى حطام إنسان فقير معدم، وضعيف تتناهشه

المجاعات وينهش بعضه البعض، فكان صانع الفخار يفكر في السبيل لتحرير النَّاس والبلاد، باسترداد روحها السلبية بسبب الإستخدام السليبي لوظيفة الدولة ومؤسساتها، من قبل الذين يدعون امتلاك الحقيقة المطلقة، واحتكار المعرفة بعقائد النَّاس، وهم في الواقع حراسًا للنُّوايا وفقهاء للظلام! الذي يسيطرون به على العقول والحياة؛ فيحققون أغراضهم الدنيوية، التي تتناقض مع القيم المعلنة للعقائد.

وهكذا يتم تعميم أنماط الاستغلال والاستعباد والقهر الإجتماعي كواقع لا يمكن تغييره. لذا كان صانع الفخار منشغل البال دائماً، بإيجاد السبيل للارتقاء بمفهوم للقانون، ينظم حياة النَّاس دون أن يهيمن عليهم.. قانون يغذي التسامح المفقود، ويعيد البلاد الكبيرة إلى مسارها في التاريخ..

كان يحلم ببلاد تخلو من الدّم والتطرف والانتقام.. بلاد تتقلص فيها الأنشطة الهدّامة للطوائف والإثنيات والجماعات، ويحمي القانون شعوبها بشكل متساو.. حيث لا توترأواقتال.

إذن بما تنطوي عليه منحواته ومخطوطاته من روح ثورية، ألهمت الحركات المسلحة في أطراف البلاد الأسيرة، كانت أفكار صانع الفخار، تخيف كل الذين ارتبطوا بحزب الحاكم العام وطوائفه الجنكوزية، فخشوا من النتائج التي تختبئ خلفها، وهي النتائج نفسها التي حفلت بها معتقداته، حول أسئلة ذات وهوية البلاد الأسيرة.

فصانع الفخار كان يؤمن، بأن العقل هو الذي يؤهلنا يومًا ما، لمعرفة الإله المهيمن على كنائس الممالك النوبية. وأي إله آخر تقترحه الديانات السابقة أو اللاحقة.

هذا الاعتداد بالعقل، دفع رجال الدين إلى مطاردته، وتدمير ما طالته أيديهم من أعماله، بغرض أن يذكر التاريخ أنهم فعلوا كذا وكذا ويشتهرون! لكن التاريخ خيب ظنهم، ولم يذكر اسم أي واحد منهم! فضلت هذه الحقبة بحد ذاتها لُغزًا محيرًا!؟

الملكة النوبية (الكنداكة) التي رغم اعتناقها ونشرها المسيحية في قومها، حافظت على إرثها السابق، لكن ما أن توفيت حتى أصدر كبير وزرائها أمرًا بمسح اسم صانع الفخار، من كل نقوش الكنائس النوبية، وتدمير معمل صانع الفخار في "سوبا" تدميرًا كاملًا!

كما حرمت الكنيسة النوبية صانع الفخار نفسه "حرمانًا كنسيًا" بتهمة الهرطقة! وهكذا عاش صانع الفخار أيامه الأخيرة مطاردًا، إلى أن تم إحراقه ذات صيف قائظ، في ساحة الكنيسة الكبيرة التي يلتقي فيها نهر هور النيل في دنقلا العجوز؟

قُتل صانع الفخار الأكبر بالطريقة ذاتها، التي قُتل بها صانع الفخار الحفيد، فمات وحيدًا حزينًا أسيانًا تشيعه آلاف الحسرات!

□□□

في تلك الظهيرة البعيدة، وعلى الطرف الآخر من البلدة العتيقة، في اللحظة نفسها، التي صعدت فيها روح صانع الفخار، تطوف في سماء البلدة المكفهرة، كانت إنداية الفدادية كلتوم، تشهد فصلاً مشاهياً لما يدور في إنداية السُرة كحل الليل، فبعد أن بلغ السكر بالجميع مبلغه، أخذوا يتفاخرون ببطولات وقصص من وحي القمع العنيف، الذي كانت تشهده البلدة القديمة منذ تولي إدارة جهاز الأمن الجزار المروع الترح، الذي استأسد على الأهالي البسطاء بجبروته، فأخذوا يحسبون له ألف حساب في العلن، بينما يمضون سراً في الإنديات يلوكون سيرته، ويشيعون أسراره المسرّبة، خصوصاً التي تتعلق بخوفه من زوجته وتضاؤله أمامها، حتى ليصبح بوداعة الحمل!

كانت الزوجة من طينة النساء اللواتي، يسرن على حل شعرهن.. تحيا حياتها كما تريد، دون اكتراث لأي شيء، فقد دأبت على معاشرة الشبان والمراهقين بدون حسيب أو رقيب، الذين لم يكن زوجها عندما تتناهى إليه تقارير البصاصين عن أحدهم، يجرؤ على التعرض له خشية أن يتسرب الأمر إلى زوجته، فلا يتعرض للعشيق المعني إلا بعد أن يأتيه البصاصون بتقارير أخرى، تؤكد أن زوجته ما عادت تربطها به صلة، فلا يلبث العشيق أن يختفي في ظروف غامضة دون أن يخلف وراءه أثراً! ويصبح في عداد المفقودين!

كانت زوجته قد بلغت حدًّا من الجُرأة، باتت معها تستضيف عشاقها علنًا، تارةً في وضح النَّهار وأخرى خلصة، بمحل إقامتها المحروسة ليل نهار، بالبصاين الجنكوز والعسس.

وذات يوم حضر الترح على حين غرّة، وضبط زوجته في أحضان شاب بغرفة النَّوم، ولم يحرك ساكنًا كأن الأمر لا يعنيه! إذ ظل متسامحًا فوق العادة تجاه زوجته، في الآن نفسه كان يمضي يبث رعبه في البلدة القديمة!

إنداية كلتوم الفدادية كغيرها من إنديات البلدة القديمة، لا تتوقف عن تناول فضائح البلدة القديمة، ولا يكف روادها عن المعارك الصغيرة التافهة، والتفاخر والمبالغات، إذ ما أن تلعب المريسة برؤوس روادها، حتى تسمع أبكر الفوراوي يقول لعبد الله الجلابي:

"يا خي كان درت الرجالة تلقى في دارنا، وفي دارنا في بيتنا، وفي بيتنا أنا وإسحاق أخوي.. وكان قربت إسحاق داك تشيفي ناروولع، وكان جيت عليّ أنا أبكرده، أخير تقبل عليّ نارك".

"أنا والله حجابي ده الرصاص ما ياكلو".

"هاي يا فلنقاي يا هوان، رصاص وين.. أنا والله الرصاص ينزل فوق، وكان مكضبني أسأل حليلة.. شافت بي عينا".

وينعطفون بالحديث إلى منجى آخر:

"البارح إسماعين دق مرتا".

"سوى شنو يا ربي؟".

"إنت ما عارف؟! المرا قالت ما بتسوي المريسة!".

"الله ينعل مرا تاركة الصفاية!".

"تاركة الصفاية منو بيقتعد في جوديتها؟".

وينعطف سمرهم مرّة أخرى إلى نقطة بدايته، إذ يتذكرون فجأة
غلاطهم حول الحجاب:

"والله الليلة إلا نجربي العكازده فوقك.. نشوف كان حجابك
نافع".

وتدور العصي، وتخرج السكاكين من أغمادها وتصبح النساء:

"سجبي طعنو.. كتلو..".

بينما هم يتصايحون:

"رميتا ولد البقس.. ولد الكافرة..".

ويتدخل العقلاء يفضون الاشتباك بالقوّة..

"والله كان ما إسحاق أخي حجزني منك، كنت أسل حلقومك..

قال حجابي يسوي ويسوي..".

ويعقد لهم مجلس الأنداية كيفما اتفق محاكمة عاجلة..

يقول رئيس المحكمة بعد استعراض الحثيات: "تسوا دواس ساكت.. ده كلام شبع.. الليلة إلاتشوفو كلامنا نحن ترا.. كلامنا حار ما زي كلام الحكومة".

"انا والله قاعد ساكت نشرب في مريستي، الجلابي ده براهو جا قعد معنا".

"المشكلة وين هنا؟".

"وكت مريسة طلعت في راسو، قال حجابو أحسن من حجابي.. ونبذ حجابي.. طقاني بالعكاز فقت طقيتا".

"وانت يا الجلابي طويرة البقر، الدواس كلو جبتو إنت.. قولك شنو في كلام أبكر؟".

وكان الجلابي يدرك أنهم ينحازون لأبكر:

"ما عندي قول غير كلمة واحدة بس، كلام أبكر ده كلو غلط.. هو بدأ الدواس.. و".

وهكذا تستمر محكمة الأنداية المنعقدة تستمع إلى مغالطات الجلابي وأبكر.. فيما تبدأ الساقيات المتعاطفات مع أبكر، بما يحملنه من بغض مكتوم للجلابة، على خلفية تاريخهم في جلب الرقيق، تتغامزن:

"هي يا يمه هي.. شوف عيني الجلابي بال في لباسو".

فيشعر الجلابي أن أفضل شيء بإمكانه فعله الآن، هو الخروج
بهدهوء، والّا يعود إلى هذه الإنداية مرّة أخرى أبدًا.. فأرض الله واسعة
والإندايات كثيرة!

في هذه اللحظة نفسها، التي تسلل فيها الجلابي خارجًا متعذرًا
بقضاء الحاجة.

في تلك الظهيرة البعيدة، وفي هذه البلدة المتكئة على مقرن
النيلين، كان الأب جميل قسيس الكنيسة العتيقة، قد بدى معتلًا.. لا
بسبب الاعتكاف وقلة النوم والطعام، بقدر ما كان بسبب مشاعر
غامضة لا يدري كمها، ظلت تتناهبه لأيام.

وفيما أخذ القس يعد التحضيرات، مجهزًا نفسه للقديس، بعد
اعتكاف دام لشهور طويلة.. لامست أنفه رائحة غريبة! هي مزيج من
رائحة أوراق الشجر المعطونة في مستنقعات البلدة الصغيرة، ورائحة
روث الحيوانات! فبداله ذلك غريبًا! فالمستنقعات كانت جافة،
بسبب عدم هطول المطر، أو فيضان النيل ذلك العام.. أراضي البلاد
الأسيرة كانت قاحلة.. وكل النباتات قد ذبلت، وكل الأعشاب قد جفت
منذ أمد طويل، وأصبحت هشيمًا كالهبود، لذا كان من الغريب أن
تتحسس خياشيمه، مثل هذه الرائحة التي عبق بها الهواء، الذي
يحيط بالكنيسة.

وكأنما البلاد الكبيرة تعيش إحدى خرائفها المنصرمة، منذ زمان بعيد! لم يجد القس تفسيراً لهذه الرائحة، فترك كل شيء ومضى لا يلوي على شيء،

في طريقه مر بجمهرة من الناس، حول سجن البلدة، الذي كان في مساحته، أكبر من مساحة البلدة نفسها! ففكر في السجناء الذين تعاقبت عليهم الفصول، دون أن يروا أهلهم!

ثم عبر إلى الفناء الذي يتوسط البلدة، حيث سوق ود أم جبو الورا السوق الصغير.. الذي كان خاليًا من المازة ودكاينه مغلقة، لم يكن هناك سوى دكانة واحدة غير مغلقة.. اقترب منها.. كانت مهجورة رفوفها خالية.. ويبدو أن صاحبها هجرها منذ وقت طويل، وقد عبت فيها تلك الرائحة..

الرائحة نفسها التي حاصرت الفضاء حول الكنيسة، وانتشرت في فضاء البلدة!

كان شعورًا غامضًا هو ما يسيطر على القس لحظتها، فانحنى يصلي لتحفظ الرّوح القدس البلدة، التي كانت تمضي بخطى حثيثة، نحو النهايات الوشيكة والزوال!

كان حدسًا خفيًا يجعله يوقن أن ثمة هلاكًا وشيكًا! وهو منقطع في صلاته عن الدنيا، سائلًا الرّب الغفران والرفق بشعب البلاد الأسيرة.. كان متعبًا.. حتى أنه أثناء صلاته، كان يغفوبين الأونة والأخرى بعينين مفتوحتين، إلى أن رأى ضوءًا ساطعًا، وسمع ضجيجًا

عاليًا يتخلل الضوء، الذي تشبعت به الرّائحة، التي انتشرت في
فضاء البلدة. فأخذ كل شيء يدور أمام عينيه: الدكاكين المهجورة،
بقايا الشجر الجاف، الدروب الضيقة..

لم يكن يدري كم من الزّمن استمر على هذا الحال، إلى أن انتبه
أنه لا يزال في فناء الكنيسة، التي لا يدري كيف عاد إليها؟! انتابته
الظنون، أن كل ما حدث ربما هو أضغاث أوهام!

كان الهواء المشبع بتلك الرّائحة يجرح رئتيه، فيشعر بالألم
والضيق، عند دخوله إلى حيث يُقام القداس، كان يعرف.. كما ظل
دائمًا يعرف أنه بين يدي الرّب، فإذا خطرت بباله فكرة ما، كالخواطر
التي تشعلها هذه الرّائحة، التي هيمنت على كل شيء، تحول الخاطرة
دون تركيزه في الصّلاة، ولهذا السبب لم يقدر على إكمال طقوس
القدّاس، فمضى يخلع قلنسوته ويغلق عينيه، عسى أن ينام فتهدأ
خوابه!

تناهت إلى مسامعه أصوات مختلطة.. متزاحمة في بعضها
البعض.. ارتدى ثيابه على عجل وخرج.

تبين أهالي البلدة كأنهم ينشقون من جوف الأرض، يتزاحمون
حول الكنيسة، وأخذ يستعرض وجوههم، إلى أن توقف عند صانع
الفخار، الذي كان مقيدًا يرسف في الأغلال.. يحاصره رجال الترح من
كل جانب..

توقف يتأمله طويلاً.. بدا له صانع الفخار أنيقاً في ابتسامته،
التي لا يتغشاها الخوف أو الوجل..

كانا يعرفان بعضهما، فصانع الفخار الذي كان ينتظر المصلين
لدى خروجهم من الجامع ظهيرة كل جمعة، ليخطب فيهم، كان يفعل
الشيء نفسه بالخطبة أيام الأحاد، في المصلين الخارجين لتوهم من
الكنيسة، بعد فراغهم من صلاتهم، وكان القس يستمع إلى خطبه
باهتمام، ثم يهز رأسه وينفقت إلى داخل الكنيسة، إذ كانت خطب
صانع الفخار، التي تخلو من الغيبيات، تذكر القس بفخار المعابد
القديمة!

مع ذلك كان يحب مبالغتها في رصد حياة الناس، وبيتسم حين
يتذكراًهم أنفسهم، لا يدركون حجم ما يعانونه! لذا كان يعتقد أن
من الخطل تبصيرهم بذلك وجعلهم يذوقونه! ولهذا السبب بالذات
حرص في صلواته، أن يستخدم كلماتٍ ورموزاً إيمانية عاطفية،
تطمئنهم أن كل شيء على ما يرام، وأن الله إذا أحب العبد ابتلاه! وأن
الفقراء يدخلون الجنة! وأن المغرضين وحدهم من يريدون تصوير
الحياة لهم، بعيداً عن ملكوت ورحمة الرب، الذي تقدّست أسماؤه في
الأعالي.. فالأرض ملأى بثمار الحب والسلام وما عليهم سوى قطعها!؟

كان كلاهما –صانع الفخار والقس- يعلمان أن الأب جميل كاذب
أفاق، مثله مثل إمام جامع سوق ود أم جبو.. فالاثنان يستغلان
عقائد الأهالي البسطاء، التي تجذرت بأسرارها في القرون البعيدة،
لإفهامهم أن السلام في متناول أيديهم، التي ما عليهم سوى مداها!

لذا في تلك اللحظة الفارقة، التي أدرك فيها القس أنها اللحظة الأخيرة، لصانع الفخار قبل أن يغادر الحياة، إلى حيث الأعالى، ليسبح في النيران السرمدية المفزعة، جزاء أفكاره الشريرة التي تريد تغيير حياة الناس!

في الحقيقة لحظتها كان صانع الفخار، يفكر على نحوٍ مختلف، فمن قلب وحدته البديعة المعزولة في التاريخ.. وهو يحاول تحريك يديه المغلولتين، كان يرى كل شيء مختلفًا، وهو يشعر بدنو الأجل للقاء أجداده من صانعي الفخار العظام، حيث الأنهار الفريدة للخمر واللبن..

كان مظهره ملفتًا للنظر في هذه اللحظة بالذات، أكثر من أي وقت مضى، بشعره المجعد الغامق، ووجهه الدائري، الذي اختفت منه التفضنات والأخاديد، التي لطالما برع الدهر في رسمها.

شفتاه الناديان رغم بياسهما، حتى عيناه.. كانتا ثاقبتين رغم الشحوب، الذي لاح عليهما بشكلٍ غير مألوف!

"كان شكله حقًا ملفتًا للنظر."

هكذا ظلّ القس لسنوات عديدة يتنهد، أثناء خطبة مكرورة، ملها المصلين، فلم يعد أحد يأبه للصلاة في الكنيسة لسماعها.. هكذا كان يتنهد.. كلما خطرت سيرة صانع الفخار، التي لا تخطر على باله، إلا أثناء إلقائه تلك الخطبة.

كان شيخ صانع الفخار يطارده أثناء خطبه المكرورة، بتلك
الهيئة غير المألوفة، في تلك اللحظة الفارقة بين عالمين.

الأهالي الذين كانوا متعلقين حوله في تلك اللحظة، كانوا
يجزمون فيما بعد، بأن العسس عندما أشعلوا فيه النار، بدى غارقاً
في مطر العينة الغزير..

"كان مشرقاً يرفل في سعادة خفيّة، كما لو كانت النار تغسله من
كل خطايا البلاد الأسيرة.

في اليوم الذي أعدم فيه صانع الفخار صلباً وحرقاً، اختفى
الخزين ود طبله، كأنه لم يكن جزءاً من نسيج هذه البلدة المعذبة
يوماً، ثم لم تلبث أن تو اترت عنه الأخبار، فالبعض يقول إنه رأى أثناء
نومه:

"لكن وجهه كان يشبه شيئاً لا يشبه له!"

البعض الآخر ممن زعموا رؤيته في سرهم، تكتموا على الأمر ولم
يفصحوا عنه، إذ كانوا يحاولون جهد طاقتهم تجنب تحقيقات عسس
الحاكم العام وحزبه، فكانوا يتدربون على أنفسهم في القيام بدور
المحقق!

وفي الحقيقة لو أنهم ذهبوا إلى العسس، لما تغيّر شيء في المسألة،
إذ ليس بإمكانهم تقديم أي حقائق عن رؤيته، أو المكان الذي يختبئ
فيه الآن، أو آخر مكان رأوه فيه، قبل أن يبلغوا العسس! إذ ليس

لديهم أي براهين أو دوافع محددة، فهم ليسوا على يقين.. حتى.. من أنهم متعاطفين معه، ومع صانع الفخار أم حانقين عليهما؟!!

كما أنه كان قد تولد فيهم انطباع عام –مثل كل الأهالي- باللامبالاة، وبلا جدوى أي شيء، لذا عندما يفكرون في الأسباب، التي تجعل العسس يجدون في البحث عنه، لا يتمكنون من إيجاد إجابات شافية، فيرمون برؤوسهم إلى الوراء وهم يتهدون:

"على أية حال الخزين هو الوحيد الذي يملك أدلة براءته".

كانوا في حالة من البلبلة جعلتهم لا يميزون، أو يخطر على بالهم سؤال:

"البراءة من أي شيء؟ وماذا فعل لئُدان؟ أي تهمة؟".

ففيما يبدو أن سكان البلدة قد أصيبوا بالخبال، وهم يرون صانع الفخار يرحل مصلوبًا ومحترقًا في كنيسة البلدة القديمة، ورماد عظامه يغطي سطح النهر، فيسد القناة التي تقرن النهرين.

بُعِيد إحراق العسس لصانع الفخار، والاختفاء الغامض للخزين، شدد العسس من مراقبتهم أكثر من ذي قبل.. كان الجميع يراقب الجميع كل لحظة!

في البدء حاول الأهالي التعبير عن استيائهم وسخطهم من هذه الدّوامة، التي كانت تشدّهم للقاع، لكن مع اشتداد القمع، كانت

همتهم قد فترت، وشعروا بأنهم تقدموا في السن كثيرًا! بل أخذوا بمرور الوقت يعتادون الأمر، ولم يعد أحد يأبه لما يجري في البلدة القديمة، التي توشَّحت البؤس والحزن المقيم؛ فالعسس كمخلوقات فظة ووضيعة، تمكنت من زرع كل أنواع المخاوِّف والظنُّون، في الوجدان الهش لأهالي البلدة البسطاء! بعد أن تربصوا بهم في كل مكان، بكل ما كانوا يضمرونه من أحقاد وضغائن ضد المعارضين.

مع ذلك ثمة شيء واحد كان يهيمن على فضاء ذاكرة الأهالي الطيبين، من آن لآخر: شبح صانع الفخار، الذي ظل يطاردهم طوال الوقت!



وفيما البلدة القديمة تعاني أحزانها، انفجرت في الإندائيات حكاية جديدة طغت على ما خلفه مقتل صانع الفخار من مناخ كئيب، إذ على نحوٍ مفاجئ، فتح نظام الجنكويز كل نو افذ إعلامه لبعض نساء كبار الموظفين، للحدِيث عن حقوق النساء السحاقيات، وهكذا بات الجميع مشغول بالجندر، وكالعادة انقسم رواد الإندائيات لفريقيين، فريق يدافع باستماتة عن حركة السحاقيات ويعلن مسانדתه لها، وفريق يقف ضد المثليين عمومًا في مشارق الأرض ومغارها لا البلاد الأسيرة فحسب، فيما فريق لا يعده أحد كان ينظر لحركة الفيمينيست كطابور خامس، يعمل لصالح مخابرات غربية سيئة السمعة!

ومضت الصحف التابعة للنظام تحلل الظاهرة، وتؤكد أنها ليست ظاهرة دخيلة على المجتمع، فجعل المدن العتيقة عرفت اللواط والسحاق، عبر التاريخ العريق للإنسان.

وفي الحقيقة -جوهر المسألة- كان النظام الجنكويزي يريد شغل الناس، وصرف انتباههم وتفريغ غبائهم، على قتل صانع الفخار، كإجراء وقائي، لقطع الطريق أمام أي حركة احتجاجات محتملة.

عندما تنهى إلى مسامع صغرى زوجات الحاكم العام، خبرقتل صانع الفخار، واختفاء الخزين على نحوٍ غامض، كانت لحظتها عائدة للتو، من إحدى رحلاتها السياحية خارج البلاد الأسيرة، برفقة عدد من حرسها الخاص، وكان أول شيء فعلته بمجرد وصولها قصر الحاكم العام، أن دخلت إلى جناحها وأخذت تتفقد كل شيء حولها لوقت ليس قصير، ثم أطلقت برأسها من إحدى نوافذ الجناح، تتحسس الهواء، الذي كان مشبعًا برائحة الحريق والعطن.

كانت الشمس تحط فوق أسطح، المنازل في أزقة البلدة القديمة.. وعلى نوافذ أجنحة القصر حطت طيور السمير العرجاء، التي جاءت في غير مواعيد هجرتها.

تهددت زوجة الحاكم بشجن، وتراجعت إلى داخل جناحها، وقد خيم على فضاء القصر نوع من الصمت أثار فيها الإحساس الغامر بالانقباض، صبت لنفسها كأسًا من البنقو المغلي، وجلست تحدث نفسها حينًا، وتسرح في خيالها حينًا آخر، في انتظار الحاكم العام،

الذي لم تشعر بالوقت الطويل الذي مر، عندما دخل عليها بادي الإنهالك والإعياء.

سرعان ما خلع ثيابه واستلقى إلى جوارها، وغط في نوم متقطع، محاصرًا بكوا ابيس أرواح ضحاياه، وهو يتمتم بأسّي صانع الفخار والخزين.. فأخذت تحاول أن تتذكروجهي الرجلين، لكن كانت محاولاتها تبوء بالفشل، إذ كان الوجه الوحيد الذي يهيم على فضاء ذاكرتها لحظتها، هو وجه الحاكم العام، الذي ارتسم عليه كل رعب الدنيا ومخاوفها!

في هذه اللحظة التي كان الحاكم العام يعاني فيها كوا ابيسه المدمرة، بدا وجهه كوجه حرياء طاعنة في السن، تعاني نزعها الأخير، على أهداب موت لا يمكن تجنبه! وانطبعت هذه الصورة التي لا تنسى في ذاكرتها إلى الأبد!

إذ لسنواتٍ طويلة بعد مقتل الحاكم العام، الذي وُجد مختبئًا في إحدى حفر البلدة القديمة، إثرهبة شعبية مباغطة، لم تعد تذكر تلك الأحاسيس، التي كانت تنتابها، عندما تتواثب رغبتها في حذر وجنون، فتلتف حول شعلة النّار المتأججة داخلها، بعد مرور سنوات.. كل أشواقها السرية ستخدم وتنطفئ، كأنها كانت تستمد جذوتها، من شعور الحاكم العام بالحياة والطمأنينة التي تمنحها السلطة والنفوذ!

قبل أن يحدث لها ما حدث بوقت طويل، كانت عندما تهض من فراشها في الصبيحات المتأخرة، لتستحم وتتجمل، فيما يقف الحاكم العام طوال الوقت، يراقب جسدها وعينيها بعذاب لذيد.

في أيامها الأولى بالقصر، كان يطيب لها وهي بقميص النوم، أن تتأمل نفسها في جناحها الذي يعج بالمرايا، وفي الواقع لم يكن هناك ثمة داع للنظر في المرأة، إذ كانت تتمتع بقوامٍ بديع، ونسب فاتنة من اكتنازات واستدارات وتكورات الجسد والوجه.

داخل جفنيها المرتخين، تبدو عيناها الناعستان كسولتتين عندما تقع النظرة العابرة عليهما لوهلة لا تكفي أن تبين خلوهما من حشمة المتزوجات.

وما أن تفرغ من تأمل جسمها، حتى تأخذ حمامها المعتاد، تجفف نفسها، ثم تجلس وتضع مساحيق التجميل بعد أن تسرح شعرها تفعل ذلك بنفسها، إذ كانت تكره الاستعانة بالوصيفات، وتفضل خصي القصر في التدليك، وأحياناً كانت تطلب من الحاكم العام أن يؤدي هذه المهمة بنفسه، وبعد أن تفرغ من زينتها، التي كانت تستغرق وقتاً طويلاً، تحتسي فنجانها الأول من البنقو المغلي، الذي كانت تفضله دوناً عن جميع المشروبات.

وهكذا بعد كل هذه المجهودات الجبارة، التي تبذلها عندما تصحو من النوم، إلى أن تحتسي فنجان البنقو المغلي، تشعر بأن الإجهاد والتعب العظيمين نالا منها، فتغفو قليلاً في مقعدها الممتد

الطويل، لكن لا تلبث عند الظهيرة، أن تدهم خياشيمها في تحدٍ جسور، رائحة البنقو المغلي التي تضيع في كل زوايا وأركان أجنحة القصر، إذ تكن لحظتها زوجات الحاكم العام الأخريات، قد جلسن لشرب بنقو الظهيرة المغلي، بعد أن قضت مضجعهن ببنقو الصبيحة المتأخرة.

تنضم إلهن، تصب لها إحدى الوصيفات فنجانًا.. وتتداول معهن بعد ذلك ما تناقله الحرس والوصيفات والعسس، من أخبار البلدة القديمة الغارقة في مؤامرات اقتلاع الحكم وصراعات مراكز القوى.

كانت أسوأ أوقات يومها كله، هي تلك اللحظة التي يستلقي فيها الحاكم العام إلى جوارها، وهو يعوي ككلبة ينتابها مخاض ولادة متعسرة، كانت ترى نفسها بطريقة فيها نوع من العزاء، إذ تعتقد في دخيلتها أنها وبعد كل ما شهدته حياتها من مآسي، ونكبات، لا تزال صامدة وتقاوم ظلم الحاكم العام على طريقته.

تحقق في جسمه اليابس الممدد إلى جوارها، أثناء عوانه، ثم تنقل بصرها عبر النافذة إلى فناء القصر، الذي شهد ملايين المؤامرات الفظيعة، التي لن يبقى منها شيء بعد وقت طويل. فقد كانت.. ببساطة.. تشعر في قرارة نفسها، ومنذ أن وطأت أقدامها قصر الحاكم العام للمرة الأولى، أنه رجل يتأهب للرحيل! لذا كل ما فعلته خلف ظهره، بدا لها قدرًا لا بد منه! خاصةً عندما يبدأ يطاردها شبح زوجها السابق، الذي غدر به الحاكم العام، واغتاله في سرية تامة..

في الليلة الأولى التي تلت مقتل صانع الفخار، كانت صُغرى زوجات الحاكم العام تحتفل على طريقتها، وهي تنظر في هدوء تتأمل جدران جناحها.. تمر بنظراتها على جسمه الفارع، ثم تخطف بصرها لترمي به عبر النافذة، ترتبك.. ترد بصرها، ثم ترفع عينها. بينما كان هو يملئ عينيه في كل تقاطيعها.

كان سبب ارتباكها ليس الإحساس بالخيانة، بل شعورًا غامضًا لا تدري كُنْه، ربما تشعر للمرة الأولى، أن كل ما تنعم به من حياة، في طريقه إلى زوال وشيك، فتنهض من بين أحضان الحارس.. ترتدي ثيابها، وتدخل إلى الحمام.

كانت لا تألو جهدًا في مقاومة مشاعرها.. رغباتها.. أفكارها.. دون جدوى.. عندما يخطر على بالها مدى اهتمام الحاكم العام بها، ومحبهه ولطفه، وشعوره المزمّن بالتفاني في تعويضها عن زوجها المغدور!

لذلك تفننت في معاقبة الحاكم العام على طريقتها، مستهلة عقابها له بإقامتها علاقة مع سائقه، الذي أصبح بمرور الوقت كفرد من أفراد العائلة، اعتبارًا لطول مدة خدمته لها، كان ير افقها في رحلاتها داخل البلاد الأسيرة وخارجها، وغالبًا ما كان يقضي معها جزءًا من العطلة الصيفية.

كان محبوبًا لدى الحاكم العام! لأمانته في حفظ أسرار زوجته، وفي الحقيقة بعد أن ملّت منه، عمدت لعقد علاقة خاصة بينه وبين

شقيقة الحاكم العام! ثم عمدت لتسريب شائعة مفادها أنه عشيق الفتاة التي كانت قد حبلى منه، والتي كان شقيقها الحاكم قد أعدم زوجها قبل عامين لاشتراكه في أحد الانقلابات الفاشلة ضده!

وتناسلت شائعة أخرى تفيد أن حملها استمر لعامين دون أن يحين ميعاد ولادتها، وهكذا ظهر في الإعلام عدد كبير من الأطباء، يؤكدون علمياً أن ذلك ممكن الحدوث في حالات نادرة، وضربوا مثلاً ببقاء يونس في بطن الحوت، واستعادة أهل الكهف وعزير لحياتهم!

فأطلق رواد الإنديانات على شقيقة الحاكم العام لقب "امرأة الكهف"!

من الجانب الآخر كان السائق الذي أنفق حياته في مرافقة زوجات وشقيقات الحاكم العام، أكثر مما رافق أفراد عائلته، فاض الكيل بزوجته، فاتصلت بأصدقائه المحدودين، واستحلفتهم إقناعه بالتقليل من غياباته المتكررة عن بيته وعن أولاده، وفي الحقيقة كان الحاكم العام وقتها، قد وقَّع على قرار سرِّي بإعدامه غسلًا لشرف عائلته المقدسة!

□□□

لم يمض وقت طويل على مقتل صانع الفخار الأكبر، حتى تم اكتشاف معمل ثان في "الكوّة"، لكنه أيضا دُمر على يد تورالجر الثاني، مخطوطاته ورسوماته بيعت مقيضة بالملح للتجار القادمين من مالحة.. العابرين إلى أقصى دار صباح عند البحر الملوّن..

هذه المخطوطات تمت عملية تحديد أماكنها، على عهد الاحتلال التركي المصري في كل من سوبا، الكوّة، دنقلا، جوبا، أبيي، القلابات، الفشقة، شيكان، حلايب وشلاتين، بني شنقول، قيسان، الروصيرص، الفاشر ومليط وكامل أراض فوربرنقا.

وخلال عهد حكومة "السودنة - الاستقلال" تمت محاولة البحث المكثف، عن وثائق تظهر تصاميمه ومخططاته من قبل بعثات فرنسية، فظهر وقتها اسم "صانع الفخار" للمرة الأولى، كأحد عباقرة البلاد الأسيرة الذين عبرت أعمالهم عن روح عصر متحفز، ظل يتكوّن في التشظي لآلاف السنوات؟!!

تصاميم أغلب هذه الرسومات، ما تزال غير واضحة، كما أن لغة المخطوطات المزيج من لغاتٍ عدّة، جعلت من الصعب فك شفرات الرموز، على الرغم من ذلك ألهمت المهمشين بعد مئات السنوات، الإجابة عن سؤال الذات الذي ظل يؤرق صانع الفخار؟!!

من الوثائق التي فشلت الحكومات المتعاقبة وحلفائها وخلفائها، في إخفائها وتسربت للعلن. تلك الوثيقة التي ترصد أوجه الحياة الاجتماعية، والثقافية، والفنية والسياسية.. وكل الأنشطة، التي

حفلت بها الممالك القديمة، في دار صباح والسافل ودار الریح والصعيد، عندما ثبتت المسيحية أقدامها في دار صباح القصى والسافل والوسط؟! بينما ظلت كل الوثائق، التي اكتشفتها البعثات المتعاقبة، منذ العصر التركي المصري.. وحتى عهد أول حاكم عام بعد الاستقلال، تختفي في ظروف غامضة، وتظهر هنا وهناك على نحو متباعد، في متاحف العالم ودوروثائقه، والمجالس السرية والمعلنة لأهل الحكم والثقافة والسياسة والأدب، في البلاد الأسيرة.

بل أن الوثيقة الوحيدة، والتي هي "حجة في شكل حكم البلاد الأسيرة وكيفيته"، والتي كانت موجودة في دار الوثائق المركزية، تمت سرقها (من قبل أحد سياسي البيوتات الجنكوزية الكبيرة) واختفت في ظروف غامضة. دون أن يبين لها أثر؟!

وهكذا ظلت أعمال صانع الفخار، غير منشورة بشكل رسمي، تبعاً لمنع أيديولوجي من نشر اسمه وتاريخه، وإرثه القومي، وخصوصاً خفايا أعماله، ما يؤكد أن هناك مؤامرة دائمة ومستمرّة لاحتوائها أيديولوجياً، لإخفاء أفكار أصيلة. واختراعات كثيرة سابقة لعصرها.

وكل الدلائل تشير إلى أن كل ما يتعلق بصانع الفخار، من سيرة ومسيرة، محفوظ بسرية تامة من قبل الأمن والمخابرات، ومفوضية الأحزاب الجنكوزية الطائفية، التي تتكون من الثلاثة الكبار، الذين يحلون ويربطون ويتحكمون في تاريخ وحياة البلاد الأسيرة على كيفهم؟!

صانع الفخار منذ طفولته الباكرة، استهواه تشكيل الطين، فهو لم يخلق من النور أو التّار.. بل من الطين! لذا ظل دائم الحنين لمصدره الأول؟ كما ظل دائم الخوف على هذا المصدر، الذي يتأثر دائماً بمناخ البلاد الأسيرة المداري، والذي يتميز بارتفاع درجات الحرارة معظم أيام السنة.. وتدرجه من جاف جداً في أقصى السافل، إلى شبه الرطب في أقصى الصعيد، حيث تصل درجات الحرارة أقصى معدلاتها في فصل الصيف، وحيث يصل المعدّل اليومي في بعض الفترات، إلى جحيم لا يطاق في الصعيد.

الأمر الذي يجعل الطين حزيناً متشققاً عن أساه! ظامئاً ومتوجعاً.. لا تهدأ آلامه إلا بهطول الأمطار التصاعدية، التي تتحكم في حركة الفاصل المداري، والتي يتصف بها سهل البلاد الكبيرة، باستثناء ساحل البحر الملوّن، حيث المطر الشتوي يداعب التربة المالحة، فيمنحها شيئاً من البوح المبتل بالدموع!

أكثر ما كان يؤرق صانع الفخار من هموم، هو سيادة سمات الصحراء في السافل، والهطول المتقطع للأمطار في دار الرّيح، وتكرار موجات الجفاف، التي تتفاوت في طولها وحدتها، ما يجعل الطين حزيناً وبائساً، ويابساً، ومكتئباً، وكئيّباً! لولا إشفاق البحيرات الداخلية والأودية الموسمية عليه، لذرت الرياح في فضاء الكون الواسع، وأصبحت البلاد الأسيرة محض فراغ في فراغ الكون!

كانت نقطة البداية في الطفولة البعيدة الغابرة، هي وقوفه لساعاتٍ طوال أمام هيبة الطين.. غموضه.. مرونته.. سيولته وقدرته

الفائقة على التشكل.. وكثيراً ما وقف أمام نفسه يتأملها كمخلوق من طين، وسرحت أفكاره في العالم اللانهائي للطين، إلى أن أصبح الطين منهجاً يتحكم في أعماله، يصنف عبر نوعيته وهشاشته وصلادته: أنواع الناس وأحوالهم.. والأشياء ومعناها.. والأماكن وقيمتها، وكذا العلاقات المقيمة والأخرى العابرة!

بل وأحياناً "أصدقاء العلاقة"، الذين "يقفزون" على العلاقة ذات نفسها، فتروح الصداقة هدراً! هكذا إذن فتحه الفخار على عالم لا نهائي.. لا محدود.. عالم مسكون بالحقائق وأنصافها وأرباعها، كما هو مسكون بالقدر ذاته بالهواجس والظنون والجنون!

"إنه صانع الفخار" ..

أو كما أصبح أقرانه يطلقون عليه، وهم يلحظون اهتمامه المتزايد بتشكيل الطين..

خلال سنوات طفولته وصباه، تجمعت لديه مقتنيات ذات أشكال عديدة من صنع يديه.. أشكال لبشر وحيوانات.. أزيار وقداح صغيرة.. و.. وأشكال حُلمية هو نفسه لا يدري لماذا صنعها، ولا إلى ماذا تشير أو ترمز بالضبط؟! كانت غبظته لا توصف، عندما يأتيه أقرانه الأطفال والصبيان بطينهم، ليصنع لهم منه شيئاً ما..

في مراهقته أخذت أفكاره عن الطين، تتخذ منحىً يليق بقلق المحاولة الأولى لاكتساب المعرفة، واكتشاف العالم، فنالت اهتمامه أنواع محددة من الطين: طين الغابات على ساحل البحر الملون..

غابات القرم (المانقروف)، التي تنمو في الخلجان والشعب المرجانية، التي تأوي أصنافاً متعددة من الحياة البحرية النادرة، وطين الجزر الرملية ذات الطبيعة الساحرة، وطين أم درمان الصلد، وتلك الأنواع العديدة من الطين، الذي تذخر به البيئات المائية العذبة والمالحة، والطين الرسوبي في السافل، وطين حوض تكوينات أم روابة، وهكذا وجد نفسه ينزلق في الطين إلى دهاليز الجغرافيا والتاريخ وأقبيةهما.

فامتداد سهل البلاد الكبيرة عبر ثمانية عشرة درجة من خطوط العرض، وتباين أحوال المناخ والطبوغرافيا، أدت جميعها إلى تباين النباتات الطبيعية وتنوعها، وأسهمت في تعدد وتباين أنواع الطين؟

كان يستخدم كل نوع من الطين للغرض الذي يلائمه! فالأقاليم النباتية المتدرجة من الصحراء في السافل، إلى الغابات المطيرة في أقصى الصعيد ودارالريح، أدت لكل هذا التنوع الطيني وأثرت فيه كما أثر فيها.

لم يكن ما لفت نظره حقاً أن استخدام الطين، في أعمال الفخار والخزف مجرد محاولة أولى، لإشباع غرور الجنس البشري، في مشاركة الخالق أعماله ومهامه الجسيمة واهتماماته الإبداعية؟! مصداقاً للقول.. بل هي الجرأة على منافسته، على طريقة الضالين المغضوب عليهم، وغير المغضوب عليهم!

أيضاً! في الحقيقة والواقع الأعم!

كيف؟!

عن طريق حرق الطين وصقله في "الكمان والهوانيب"، تمامًا كما كان حال أبو البشر آدم - حسب الروايات الدينية- لحين من الدهر، تهطل عليه أمطار الفرح حينًا وحينًا أمطار الحزن.. إذن هكذا اكتشف -صاحبنا- النيل والخصوبة والحياة.. اكتشف عالمًا كاملاً متكاملًا، جزئياته تترابط في حبيبات الطين بسيولة التهر، لتعبر عن نفسها في الخلود الهش؟! تبدأ بالزير وتمر بالمبخر، وتنتهي عند كل ميلاد بشري جديد، بكل ما يحمل هذا الميلاد من خصوبة ونماء في حفرة الدخان!

للطين ذاكرة ووجدان يحتفظان بأثار العصور الغابرة: فولكلورها.. سير أهاليها وأسلافهم الصالحين.. مسارات صعودها وهبوطها.. أحاجمها وحكاياتها الشعبية.. ذاكرة ووجدان يحتفظان برائحة وعرق وملمس أصابع صانع الفخار، وهي تنتقل مخلخلة هذه الحبيبات الناعمة، لتصوغ منها شكلاً ما، ربما هو فكرة في خاطر غامض، قد تفصح عنه العصور اللاحقة، ليكشف المزيد من أسرارها قُبر! وربما..



البلدة القديمة منذ بدأت تتشكّل كبلدة عبر التاريخ، دائماً كانت
إنداياتها تختار موقعها على أطراف البلدة وضواحيها، عند امتداد
السوق الورا.

من هذا الموقع المطل على طرق القوافل، كانت الإندايات
تشرف على تقديم خدمات البلدة في الشرب والانسطال، والمتعة
للعابرين من القبل الأربعة للبلاد الكبيرة. وكانت ثمة حوارات معتادة
تدور بين الرّواد الدّائمين والغرباء، الذين يتوقفون عند الإندايات
لوقت قصير، ريثما تتراح جِمالهم ويرتاحون من عناء الأسفار..

إذ غالباً ما تسمع حمد الأعرج، وهو يرد على تحية أحد هؤلاء
الغرباء المسافرين، بعد أن يستوثق من هيبته أنه ليس جاسوساً
للجنكوز:

"سلامات يا أرباب.. أهلاً أهلاً افضل..".

ويمد له قرعة المريسة:

"شكراً كتر خيرك ويزيد فضلك.. الحكيم مانعني من الشراب..".

"حكيم بتاع الساعة كم.. الحكيم الله".

ويسأله الغريب الذي ينخدع بهيئة الأفندية التي أغرم حمد
الأعرج بتقمصها:

"صحيح الخواجات طلوعوا القمر؟".

"أنت بتصدق كلام الجرايد ده، علي اليمين نوح ذاتوما يصل القمر، خلي الخواجات، سيبك من كلام الجرايد الفاضي ده.. هسه لومشوا هناك صحي وجا رمضان حيعرفوه كيف".

"لكن الخواجات كفار.. ما بيصوموا؟".

"كان الما بيصوم كافر.. البلد كلها كفار.. سيبك بالله من الكلام ده.. تعرف مريسة السرة دي تخلي مخ الواحد شغال زي الساعة، يفهم الحاجة وهي طيارة".

على مبعدة كان مدمنو القماريقامرون بالكوتشينة، على ما أحضروه معهم من ديوك وعتان ونقود.. ما يثير حفيظة السرة فتطردهم وهي تصيح بعشمانة الساقية:

"إنتوما تجوهنا تاني.. امشوا العبوا غادي غادي.. ده بيت مريسة محترم ولا فوضى..".

"عشمانة.. يا بت.. أمسكي القرعة من الشايب الأعرج ده.. تاني ما يشرب كفا هو.. عشان يقدر يمشي بيتو".

فيلعن حمد الأعرج أبو الدنيا وهو يقول:

"والله حكم لكن، والله كويس لكن، ما أشرب كان شربت، موش قروشي وأنا حرفها.. أنا بشرب من زمن التركية وما فيش حد سمعني كلام زي ده".

"كان شربت أكثر من كده ما بتقدر تمشي، وتنوم لينا زي البارج هنا.. ونحننا ما بنقدر على كلامك بالليل".

"أنوم أنا؟ طيب اسمعي عليّ الطلاق.. أنا أنا تخرجيني كده.. وحيات تربة أبوي شهر كامل ما أنوم، فاهمة ولا ما فاهمة".

فيقول له الغريب:

"لا يا عم حمد، ما تحلف ساي، شهر كثير خالص.. السقد ما بيقدر عليهم".

"لا لا أنا ما ولد صغير.. أنا كلامي واحد، شهر يعني شهر".

أحيانًا، يُصاب المرء بالذهول من جراء اكتشافه ظاهرة أو قضية يستعصي على العقل قبولها، بل والإقرار بها، ومن ضمن هذه الظواهر ما أصبح يُعرف بإنداية السُرّة كحل العين، ربما لأنها الأقرب إلى قلب البلدة القديمة وسوق ود أم جيو والسوق الصغير الورا. فإلى جانب عمل السُرّة كفداية، كانت إندايتها أيضًا أحد الأماكن الأساسية التي تُضرب منها المواعيد بين فتيات وسيدات محترمت من عليّة قوم البلدة القديمة، للتوجه إلى أماكن معلومة لممارسة السحاق، بعد أن فجر إعلام نظام الحاكم العام قضية الجندر، على الرُغم من رفضه التوقيع على إتفاقية سيداو.

حسب جادين جانوفي الفترة التي تلت مقتل صانع الفخار وأثناء بحثه المستميت لتجميع أعماله، أن حمد الأعرج أفاده، أن ظاهرة

المثليين بدأت تتفشى وسط الطالبات والطلاب، وفقًا للحكايات التي كان يسمعهما من زملائه في المطبعة القديمة، فيؤكد جادين استنادًا على مصادر أخرى:

"أن اختيار إنداية السُرّة أو أي إنداية أخرى لضرب المواعيد، ذلك لأن الإندايات باتت أكثر الأماكن أمانًا، ولا تثير الشكوك باعتبار حركة الرُواد من مختلف طبقات المجتمع، فضلًا عن كونها المكان المعروف لطلب المتعة، ما يرفع الحرج عن المثليين".

وهكذا كانت أيام الإندايات تمضي حكاياتها ما بين طرفي حافتين:

الغرباء، الذين يجيء بهم الطريق، والرُواد الدائمين، الذين يتسلّلون من السوق الورا، بعد أن يقضوا احتياجاتهم فيه.

موقع السوق الورا، موقع غريب وفريد.. فهو كيان مذهل! يتصل بالبحر والأنهار، حيث دلتات الطين الصلصال.. باختصار:

السوق الورا ظل عبر تاريخه، ملتقى طرق العالم القديم والجديد..

هذا الموقع المميز جعله مركزًا حيًا لتجارة الفخار، بالتالي انتقال مركبات الثقافة والأديان والسحر والدجل والشعوذة والعادات والتقاليد.. الأعراف والطرق الصوفية، والطوائف الدينية، فيما بعد.

تجدد في السوق الورا كل شيء بدءًا بالمشغولات الذهبية،
وصناعات الحديد والألمونيوم والكوانين، مرورًا بصناعات السعف
وكناتين الكول، والتوابل والمأكولات الشعبية، وجزارات الكمونية
واللحوم والأسماك والدواجن..

هكذا إذن نشأت علاقات تجارية وثقافية وسياسية معقدة،
مركزها السوق الورا منذ الأزل، حيث كان القدماء يطلقون على
السوق الورا تسمية "أرض الأرواح أو مقابرود أم جبو أو أرض الله"،
لشدة انبهارهم بهذه الكيمياء العجيبة، التي تربط الآخرين.. كل
الآخرين به- خصوصًا علاقة الأحياء بالموتى والبعاعيت- وتجعلهم
يتفاعلون مع الحياة التي تتصل به.

شعوب البلاد الأسيرة اعتادت السُكنى حول السوق الورا، منذ
العصور الحجرية، حيث اتخذوا أولى خطواتهم نحو الحضارة، فقاموا
بصناعة الفخار واستعمال المواقد والنار للطبخ.

وقتها كانت البلاد الأسيرة التي يعتبر السوق الورا حاضرتها، مركز
حسد الجوار وأطماعهم، التي ترتبت عليها غزوات واحتلالات
واقطاعات في الجغرافيا، خصوصًا في العهد الذي سبق الحضارة
الكوشية، حيث حاول الغزاة القادمين من مصب النهر، فرض لغتهم
وثقافتهم!؟

وكان الحال هكذا أيضًا على عهد الهكسوس، والعهد المروي، أي
استمر الاستهداف العنيف والمباشر في المرات الأولى، حتى القرن

الزّابع الميلادي، عندما ازدهرت تجارة الصمغ والعاج والبخور والذهب، بين الغزاة المحتملين وبين السوق الورا.

السوق الورا كان غريبًا بين الأسواق، في كل العصور، خصوصًا عصري الذهب الأبيض والأسود، فهو منذ القدم ظل متصلًا بدول الصحراء الكبرى غربًا وشمالًا، وبلاد النجاشي شرقًا، وجنوبًا، حيث التقراي والماو ماو والبانتو والألور والكاراموجا..

بل كان متصلًا حتى بآسيا بوذا؟! كما أن هوميروس أكد بشدة، أن الآلهة يجتمعون كل عام في هذا السوق في عيد التنصيب السنوي، يتبادلون الأنخاب والأفكار والخطط الحربية لإلهامه قصائد ما بعد الإلياذة والأوديسا؟!

لكل هذه الأسباب التاريخية، كان العشاق لا يصبحون عشاقًا تاريخيين، إلا خلال علاقاتهم الناشئة في الكيمياء العجيبة لهذا السوق!

وهكذا تكرست علاقة منصور بصانع الفخار- الحفيد، خلال حياة هذا السوق!

□□□

صانع الفخار الأكبر، كان هو أول من تنبأ بوجود الزيت الأسود، تحت الطبقات القصوى للطين، خلف السوق الورا عند مقابروهم. وفي مواقع أخرى مختلفة، من سهل البلاد الأسيرة الواسع، لكن هذه النبوءة تم التواطؤ عليها عبر الحقب المتعاقبة، ولم يُمَاط عنها اللثام إلا في وقت متأخر..

وفي الحقيقة لم يتنبأ صانع الفخار بوجود الذهب الأسود فحسب، فقد سبقت نبوءته هذه نبوءات عديدة، ترتبط جميعها بمكونات الطين، وما ينطوي عليه من معادن عديدة، في الأنحاء المتفرقة لسهل البلاد الأسيرة الواسع.

وأجمعت كل هذه النبوءات، على أن جشع الحكام واستبدادهم وطمعهم وفسادهم، سيؤدي للاقتتال على مكونات الطين، ما يضع السهل كله في مهب الريح السموم، فيتحول الطين إلى ما هو أسوأ من الحصرم.

الآن بعد كل هذه العصور، عندما ينظر "جادين جانو" إلى ما توفر بين يديه، من نبوءات يشعر بغصة في حلقه، فالتواطؤ على نبوءات مكونات الطين، أدى إلى إنفجار هذه المكونات، وتبع ذلك الحروب والفقر والجوع، والتدهور البيئي وتمزق السهل الواحد إلى سهول عديدة تفصل بينها ميليشيات الجنكوز!

□□□

كان الطين إذن هو نافذته، التي يطل منها على تاريخ البلاد الأسيرة في عصورها الغابرة وعصرها الحالي ومستقبلها.. بعد مئات السنوات.. عندما يولد صانع الفخار الحفيد، ذات صبيحة مشبعة بدعاش النيل النديان.

لذا وهو يرى الماضي والمستقبل متزامنين في حاضره، اهتم بالبحث في مفردات هذا الماضي، فعلم من الأدوات الحجرية، التي عثر عليها أثناء أسفاره وتجواله وتنقلاته، في سهل البلاد الأسيرة الواسع، أن الإنسان سكن هذا السهل في البلدة القديمة في عصر الحجر، وأن هذا الإنسان كان جنساً زنجياً، يختلف عن أي جنس زنجي آخر، يعيش اليوم، وقد اتخذ أول خطوة معروفة نحو حضارة السهل، وكان ذلك بصناعة الفخار واستعماله، وأن أحفاد هذا الإنسان، كانوا مغرمين بالبحث في الطين.. فقادهم البحث لاكتشاف النحاس، الذي قاموا بتعدينه، وصناعة العديد من الأدوات والمشغولات منه، وظل هذا الإنسان على الدوام مستهدفاً من الجوار، على حدود السافل، ما قاد للاحتلال الفعلي لجزء من أراضي السهل أسفل النهر، إذ تمت السيطرة على منطقة "سمنة" التي بنى فيها الغزاة ستة عشر حصناً منيعاً.

أحفاد هذا الإنسان نفسه شيّدوا حضارة كرمة، التي تدل تنقلات جادين جانوفي أرجاء السهل، وما عثر عليه من جداريات ومنحوتات في الكهوف والجبال المحيطة، أن أحفاد الغزاة الأوائل،

حرصوا على تشييد مركزاً تجارياً كبيراً فيها، كان لوجوده أثر كبير في المصاهرة وانتقال مركبات الثقافة..

وما لاحظته في بحثه عن "كرمة" الفخار الممتاز، الذي سيُعرف بعد مئات السنوات "بخزف كرمة"، والذي يُعتبر أجود خزف عُرف في وادي النيل، منذ فجر التاريخ.

الأحفاد المتعاقبين للغزاة الأوائل -على عهد الهكسوس- وجهوا همهم إلى بلاد النوبة، وشرعوا في تنفيذ سياسة توسعية تجاه البلاد الأسيرة، إلى أن تمكنوا بعد سنوات طويلة، من احتلال أجزاء واسعة من السهل أسفل النهر، وحتى الشلال الرابع لمدة ستة قرون، استنزف الغزاة خلالها الكثير من موارد البلاد الأسيرة المتعددة والمتنوعة، مثل الذهب.. خشب الأبنوس.. سن الفيل.. العطور.. البخور.. ريش النعام.. الفهود وجلودها.. الزراف.. كلاب الصيد والماشية.

وفي هذا العصر بلغت البلاد الأسيرة، أقصى درجات رُقيها؛ إذ ازداد الرخاء واتسعت التجارة بين البلدين، وطُبعت حضارة سهل البلاد الكبيرة، بطابع الجوار أسفل النهر.

قرون الاحتلال الستة أثارت الوعي القومي، لأهالي سهل البلاد الأسيرة، ونهت السكان الأصليين، إلى أهمية بلادهم وكثرة خيراتها.

فاستغلوا أول سانحة لاحت لهم، وهي تدهور إمبراطورية الجوار أسفل النهر، وأعلنوا استقلالهم، وأقاموا عاصمة لمملكتهم المستقلة في "نبته" الواقعة أسفل الشلال الرابع.

بل وتمكنوا فيما بعد من احتلال الجوار أسفل النهر، وإخضاعه، وتأسيس دولة قوية امتدت من البحر المتوسط، حتى مشارف الحبشة لمدة تزيد عن الثمانين عامًا، وهكذا صارت كوش قوة لا يجهلها أحد!

ولكن عندما غزا الجوار أسفل النهر الأثوريين، واستخدموا الحديد كسلاح فاعل في ذلك الوقت، أجبروا "كوش" على التراجع إلى الورا، داخل حدودها الأصلية، ضمن سهل البلاد الأسيرة الواسع المتسع.

وبانتقال العاصمة من نبته إلى مروي، ازدهرت صناعة الفخار والحديد، حيث كان العابرون يرون في مروي أكواماً عالية هي آثار فضلات الحمم، التي كانت تخرج من أفران صهر الحديد، ولهذا السبب ستوصف بعد مئات السنوات "ببرمنجهم إفريقيا القديمة"، لتستمر كحضارة إفريقية لما يزيد عن الثمانية قرون، تنشر النور حولها من عقائد و أفكار وقدرات فنية.

عندما اعتلى عرش النوبة ملك يُدعى "داود" عام 1272 ميلادية قام النوبيون بالهجوم على المدينة العربية "عيذاب" على ساحل

البحر الأحمر، محاولة منهم لدحر الغزاة العرب، من أراضي السهل
الواسع جهة دارصباح.

بعد ذلك دخلت مملكة النوبة في عهد المؤامرات، واستمر الحال
هكذا إلى أن انهزم "كودنيس" آخر ملك علي مملكة "دنقلا" عام 1323
ميلادية وانتهت الدولة المسيحية، وصارت البلاد مفتوحة أمام الغزاة
العرب، وانتشر الإسلام.

أما مملكة علوة، فلم تحمل جداريات ومنحوتات صانع الفخار،
معلومات تُذكر بشأنها، عدى الشذرات التي أفادت أنها، ستسقط
عام 1504 ميلادية، على يد تحالف العرب العبدلاب القواسمة
والأفارقة الفونج النبلاء الهاريين من علوة البائدة.

بينت حضارة كوش، أنها غربلة إفريقية للآراء والأساليب
والمعتقدات، تأخذ منها ما ينفعها وتضيف إليها ما ابتدعته، إلى أن
دهمها الخطر من جنوب الجزيرة العربية، عندما هاجر قوم من هناك
إلى داخل الحبشة، وأنشؤوا دولة أكسوم، التي قويت واستطاعت أن
تحول بين كوش وشرق القارة الإفريقية والمحيط.

وبالتدريج تمكنت هذه الدولة من قهر كوش عندما قام "عيزانا"
أول ملك مسيحي لها بغزو كوش وتحطيم عاصمتها مروى عام 350
ميلادية.

إذن في الأصوات المتلاشية لحطام مروى، كانت دارالريح ترجع
الصدى، وتتململ تفصح عن ممالكها الصغيرة، المتناثرة في جُغرافيا
الوديان، كجزر في أرخبيل واسع..

والتي فيما بعد وعلى أنقاض هذه الممالك، ومنذ 1445 ميلادية
أخذت تشكل سلطة الإقليم الموحد، بنظامه الإداري الواحد، الذي لا
يستثنى شيئاً من أرض دارالريح، التي هي خمس مساحة البلاد الأسيرة
قبل انفصال الصعيد.

وبعد عشرات العشرات من السنوات، لدى استيلاء كل حاكم
عام -سواءً كان مستعمراً محلياً أو أجنبياً- على السلطة في البلاد
الأسيرة، كان لا يؤرقه شيء سوى دارالريح، التي تناقضت على الدوام
مع "مركزية سنار" بالتالي "أمدرمان".

فدارالريح بسلطتها الواحدة وإقليمها الواحد الموحد، ليست
مجرد جُغرافيا يتشكل داخلها سؤال السلطة، ففكرة الجغرافيا
الواحدة الموحدة صارت بمرور الوقت كالعقيدة في وجدان السكان
الأصليين، بالتالي حجر عثرة أمام مخططات الطوائف والحكام
الجنكويز التقسيمية، التي تهدف لإضعافها بالتفتيت إلى وحدات
أصغر، ليؤول هشيمها إلى سيطرتهم الكاملة.

ولذلك عمدوا لإزاحة أهل الدار، وإحلال وافدين محلهم من
عرب غرب إفريقيا وشمالها الرُّحل، باسم نقاء العرق، كعامل تفتيت

فاعل، بعد فشل عامل الدين والمصاهرة في تدمير اللغات والثقافات المحلية.

وهكذا معادلات السياسة أفضت في النهاية إلى أثننة كافة أنشطة الحياة، ما أصاب الناس بالفرح.. ففي كل يوم يمر، يتكشف لهم الحجم الكبير للمؤامرة، التي تتعرض لها البلاد الأسيرة وخصوصاً دارالريح!

وهكذا بدأ الأهالي يقودهم صانعوا الفخار، يتسللون إلى الفيافي والقفار والغابات، يحملون السلاح، مفتتحين فصلاً دامية من حرائق الأرض والتاريخ واللغة، على أنقاض الادعاءات الدينية والعرقية البائسة.

برينسس آن، ميريلاند

أيوا سيتي- سيدار رابيدس، أيوا

2012-2014

□□□

2. ود دبرك بن زرزور الدوري

في أمسية من أماسي الصّف، حط "ود دبرك" على غصن شجرة
الجُهنمية الحمراء، يستعيد كعادته ما ارتبط بحياته من وقائع
وأحداث لحيوانات وبشر، ربطته بهم صلوات قويّة!

كانت أفكاره قد ترتبت تمامًا، في ذهنه، واختفت تلك السحب
التي كانت تحيط بها.

وكما جرت عادة "الدبارك" أخذ يضرب الهواء بجناحيه، دون
أن يطير، علّه يبعث شيئًا من النشاط، في رغبته المتلهفة منذ أيام،
للقاء حبيبة القلب الفاتنة عشوشة بعد طول غياب!

ألقي نظرة متفحصة، خلال أغصان شجرة الجُهنمية، التي
علقت بها حبات ندى بلورية، ينزلق على سطحها الضوء الخافت،
المتسلل من شرفة العشب، ليرسم بقعة طيفية لوجوه متداخلة
الظلال على قشها الدّاخلي!

طوال التّهارظلت حُبيبات الندى، تتعاقب على بقعة الطيوف،
تعكس وجوه لأسلاف ود دبرك الميامين، كشريط سينمائي، يحكي سير
حياتهم ومسيرتهم.

رأى طيوفهم وهي تبني أعشاشها، بين جريد النخيل الأخضر،
الذي تتألق إبّره الحادة، تحت أشعة الشمس..

رأى أعشاشهم على شجيرات السافنا، المنتصبة بين الحشائش
الجافة، في نظام بديع! تشارك طيور البلوم والقماري واليوم وكناتهم،
فيما تترنح في هجير الشمس، على المدى السراي، إبل الرّحيل
العطشى، تتخلل بأخفافها ممرّات العشب الجاف، لتشق طريقها إلى
الصحراء المتاخمة لدار الريح!

رأى طيوفهم في أمسيات كهذه الأمسية، في خرائف البلاد
الأسيرة، وفضادع الخيران التي تتخلل الأحياء القديمة، تتقاذز.. تصل
النجوم الخابية، بالتهارات المتوقدة بحر الظهيرات اللافحة!

رأى طيوفهم في الفنارات، والموانئ، وسواري السفن التي
تتلاطمها الأمواج الهائجة، وهي تترنح يُمنّةً ويسرى.. منهكة من توترات
قوى الطبيعة الغاضبة، فتهم تتقاذفها الأمواج لا تلوي على شيء، إلى
أن يطير ود دبرك، فيأتي بخبر اليابسة الأكيد!

يرى طيوفهم وهم يبنون أعشاشهم المقدسة، على قمم "الفيثارا
البوذية" و"الهرم نديرالسيخي" و"الأتشكدة المجوسي".. ومعايد
"المانويين" الزنادقة، و"الزرادشتيين" الموحدين وكنيس اليهود،
والكنيسة المسيحية، والكاتدرائيات، والمساجد!

جميعها تتوحد في عش واحد، يشيّدّه ود دبرك الأب المؤسس،
على سارية فُلك نوح!

سحب ود دبرك نظرتة المتفحصة، خلال أغصان شجرة
الجُهْنَمِيَّة، التي علقت بها حبات الندى البلورية، التي كانت لا تزال
تتدحرج من أوراقها، لتمحو الطيوف المتداخلة، وتعيد رسمها في
طيف واحد!

ينفض جناحيه اللذين بللهما الندى على وجه ود دبرك، مبدداً
الاسترخاء والكسل.

بعد مئات السنوات، يعثر فريق من المستكشفين القادمين من
عالم آخر، محفوراً في ذاكرة الحاسوب وبعيداً جداً، على بيض
عشوشة زوجة ود دبرك، الذي لم يفسس، مغموراً تحت أمتار من رماد
أسود، غطى سطح الأرض بالكامل، نتيجة حرب كونية لم تبق ولم
تذر، وقد نقش عليه الخزين وصانع الفخار، الكثير من المدونات، التي
يسعى بروفيسور جادين جانولفك طلاسما دون جدوى، إذ يكتشف
أنه بدلاً عن فك طلاسما كتب تاريخاً موازياً، لا يمت بصلة للوقائع
والأحداث، المنقوشة على قشر البيض المتحجر!

□□□

رغم أن الحكام الجنكويز، الذين تعاقبوا على حكم البلاد
الأسيرة، منذ كانوا مجرد أعضاء مغمورين في طوائف بائسة، إلى أن
انفرد كل منهم بحكم جزء منها، وإلى أن أصبحت البلاد الأسيرة
واحدة، يحكمها جميعاً حاكم جنكويزي عام.

ظلوا يعملون على إزاحة كل لغات أهالي البلاد الأسيرة، وإحلال
لُغتهم الجنكويزية الهمجية محلها!

وإن نجح هذا الأمر مع بعض الأهالي، فقد فشل مع البعض
الأخر، فلم تنجح الجنكويزية في أن تكون لغة سائدة بديلة للُغاتهم
الموروثة منذ آلاف السنين، والتي كانت تعني بالنسبة لهم الهويَّة
والثقافة، والأرض، والتاريخ، والتراث.

وبسبب مخاوف هؤلاء الأهالي على لُغاتهم من الانقراض، وحلول
الجنكويزية محلها، تفجرت حروب ضروس هنا وهناك.



فيما كان ود دبرك راكاً على الإطار السفلي لنافاذة غرفة نوم
"دنيا فرندقس" التي حملت لقب "سيدة البلاد الأولى" إلى جانب ثلاث
أخريات.. يتلصص على حركاتها وسكناتها، ويحاول أن يقرأ تعابير
وجهها، كانت هي تتأمل وقائع حياتها من المبتدأ إلى المنتهى، الذي لا
زال طي الغيب!

ومع ذلك تشغل احتمالاته العديدة خيالها، وتستعيد ذكرى
ذلك اليوم، الذي سبق الانقلاب الجنكويزي النَّاعم، على زوجها
القتيل السلطان "زيف المعارف" قبيل أيام قليلة من زيارة صديقه
"تور الجر"، الذي كان يناديه بشقيق الأصغر، وما خلفته تلك
الزيارة المرعبة، من مخاوف وشكوك! انتهت بموته غامض الملابسات!



من نافذة القصر رأى ود دبرك الغيوم الرمادية، وقد حجبت ضوء الشمس الوهاج، والأرض المفروشة ببساط ضبابي، والأصوات الهامسة، التي تتسرب بهدوء من غرف أجنحة القصر المغلق على الأسرار!

انتزعه من شروده رؤيته فشل تورالجر، في استمالة دنيا بالعطايا السخية، التي لم تكن تزدها إلا تمنعاً عليه، الأمر الذي كان يشعل رغبته فيها أكثر، كان صوتهما يعلو وينخفض، فيما هي مستلقية على سريرها وقد انحسر ثوبها، حتى بانث ثيابها الدّاخلية؛ وكلما حاول الاقتراب منها صدته بحزم.

لم يكن تورالجر مدرّكاً لما جرى ويجري حوله.. كان مضطرباً، شاحباً، تلتابه مشاعر شتى، ويحس بمرارة لا يدري لها سبباً واضحاً.

وعندما استيأس منها، وقف منحني الرأس، حزم سرواله، وأخذ يزرزرجلبابه، فيما أحست هي أنه لم يعد بإمكانه أن يتلفظ بكلمة واحدة، دون أن ينفجر، فأثرت الصمت واكتفت بالنظر إليه في ازدراء، غير آبهة بالدموع التي تكاد تقفز من عينيه المحمرتين!

لحظتئذ أخذ عندليب الأثير في الحديقة الملكية يغني أغنية حزينة، لامست وجدانه الجريح، فهمس لنفسه:

“هذا العندليب أثنى من كل الكنوز التي نهبتها من هذه البلاد.”

وتهمد..

كل ليلة، من الغروب حتى الفجر، كان العندليب يغني فيلامس
غناؤه شغاف تورالجر، الذي نهشه الأرق بسبب الحرمان والكوابيس
المزمنة، التي لا تفتأ تهدد نومه.

هذا العندليب هو صديقه الوحيد الذي يشعر به ويؤنس
وحدته..

"لم أكن مخطئاً في الحصول عليه مقابل، أجمل محظياتي،
وعشرين محارباً جنكوزياً، والعشرات من عبيدي المخصيين، وكل
طوايسي النادرة، وجرايين من عودي الهندي المرصع بأحجار اللؤلؤ،
وثلاثة زرابي من ريش النعام الزغب، والحريرمطرزبخيوط الذهب،
وعشرات من الأواني الفضية المنحوتة، والمرجان المعبد، وخاتم
المقدس سرّه الأكبر.. كل ذلك لم يكن خسارة في هذا العندليب، تعزية
وحدتي وخساراتي في هذا القصر الموبوء بالتأمر والمتأمرين".

من سريره الملكي الوثير، قرب نافذة غرفته التي تجمعها بكبرى
زوجاته، كان تورالجر يسمع شدة العندليب، وكان شعر بشرته يقف
شعرة شعرة، مثل عشب نابت للتو، فيغلق عينيه ويئن.. وأحياناً يبكي
عندما يتذكر هول ما فعل بالبلدة القديمة، والبلاد الأسيرة، وأحياناً
يبتسم ويقول:

"أنا أسد إفريقيا، لقد فعلت ما يتوجب فعله، فلاحسرة أو
اعتذاراً وندم، زُفَع القلم".

تورالجر، السلطان المغرم بالغناء والرقص على كل الإيقاعات، من شدة حبه لهذا العندليب، أغرى جامعي الكتب بالجوائز القيمة، مقابل أي كتب نادرة عن الطيور، الأمر الذي دفعهم للتفرق في أركان الأرض الأربعة، فلم يمض وقت طويل حتى جاءه بعضهم بكتاب "الحيوان"، للجاحظ، و"منطق الطير" لفريد الدين العطار..

وحدثوه عن ثمرة حواراتهم مع العارفين من صانعي الفخار، وزعمهم أن لغة الطيرهي لغة الملائكة، وأنها الطريق إلى المعرفة الكاملة، ما جعله يشعر بغبطة كبيرة، كونه اقترب من القداسة والحكمة! فيما كان ود دبرك يراقبه وهو يقول:

"أن لود دبرك أن يمد رجليه"

كما دون له جامعي الكتب والورّاقين، قصّة "أثينا" آلهة الحكمة، التي علّمت "تريسياس" لغة الطيور، وحكوا له عن أبولونيوس ديموكريتوس وكيف أيضاً، كانا بارعان في فهم لغة الطير.

حكوا له عن الميثولوجيا "السلتية" التي تعتبر الطيور رمزاً للمعرفة التنبؤية والغيبية.. وكيف أن الكتابة الهيروغليفية كانت تُسمّى "أبجدية الطيور"، وإثركل حكاية، كان تورالجر يشعر بأنه شرارة من روح الله سرعان تنمو، وتصبح ناراً لها أوار!

عبر صوت العندليب، وطيور الحديقة الملكية، كان تورالجر يحاول استقراء، أي تحولات تتعلق بالسحرق قد تهدد حياته، فكان يقرأ

في كل أغنية للعندليب إشارة تحذّره من خطرٍ وشيك، أو تنبّهه إلى عدو خفي!

بمرور الوقت تجمعت لتور الجر ثقافة واسعة بلغة الطير، الذي أخذ يتبعها أينما وجدت، حتى في الموسيقى والأشعار التي ألفها شعراء مجهولين.

إذ تكون لديه تصور، بأن البشر عبر تاريخ وجودهم على هذا الكوكب، اهتموا دائماً بتحميل الحمام الزاجل الرسائل الخطيرة، التي تتضمّن شفرة غامضة،

في تلك الصبيحة التي سبقت الانقلاب بثلاث أيام دخل عليه حاجبه وهو يحمل العندليب الهامد بين كفيه، وبعد تردد طال قال:

"وجده أحد بستانيين القصر ميتاً تحت شجرته في الحديقة الملكية".

كأنما صاعقة مدوية ضربت تور الجر لحظتها، فالجمته وحشرته في هاء السكت.. كل ما استطاع أن يهمس به لنفسه لحظتها:

"إذن أجلي قد حان".

وعلى الجانب الآخر، حزن ود دبرك حزناً شديداً على فقدته صديقه العندليب، على هذا النحو المباغت غير المتوقع. فحتى مساء أمس كانا معاً يتنقلان من شجرة إلى شجرة، يعاكسان واحدة من

الشجوروات اللاتي فاتها سرب هجرتها، فضلت طريقها إلى الحديقة الملكية.. بعد مرور سنوات طويلة، قال ود دبرك لعشوشة:

"لم يكن يشكو من شيء، بل كان يبدو عفيًا وقويًا رائع المزاج، لدرجة أن غنى لي أغنية عذبة، لم يسبق أن سمعتها في حياتي العامرة بالأحزان".

ورث ود دبرك اعتقادًا راسخًا بأنه من أشرف الطير، التي تنحدر من سلالة هدهد سليمان، ولهذا السبب تبارك الحيوانات والنباتات بفضلات سلالته المقدسة!

وربما مثل هذا الاعتقاد بالذات حافزًا قويًا لشغفه بالمعرفة، التي ابتدرها بالبحث في أصله وفصله، وطلبها في مظانها من أصقاع الصين، حتى تخوم التبت والهند والسند، ومن المحيطات الكبيرة، حتى الأرخبيالات بين قرني الثور، الذي أنهكه حمل الكرة الأرضية، لم يترك ود دبرك مكانًا لم يهاجر إليه!

وفي الحقيقة كثرة المعارف التي نالها، كوَّنت لديه نوعًا غامضًا من الإلهام، جعل ما يتنبأ به يتحقق! فأشاعت حبيباته الأمر، وأصبح بين يوم وليلة فقيهاً تتوافد عليه إناث الطيررزافاتٍ ووحدانًا، وجميعهن كانت أحلامهن مألًى بالطيور!

تهنئ ود دبرك على صدر عشوشة:

"ذات أمسية مشبعة بدعاش النيل، طرق باب عشي طارق يبدو غريباً من طريقة استخدامه لمنقاره في نقر عشي، خرجت إليه فإذا به نورسة ضئيلة الحجم، استضفتها، وبعد أن قدمت لها عدة حبات من الدخن، هوكل ما توفر في العش وقتها، سألتها عن حاجتها فسكتت لبرهة ريثما تتماسك ثم رفعت إلى عينيها وأخذت تحكي حلمها، وبعد أن أنهت كلامها تبسمت بوجهها وقلت:

"ما رأيته من طيور غريبة، ينبئ بسعادة قادمة وتحقيق الآمال والأمنيات".

أنا ود دبرك بن زرزور الدوري، شهدت تمدد المسيحية، على أنقاض تعاليم موسى، وغزوات الإسلام، على أنقاض عقائد العالم القديم، عشت في ظلمة القرون الوسطى، ورأيت ما تفعله الكنيسة بالمؤمنين، وحين همس "جاليلو" بصوت خافت ومضطرب:

"ومع ذلك فإنها تدور"

كان صدى صوته يتردد في أذني محتضناً هتاف "أرخميدس" الذي خرج وقتها يركض عارياً:

"وجدتها.. وجدتها! لتثبت الأيام أن معادن البشر، غير قابلة للتحوّل، فالأشرار للشيريرات، والطيبون للطيبات.. وأدركت بعقلي الثاقب أن "أينشتاين" بنسبيته وعكسيته ليس سوى "هيغل" آخر يعيد كتابة الماركسية، كخطاب مضاد للعلم!

وسواء تمكن الإنسان من السفر بـ"براق" أو "احتى" بجدرآلة زمن، ففي الحالين سرعة الضوء لا محالة ستحوّله إلى فوتونات! سيتلاشى إلى طاقة، كأنه لم يكن، ما يجعل الفيزياء والميتافيزياء وجهان لعملة واحدة!

وهكذا وجدت نفسي متورطاً في معارف الأقدمين والمحدثين، عالماً فلكياً ومنجماً وخطاط رمل وفقهياً ومفسراً لأحلام البؤساء.

والحق يُقال عندما أتأمل عالمي هذا، لا أدري لماذا ينشغل فكري بأسئلة ديك أم الحسن وببيضته الوحيدة، وكلب صاحبتة السُرّة، وتحويل المعادن الخسيسة إلى شريفة.

كنت لا يوقفني أفول قمر، أو غياب شمس، أقضي وقتي منكفئاً على التأمل انكفاء التلاميذ على لمبة الجاز "حبوبة ونسيبي" الذين كانت رؤيتهم منكفئين هكذا تصيبي بحزنٍ عظيم!

وعندما اكتشف صديقي "أديسون" الذي لطالما غردتُ على نافذته، المصباح ونظام توليد الكهرباء، طرت من الفرح متنقلاً من عشي إلى عشي.

رأيت الدنيا بطولها وعرضها مهاجراً مع طيور الشتاء والخريف والصيف والرّبيع، من بلد إلى بلد ووطن إلى وطن، ومنفى إلى منفى.

تعرفت على ثقافات وسحنات وعقائد، وأقمت في التبت حيث الأنثى مشاع، وعندما فاض بي الحنين إليك يا حبيبة القلب

عشوشة، شغلت غرف قلبي عصفورات كناري وسنونوات وبلابل،
ودخلت عليهن جميعاً، واحدةً تلو الأخرى، ومنذها، أصبح بني البشر
يضربون بفحولتي المثل!

رأيت أرواح النَّاس يحصدها الطاعون والسل والكوليرا
و"البرجم" و"الحنكو" كما رأيت ضحايا هيروشيما وحروب العالم..
وشاهدت بأم عيني كيف يستخدم الجنكوز الاغتصاب سلاحًا في
الحرب!

وكالخالدين الذين يعيشون بيننا دون أن يعرفهم أحد، عشت
حياتي بطولها وعرضها مئات السنوات، وكلما ماتت إحدى عشوشاتي
بحكم السن، تزوجت عشوشة أخرى.

وفي هذه البلاد، حيث مستقرِّي الأخير، شهدت حروب وفترات
سلم، عاصرت ازدهارها ومنعطفاتها الحادة، رأيت كل سحنات البشر
والطيور وسمعت كثيرًا من الأسرار.

فأنا كطائر منزلي لدي حرية التنقل من دار إلى دار، ومن قصر إلى
قصر، دون أن يأبه أحدهم لوجودي من عدمه، رأيت ما يفعله أهل
كل دار حلت بها، وما يدعونه جهراً.. فقراء، أغنياء.. ساسة وأشباه
نساء، رجال دين وأشباه رجال.

لصوص ومجرمين وأبطال، شجعان وجبناء وخونة. عاهرات،
وعاهرون، وفنانين، وإعلاميين.. و...

فمثلما عرفت السُّكنى في شقوق بيوت الجالوص الواطئة،
عشت في حدائق القصور والفلل.. ومثلما بنيت عشى في بيوت القش،
أقمت في بيوت الطوب. عرفت كل أنواع الأشجار، وجربت السُّكنى
فيها، وتفاديت شجر الشوك! الذي يذكرني وخزه بطبع البشر في
عدائيتهم التي لا يجرؤون على إعلانها!

يطاعنون بعضهم البعض بالكلام، يبعثون الرّسائل، يتلمظون
شفاههم ويقهقهون، كأن الأمر لا يعنهم! كل أصناف البشر
والحيوانات مروا أمام ناظري في حياتي المديدة.

والآن في أخريات أيامي، مستكينًا في عشى العتيق، الذي
أصبحت نادرًا ما أغادره، منذ اتخذت قراري وبرمجة عقلي على
الرّحيل النهائي عن هذه الحياة البائسة والقاسية والمكرّرة، التي
عشتها لمئات السنوات. وهي نفسها، فالبشر كلما تقدموا ازدادوا
جشعًا وسوءًا وظلمًا.

في قيلولتي في قلب شجرة الجُهْنمية الحمراء، أتأمل ذكريات
الطفولة والصبا والشباب، والأصدقاء والصدقات من طيور الجنة
الملوّنة، و"جاحوم" كلب حافة "السُّرة" وديكها "أبو الحسن" وزوجته
"أم الحسن" والحبيبات اللاتي عرفتهن فتساقينا الهوى إلى آخر زقزقة
وصفير!

وبين الصحو والنوم يغنين تلك الأغنية الشائعة، التي ألفها
شاعري تيم مجهول الهوية، تمجيداً لفحولتي التي طبقت شهرتها
الأفاق:

"آه من تلك الأيام وتلك الذكريات، التي لم يتبق منها أثر، سوى
غزلية طائر السنونو مجهول الهوية في مزامير "داود" تدهمني من
وقت لآخر، فتمر الصور والأخيلة والمشاهد ووقائع وأحداث مئات
السنوات، كأنها حدثت البارحة..

بل حتى الآن لا تزال خياشيبي مسكونة بأنفاس عشوشة الأولى..
تملاً رائحتها التي لم تزيلها السنوات رثتي، وطيفها يسكنني، أحسه في
ريشي، أراه في عشي، أسمعه في كل زقزقة وصفير!

والآن ها أنا ود دبرك بن زرزور الدوري الثالث عشر، أتأمل
ماضي فيما خُطى الموت تتقدم بثبات.

لقد عشت ورأيت وسمعت ما يكفي أضعاف آلاف المرات، لذا
لست قلقاً في ترقبي الموت وهو يدنو، أنتظره بغبطة وسرور كبيرين!

فمنذ عشرات السنوات اكتفيت من هذه الحياة ومباهجها
وأحزانها، مأسيا وأفراحها شهواتها وخيباتها، وانتصاراتها وهزائمها،
فما الذي كان على فعله ولم أفعله؟

أنا الذي رأيت العالم مع الطيور المهاجرة، واستقبلت الدنيا بتفاؤل، وتزوجت من العصفورة الجميلة حبيبة القلب عشوشة الأولى.. وكذكور أكثر، لم أقصد خيانتها، فقد كنت فحلاً لا أمل الغزو!

وإن أنسَ لن أنسى كيف أمسكت بي عشوشة الثالثة في المرة الأولى متلبساً في عريشة الجبران، مع عصفورة "المشاطة" وفي المرة الثانية عند حرف التهرمع "قدوم صغيرة" وفي المرة الثالثة لم تكتفِ بفضحي في مجتمعنا المحلي فحسب، فزقزقت تخبرهم بأدق أسرارنا وتفاصيل حياتنا الزوجية، وبالطبع حذفت وأضافت من التفاصيل التي أملاها عليها خيالها، ما جعل كل قبائل الطيور في مشارق الأرض ومغاربها، تتعاطف معها وتنظر إلى باحتقار، وكل ذلك لم يكفها، فعشوشة لم تكن من نوع الإناث المتسامحات، تعاركت معي وفتفت ريشي ريشة ريشة، وأخبرت كل قبائل الطيور حتى آخر زقاق في تخوم الصحراء.

فظللت مختبئاً خجلاً من الفضيحة، لا أخرج إلا ليلاً، متسللاً كاللصوص، ولذلك عندما زقزقت عشوشة طالبةً الطلاق، سكسكتُ موافقاً دون تردد.

ثم قررت ألا أتزوج بعد ذلك أبداً! ولم أعد أحتمل نظرات العصافير، وهي ترمقني شذراً في غدوي ورواحي.. وهكذا قررت الهجرة مع أول فوج من الطيور المهاجرة غرباً، حيث الثلوج والفيضانات والزلازل والبراكين وكل أنواع كوارث الطبيعة، علَّ صاعقة تلمُّ بي وتحرق ريشي، وتشوي جلدي وتريحني من هذا العالم القاسي! الذي

لم أجد فيه رحمة من بني جنسي، ولا من البشر الذين استرقوني في
أقفاصهم وربما أكلوني في أزمنة المجاعات!



ذلك الضابط الشاب المربوع، "خراب العامر" والذي كان عائداً
من أحد أسفاره، قادماً من الحدود، حيث يربط جيش الحاكم
العام "زيف المعارف" مرّ على قيادة الجيش، يحمل ملفاً مهماً، ينوي
تسليمه لزيف المعارف، يداً بيد.

وفي الحقيقة لم تكن ثمة معلومات سرّية، خافية على سواد
الشعب، الذي كانت المعلومات حول انقلاب وشيك، تتدفق إلى أذنيه
من كل الاتجاهات، خارج وداخل الحدود.

والحقيقة أن هذا الضابط الصغير، الذي جاء يبلغ عن
الإنقلاب المزعوم، بمعلوماته الزائفة، كان هو نفسه قائد الانقلاب
الحقيقي، الذي سيفاجأ به الناس فجر جمعة حزين، أمراً واقعاً منذ
سمعوا صوت الموسيقى العسكرية في الراديو، التي أخذ يتخللها
البيان تلو البيان.

في غضون ذلك تم تأمين الحاضرة بواسطة قوّة مدنية،
عسكرية من الانقلابيين، والسيطرة التامة على مؤسساتها الأساسية،
فيما كانت في الوقت نفسه قوّة مدنية أخرى يقودها "خراب العامر"
قد تمكنت من الاطاحة بالحاكم الجنكويزي العام "زيف المعارف"
وأصبح الضابط الصغير "خراب العامر" حاكماً عامّاً على البلاد

الأسيرة، في "دقسة" متوقعة من "دقسات" تاريخها العامر بالانقلابات والثورات.. فشل ود دبرك حتى لحظة خاتمته لرقزقاته في أذن الخزين أم جبو في استيعابها!!

جميلة الجميلات، الأربعينية، سيدة البلاد الأولى دنيا فرندقس، صُغرى زوجات تورالجر الحاكم الجنكويزي العام، الذي أصبح مجهول المصير، فوجئت بأن قائد الانقلاب هو نفسه الصديق المقرب لزوجها تورالجر، الذي لطالما ناداه "بشقيقي الصغير" فاردمها حتى أغمى عليها، وعندما أفاقتم وجدت نفسها على سريرها، وقد التف حولها الأطباء وعاملات القصر.

لم تكن تسمع ما يقولون، إذ كانت تفكر في الانتقام، وقد رحلت بذاكرتها إلى خراب العامر! الذي كان كثيراً ما يزورهم، ويختلس إليها النظر، كمغرم شيق يُمَيّ نفسه بالوصال، ولذلك بعد نجاح انقلابه على "تورالجر" اعتبر زوجته دنيا فرندقس، ضمن مقتنياتة الشخصية، ولذا لم يطلب منها مغادرة القصر.

وعلى الرُغم من أن كل هذه الوقائع جرت لها هي شخصياً، إلا أنها كانت تتعامل معها كأنها حدثت لامرأة أخرى ليست هي.

وهكذا منذ رآته يستولى على القصر الجنكويزي، ويمر بغرفتها وعيونه تتفحصها متلصصة، حتى تداعت إلى خاطرها كل الذكريات المنسية!

وفي الحقيقة لم تكن دنيا فرندقس قد أعجبت بخراب العامر
أبدًا، فنوعه غير موجود في الكتالوج خاصتها، فإلى جانب رغبتها في
الانتقام كان كل ما في الأمر أنها بعد أن اعتادت حياة القصور، عزَّ
عليها أن تعود مواطنة مثل غيرها من سواد نساء البلاد الأسيرة
الشقيانات.

وهكذا، قررت إغواءه والزواج منه، إذ لم يكن لديها أدنى شك
أنه مغرم بها، فلطالما قرأت ذلك في عينيه الخابيتين كعيخي صقر
عجوز!

كما أنها كانت متيقنة أن زوجها تورالجر قد قُتل في الانقلاب،
ولم يعلن الانقلابيون تصفيتهم له لسبب مجهول!

وهكذا تربع الضابط الصغير خراب العامر، حاكما جنكويزيًا
عامًا بمباركة العرَّاب وحزبه اللذان لعبا الدور المركزي، في إنجاح هذا
الانقلاب ووضعه على عرش البلاد الأسيرة الهاملة، التي لا وجيع لها!

في البدء ولتمكين نظامه أخذ يرسل الرِّسل من زملائه
العسكريين من قادة الانقلاب، إلى فئات شعب البلاد الأسيرة، يسمع
شكواهم، ويعد بحل مشاكلهم،

واستدعى أحد الكهنة من ذوي العقائد القديمة البائدة اشتهر
بالتنبؤات، ليجعله عزَّ افه الخاص.

وفي الحقيقة هذا الكاهن الملقب بحاضر الغائب، لم تكن لديه ولا نبوة واحدة أصابت من قبل، ومع ذلك كان لديه حواريين وأتباع، من عوام الشباب والشابات البائرات في البلاد الأسيرة!

حتى أن الكهول الذين تخطوا الأربعين، كانوا يتندرون بنبرة صعلكتهم في الماضي البعيد:

"ده الغريب الحيرانو جكسي ومحاييتو ببسي" ..

وكان عندما يصل إلى مسامع "الحاضر الغائب" مثل هذا النوع من التهكم يثور قائلاً لمريديه:

"هؤلاء الفاشلين الذين تحطمت أحلامهم، يودون لو أن الكون كله يدفع ثمن فشلهم، فينهار بكل الكائنات التي تسكنه!".

تحت وطأة غرامه بها، حكى خراب العامر لزوجته بوضع اليد دنيا فرندقس، كل ما جرى بينه وبين الحاضر الغائب بدءاً بنبوءة توليه السلطة خلفاً لزوجها الراحل تورالجر، وانتهاء بالقحط والمحل الذي حل بالبلاد الأسيرة..

□□□

زفرة كلب السرة زفرة حارة وهو يقول اعتراضاً:

"اسمي الحقيقي هو جاحوم بن جحمان بن كلبون الكلباني.. لكن أضاعه الأهالي بنسبتي للسرة التي نشأت في كنفها".

لوقت طويل لم أكن أدري ماذا أريد؟ فأمضى الليلة تلو الليلة،
تارة أنبح وتارة أعوي بمشاعر مزيج من الملل والقلق والتوتر والحيرة،
إلى أن ينال مني التعب!

عند حلول الصباح يغلبني النوم.

فأرى في منامي، "الحاكم الجنكويزي العام" و"العرب" يسيران
مُتَشابكي الأيدي، متجهين إلى نهاية "مدينة الكلاب القديمة"، التي
هجرها سكانها الكلبيون، منذ عشرات السنوات، وتم بيعها على عهد
"العرب والحاكم العام" إلى متحف "دولة استعمارية سابقة"، فما
لم تستطع نهبه وقتها، تعمل الآن على نهبه، بحفريات داخل البلدة
القديمة.

هذه الحفريات، التي طالت عشرات الكيلومترات، دون أن يعلم
أي "كلب" شيئاً عن طبيعة مكتشفاتها، أو مواقع الحفريات
ومساحتها بتحديد دقيق، ولا ما تم اكتشافه حتى الآن، أو الخطط
الحفرية المستقبلية.

فالمدينة القديمة، عبارة عن محمية خاصة لهذه الدولة
الاستعمارية البغيضة!

تنحج كلب السُرّة بفخروه ويحكي للجربوات المتحلقين حوله:

لوقدر لكم، وزرتم المتحف الوطني "لحضارة بني كلبون" سترون
آثار ونقوش عصر كلبون الأكبر، وقد اقتطعت من مدينة الكلاب

الضائعة، التي كانت تحفة معمارية ليس لها مثيل، وُزّنت بهذه المقطعات الأحفورية الجُدُر الداخلية للمتحف.

وستقرؤون في ترجمة نقوش اللُّغة الكلبونية، التي نجح "أبناء الكلب" من علماء اللُّغات الكلبية القديمة أخيراً في فك شفراتها، أمجاد كلبون الأكبر، الأب المؤسس للمملكة الكلبانية، وفتوحاته العظيمة في الصعيد ومهبط التَّهر حتى بحر الرَّماد، وتخوم دار الرِّيح، وحيث البحر الملون وأرخبيلات دار صباح!

وستدركون لكم كنا شعباً عظيماً بين شعوب وأمم وقوميات "كلاب العالم" ولكنه حال الدنيا من المحال أن تدوم على حال!

العزاء يا صديقي "ود دبرق" أننا لسنا الشعب الوحيد عبر التاريخ، الذي يتعرض للغزو والهزيمة، فشعوب كثيرة غيرنا، من ممالك الطير والمواشي والزَّواحف (فندقست) بهم الدُّنيا من قبل، وأصيبوا بأكثر مما حدث لنا!

ستجد ترجمة لعبارة لافتة للنظر، عند مدخل الهيوا المؤدي لتمثال كلبون الأكبر، ستفاجأ أن هذه العبارة هي مفتاح لكنوزو "أثار كلبون" منذ كانوا كلاباً ذئبية متوحشة، وضالة إلى أن كوّنوا مجموعة "جنكوية سعرانة" لقطع طرق القوافل، التي تحمل البضائع لممالك الحيوان الأليفة.

وتطورت إلى فكرة "الرِّباطة، الشبيحة" التي شكلت نواة، تكونت منها فرقة من الفرسان ملأت أخبار انتصاراتها الأفاق، فجذبت

الأقارب والأصدقاء والمرتزة، وهكذا بدأت نُواة الجيش الكلباني،
تنمو بمرور الوقت، مع كل انتصار توسعي، في الممالك المجاورة.

إلى أن بلغ أوج قوته على عهد "كلبون الأكبر" الذي يعتبر الأب
المؤسس الفعلي، لمدينة الكلاب الضائعة، إذ أعاد تنظيم الجيش،
وحوَّله من جيش تطوُّعي إلى جيش محترف.

واخترع مؤسسات الدولة، ودستورها وعملتها، وبدأ رحلة
التوسع الكاسح في ممتلكات الجوار، بمزاعم نشر الحضارة في إمارات
وسلطنات الكلاب السعرانة والضالة، التي تحولت إلى طوائف
نخرها الفساد.

تهد كلب السُّرة تهيدة عميقة قبل أن يواصل الحكي للجريوات:

"منذ زمن بعيد، وفي "كليوة البائدة" كانت تعيش زرافة ذات
قائمة متوسطة، كان بالزرافة غفلة، إذ خرجت ذات يوم من الغابة
وتاهت، فلم تدر أين تسير، ولا أين تتجه، فصارت تمشي على غير هدى
من هنا إلى هناك، حاولت البحث عن طريق العودة فلم تهتد إليه،
وهكذا، ظلت تتجوّل، حتى وجدت نفسها في فجٍّ بين هضبتين، حيث
كانت تدور رحى معركةٍ حاميةٍ الوطيس.

على الرّغم من أنّ عدد القتلى كان مرتفعاً في الطرفين، لم
يستسلم الجنكويز وصانعي الفخار الثوار المتحاربين، ولم يسمحا
بالتفريط في سنتيمتر واحد من الأرض التي كانا يدودان عنها.

كان الجنكويز يحتنون جيوشهم على الصمود والاستمرار في القتال بضراوة، والسيف مرفوعة إلى أعلى، في الوقت الذي كانت الأرض تكتسب اللون الأرجواني بدم الجرحى.

وبين تصاعد الدخان، ودوي المجانيق وضجيجها، كان القتلى يتساقطون في صفوف الجنكويز والثوار، الذين يسلمون الروح في كل حين.

الأحياء كانوا مستمرين في القتال بحماسٍ منقطع النظير، وهكذا حتى يأتي دورهم هم الآخرون في السقوط، إلا أنهم كانوا في تلك اللحظات، يضعون في حساباتهم أنّ التاريخ سوف يذكرهم بفخر الأبطال، وأخذ التاريخ بالفعل إقدامهم وشجاعتهم بعين الاعتبار، وكان عادلاً، فقد حكم وقضى بالقسطاس لصالح الطرفين بأنهم أبطال، إذ كل طرف كان يكتب تاريخه الخاص، وهكذا مثلما "صانع الفخار" بطلاً مغواراً بالنسبة لأتباعه، فهو بالنسبة لأعدائه الجنكويز آل المقدس سرّة، ليس سوى درويشاً مهووساً.

ومثلما تور الجرلا يتعدى أن يكون مجرد عميل و أفاق بالنسبة للطرفين من غير النخب، إلا أن أتباعه من الجنكويز البسطاء يرونه قائداً ملهماً.

وفيما كان كلب السرة غارقاً في تأملاته حول ما يجري في مدينة الكلاب القديمة، جاء "ديك أم الحسن" بصحبة ابن عمه "ديك

المسلمية" الذي كان في زيارة عاجلة لتفقدته بسبب غلاء أسعار اللحوم، التي دفعت الأهالي إلى الهجوم على الطيور الداجنة!

قال جاحوم:

عوى الديكان بوجهي وصاحا بأنفاس لاهثة، وقالوا في عوعاي واحد:

"لقد حاصر الجنكويزيقودهم خراب العامر، قصر الحاكم الجنكويزي العام "تور الجر!".

كان التَّهَاريتلاشى، عندما أحرق تور الجروبطنته، وسدنة نظامه، أي وثيقة في حاضرة الدولة أو أقاليمها، وأحالوها إلى رماد، ثم أسرج له خاصته أحد البغال، ونكروه في ثياب (عريجي) حيث كان ينتظره بعض حرسه بالجمال، في درب الأربعين، متنكرين كتجار الإبل، كانوا ينوون أن يهربوه بها، عن طريق درب الأربعين، فيما لم يكونوا قد حسموا خيارات تهريبه بعد!

وفيما هم يتجادلون، دهمتهم قوّة من العائدين من الجوار عن طريق درب الأربعين، للتضامن مع صانعي الفخار، واعتقلتهم وسلمتهم للقيادة الميدانية لصانعي الفخار، والتي كانت وقتئذٍ تحاصر مقر قيادة الجنكويزكتفًا بكتف مع قوات خراب العامر! من كل الاتجاهات!

فيما كان السلفيون وعلماء السلطان، الذين "أفتوا بقتل ثلثي الشعب" وقالوا "بحرمة الخروج على الحاكم" يتجولون في الأسواق، مُتشابكي الأيدي، ومكوّنين مجموعات صغيرة، تخطب في الأهالي البسطاء هنا وهناك، فيما تمضغ قطع الباسطة والبسبوسة بهم!

وبذات الطريقة، التي يخطبون بها في العوام الطيبين! يتناثر من أفواههم اللُعباء الممزوج بقطع صغيرة مما يأكلون، بصورة مثيرة للاشمئزاز والغثيان والتقزز!

ولم يكن هناك سوى موضوع واحد فقط، هو مدار الحديث في المدينة يومذاك، إذ كان جميع النَّاس يقولون لبعضهم بعضًا:

"أن الظلم الذي تعرضنا له، فاق ظلم "الحسن والحسين" فكيف يكون رد الظلم والسعي لإحقاق العدل حرامًا!".
ويضربون أمثلة كثيرة لا تبدأ بثورة "الحسين" ولا تنتهي "بالثورة الكبرى".

وفيما الأهالي، وعلماء السلطان في أخذ ورد، كان تورالجر الهارب، على ظهر بغله متنكرًا في ثياب "العرجية"، قد ترك وراءه زوجته الحبيبة دنيا فرندقس والقصر الجنكويزي ومقر قيادة الجنكويز وحاضرة البلاد الأسيرة وكل شيء، ومضى ضائعًا في صحراء الأربعين ومئاتها، التي تتطاير فيها ذرات الرمال كالشرر، قبل أن يقطع عليه الثوار العائدين من الخارج، رحلة الهروب الفاشل ليلقى حتفه!

□□□

"ما لا يريد هؤلاء البشر معرفته عن جنسنا، أننا قد بلغنا شأواً يعجزون هم أنفسهم عن بلوغه".

قال شعرون بن الجحيمي، المثقف المتجاوز، ابن عم كلب السُرّة، ثم أضاف وهو يبتلع لسانه اللاهث من شدّة الحر:

"مثل صديقي المقرّب وابن عمنا جحمان السعران، قاتل البغدادي، الذي يذكرني بصديق قديم هو "كلب الست هانم" الذي توفي في النصف الثاني من أواخر القرن الماضي!".

ثم نبح معوضاً وهو يمسح بلسانه أسفل أنفه ويستطرد:

"وفي الحقيقة يعود الفضل لعلاقتي بكلب الست، إلى صديقنا المشترك الكلب العسسي "رامبو" فهو الذي عرفني به".

عطس عاويًا، وهو يضيف:

"وإن أنس، لن أنسى إبان هجرتي التاسعة، صديقتي رائدة الفضاء (ليكوفيا) التي فجعتني موتها، وآلمني كثيرًا، فقد ربطت بيننا كثير من الذكريات، في السكن الذي تشاركناه، في قلب "الساحة الحمراء" وعلى "ضفة الدانوب" ولا زلت أذكر هوهوتها بسعادة بالغة، عندما رأتي أترز على قاعدة تمثال "لينوفيتش"..

وفي الحقيقة، عندما التقيت كلب العمليات الانقاذية الخاصة، أثناء أحداث تفجير مركز التجارة، استعادت رؤيته ملامح وجهه

الرفيقة الماجدة "ليكوفا" التي كانت الأنوثة المتفجرة لجدها الأولى التي تحدرت منها سلالات كثيرة في أصقاع الأرض، تثير كل كلاب الأسر الحاكمة، بدءًا بكلب نوح، ومرورًا بكلب أهل الكهف وصولًا للكلاب المعاصرين، فجمال وجاذبية "ليكوفا" مستمد من ذلك الجمال الساحر لليكوفا الأولى الخالدة عبر العصور!

المهم، أن كلب العمليات الإنقاذية الخاصة، أخبرني أنها جدته هو أيضًا، وأن والده هرب من "معتقلات سيبيريا" بأعجوبة ودخل هذه البلاد "لاجئًا" حيث أعيد توطينه وأحب كلبة من كلبات "بيفرلي هيلز" وظلت حبيبته الأسيرة إلى أن انجبتني، وهربت بعد ذلك مع أحد الكلاب الصيِّع الذي كان مغرمًا بالتمثيل، والذي كان رغم إحساسه المزمن بالضيق، إلا أنه أنفق حياته في تربيته أحسن تربية، يتلقاها كلب مثلي!

وجعلني أرتاد أفضل مدارس الكلاب الخاصة، التي تفوقت فيها، إلى أن اصطادني أحد "صيادي المواهب" فألحقني بجهاز "عمليات الإنقاذ المستعجلة".

ويعود اهتمام عشيق أمي بي، وفقًا لتحليلي السايكولوجي الكلبوني، لكونه نشأ يتيماً، وأنفق سنواتٍ عزيزة من عمره يبحث عن أبويه دون جدوى!

وفي الحقيقة كلاب كثيرة لم تصدق أن "كلب البغدادي" صديقي، إذ يستكثرون على مثالي معرفة من هو مثله من مشاهير التاريخ.

وبالطبع هم لا يعرفون حقيقة عمري، وأنني عشت آلاف السنوات، في مختلف العصور، وقصص التاريخ التي يقرؤونها في الكتب، كنت أحد معاصريها وشاهدًا عليها، بل وأهملت السينما العالمية، والكتاب، والعلماء والباحثين، الكتابة عني في مجال تخصصاتهم!

حتى لم يعد ممكنًا، أن تقرأ لغزًا من ألغاز الناشئة أو البالغين المتسلسلة، دون أن تجد أحد الأبطال الذين حلوا للغز هو أحد أقربائي!

أو مسلسل أو كتاب أطفال يخلو من حفيد من أحفادي! ولذلك ليس غريبًا، أن أعرف كلب أهل الكهف..

يقول صديقي ود دبرك، أن كلب أهل الكهف كان قد جاء يسأل عني قُبيل رحيله، وكنت في مأمورية عاجلة خارج المدينة، فترك لي تحياته مع صديقي العندليب:

"ودعني في ذلك المساء، الذي قرر فيه أصحابه الهرب من الحاكم الجنكويزي المستبد، فتبعتهم محلقة فوقهم طوال طريق الهرب من سبب لوهاد، إلى أن نال منهم التعب فقرروا أن يستريحوا بعض الوقت داخل كهف عثروا عليه على ضفة أحد الوديان!

وهكذا تركتهم في كهفهم عندما تأخروا في الخروج لأكثر من ثلاث ليال، ثم تجرأت ودخلت عليهم الكهف، فرأيهم جميعاً موتى، حزنت أشد الحزن، وعدت محلّقاً إلى هنا".

منذها ينتابني نوع غريب من الحزن، كلما تذكرت صديقي "كلب أهل الكهف" فيرتعش جسدي إلى آخر ريشة، وأتأوه إلى آخر زقزقة! ولم أشف من هذه الحالة العجيبة، -يقول ود دبرك- إلا بعد أن التقيت بـ الكلب "هاتشي" ..

فأنا الذي لطالما عانى من انعدام وفاء الأصدقاء، إثر الوقائع المأساوية بحياتي مع عشوشة الثالثة، وجدت هذا الوفاء في الكلب هاتشي!

كان هاتشي يخصص أستاذاً في الجامعة وكان يحبه كثيراً، ويحرص على مقابلته أمام محطة القطار، لدى عودته من عمله، وفي أحد الأيام لم يعد صاحبه من العمل، إذ تعرض لتزيف دماغي تسبب في وفاته.

ولكن الكلب هاتشي ظل ينتظره يومياً أمام باب المحطة، وعرف بقصته المارة وأصبح أشهر كلب في العالم.

وهكذا تعرّفت عليه، ولم أفارقه أبداً، ونلت من معارفه الثروة الكثير، ولازمته إلى أن مات.

وكنت شاهداً على تحنيط جثته، في المتحف الوطني للعلوم، إذ
ركوت على الشباك، وأخذت أراقبهم وهم يفرغون أمعاءه.

لوقت ليس قصير، كنت من أن لأخر أزور الجثة المحنطة
لهاتشي، أركو على النافذة وتأمله من بعيد، فيبدو لي أنه لم يفارق
الحياة!

كما كنت كل يوم أزور تمثال هاتشي أمام محطة القطار، أركو
على عنقه، وأحكي له ما مر بي بعد آخر لقاء لنا، كأنه يسمعي، بل
كنت واثقاً أنه يسمعي، إذ كنت اسمع نباحه ضاحكاً، عندما أحكي
له أحد قصصي الطريفة.

وبقدر ما كان هاتشي من أصدقائي الأذكىاء، تعرّفت في حياتي
المديدة على صديقات وأصدقاء أغبياء، كالكلبة "براقش" التي جنت
على أهلها وعلى نفسها!

تعرفت على براقش للمرة الأولى، عندما حطت بي أجنحة
ترحالي، في مضارب قبيلتها!

وكانت براقش ذات حس راداري، يجعلها تحس بأي كائن غريب،
يدخل أرض قبيلتها، وهكذا أخذت تنبح عندما شعرت بوجودي، راكاً
على خيمة زعيم القبيلة، فزغزغت أخبرها أنني صديق، ولست عدو!

ومن ثم اعتادت على وجودي، وحاولت جاهداً أن أصادقها فلم
أنجح، فقد كانت براقش من ذلك النوع المتحفظ الخجول الهادي،

المتمسك بالتقاليد القديمة للكلاب الأليفة! مذ كانت ترتدي الحجاب في العصر الجاهلي للكلاب، لإخفاء عيوب وجهها، وهل أذنها بعيدة عن مهوى القرط أم لا، فصرفت النظر عن مصادقتها، بعد العديد من المحاولات الفاشلة!

وذات يوم أغار لصوص على قبيلتها، فنبحت تنبه أهل القبيلة، الذين سارعوا فاقتبؤوا في الوقت المناسب في مغارة.

وبحث اللصوص عن أهل القبيلة، فلم يجدوهم فقررروا مغادرة المكان، ولكن حين لمحتم بر اقش يغادرون نبحت مرّة أخرى، فتنهوا لكان وجود القبيلة، وقتلوهم وقتلوها.

ومن جنس أصدقائي الكلاب، الذين أحببتهم كثيرًا، الكلبان "بالتوتوتوجو" اللذان أنقذا أهل "نومي" من وباء الدفتيريا.

وصديقي الكلب تشيكرز، "الكلب الأول" الذي ابتز الرئيس الأميركي نيكسون الشعب الأميركي بالحديث عن عواطفه تجاهه، فأنقذ نفسه من إطاحة الشعب به.

وفي الحقيقة الكلاب التي عرفتها في حياتي، المديدة تكاد تكون أكثر من العصافير من بني جنسي أو شعوب وقوميات وأمم الطير الأخرى، سواء التي تحررت من الرق، أو التي لا تزال ترسف في أغلالها، أو تقعي داخل زنازينها.

ومن بين كل شعوب الكلاب، عرفت شعوبًا قليلة من أشجع وأنبل كلاب الدنيا، مثل كلب الصيد وكلب الرّعاة، كلب الحراسة، وكلب العسس، وكلب جراي هاوند، وكلب مر افقة المكفوفين، وكلب الزلاقات.. "وشارلي" كلب الرئيس الأمريكي "جون كينيدي" الذي غير مسار أزمة الصواريخ الكوبية.

ففي الوقت الذي كانت الأزمة على أشدها، طلب الرئيس إحصار شارلي إلى غرفة الحرب، المثيرة للتوتر والعصبية، وقد لاحظ من كانوا بصحبته، أنه عندما كان يداعب الكلب المقعي على ساقيه، كان يشعر بالاسترخاء.

فاتخذ القرار الذي غير مسار التاريخ، وخفف من حدّة النزاع.

ومن الكلاب المميزة، في علاقتي بها، الكلب "بوبي" الذي سافر مئات الأميال، حتى وصل إلى منزله، خلال رحلة أسطورية على الطريق من إنديانا إلى أوريغون، سافر خلالها 2800 ميل، وكان بوبي قد انفصل عن عائلته في إنديانا، والتي بحثت عنه لساعات دون جدوى، إلى أن فوجئوا بعودته وحده إلى المنزل، بعد ستة أشهر! مما جعل بوبي من المشاهير، ولعب الدور نفسه في فيلم صامت بعد ذلك.

وخلال فترة التيودور، كانت النساء من الطبقات الملكية البريطانية، تعشق كلاب "السبانيلز" اللطيفة، وقد أحيم الملك تشارلز الثاني، وكان لديه مجموعة من ألعاب السبانيلز.

ومن شدّة حبه لهم، كتب الملك مرسوم ملكي، يضمن فيه عدم منع تلك الكلاب، من دخول الأماكن العامة في إنجلترا، متضمنة مجلس النواب، وما زال المرسوم قائماً حتى الآن!

وهناك كلب مهم جدًّا هو الكلب بومبي الذي أنقذ قائد "الثورة الهولندية" ويليام ذا سايلنت.

فعندما كان "أمير أورانج" نائمًا في خيمته، سمع كلبه الوفي بومبي القتلة وهم قادمون تجاههما، فقام بتحذير الأمير بالنباح والחדش، فأنقذ حياته من الموت،

فأصبح الكلب الرّسّي "لبيت الأورانج!".

وشاءت محاسن الصدق أن أتعرف على الكلبة سموكي في أحد دور العجزة، بعد مسيرة نضالية طويلة!

وكانت سموكي جالبة للحظ أثناء الحرب العالمية الثانية، فقد وجدها جندي أمريكي في حفرة بأحد الغابات في غينيا الجديدة وباعها لـ "كوروبورال بيل وين" وطوال العامين التاليين، أبقى وين الكلبة معه في ميدان المعركة، وعلى متن الطائرات الحربية، كما أنه درب الكلبة سموكي على تهئية الجنود الجرحى، مما جعل سموكي أحد أول الكلاب المعالجين.

ولم تنته علاقة سموكي ووين هناك، فعلي مر عشرة سنوات،
أدى الاثنان الكثير من المهام على مساح المشافي، وفي المهام
العسكرية.

وفي الواقع بسبب العمر المديد الذي عشته، تنوعت علاقاتي
الاجتماعية عبر العصور، تنسج شبكة من العلاقات بمختلف أنواع
البشر والكائنات الحية. بل تعرّفت حتى على سحرة ومشعوذين، من
الكلاب في الجوار أسفل النهر، وسفلة متعجرفين من الكلاب ما وراء
البحر الملون، كما لاحظت الكسل واللامبالاة على ذكور كلاب شمال
دار الريح، والشهوة الجنسية الزائدة الناتجة عن البطالة والفراغ،
على الكلاب في البلاد الأسيرة!



لم يكن ثمة من يتوقع هذا التفكك المتسارع المريع لنظام
الحاكم الجنكويزي العام، "تورالجر" الذي لطالما زعم أنه لن يسلم
السلطة إلا مع اكتمال علامات القيامة جميعها، وأكد على ذلك في
أكثر من مناسبة!

بل ملاً شوارع ودروب وزقاقات البلاد الأسيرة بصورة تجمعها
بالسيد المسيح وهما يشدان على يدي بعضهما!

كما منحه "اتحاد دول الجوار" نيشان الخلود، ونوط أسد
الاتحاد، إذ كانت نظم دول الاتحاد، تنظر إليه في إعجاب، على
اعتباره آخروء "أم بعلو إفريقي" لم تطع به ثورات الربيع العربي؟!

وربما كان مصدر إعجاب دول الاتحاد أشياء أخرى رأوها في
الرجل فشل شعبه في رؤيتها، ولذلك سعوا باجتهاد لتمثل مذهبه
الحربائي التلفيقي الاستبدادي الدموي، في حكم شعوبهم المغلوبة
على أمرها!

فيما كان العالم البعيد، يصر على تسليمه لمحاكم جرائم
الحرب، وينظر إليه، بمزيج من خليط الجنون ومركب العظمة،
"كسوبر نظام" فشلت كل هبات الجماهير وانتفاضتها، وحصار العالم
البعيد، خلال 30 سنة في هدّه!

بل لم تنجح في هذه الانقلابات والتحركات العسكرية المناوئة،
وغزو القوى المسلحة التي أحاطت غرب حاضرتة إحاطة القوس،
وتوغلت كتائب منها داخل أحياء الحاضرة.

النتيجة أنه أعدم صورياً لا الغُزاة وقادة الجماهير فحسب، إذ
كانت تلك مناسبة لإفراغ الحاضرة من كثيرين، يشك في أنهم "قد"
يمثلون خطراً عليه في المستقبل، وهكذا مضى يولغ في الدّم حتى
رأسه، ليسبح في نهر الدم هذا إلى الضفة الأخرى، لتصفية أي خطراً أو
تهديد محتمل!

كما سخر كل أجهزة الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة، لشتيم
الشعب، وإحباط معنوياته، وإقناعه بالذل كقيمة في قناعاته،
وليس كسلوك ينتهك الكرامة الإنسانية!

وكان من أكثر الأمور إقلاقاً لسكان البلاد الأسيرة، الذين أصبح
سوادهم من الرجال الشيوخ، والطاعنين في السن، نتيجة هذا
الإهدار الكثيف لدماء الشباب!

□□□

كان الأعمى يحمل المكسر: رجال الطرق الصوفية، فرق الفنون
الشعبية، وكبار السن والجدات، العنقالة وحرثجية زريبة المواشي!

كل هؤلاء وأولئك ضربوا بالفتوى، التي كَفَرْتهم جميعاً عرض
الحائط، وخرجوا يلتحمون مع الجماهير التي سبقتهم، لا يخشون
الرصاص الذي هطل كالمطر، فملأت دماء الشهداء الشوارع،
والأحياء!

كانت أرواح الشهداء عبر التاريخ تظلل الثوار من لجان المقاومة،
الشباب اليافع، الذين كانوا يتقدمون بثبات مرفوعي الرؤوس! وكان
الجميع مصرّاً على إسقاط خراب العامر أو الموت!

في خضم ذلك كثف قادة أحزاب العرّاب، التي انشقت من
الحزب الحاكم، وقادة الصف الأول والثاني والثالث والرابع، لنظامه
والفرق والطوائف الناجية، توجيه سهام شتائمهم إلى صدر أفراد
الشعب وتحدي إرادة الثوار واستفزازهم! وتكريس وصفهم بشذاذ
الأفاق!

وفي الحقيقة هذه الشتائم ومثيلاتها شكلت حافزاً قوياً، إذ
تحوّلت الثورة إلى قضية شخصية تستوجب الردّ العنيف، المسئولين

قالوا من قبل للمعارضين إذا أردتم السلطة فاحملوا السلاح، ما أدى إلى حرب أهلية قاسية، والآن بذات العنجهية والصلف يقولون للشعب، أخرج لتختبر ضراعاتنا، ودعنا كذلك نختبر ضراعاتك والحشاش يملأ شبكتوا!

ففوجئوا بالشعب يثور ويخرج، ليختبر ضراعات قادة نظام الحاكم العام، الذين مع فشل تهديداتهم التي لم تتوقف، ووعيدهم تارة وترغيبهم تارة.

كانت الثورة في نفوس الناس تنامي والحشود تتزايد، فبدأ تهريب الأموال والهروب الكبير، عبر البر، والبحر والجو والدواب، عبر منافذ قبل البلاد الكبيرة الأربعة، فيما كان الحالمون بأن النظام سينجو كما نجا خلال أكثر من ثلاث عقود من هزّات عديدة! لا يزالون في سُبّات عميق! إلى أن خاب ظنهم، واستولى تور الجرعلى مقاليد السلطة.

فلم يصدقوا أن نظامهم قد سقط، حتى بعد أن اعتقلوا كالجرجزان الصغيرة، الهاربة من ققط جائعة، وعندما أفاقوا داخل المعتقلات، أخذوا يتهمون ويشتمون ويتعاركون مع بعضهم البعض، فالجميع يريد تحميل مسؤولية ما حدث الآخرين!

كولشيستر، فيرمونت

ديسمبر 2019

□□□

3. المقدس سره

إذا كان هناك ثمة من هو مقدّس سرّه، فهو صانع الفخار نفسه.

الكنداكة

الإنسان مدين بالاعتراف بالفضل لنفسه، ولهذا السبب بالذات فهو بحاجة إلى إله.

نيته

ترى ما الذي كان بإمكان البلاد الأسيرة انتظاره، من أفق تفكير كـأفق تفكير المقدّس سرّه، بمتناقضاته ومفارقاته، سوى الرؤية المتشظية عن الإنسان والجغرافيا.. هذه الرؤية التي لا يوحدما سوى الاختلاف والتشوّه والتمزّق!

جادين جانو

أيها الناس: إذا استولى الحق على قلب، من غيره أخلاه، وإذا لازم أحدًا أفناه!

حسين الحلاج

وسوف يذيقون الشعب الأمرين، وسوف يدخلون البلاد في فتنة
تحيل نهارها إلى ليل، وسوف تنتهي فيما بينهم، وسوف يقتلعون من
أرض (البلاد الأسيرة) اقتلاعاً!

محمود محمد طه



صُلب صانع الفخار على "عيدان شجرة اللعوت سيئة الرائحة"
في فناء كنيسة البلدة القديمة! عندما أشعل الجلال النار، في كومة
جثة صانع الفخار المتناثرة أشلاء، وارتفعت سحب الدُخان، لم يشم
الناس رائحة اللعوت الكريهة!

كانت سحب الدُخان، التي انعقدت في سماء البلدة، تفوح
برائحة مزيج، من الصندل والعنبر والكافور! فأخذ الأهالي مدهولين،
يبهلقون في وجوه بعضهم البعض، وقد انعقدت ألسنتهم!

رفع جادين جانورأسه عن المخطوطة، وأخذ يدعك على عينيه
الجافتين.

طريق طويل عبر أنفاق المخطوطة ودهاليزها، خباياها
ومسكوتاتها.. إسقاطات ذاكرتها السريّة والمعلنة.. طريق وعِر عبره
جادين جانو، خبير اللغات القديمة، بمعهد جار النبي جارو،

لدراسات التاريخ والآثار؛ وهو يتقصى في أحزان صانع الفخار
والخزین طبله أم جبو، شجن البلاد الكبيرة كلها! فيتأمل تلك
اللحظة، التي تسلت فيها الراهبة (أم عيون) من الكنيسة خلصة،
تتبع أحلامها وظنونها.. أحلامها نقطة الضعف، التي أدخلت المقدّس
سرّه، إلى حياتها، فاخرق قلبها كنصل، مخلّقًا وراءه جرحًا ليس
باستطاعة الزّمن مداواته!

أم عيون التي تعاني من كثافة الأحلام، رأت نفسها تتجول في
البلاد البعيدة، ما وراء البحر المالح، وتخوم الصحراء القاحلة، مثلما
رأت قوى خفيّة تشدّها، لتجد نفسها تتجول في غابات الصعيد
الاستوائية، تنتظر تسلل أشعة الشمس، من بين أغصان شجر
الغابات الكثيفة، في منبع التّهر!

في غضون هذه الأحلام.. رأت المقدّس سرّه.. رأت وجهه الغريب!
رأته هو ذاته الرّجل الغريب، القلق ذو النظرات الثاقبة، كنظرات
نسرمرهق تملؤه فتوة الصبا، فيحلق بعيدًا بعيدًا..

النظرات التي تكشف عن أدواء الطموح والقلق المزمّن! تأثرت
بمظهره كثيرًا في غدوه ورواحه، وشعرت بحضوره الطّاغي.. داخلها
يغويها، فأحست بدافع لا يقاوم للقائه، وتساءلت: ترى هل يتجاوب
معها أم سيصدّها؟ ثم لم تأبه! فقد قررت أخيرًا أن تتبعه بحذر.

كانت كلما تقدمت منه خطوات، تبخرت مخاوفها مثل سحابة صيف يتيمة.. السحابة ذاتها، تلك التي في كل مرة تغطي سماء البلدة، ولا تلبث أن تنطفئ كفقاعة!

هذا الصباح كانت قد تجاهلت عمداً ارتداء ثيابها الداخلية، تحت ثياب الراهبات القطنية الطويلة الخشنة، التي تغطي كل شيء، فلا تكشف سوى استدارة الوجه!

ورغم أن حكة الثياب الخشنة ببشرتها كانت تؤلمها، إلا أنها كانت قد قررت أخيراً، أن تترك جسدها عارياً تحتها.. لفت ذلك انتباه صديقتها الكنداكاة، فحاولت زجرها، لكنها لم تأبه! وخرجت تقصد الجروف، خلف الكنيسة تجني بعض احتياجاتها من خضار للطبخ!

كلما خطت خطوة، كانت تكوراتها الوافرة، المتماسكة الصلبة، تهتز بقلق تحت ثياب الرهينة الفضفاضة.

رأت هذه التكورات السخية بخيالها الجامع غزير الأحلام، تبدو في العري الكلي، لجسمها الأسمر الممشوق، تحت ثياب القطن البيضاء الطويلة، كأنها تطفو في نهر من الضوء!

شبكت أصابع يديها في بعضهما البعض، وسال عرق غزير من كل مسامها، بدت أمامه كمراهقة صغيرة، بوجهه الأبيض، وشعره الناعم الأسود، الذي عقرته الأسفار وقسماته الصارمة، ويده المتحفزة على مقبض السيف المحزوم، والمتدلي من خصره وثيابه الغريبة، التي لا تشبه ثياب أهل البلاد الأسيرة!

حقًا كان هو "المقدّس سرّة"، ذاته الذي لطالما رأته في أحلامها!
كان فمه مفتوحًا قليلًا، وقد ارتسم على عينيه استفهام كبير:

"لماذا تتبعيني؟".

تمالكت نفسها جامدة:

"لا أدري، وجدت نفسي أتبعك!".

"إذن أنت تلك العيون، التي كنت أشعر بمرآقتها كل يوم، كلما
مررت أمام الكنيسة؟".

"نعم، أنا.. ماذا تريد مني؟".

بدا لها صوته الحذر بدائيًا، لا مشحون بنبرة من اعتاد المخاطر،
وإعطاء الأوامر..

"أنت ماذا تريد مني، تلاحقني في أحلامي كلما غفوت أو نمت!.."

طريق طويل عبر أنفاق الذاكرة، ذلك الذي عبره جادين مع
الزاهبة أم عيون، وصانعو الفخار، وآل الخزين لعشرات الأجيال و..
ومع أهالي البلدة القديمة والمدينة الزاهية، وهم يأوون إلى
مراقدهم، أو يهجعون متوسدين أحلامهم، وهم لا يزالون منشغلين
بسباق الحمير السنوي، فخر مباريات البلاد الأسيرة، الذي ينعقد كل
عام في البلدة القديمة، لما لها من مكانة رمزية عميقة، في وجدان
شعوب البلاد الكبيرة! عبر معهم وهم يغادرون إلى الصعيد، بعد أن

أجلاهم الحاكم الجنكويزي العام.. يبحثون في داخلهم عن الوطن في
ظُلْمَة الغابات وعمّاتها، وأحراشها الموحشة!

هذه الغابات الكثيفة، التي اختارها أسلافهم وطناً بديلاً، في
تراجعهم المستمر من أقصى السافل، إثر ضغط الهجرات والغزو
والإزاحة والإحلال.. كانوا يتراجعون صعوداً في النهر، يشيدون أوطاناً
جديدة، داخل هذه الغابات العذراء المظلمة، يفتقرون لكل شيء،
سوى أساطير الهزائم والمرارات والانتصارات الشحيحة، في حكايا
الأسلاف!

ومع ذلك تشتد رغبتهم في الحياة، فيغنون أغنيات الصيد
والحب وصانع الفخار، على وقع موسيقى المطر الاستوائي الغزير،
تشاركهم القروء عزف الطبول والرقص تحت ضوء القمر، الذي
يتخلل أشجار المانجو والباباي الكثيفة!

طريق مليء بالشجن والدّم والدموع، عبره أهالي البلدة
القديمة، إلى أن رمى بهم "الفلّك" مراسيه، فتبدّى لهم صانع الفخار
الأكبر، يحيط به كل أحفاده وآل الخزين عبر التاريخ!

جميعهم خروا ساجدين، لا يرفعون أعينهم إليه، يشرعون
فقط مسامعهم، لينساب صوته العميق الأسر، الرّيان بالحنين يهدئ
لوعتهم! ويحدثهم عن وطنهم الجديد، أرض ميعادهم.. ويوصيهم
خيرًا بالحق، فالحق أحق أن يُحق!

بدأت لهم أرض الصعيد.. هذا الوطن الذي تم نفيهم إليه،
كغابة تملؤها الهواجس والأشباح والظلال والمخاوف والظنون.. تمد
فيها كل أنواع الأشجار التي يعرفونها، والتي لا يعرفونها.. أعتاقها إلى
السماء البعيدة، موطن صانعي الفخار الأماجد!

كانت الأزهار والريحان البري، في كل شبر من هذه الغابة
العملاقة، وكان عليهم أن يبدؤوا من الصفر.. أن يعمرُوا هذا الوطن
الجديد، ويشيدون فيه حياة بديلة.

كانوا بعد أن هدأ صانع الفخار سرهم، قد بدؤوا يتصالحون مع
فكرة البدء من جديد، ولم يكن هذا خيارًا ضمن خيارات، فهو الخيار
الوحيد!

فكان أول شيء فعلوه أن بنوا ضريحًا وقبة لصانع الفخار،
شعروا بعد إكمال بنائهما بالسكينة، وأخذت خياشيمهم وراثتهم،
للمرة الأولى تتنفس رائحة الفواكه والريحان البري ممزوجة في
"عشبة معونة النَّهر) و(أم بانقيقة) و(السعدة)".

□□□

هاتف هاتف:

"لقد أحرق الجلاد والأهالي والعسس الجنكويز صانع الفخار،
بعد أن صلبوه وعدَّبوه ورجموه، وقطعوا يديه ورجليه! بدى كطفل
وديع! حتى بعد أن تحوّل إلى كومة من الرماد!".

قُتل صانع الفخار بذات الطريقة، التي أُعدم بها أسلافه، من
كجور وحاخامات وقساوسة كنيسة البلدة القديمة، في الأزمنة
الغابرة! صلبه عسس الحاكم الجنكويزي العام، على صليب من
خشب "اللעות" سيئ الرائحة وأشعلوا فيه النار!

صانع الفخار الملقب "بصانع الفخار الأكبر" حملت به أمه على
كبر، ظلت عاقراً لوقتٍ طويل، فنذرت إن جاءها طفل ذكر، لن
تعطيه اسم وستهبه للخزين لخدمة الفقراء والمهدرين والمقهورين،
وعندما حملت وجاء مولودها إلى الدنيا وكبر قليلاً، شق عليها أن
تنفذ نذرها! دفعت به إلى سوق البلدة ليتعلم التجارة، وصبرت عليه،
فلم يفلح.

فأخذته إلى أهل الحرف والمهن والصناعة، وصبرت عليه فلم
يفلح أيضاً.. فعلت كل شيء، لكن لم يفلح! فاستيأست منه، فقال
لها:

"يا أمي أنت نذرتني لخدمة الفقراء والمهدرين والمقهورين،
فاوهبيني للخزين، تُوفي بنذك".

فدفنت رأسه في حضنها، ثم مسكت رأسه بين راحتي كفيها،
وابتسمت دون أن تقول شيء، فقط نهضت وأخذته من يده، متجهة
به إلى حلقة الخزين.. بعدها لم يرها أحد، فقد ظلت دارها مهجورة،
خالية لا تسكنها سوى العناكب وحمام الوادي وطائر البلدة
الأسطوري!

أخذ الصَّبِي الصغير، يخدم رواد الحلقة في "تكيّة" الخزين،
الذين كان سوادهم فقراء ومقهورين ومهدرين، ويقضي حوائجهم،
ويعتني بنظافة المكان، فيكنسه وينفض الغبار عن المخطوطات
والمنحوتات، وبهينه لــــلانعقاد بالناس؛ الذين يجينون طلبًا لعلم
الخزين! فيبسط "الفراوي" ويملاً "الركاوي" بالماء.

كان ذكيًا يحب الاعتناء بالتفاصيل! وذات يوم وهو وكعادته،
ينظف المكان، عثر أثناء كنسه على رقعة من الجلد كتب عليها (صانع
الفخار)، فأخذها دون أن يشعر وابتلعها، مدفوعًا بقوة خفية لفعل
ما فعل! وأخذ يتمتم:

"إنه اسمي أنا، صانع الفخار.. هو اسمي.."

كانت تلك القطعة الجلدية؛ هي مرسوم الولاية للخزين كحامل
اللقب (صانع الفخار) المقدس الإلهي المهيب، الذي حمله قلة منذ
أنشئ الكون وبُسطت أرضه، ونُصبت سماؤه، ونُثرت فيها النجوم!

بحث الخزين عن رقعة الجلد في كل مكان، فلم يعثر عليها،
فغضب غضبًا شديدًا، ونادى في الجميع يسألهم عنها ويهددهم
ويخيفهم بدعواته عليهم، حتى يعيدها من أخذها، فلاذوا جميعًا
بالصَّمْت، فقال مغتاظًا:

"من عثر عليها ولم يردها، قطعت يمينه، فلم يتكلم أحد" ..

فقال:

"من سمعني أسأل عنها ولم يجبني، قطعت شماله، فلم يتكلم أحد" ..

فقال:

"من سمعني ألح في طلبها ولم يردّها، عُذّب ورُجم وقطعت أرجله وصُلب على شجرة لعوت سيئة الرائحة، وحرّق، ودُزّي رماده في هواء البلدة"

فلم يتكلم أحد..

□□□

سأل الجنكويزي راكب الفرس السوداء، الأهالي المتجمعين على مبعده من الأنتقاض المحترقة لكنيسة البلدة القديمة:

"من رأى منكم صانع الفخار الحفيد؟"

فرد أحدهم:

"لقد مات مقتولاً منذ اليوم الأول للغزو" ..

تعالى صوت متوتر من خلفهم:

"يُقال أن بعض الأهالي عثروا على جثته، على مبعده من الجاسر" فدفنوها محل شجرة اللعوت، التي حلّت محلها النخلة!".

ارتفع صوت أحدهم:

"لا بل يقولون أنه غادر إلى دارالريح، قبل الغزو بأيام!".

"بل غادر إلى الصعيد يا رجل، جميعهم يقولون ذلك!".

"ومن ذاك الذي دُفن تحت النخلة، أليس هو؟".

كيف يكون هو هو لا يموت؟!".

كانت رأس الجنكـــــــــــــــــ ويزي تستدير تجاه كل متحدث، وعيناه تتسعان دهشة، لا يصدق ما يتحدث به الجمع!

جزَّ أسنانه.. نفرت عروق جبينه وعنقه.. ترجل عن فرسه، وانتصب وسطهم كما رد ممشوق، ولشدة خوفهم، حُيِّل لهم أن عنقه تستطيل وتستطيل، حتى يختفي رأسه خلف السحاب!

ارتعدت فرائصهم من الخوف وهو يصرخ في وجوههم كالمجنون:

"هل جننتم؟ لا يموت؟ أي إنسان هذا الذي لا يموت؟".

فقال أحدهم في خوف:

"إنه مربع القامة"..

فقاطعه آخر:

"لا بل طويل جدًّا، حتى يُقال أنه يمد يده يشوي السمك، الذي تهبه له صديقاته حوريات النَّهر، في الشمس!".

تحسس الجنكويزي سيفه، وهو يستشيط غضبًا:

"جميعكم كفرة كاذبون، ويبدو أن أحدكم لم يره، أو يعرفه!".

فأكد أحدهم:

"كل من رآه للمرة الأولى، كانت تلك هي المرة الأخيرة!".

فقاطعه أحدهم قبل أن يسترسل:

"بل لم يره أحد لا أولًا ولا أخيرًا، فهو لا يلتقي البشر! فكيف يتحدث معهم؟!".

كان واضحًا أن الجنكويزي قد أصابه اليأس والقنوط، فاستسلم.. شد لجام فرسه، وقفز على صهوتها، وانطلق مبتعدًا يتمم بكلمات مبهمة، تاركًا الأهالي خلفه يصطخبون، حول أمر صانع الفخار!

وفيما هم يتغالطون، كان الخزين الحفيد، يلتقي لحظتها صانع الفخار، ويخبره عن قتل الجنكويز حبيبته "الكنداكة"!

اتكأ صانع الفخار على ذاته، وهو يشعر بنصلي حاد يخترق قلبه.. تماسك قليلاً قليلاً قبل أن يسأل الخزين:

"وأين كنت أنت وقتها؟ أأست حارسها؟".

لم يجد الخزين جواً، ودَّ لوقال له (وهل استطعت أنا حراسة
نيننا لأحرس الكنداكة) لكن لم يجرؤ، فأشاح بوجهه الشاحب، حتى لا
تقع عينيه على عيني صانع الفخار.

كانت أعماقه مرتبكة، مهزوزة، نكس رأسه ثم عاد فرفعه،
وجاهد بشفتين مرتعشتين كي يقول كلمة واحدة، لكن جهاده لم
يثمر، فخرّمتهالگًا على ركبتيه، وهو يتمتم بكلماتٍ غير مفهومة!

حدق فيه صانع الفخار ملياً، وهو يتراجع إلى الخلف، دون أن
ينبس ببنت شفة.

وكفقاة في ذلك المساء الحزين انطفأ!

كان قد اختفى تارگًا الخزين وحده، الذي كان قد انفجر في
عاصفة من البكاء المر، تتناهشه المخاوف والهواجس والظنون!

فيما كان "الفلک" الذي يقل حبيبتة "نيننا"، قد توغل عميقًا في
النَّهر، حيث بدأ مطر خفيف مصحوب بدرجة من الرطوبة، لطالما
ألها أهل البلدة القديمة، يتساقط..

كانت الرطوبة تمتزج بالأنفاس الساخنة للمغادرين، فيصـبـح
الجو داخل الفلك دافئًا ولكن خانقًا، بينما ربح هادئة تتلاعب
بالفلك، حتى ليبدو كالمحمول على محفّة!

شعرت نينا بألمٍ شديد في رأسها، يكاد يقسمه نصفين، كان الشعور بالإعياء الذي هيمن عليها، منذ تلك اللحظة وهي تودع الخزين، قد جعلها تحس أنها تودع روحها! لحظتها تملكها شعور قوي؛ أنها لن تراه مرّة أخرى، وأن حياتها باتت قصيرة جدًا، وأنها لا تستحق أن تعيش!

حاولت أن تتمالك نفسها، فاتكأت على أحد المجذفين في الجانب الأيمن من الفُلك، عند نهايته وهي تنظر إلى التهر الذي بدا لها أن لا نهاية له!

تملكها إحساس مميت بالإعياء والتعب، فاتكأت على جدار الفُلك تخفف ثقل جسمها المتهالك، وكان الليل يدنو حثيثًا حثيثًا.

تلفتت حولها في زحام الفُلك، تتفحص الأهالي الجالسين والواقفين والمتكئين.. حاولت أن تتبين هذه الوجوه، التي عاشت بينها.. هؤلاء الذين ولدت في كنفهم، ونمت وترعرعت وسطهم، تشعر بهم الآن غرباء عنها! لا تعرفهم!!

كان الألم في رأسها يشتد، كأن ألف مطرقة تطرق عليه بعنف وشدة! بدأت حرارة جسمها ترتفع، والعرق يتصبب غزيرًا؛ يمتزج ببلل المطر في ثيابها،

لم تستطع الاستمرار في الوقوف، فانهار جسمها وسقطت مُغميً عليها!

وبعد أن ابتلع الصبي اليتيم، رقعة الجلد. وتعايش الخزين مع حسرته عليها، أخذ يوليه عناية خاصة، مدفوعاً بقوى خفية، أن يمنحه كل معارفه وعلومه، حتى لم يبق لديه شيء يمنحه له.

وكان ذكاء الصبي حاداً يلتهم المعارف والعلوم، ببسر لم يره الخزين في أحد من قبل، بل كان أحياناً يطرح على الخزين مسائل تشكل عليه، فيساعده الصبي، ويحلها في يسر!

وهكذا مضت علاقتهما تنمو؛ وتتعمق بمرور السنوات، وعندما تعدى سن الرجولة، بدأت تطرأ عليه تحولات غريبة، إذ كان الخزين عندما يعطيه الفضة ليشتري طعاماً للفقراء، كعادته خلال السنوات الطويلة؛ التي قضاهما في رعايته، كان الناس يشكون منه؛ فعندما يمضي إلى السوق ويسأله البائع:

"ماذا تريد؟".

يرد مهمماً بكلام لا يفهم منه سوى كلمة واحدة:

"الحق، الحق..."

ثم يأخذ لنفسه ما يريد ويمضي، وتكرر الأمر مع كل الباعين، الذين بدا لهم دائماً كالساح في ملكوت وحده، لا يعيش مع هؤلاء الناس، في نفس المكان والزمان والحياة! فضاق به أهل السوق زرعاً، وجاءوا إلى الخزين يقولون:

"يا سيدنا لا ترسل لنا هذا المُوَلَّه، لقد أعيانا دون أن نعرف ما يريد!".

فينقل الخزين هو الآخر بصره بينه وبينهم، ويلوذ بصمت عميق، إلى أن يعيهم الانتظار فينصرفوا، وينصرف بعدهم صانع الفخار، تأخذه قدماه إلى قيف النهر، فيجلس ويحدِّق بعينه في القلعة، التي تبعد على مسافة أذرع من مجلسه!

كانت القلعة التي أُحيطت بأشجار الهشاب والسنط، بأشواكها الحادة التي تتألق على ضوء القمر، ليس ثمة من يعرف تاريخ تشييدها بالتأكيد، إذ تضاربت روايات عدَّة، حولها.

بعد عشرات السنوات من هذه اللحظة، ستصبح هذه القلعة نسيًا منسيًا، إلى أن يعاد بناؤها مرَّة أخرى، عندما تخضع البلاد الأسيرة لسلطان المقدس سرُّه!

يعود تاريخ هذه القلعة، في بعض الرِّوايات الشعبية، إلى عهد النبي سليمان، لتكون حجراتها الضيقة (سجون) للجن العُصاة، لكن روايات شعبية أخرى، تنسبها إلى تلك الفترة السحيقة، قُبل حريق روما بقليل، عندما أرسل الحاكم نيرون سنة 664 ميلادية جيوشه لغزو البلاد الأسيرة، لكن بعد أن نشب الحريق، غيَّر رأيه! وطلب من جيشه العودة، للمساعدة في إعادة بناء المدينة المحترقة!

وبينما يتفق كثيرون، أن أول تجديد لها، تم من قِبَل المماليك الناجين من مذبحه محمد علي باشا في 1811 ميلادية يؤكد آخرون

أنها حملت اسم الخواجة "كوبر" الذي كان قد سُجن فيها، من تبقوا على قيد الحياة، من اتباع صانع الفخار، الذين ثاروا على الحاكم العام، في 1924 ميلادية.

شُيدت القلعة على مبعدة من النَّهر، وظلَّت سجنًا رهيبًا تحيطه الحكايا والقصص، عن أجيال من اتباع صانعي الفخار، ظلَّت تقضي نحبها، بين جدرانها الصماء!

وهؤلاء، حتى عندما كان يتم دفنهم، في المقابر الجماعية المجهولة، كانوا لا يزالون مكبلين بالقيود.. يرسفون في السلاسل!

ومع ذلك ظلَّت أشباح مشاعرهم ومعتقداتهم القوية، متقدة وحيَّة لا تموت! إذ لم تتوقف فيهم رغبة الحياة، ولم تكف أرواحهم الهائمة، عن طلب الحق ومقاومة الغُزاة.

كانت واجهة القلعة، مبنية من حجارة تلك الجبال، التي سيطلق عليها الأهالي بعد عشرات السنوات، اسم جبال الأولياء، وذلك لأن أولياء البلاد الأسيرة، اجتمعوا عندها ليلة صُلب وأُحرق صانع الفخار الأكبر، وقرروا خراب البلاد الأسيرة!

كانت معتقات القلعة، خالية من النوافذ.. فقط كؤات صغيرة ذات حوافٍ مدببة، تطل على النَّهر، حيث يفيض هبوب النسيم، متسلقًا جُدُر القلعة من آنٍ لآخر، ليُذكر السجناء، الذين ما زالوا على قيد الحياة، أن هناك ثمة عالم آخر، خارج الحجرات الضيقة، التي حُبسوا فيها!

ظلت القلعة منذ عهد بنائها الأول، تمثل تهديداً سافراً للأهالي، إذ كأنها تراقبهم، بإطلالتها الرهيبة، على بيوتهم البعيدة المتفرقة، التي تبدو منها، ككومات تراب أوقش، صغيرة متناثرة.

على بقايا الجُدر الخارجية لهذه القلعة، التي لطالما تكسرت عليها أمواج النَّهر، تسلقت نباتات الجروف الزاحفة الصخر، وتسلّلت بين الشقوق، حتى استحالت هذه الجُدر إلى طحلبية خضراء!

وعلى الجُدر الداخليّة، نحت السجناء شكلاً متكرراً لشجرة لعوت وحيدة، قويّة، معزولة، وأشكالاً أخرى عديدة لكانات غريبة، ورسما نهر البلدة القديمة، وأنهار البلاد الأسيرة، التي لم يعد لها وجود... بعد أن ردمتها الرمال عبر العصور!

شجرة اللعوت *Acacia Nubica* سيئة الرائحة تلك، والتي قبل عشرات السنوات، كان قد جلبها "الخبزينة طبلية أم جبو الملقب بالخبزينة الأكبر" في طريق عودته من دارالريح، وزرعها هنا في هذا المكان بالتحديد: على بعد أذرع قليلة من "الجاسر" المتفرع من النَّهر، الذي يخاصر البلدة القديمة، جهة دار صباح، قبالة ميل زاوية الشروق، في قبة السماء، عند الأفق الرّحيب!

بالضبط هناك! حيث بإمكانها من هذا الموقع، أن تستقبل الشمس على نحو معين، وترسل أشعتها خلال مظلة أغصانها، لتطل

على البلدة القديمة، كأشعة فاترة، تجسد الطاقة اللامتناهية للحياة، دون أن تحرق الأهالي، المنغمسين في سباق الحمير السنوي!

في الأمسيات التي تنشط فيها الرِّيح العاصفة، لم تكن شجرة اللعوت تهتز أو تميل، فتكتفي الرِّيح بأن تتخللها، لتعبر جهة كنيسة البلدة القديمة بالذَّات!

تصنع كوّاتها وأبوابها ونوافذها الخشبية العتيقة، كأنها تزجر الرّاهبات، اللواتي كنَّ يقفن خلف أبواب ونوافذ عنبرهن الصغير، يتزاحمن ليحتالّن ببصرهن الفتحات والشقوق والثقوب، يتفقدن ما يجري في الخارج!

لطالما رمّينَ بنظرهن إلى الشارع الفسيح، الذي يفصل البلدة القديمة قسمين، ودواخلهن تضطرم بنار غامضة المصدر! يشتد أوارها في الكنداكة وأم عيون أكثر من الأخريات! اللاتي كانت تسلية وحدتهن المقدسة القاسية، إلقاء البصر عبر هذه الفتحات، والذي كان يرتد في كل مرّة وهو حسير، فيعدن لروتينهن اليومي:

يغسلن ويطبخن ويكنسن، وقد يمضين إلى جـروف الكنيسة ينظفن الخضروات والبطيخ والشمام من الحشائش.

ثم يتفرغن لتعاليم ابن الرب يسوع، وهن يسألنه تخليصهن من هذه المشاعر الغامضة، التي تنتابهن كلما تسلسل بصرهن، فرأى شباب البلدة اليانع ورجالها المفعمين بالحياة!

لكن الرّاهبة "أم عيون" يبدو أنها ملّت انتظار المخلص يسوع، ليخلصها من تلك المشاعر الغامضة، إذ من تُقْبها لفت نظرها وجه رجل فتي، غريب، ليس من الوجوه المألوفة في البلدة..

كان يمر كل يوم عابراً أمام نظراتها المسترقة، فتحينت الفرص وتبعته، مدفوعة بنداءٍ خفيٍّ غلبها مقاومته!

كان الرجل الغريب هو "المقدس سرّه" الذي جاء وقتها متنكراً، على رأس فرقة استطلاع سرّية انتشرت في البلاد الأسيرة تمهيداً لغزوها!

ظلت تتبعه بحذر، إلى أن بلغ شجرة اللّعوت، قُرب الجاسر، وتجاوزها إلى النّهر، كان يشعر بها تتبعه! وعندما التفت يواجهها، التفت معه تيار مزيج من رائحة السعادة وأم بانقيقة، وعُشبة معونة النيل! لفتح وجهها محمولاً على سواعد نسيم لطيف، يبعث في النفس خدراً لذيذ التردد! يهدئ من قيظ أبخرة النّهار، الذي لزالتميز به الأرض المعطونة في الظماً والغموض!

كانت مدفوعة بهاجس روحها، التي لطالما حدثتها بقاء شخص غريب ما! شخص يخبئه لها قـدر غريب لا محالة و اقع، فقد سطر بقلم القدرة أن يكون!

اندفعت نحوه واندفع نحوها.. كان هو الآخر يريد هذا الجسد ذا العينين الواسعتين، والشفتين المنقوعتين في دم المسيح! وكانت

تراه الجسد الغامض ذاته، الذي أقلق في الحلم كيائها، واستنزف جسدها المصلوب تحته قطرة فقطرة.

كان ذلك لقاءهما الأول، الذي لم تره بعده، إلا عندما اقتادها جنده بعد وقت ليس قصير، مع الكنداكة وزميلاتها الرّاهبات! لم يقتلها.. لم يسعد بلقائها فيبقىها معه! رغم حبه لها، فقد أدرك بفراسته أن هذا الحب سيقبله، أعتق والديها وفضّل الخلاص منها، بإهدائها لواليه على دار الريح!

انطفأت الرّاهبة أم عيون، كفلين امتصّ المقدّس سرّه شذى بوحها الشجي، دفعة واحدة، وقذف ما تبقى منها إلى دار الريح، تتجول في ذاكرتها، بين تلافيف ذكرياتها اليتيمة، تبحث عن مصدر بري، متوحش لنداء خفي يسكنها، يشملها بالغفران، دون جدوى، فينهكها المسير الطويل، في سباسب دار الريح ووهابها ووديانها، تحمل بداخلها نصف الكنداكة، التي شقها المقدّس سرّه بسيفه نصفين!

يخطر ببالها صانع الفخار الحفيد، فيجئها طيف صانع الفخار الأكبر، مفتحمًا حزنها وشجنها، فتسأله:

"من أنت؟".

فينظر إليها بعينين حزنتين دون أن يرد، ثم سرعان ما يتبدد الطيف.. يختفي وتلتفت حولها دون جدوى ورأسها تدور!

كان صانع الفخار الأكبر قد زاد به الوجد، فساح في الجبال ستة أشهر، وعندما عاد وجد حلقة الخزين مزدحمة بالناس، والخزين يخطب فيهم، لم يكن على عادته، فرغم فصاحته التي اشتهر بها، وجعلت كلامه مفهومًا لكل الناس مهما علا أو دنا شأنهم، إلا أنه كان يقول كلامًا كثيرًا، لم يفهم منه أحد شيئًا!

وبعد أن ملّ الناس محترارين في أمره، قاطعوه:

"يا سيدنا لم نفهم شيئًا مما قلت.."

فرد عليهم:

"أنا أيضًا لم أفهم ما كنت أقول.. كان الكلام يجري على لساني دون أن أعيه، كأن أحدًا يمليه علي.. تلفتوا حولكم إذا وجدتم باكيًا اطلبوه، فقد فهم....."

فتلفت الناس حولهم، فلم يروا سوى صانع الفخار الأكبر، يبكي بكاءً حارًا فسألوه:

"هل فهمت شيئًا؟ فردّ باكيًا:

"نعم".

"إذن تقدم فسيدنا الخزين يريدك، لتشرح له ولنا".

و افسحوا له حتى وصل السرادق، الذي يعتليه الخزين، الذي
بادره قائلاً:

"والحق، لقد وصلت منزلة لم يبلغها أحد قبلك، ولن يبلغها أحد
بعدك!! الزم نفسك وأكتم السرّ!".

فرد عليه صانع الفخار الأكبر، وهو لا يزال منخرطاً في البكاء:

"لا أقوى على الكتمان، أخذ عقلي مني، وقد سلبني عني، ثم
نظرت منه إليه، فلم أزال أكون إلا هو!".

ثم انفلت خارجاً وهو يركض وبكاءه يشتد! والناس حول الخزين
يرددون:

"أصيب الرّجل في عقله.. أُصيب الرّجل في عقله!".

قيل أن الصليب الذي صُلب عليه صانع الفخار، صُنِع من
عيدان شجرة اللعوت الجافة تلك! ما دفع بأهالي كُثر.. بل أتباع
مخضرمين لطائفة صانع الفخار، الاعتقاد بأنها شجرة ملعونة،
معضدين قناعاتهم الرّاسخة برائحتها الكريهة النفاذة، إذ كانوا
يرددون حكمة أسلافهم الخالدة:

"لا يخرج من الكريه إلا كل كريبه!".

وكونها شجرة غريبة، لا تنتهي لهذا الجزء من البلاد الأسيرة،
فموطنها هو الأطراف الصحراوية البعيدة لدار الريح، والسافل

الأشد جفافاً من الصحراء القاحلة، ما وراء البحر المالح! كان ذلك وحده كافياً للعنها!

إثراختفائها المفاجئ في إحدى الصبيحات، خالج البعض شعور أنها ربما حنّت إلى موطنها الأصلي، فغادرت في جُح ظلام البلدة!

كان أطفال البلدة القديمة، المغرمون بصيد الطيور، يستخدمون أشواكها الطويلة الحادّة، كأسنة لسهام البوص، التي يصطادون بها الطيور الصغيرة المهاجرة! من جهة النهر..

حين تلفح البلدة الرّائحة الرّطبة الدافئة، المشبعة برائحة (أم بانقيقة والموليتا وعشبة معونة النيل)، وعندما تهب النسائم المترددة، كانت الرّائحة النفاذة الكريهة لشجرة اللعوت، تهدد خياشيم البلدة بالغثيان، فتعتري الأهالي رعشة خفية، ويشعرون بانقباض في نواة القلب!

ورغم أن أهالي البلدة، لشد ما كرهوا هذا الهواء الرّاكد، إلا أنهم، بمرور الوقت تصالحوا معه، لكونه يحصر رائحة اللعوت، في الحدود ما بين الجاسر والنهر.

شجرة اللعوت هذه.. كانت في موطنها الأصلي، تنمو عادةً دون ساق، إلا أنها هنا ومنذ الأيام الأولى لزراعتها على يد الخزين، كان لها ساق واضح بين الفروع!

في الصبيحة التي سبقت غزو الجنجويد للبلدة القديمة بصبيحتين، فوجئ الأهالي، باختفاء شجرة اللعوت، وكانت قد نمت في محلها، بطريقة غير مفهومة! نخلة طويلة سميكة الساق!

ورغم أنهم لم يكنوا لشجرة اللعوت، أي شعور بالود يومًا، إلا أن اكتشافهم لاختفائها المفاجئ، بعث فيهم شعورًا مزعجًا بالانقباض والقلق!

ولولا أنهم انشغلوا بقية اليوم، بسباق الحمير الذي كانوا يقيمونه صيف كل عام، يتبارون مع قرى وبلدات ومدن، البلاد الأسيرة الأخرى، لما خفت حدة الانقباض، تلك التي بعثها اختفاء الشجرة! وهكذا مضى ذلك اليوم والذي يليه والأهالي منتشين، تحت تأثير النتائج التي حققوها في السباق!

وتحت وطأة مريسة العيش وعرق البلح، اللذيذ — هيمنا على وعيهم، لم يأبهوا لجحافل الجنكوز، التي كانت تتأهب للهجوم، بعد أن اقتربوا كثيرًا، من أبواب البلاد الأسيرة!

الأسيرة التي سبقت غزو الجنكوز للبلدة القديمة، اشتدت فيها الظلمة، وامتدت لتغمر دروب البلدة وزقاقاتها، واختفى الأهالي المنهكون من سباق الحمير من الطرقات، وتسلت أضواء الفوانيس الخافتة من شقوق النوافذ الخشبية العتيقة، وبدأت ظلال صانعي الفخار تنتشر، تجوب الشوارع كأنها تتبع مواكب جنائزية!

جاءت أطيافهم من مختلف العصور، يبدو على ملامحهم قلق عميق، يخفق في ظلمة مغبرة وهم يعبرون!

طائفة صانع الفخار الحفيد والخزين، التي كرسّت نفسها للتعاليم والدعوة، لم تكن معدّة لمواجهة جيش المقدّس سرّه، أو خوض أي نوع من القتال، فلم يكن أمام أفرادها، وأمام صانع الفخار والخزين سوى الاختفاء، بعد أن جد المقدّس سرّه في البحث عنهما، وعن كل من يشتهبه في انتمائهم للطائفة!

إذ كان أول شيء فعله المقدّس سرّه، أن أمر عيونه بالبحث عنهم وملاحقتهم في كل مكان!

شخصيّتي صانع الفخار والخزين، اللتان لم تكونا شائعتين في وعي النَّاس في هذا العصر، سوى كاسمين مألوفين، اربكتنا جنكـويز المقدّس سرّه، فأصبحوا يمسون كل من يرون في سمته الوقار والجلال، ظلًّا منهم أنه صانع الفخار أو الخزين، فقد كان واضحًا أن لا أحد يعرفهما!!

وقتها كانت طائفة صانع الفخار تعد عدتها، وتنتقل من مكان إلى مكان، ومتجهين نحو صعيد النّهر، حيث تتهدد "الدهاريب" "نقارة الورل" التي لم يكفوا عن عزفها، منذ وطأت جيوش الجنكـويز أرض البلاد الأسيرة، أخذ اتباع صانع الفخار، يللمون حاجاتهم على عجل، تتأكلهم الحشرات يغدّون المسير، ريثما تهدأ خواطرهم، فيفكرون في الإجابة عن سؤال:

"ماذا يتحتم عليهم أن يفعلوا، لمواجهة هذا الغزو الجنكـويزي
المخيف!".

وما أن تطأ أقدامهم مكان جديد تجاه الصعيد، حتى يبدوون في
ترتيب أشيائهم الفقيرة: الخيام، عناقيرب القد، سروج الخيل،
أكباس الجلد، الأجرية والسعون. وفيما تنشغل خيولهم برعي (الجزو
والشوقارة)، كانوا يفكرون في طائفتهم كقلة قليلة، لا تشكّل خطرًا
حقيقًا على جيش المقدّس سرّه، إذ لم يُعدها صانع الفخار أو الخزين
يومًا للقتال!

لذا بدأت فكرة تنظيم أنفسهم كنواة فرقة مقاتلة، تحتل حيزًا
كبيرًا من تفكيرهم..

"الصعيد هو المكان الآمن الوحيد الآن، هناك حيث الغابات
تحجبنا عن العيون، يمكننا البدء من جديد..."

يقول أحدهم فيرد آخر:

"نعم.. سقطت كل حاميات البلاد الأسـيرة، لا مكان آمن لنا
ولدعوتنا سوى الصعيد..."

وهكذا يغذون في المسير، مستنشقين رائحة عشب النيل المبتل
بالدعاش.

اشتهر المقدّس سرّه منذ طفولته بين أقرانه، هناك.. ما وراء
البحر المالح وخلف تخوم الصحراء، التي تليه، بالدهاء وسعة الحيلة!
منذ كان تلميذًا نجيبًا لأحد الشيوخ، الكبار، ممن توفر لهم العلم
والمعرفة.

وقبيل تكوينه لطائفته التي أطلق عليها اسم (الجنكويز)، عمد
إلى عقد تحالفات عديدة مع ملوك الطوائف الأقوياء، الذين كانوا
يحكمون تلك البلاد، تحت سلطان أمير واحد، يشرف عليهم من
قصره المنيف!

استجاب أمراء الطوائف الأقوياء، لرغبة المقدّس سرّه،
بتجيشه لغزو البلاد الكبيرة، بعد أن وعدهم بالأموال والجواري
والعبيد!

ورغم الهواجس التي انتابتهم، من قوّة ونشاط طائفته المتنامي،
إلا أنهم زودوه بالعدّة والعتاد.

فمن جهة أرادوا إبعاده من بلادهم ما وراء البحر المالح وتخوم
الصحراء، حتى لا يكون مصدرًا للقلق!

ومن جهة أخرى، رأوا أنه لو نجح في مسعاه، ووفى بوعد،
ستكون البلاد التي يحتلها، مصدرًا مهمًا للمال والعبيد، اللذان
تحتاجهما دولتهم الطموحة، ويتوسع حكمهم في أراض جديدة، لنشر
الدين الجديد!

وهكذا بدأ المقدس سرّه زحفه المقدّس، لاحتلال البلاد الأسيرة.

عُرف المقدّس سرّه بين جنده بحبه للنساء، لكن أمر معاقره الخمر، وتدخين ذلك النّوع الغريب من الأعشاب الجافة المخدرة، كان سرّاً ضرب حوله ألف سياج، فلم تعرفه سوى بعض نساءه وسراريه الكثيرات!

منذ سنوات مراهقته في مضارب قومه، إلى أن فاضت روحه في البلدة القديمة، عند منحدر النّهر بعد عدة عقود! مخلّفاً وراءه أربع عشرة زوجة، ومئة من السراي والإماء، فضلاً عن نساءه الأربعة، اللاتي حصل عليهن جميعاً بطريقة غير معتادة:

فزوجته الكبرى أم عياله السبعة الذكور، ابنة ملك دار الريح، كان قد تزوج بها، أثناء حملاته الاستطلاعية الأولى، قبل الغزو والاحتلال!

إذ وجده جند ملك دار الريح، بعد أن هجم عليه ورجاله اللصوص وقطاع الطرق، مضرّجاً بدمائه، حتى ظنوا أنه لا محالة معقور! لكثرة الدماء التي كانت تسيل من ساقه المكسورة، الذي كانت تتلاعب به الريح! عندما حملوه على ظهر أنثى الحمار العجوز!

وبعد أن طَبَّبوه، ومكث معهم ردحاً من الزمان، وأصبح من جُلساء الملك، رأى فيه الملك صفات أحبها، كان المقدّس سرّه بدهائه، قد قصد أن يبرزها ويلهمه بها، ويوحى إليه بالقرار، الذي ظل

ينتظره، منذ أخذ الملك يحدّثه، عن مبلغ قلقه على ابنته العزباء، التي قُتل زوجها في إحدى حروبه مع قبائل الجوار!

أما زوجته الثانية من دارصباح ابنة أحد البدو الفقراء، أهداها إياه عندما كان في ضيافته كغريب، مُخفياً أمر استطلاع الأخبار بنفسه.

قُبيل الغزوبوقِ ليس قصير، أنجبت له هذه المرأة ست بنات وستة أولاد.. زوجته الثالثة سرقتها طائفة الاستطلاع من إحدى القرى الصغيرة، في أواسط البلاد الأسيرة أسفل النّهر، بينما كانت ترعى غنماتها على مقربة من أشجار النخيل، وقد أنجبت له ما يزيد عن العشرة بنين وبنات!

أما زوجته الرابعة فقد كانت من صعيد النّهر، ابنة أحد ملوك القبائل الأشداء، عُرِف عنه أنه كان في شبابه مقاتلاً شرساً، اشتهر بمصارعة النمر والأفيال والأسود! ولم يكن ثمة من يجرؤ على اقتحام دياره!

وفي إحدى الليالي المقمرة بينما هي وصويحباتها يستحممن في النّهر، على مبعدة من القرنتيات وأصدقائهن التماسيح المشاغبين، هجمت فصيلة الاستطلاع عليهن واختطفهن، فانتقى المقدس سرّه من بينهن ابنة الملك المصارع وهجم على مكتنزاتها البكر!

والتي كانت في ذهول تام، لم تدرك ما حدث لها وصويحباتها إلا بعد مرور وقت طويل، كان يكفي لانجاب بناتها الثلاثة وأولادها الأربع الذكور!

ابنة الملك مصارع الأفيال، هي في الحقيقة الغائبة جدّة (نينيا) التي عشقها الخزين الحفيد بعد عشرات السنوات!

من هؤلاء النسوة الأربعة، اللاتي مثلن غالبية دماء البلاد الأسيرة وأعراقها، من أقصى دار صباح إلى أقصى دار الريح، ومن أقصى السافل إلى أقصى الصعيد، تعضدت النوبة الأساسية لشعب البلاد الأسيرة!

هذا الشعب المزيج، الذي تجري في عروقه عشرات الدماء، وهو التصور الذي للمفارقة، لطالما حلم به صانع الفخار والخزين معاً، مذ كانا يعلمان الأتباع، معنى التلاحم القومي في رسالات الرُّسل! لكن ظل دائماً ثمة نداء خفي، في مركز هذه النوبة، يُلقى أحياناً بطيوف حنين بعيد للصعيد وغاباته، وتماسيح الأنهار والقرنتيات والأفيال والنمور، وكل الأصدقاء وصويحبات ابنة الملك المصارع من قرنتيات وأفراس نهر!

رغم القطيعة والانبتات عن أصولهم، إلا أن وعيهم الموروث، كان لا يزال يحتفظ بـأسروداته الخاصة، التي تنتمي إلى عالمهم القديم، في وطنهم الذي انبتوا عنه!

لذلك كان كثيرون في مختلف العصور التالية لغزو الجنجويد للبلاد الكبيرة، عندما يضيق بهم الحال، يحفرون أنفاقاً تحت الجدار العازل، الذي شيده المقدّس سرّه من أقصى دار صباح إلى أقصى الصعيد، يستجيبون لذلك النداء الخفي!

نساء المقدّس سرّه الأساسيات الأربعة في الحقيقة، أنجن ما يزيد عن الأربعين بنتاً وولداً، كما أنجبت نساؤه المائة وأربع عشرة الأخرى، ما يزيد عن الخمسمائة بنت وولد، وهكذا من صلبه هو وحده ولد شعب صغير، يبرز منه قادة جنكـويز جدد وحكام عامّون من آن لآخر، عبر العصور، يشيعون التوتروالقلق في البلاد الأسيرة!

قبل أن يُولد المقدّس سرّه بعشرات السنوات، كان صانع الفخار الأكبر، قد طوى الزّمن وراءه، فيما رأى من مبكياته، التي أقضت مضاجع الأهالي وقتها، فقاموا إلى الخزين يجتمعون به، وقالوا:

"يا سيدنا، اعلم أن صانع الفخار قد اتعبنا، إذ يقول ما لا يدخل العقل، فشغل بالنّا وأوقف حالنا، ولهانا عن بيعنا وشرائنا، فنسألك بالحق أن ترده عنا"

فقال لهم الخزين:

"انصرفوا، لا تحملوا همّاً، إذا حضر نؤدبه".

فلم يمضِ سوى وقت قليل، حتى حضر صانع الفخار، بين يدي الخزين وهو يقول:

"سمعاً وطاعة" ..

انعقد حاجبا الخزين:

"إذن علمت بطلبي لك؟".

"سمعت صوتك يهتف بي أن أحضر".

أطرق الخزين برأسه:

"ما هذا الحال؟ الناس لا يكفون عن شكواك لي.. لقد أتعبتني
وأتعبت نفسك وأتعبت الناس، فارجع عما أنت فيه وإلا هلكت".

فقال باكياً:

"كل هذا لأنني أطلب منهم توزيع الذهب والفضة، التي يكتزونها
على الفقراء الذين لا يجدون ما يأكلون، ورب صانع الفخار لا أكف
عنهم، إلا يحقون الحق".

وبينما هما في أخذ ورد، هجم جُند الحاكم الجنكـويزي يريدون
اعتقاله، فانزع مندبل أحدهم يجفف به دموعه، ثم قذف به في
الهواء وطار معه وغاب، تاركاً الناس في ذهول تام!

□□□

بعد أن اكتملت ترتيبات المقدّس سرّه لغزو البلدة القديمة
والمدينة الزّاهية. هجم جنكـ ويزه بغتةً، وارتكبوا من الفظائع، ما
أصاب الكثيرين بالجنون!

رأى الأهالي البسطاء، أطفالهم يُذبحون ونساءهم وبناتهم
يُغتصبن أمام أعينهم، لذا أصبح من المشاهد المألوفة، في البلدة
القديمة والمدينة الزّاهية، أن ترى كل يوم إحداهن، تحنو تراب
الشارع على رأسها، وهي تنوح وتغيب عن الوعي، أو أخرى بعد أن قتل
الجنكـ ويز أفراد أسرتها، ترتبي تحت أقدامهم ترجوهم قتلها، وعندما
تستياس منهم تحاول سحب سيف أحدهم، فيركلها بغضب، وينزع
رأسها دون رحمة!

لم يوفر الجنكـ ويز في اليوم الأول للغزو أحدًا..

قتلوا رجال الدين، ومثّلوا بأجسادهم.. قتلوا رجال الدولة،
الكبار والصغار، قتلوا كل من اشتبهوا فيه لأي سبب من الأسباب،
وهكذا بدأت البلاد الأسيرة تنحدر، إلى قاعٍ سحيق، لا يتغشاه التاريخ
نفسه إلا لمامًا! لمفارقتة لكل ما ألفه التاريخ في مسيرته كتاريخ، لأي
وقائع شبيهة أو ممكنة أو محتملة!!

كانت البلاد الأسيرة إذن، قد دخلت في نفق معتم ليس له مثل!
وهكذا شكّل عهد الجنكـ ويز الأوائل، منعطفًا حادًا في حياة الناس،
إحساسهم ومشاعرهم، بل تغيرت حتى سحتهم، وطال التغيير لُغتهم

اليومية، لم تعد تلك اللّغة الدافئة الحميمة! التي توارثوها عن
أسلافهم لآلاف السنوات!

وبسقوط البلدة القديمة والمدينة الزّاهية، بلغ الإحباط بصانع
الفخار مبلغه، فقد نال منه التعب والإجهد جراء محاولاته المستمرة،
في منح النَّاس القدرة على تقدير البلاء قبل وقوعه!

فلطالما حذّر الخزين من الخطر المحدق بالبلاد الأسمىرة،
ومليشيات الجنكـويز التي نهى إليه خبرها، قبل أن تتحرك من
مواطنها وراء البحر المالح، وتخوم الصحراء، إلى أن دقت سنابك
خيلها أبواب البلدة القديمة، ودكت (طوابيها) و(قياقرها) واحدًا تلو
الأخر!

ورغم حرص الخزين، أن تصل رسالة صانع الفخار للنَّاس، إلا
أن أحدًا لم يعره اهتمامًا، فقد كان القوم منشغلين بسباق الحمير
الدوري، وهم يتباهون بحميرهم العصافير الملونة! مع أن البلدة
طوال تاريخها، لم تعرف من الحمير سوى النَّوع (المكّادي) الحرون!

هؤلاء القوم الذين يعطون سباق الحمير، أولوية على غزو
بلادهم، هم ذاتهم أحفاد أولئك النَّاس، الذين اغتبطوا، عندما طار
صانع الفخار الأكبر، قبل عشرات السنوات واختفى، ليربحهم من
حديثه لبضعة سنوات.

وقتها اغتبطوا وأخذوا يكبرون أمنياتهم، بعد أن طال غيابه:

"استرحنا منه، لا شكَّ أكلته وحوش براري البلاد الأسيرة".

وذات يوم، بينما هم في هذا الكلام، إذ به يطل عليهم قادمًا..
اقترب نحو الخزين و(قالده) معانقًا، وقد انخرط في بكاءٍ مر، وبعد أن
هدأت خواطرها، قال الخزين:

"ما منا إلا من له من حبيب نصيب، وما منا إلا من هو بـالكِ
مشتاق إلى وجه الحبيب، ولكن يا ولدي صدور الأحرار قبور الأسرار،
فإذا أوقده في قلب المحب شغلت من اشتياق الحبيب، أشغلتها
الأنوار".

ثم خلع الخزين جلبابه، فإذا بطنه محزومًا، بقماش قطن
كثيف، حلّه فإذا به مشبع بالدم، ثم بكى وكانت دموعه مخلوطة
بالدم، ثم التفت إليه وقال:

"يا ولدي لا يعرف أقدار، الرّجال سوى الرّجال، ورحم الله امرأً
عرف قدر نفسه، وكنتم سرّه وحفظ أمره!".

فعانقه صانع الفخار الأكبر باكيًا وقال:

"هذا صبر لا أطيعه"..

وخرج لا يلوي على شيء!

□□□

صانع الفخار الأول، أشبه بنبيّ قديم، في ثيابه الرثة والعصاة الأبنوس، التي يتوكأ عليها جسده شبه العاري، ومثل كل أنبياء الجنس البشري، كان أتباعه من المهمّشين، والفقراء والمحرومين والمقهورين والجوعى، وربما بقايا اللصوص وقطاع الطرق والمجرمين! الذين يتطلعون للتوبة، والتحرّر من ذنوبهم، التي ليس بمقدور مياه التّهرنفسها غسلها!

وكنبيّ قديم، عندما ينظر في وجوه هؤلاء الأتباع، يحاول حث ذاكرته، لاستفراغ آثار الغرائز الطبيعية، الضاربة في القدم، عن طريق الخلاص الذي تعترضه الألام والمحن والعذابات، ومع ذلك لم يُعرف عنه أنه نسب شيئاً من هذه الغرائز، التي تتسبب في المحن والعذابات للشيطان! كان يعتقد أن البشر اخترعوا الشيطان، لتفادي وضع اللوم على أنفسهم!

وفي الحقيقة كانت شخصية صانع الفخار، أقرب لقادة الثورات منها للأنبياء!

جادين جانو، الذي حلت به روح صانع الفخار الأكبر، وفقاً لنبوءة قديمة، استوقفه الاكتشاف الباهر، لعالم آثار من زملائه بالمعهد، الذي يعمل فيه! والذي كان قد اكتشف ثلاثة جماجم، وأربع هياكل عظمية، تعود إلى عصور مختلفة، وبعد دراستها وتحليلها، خرج على الملأ أنها جميعاً للشخص نفسه، الذي لا يستبعد أن يكون هو صانع الفخار!

أثري آخر من المعهد نفسه، وجد درعاً مُحلّىً بالياقوت الأحمر،
ونوع غريب من رقائق الفضة، وسيفاً من الذهب الخالص، مقبضه
مطعم بنوع نادر من الألماس، أكد بحزم صارم، أنهما السيف والدرع
اللذان، خاض بهما صانع الفخار الأول، معاركه التاريخية! التي وردت
في أكثر من ملحمة، من الملاحم الشعبية للبلاد الأسيرة، والتي كانت قد
مجده "بدوود الوعر! الأسد النتر، تمساح القبائل وساري الليل!".

لكن كل هذه المزاعم، كانت تصطدم بحقيقة أن صانع الفخار
كان فقيراً معدماً، مستهلكاً كشاعرٍ مغمور، لا يملك سوى عصا
أبنوس معقوفة، كما أنه كان مسالماً ووديعاً ولا يصح تشبيهه — دود
الوعر! أو أي تشبيه وحشيٍ آخر!

وهو ما أكدت عليه كل وثائق ورمزيات النخبة، التي ترتاد
الإندايات عبر العصور!

ما ميز صانع الفخار الأول والخزين طبلة الأول، أنهما لم يتشربنا
في العزلة كصانع الفخار والخزين الآن، كانا دائماً وسط زحام الناس..
المهمشين الذين تخددت وجوههم العكرة، بمزيج العرق والغبار،
الذي رسم خرائط بديعة على ثيابهم الرثة! يخطبان حول كراكير
الكجور، وأفنية المعابد القديمة، وكنائس اليهود وأبناء يسوع،
يحلمان للناس بعالم أفضل من هذا العالم الجنكويزي المرعب!

لطالما خشى صانع الفخار، أن تتحوّل الطائفة المنسوبة إليه،
على يد الخزين، إلى منظومة متهاففة متعطشة للسلطة، مشحونة
بالضغائن والأحقاد، والنزوع للانتقام.

كان يخشى أن تتحوّل تعاليمه، من طاقة ملتبهة بالأسئلة
والمغامرة، إلى نظام واثق متيقن من كل شيء، لا يخامرهُ الشك أبداً!

لم يكن يريد لأتباعه أن يلهثوا، خلف هذا الواقع المرير، الذي
تعيشه البلاد الأسيرة، بالحكم عليه من زاوية نظرهم المحدودة، التي
ينسبونها إلى تعاليمه زوراً وبهتاناً!



المخطوط الذي حاول "معهد جار النبي جارو" فك طلاسمه؛
كان مكتوباً بلغةٍ غامضة، هي في الحقيقة مزيج من كل لغات البلاد
الأسيرة، من أقصى دار صباح، حتى أقصى دار الريح، ومن أقصى
الصعيد إلى أقصى السافل!

هذه اللّغة ازدهرت على نحوٍ خاص، ولوقت طويل في الوسط،
بل كانت الأداة الوحيدة للتواصل، بين شعوب البلاد الأسيرة! لدى
ترجمة ذلك المخطوط، وفض مغاليقه، اكتشف فيه باحثو المعهد
أفكاراً غاية في الأهمية، تتعلق بطائفة سرّية عاصرت وناصرت صانع
الفخار الأكبر، تم تأسيسها قبل ذلك الاجتماع الحاشد، للأولياء
بالجبل، بوقت طويل!

أثناء تواجد صانع الفخار في سجن القلعة! اتبعت هذه الطائفة السريّة تعاليمه بدقة، بل وأنقذت أحد أحفاده من صانعي الفخار، عندما سقطت البلاد الأسيرة، على يد الغزاة الجنكـويز الأوائل، لأسباب تتعلق بالأمن القومي -كما قالوا- لم يفصح المعهد عن كل الأفكار المهمة، التي حواها المخطوط، إذ ضرب ستارًا كثيفًا من الكتمان، ومع ذلك تسرّبت فكرة أن صانع الفخار الأول، كان يعتمد على تعليم أتباعه، صناعة الأواني الفخاريّة، وبيعها للحصول بثمنها على الطعام، وقد أخذت فكرة الحصول على الطعام جلاً اهتمامه، لذا كان أتباعه بارعين، في صناعة أواني الطعام أكثر من غيرها!

وذات التسريبات، أكدت أن علوم الكون، وصناعة نوع محدد من ألواح الكتابة الفخاريّة، نالت اهتمامًا خاصًا لديه! لكن أهم ما في هذه التسريبات، أنها حددت بدقة، الموقع الجغرافي، الذي ولد فيه صانع الفخار الأول، هنا في "البلدة القديمة" التي ظلت بلدة صغيرة، عبر التاريخ، عند منحدر النهر، الذي يتفرّع منه جاسر صغير، يتاخم المدينة الكبيرة الرّاهية، حاضرة البلاد الكبيرة من أقصاها إلى أدناها!

جادين جانو كخيبر لُغات، كان يعتقد أن فكرة التشفير، التي ابتدعها صانع الفخار، وطوّرها الخزّين، ما هي إلا محاولة للتعبير، عن تفوق الخزّين نفسه على صانع الفخار!

هذا الإحساس بالتفوق، الذي كان مسكونًا به ولم يجد وسيلة للتعبير عنه، سوى بلورة الشفرة، ووضع هوامش زائفة، ظن أن لا أحد سيكتشف زيفها، رغم علمه بتلك النبوءة القديمة، عن روح

صانع الفخار، التي ستحل على وليد، ليس من سلالة صانعي الفخار، والذي لا محالة، سيكتشف هذا السعي الحثيث للخزين، لبناء مجده الخاص، بتوظيف طائفة صانع الفخار، وفقًا لأهدافه هو! وفي الحقيقة اهتمام كليهما:

صانع الفخار والخزين، بتوحيد لغات البلاد الكبيرة، بمزجها في لغة واحدة، لم يكن سوى محاولة يائسة، لإعادة تشكيل (أديان) البلاد الكبيرة في (دين واحد) يعود فيه الفضل في الحقيقة إلى الخزين!

لكن الشيء المهم، الذي لاحظته "جادين جانو" هو طيف من إدراك عميق لصانع الفخار، أن الإمبراطوريات العظيمة عبر التاريخ، لم تدمرها سوى الانفجارات القومية والدينية، على عكس ما صوره الخزين للناس، لكن يظل من الصعب، استعادة فكرة الطائفة وإعادة تشكيلها من جديد!

فالخزين سعى بقوة، لدمج "ثقافة الجنكويز الغزاة" في "ثقافات البلاد الأسيرة"، استنادًا إلى تأويله الخاص، لتعاليم صانع الفخار!

وبينما تنهض تعاليم صانع الفخار، في الفصل بين عقائد الناس الثابتة، التي لا تتغير، وحياتهم اليومية، وما يمرون به في كل لحظة من اليوم، تختلف عن اللحظة التي سبقتها! لكن كلاهما: عقائدهم وحياتهم اليومية، يفضيان للهدف نفسه: (الحياة)!

هذا التناقض بين سعي الخزين، وتعاليم صانع الفخار يطرح على أعضاء الطائفة تحديًا:

"كيف بإمكانهم تمثل تعاليم صانع الفخار، دون تخطي أنفسهم كطائفة ضيقة!".



نما صانع الفخار الحفيد وترعرع، في هذه البلدة القديمة، وهو يراقب شمسها، التي تطل على الدوام في استحياء، ملقيةً بأشعتها على الدروب الضيقة، الملتوية قبل أن تفيض بتردد، كأنها تتراجع حُطوتين قبل أن تتقدّم حُطوة، على القوز الرّملي الذي تتكى، على سفحه البلدة، المتاخمة للمدينة الزّاهية!

قبل ميلاد صانع الفخار، كانت هذه البلدة موحشة وكنيبة وشاحبة، رائحة الرّوث والعطن تزكم خياشيم سكانها البؤساء، الذين تفوح من جلودهم رائحة، هي مزيج من رائحة الفخار النيس، وجلود الماعز المدبوغة، في منقوع القرض والملح! ولولا ألق المدينة الزّاهية، التي تتاخم هذه البلدة، لانقرض سكانها من البؤس!

كانت التسريبات عما حوته المخطوطة لاتتوقف، وبطبيعة الحال يشتغل فيها خيال الذين يتناقلونها، بالإضافة والحذف كما يعن لهم! فتصبح الحقائق أرباع حقائق أو حقائق مشوهة! وهكذا يتنامى إلى علم سواد النّاس، ما يحذفون منه أو يضيفون إليه على هواهم، كزعمهم أن صانع الفخار الحفيد لا يبتسم!

"ليس ثمة من رآه مبتسمًا أو ضاحكًا!".

كان عالقًا في اكتئاب مزمن منذ ولادته، إلى أن اختفى على نحوٍ غامض، فُبيل غزو الجنكويز للبلدة القديمة والمدينة الزَاهية، بقليل!

وذات التسريبات تؤكد أن هذه البلدة، فُبيل ميلاد صانع الفخار، لم تكن تعرف التقويم بشكله الحالي، أو كثير من الأعياد التي تعرفها الآن. رغم أن فكرة التقويم والأعياد ولدت مع صانع الفخار الأكبر، وتعاليمه المناهضة لكل الأديان منفردة، ومتوافقة معها مجتمعة!

إلا أن الحفيد شرع في أفكار جذرية كبيرة! ولذلك كان موقفه من الدين الجديد، ما وراء بحر مالج وتخوم الصحراء القاحلة، بمثابة جزء من دعوته، التي توحد الأديان جميعها في دين واحد، كامتداد، لذات نظام تفكير صانع الفخار الأكبر!

كان ميلاد صانع الفخار الأكبر، بحد ذاته عيد... بل أول عيد ميلاد يعرفه أهالي البلاد الأسيـرة قاطبة! تلته أعياد كثيرة، كعيد التعاليم، وعيد الطوفان الأول، إلى آخر الأعياد، التي كان أهالي البلاد الأسيـرة، يولونها اهتمامًا كبيرًا!

إذن بميلاد صانع الفخار الأكبر، تعرّف الأهالي للمرة الأولى، على عبارة "عيد مولد" كما تعرفوا على كلمة "حب" وغيرها من المرادفات، فانفتحت قلوبهم يغادرها البؤس، ويحل التفاؤل والأمل!

وهكذا ظهر شعر الغزل والغناء العاطفي، إذ فتحهم صانع
الفخار الأكبر على عالم من المعاني، والتعابير الجديدة على حياتهم
البائسة، فأضحت النساء يتزين بالعاج والأبنوس والخرز الملون،
ويتعطرن بخلاصة الأعشاب البرية ذكية الرائحة، ويستخلصن زيوت
لطيفة، من نباتات أُسْتُزِعَت خصيصًا لهذا الغرض، بل أصبحن
يحرصن على شد صدورهن، بسيور الجلد ويضعن "لبادات" على
مؤخراتهن، ليزدن بروزها!

إذن وبمعنى آخر، أن البلاد الأسيرة التي انشطرت إلى شطرين
مؤخرًا، يرجع الفضل الأول لإعطائها معنى الحياة، بكل مفرداتها،
لصانع الفخار الأكبر، الذي صُلب في فناء الكنيسة القديمة، على
صليب من خشب اللعوت سئى الرائحة!

فبعد أن ضاق الخزين بالجند صرخ فيهم:

"ألا تستطيعون حبسه؟".

فردوا:

"لم نستطع إمساكه!".

"لم؟".

"حينًا يمشي على الأرض، وحينًا أخر يطير في الهواء!".

"قولوا له الخزين يأمرك أن تدخل في هذا المكان فيدخل، بإذن الحق!"...

فجاء الجند إلى صانع الفخار، وأخذوه فانقاد لهم، فأتوا به إلى باب القلعة، وقالوا:

"يقول لك الخزين أن تدخل".

فدخل، وقفلوا عليه الأبواب، بعد أن وضعوه في حجرة ضيقة.. وفي الليل جاء السجنان، ووضع في عنقه سلسلة، وأدخله حجرة أكثر ضيقًا، لا تتسع لأكثر من شخص، فسأله:

"لماذا تفعل بي هذا؟".

"إنها أوامر الحاكم".

"أتظن هكذا قيدتني وحبستني؟".

"نعم".

وتحرك صانع الفخار الأكبر، فتناثر الحديد عنه كالعجين، وأشار بيده إلى الحائط فانفتح فيه باب، فرأى السجنان فضاءً واسعًا، فتعجب من ذلك، ثم مدَّ صانع الفخار إليه يده، وقال:

"افعل ما أمرت بفعله"..

لكن السجنان أبى، ونقله إلى فناء واسع، وجد فيه صانع الفخار
مساجين لا عد ولا حصر لهم، فلما رأهم قال لهم:

"اسمعوا مني ما أقول إن كان لكم معقول، وإلا بقاؤكم هنا
يطول".

فالتفوا حوله.. فرسم على الأرض مستطيلاً كبيراً وقال:

"هذا (فُلك) من أراد النجاة فليركب"..

فركبوا ووجدوا أنفسهم في عرض البحر، فنزل في الماء وأخذ يجر
المركب جاريًا على سطحه، والمركب خلفه حتى وصل البر، فأنزلهم
وقال:

"سيروا إلى حال سبيلكم"..

ثم أشار إلى أحدهم:

"أنت.."

فتوقف الرجل وقال بتردد وخوف وهو يتلفت:

"أنا؟"

"نعم أنت، سيأتي من صلبك من يغزو البلاد الأسيرة، ويسفك
فيها الدماء ويسبي النساء ويحرق بجنده الجنكويوز الزرع والضرع"..

ولم ينتظر رداً من الرجل، إذ تبدد في الهواء! كان قد عاد إلى
سجنه!

□□□

سحب الخزين الحفيد يده من يد (نيننا) التي كانت تمسكها
بقوّة.. لا تريد إفلاتها! كان مدمى القلب، وكانت جريحة أقصى حدود
الجرح!

كلاهما كانا أسيرين لوضعٍ شاذٍ وغريب! ليس لهما فيه يد.. وضع
فرضته القوّة العاشمة للجنكوز..

كان هو عوليس وكانت هي حبيبته كالبيسو الجميلة، اللذان
فرقهما قدر رهيب!

فعندما أمر الجنكوز أهالي البلدة بالمغادرة، في اللحظة نفسها
التي كانت فيها روح صانع الفخار الأكبر، ترتجف في مستقرها السري،
فترتج أرض البلدة القديمة، ويرتاع كل شيء يتنفس فيها!

صانع الفخار الحفيد، أدرك منذ وقت بعيد، أن هذا سيحدث
ذات يوم.. مدّت روح الجد قامته المديدة خارج البلدة، تودع ضوء
الشمس الشحيح إلى الأبد! ود لو يقول لهم قبل أن يغادر:

"الجنكوز ليسوا خالدين، فلا تفقدوا أمل العودة"

فيما كانت نينا منذ مغادرتها البلدة، يتجه بها الفُلك إلى جذرها البعيد، في صعيد النَّهر، ترى كوايبس غريبة، تتعلق بمكان لم تولد فيه، ولا تعرف عنه شيئاً! مكان لم ترتبط به، وليس لديها فيه ذكريات.. مكان لم تألفه: مجهول وغامض، ليس ثمة لغة مشتركة بينها وبينه، بعد أن عزل الجنكويز اللُغة، وشيدوا جداراً عازلاً، من صخر جبال الأولياء، على عرض النَّهر، من جهة دار صباح، إلى جهة دار الرِّيح!

- هنا يستعيد جادين جانو، من ذاكرته مجزأً من المخطوطة: يُقال أن الموقع الذي شيّدوا عليه "جدارهم العازل"، هو الموقع نفسه الذي ظل الغُزاة، يشيدون فيه جداراً لعزل المنفيين من الأهالي، الذين يقاومون الغُزاة أو يشتبه فيهم أنهم ينتمون لطوائف، تنشط في مقاومة الغُزاة، وقد تجذرت هذه العادة، حتى صارت سنَّة ظل يتبعها الملوك والحكام العامُّون، بإبعاد معارضيتهم وإلى الأبد!

والأبد كان يعني دائماً سقوط الجدار العازل، أما بعوامل التعرية وطول الأمد، أو بسبب ذلك الطوائف المقاومة له، وهدم كل جزء فيه! لتبدأ مثل كل مرّة مرحلة جديدة من حياة البلاد الأسيرة، التي أدى تقلب مزاجها إلى تقلب تاريخها! وكانت لعاشقها الخزين، المشاعر والأحاسيس والأفكار ذاتها، فاللُغة المشتركة بينه وهؤلاء القوم أسفل النَّهر، غادرت بمغادرتها، وهكذا تعبأت أحلامهما بكوايبس لا يُدركان هُويتها! تضيع ملامحها في الهاتف القديم:

"نمهلكم ريثما تشيدون الفُلك لترحلوا!"

الهاتف الذي دوى فجأة دون سابق إنذار، فقسم البلاد الأسيرة
إلى قسمين: صعيد وسافل!

كان المتاخمون لصعيد النهر، داكي البشرة نوعًا ما،
والمتاخمين لأسفل النهر أقل دكنة، بسبب اختلاطهم بالجنكوز
الأوائل قبل مئات السنوات، لكن كليهما كانا ينتميان للجدّة الأم
نفسها، ويعبدون الإله نفسه، الإله الذي جاء الجنكوز بحملونه على
صهوات جيادهم ونياقهم، من ما وراء البحر المالح، وتخوم صحراء
دارالريح!

تبنى أهل البلدة القديمة هذا الإله، دون أن يتخلوا عن آلهتهم
العريقة.. كانوا يؤدون الشعائر معًا، كان إله كلاهما متصلح مع
الأخر! لذا كانا يشتركان في أشياء كثيرة!

لكن على عكسهم، كان الجنكوز لا يشعرون بالامتنان لصانع
الفخار مثلهم!

"لن تحملوا معكم أي شيء، فقط غادروا".

قال الهاتف بحزم قاس! احتضن الأهالي بعضهم البعض،
وانخرطوا في بكاء حزين بلل تراب البلدة لوقت طويل.

كانت عيونهم زائغة، ومشاعرهم متضاربة، تمرغوا في تراب
الخط الفاصل بين الصعيد والسافل، وهم يودعون قبور موتاهم
بنظرة أخيرة، ويودعون أهلهم وجيرانهم بأسى!

كان الجنك—ويزيدون إلغاء ذكرياتهم، دون أن يدركوا أنه لا يمكن إلغاء الذكريات.. الجنجويد الذين جمعوا في تاريخهم، كل قوى الشر في التاريخ، لم يكتفوا بشطرتهم شطرين! إذ شرعوا في تدعيم الجدار العازل، الذي بنوه بجماجم قتلاهم!

في اللحظة التي أكملوا فيها تدعيم الجدار العازل، كانت روح صانع الفخار الجد، قد شارفت على الوصول إلى مستقرها الأخير! لم تعد تأبه لهؤلاء الأبناء الضالين! المضلين! الذين لطالما جامد صانع الفخار الأكبر لإنقاذهم!

تغرب لأجلهم.. وحُبس لأجلهم، وصلب وأحرق لأجلهم! وهو في سجن القلعة، بعد أن استسلم أمير السجن للاختفاء الغامض للمساجين، وكذب على الحاكم، أنهم تمردوا فقتلهم، وأخذ وعدًا من صانع الفخار، بأن لا يختفي أحد آخر! إذ كانت قد ترسخت في أعماقه قناعة، أن صانع الفخار، هو من قام بتهريبهم، إلى مكان لا يمكن أن يصلهم فيه جند البلدة القديمة، إذ اختفى كل أثر لهم فيها!

وقتها زاره الخزين، فلما دخل عليه رأى الحجر، التي حُبس فيها مرتبة، غاية الترتيب، وقد توفرت له فيها كل سبل الراحة، كان مجلسه حسن وفرشه حسن ولديه من يقوم على خدمته، فسأله:

"أين صانع الفخار؟".

فرد عليه وهو يشير بيده:

"خلف هذه الأبواب، يعظ المساجين الخطرين، القتلة
واللصوص والمجرمين، يدخل على بعضهم كل يوم، ويخرج منهم وقد
تابوا، وصاروا من اتباعه!".

"ومن أين له بهذا الطعام الغريب، الذي ليس في البلاد الأسيرة
مثله؟".

"تحضره كل يوم مائدة تتدلى من السقف، فينظر إليها لحظة ثم
ينقرها بأصابعه، فترفع دون أن يأكل منها شيئاً!"

وفيما الخزين يسأل والسجان يرد، دخل عليهما صانع الفخار،
رأى الخزين وجهه يعود طفولياً كأنها تلك المرة الأولى، عندما جاءت به
أمه تسحبه خلفها، قبل سنوات طويلة خلت!

كان حسن الوجه، لطيفه، عليه هيبة ووقار لم يرى الخزين
مثلهما من قبل.

وفيما الخزين يتأمله، جاء السجان يرتعد، وقبل الأرض بين
قدميه، فسأله:

"ما بك؟".

"سيعدمونني.. كبش فداء.. نارهرب المساجين لم تنطفئ، رغم
أننا قلنا أنهم تمردوا فقتلناهم.."

قالوا يريدون رؤية الجثث، هدأ صانع الفخار روعه وقال:

"امض، لن يضرب عنقكم أحد" ..

وأخبره عن موضع ليخبرهم به، أن الجثث دفنت فيه.. ولم يمض بقية اليوم، حتى جاء السجناء مرة أخرى والفرح والدهشة معاً، يمتزجان ويقفزان من عينيه، وقبل أن يفتح فمه بكلمة، بادره صانع الفخار بالقول:

"إذن عثروا على جثثهم جميعاً لا ينقصون جثة" ..

فأغمي على الرجل من الدهشة!

□□□

عبر هذا النهر الطويل، الذي يجري من الصعيد منحدرًا إلى الأسفل، والذي يقسم البلاد الأسيرة طولياً إلى قسمين: دارالريح ودار صباح، والذي ينبع من بحيرات عدة تتغذى من الأمطار السماوية، والرؤى الغامضة!

كما تتفرع منه عشرات الأنهار، لكن مصدره الحقيقي مركز الوجود، حيث نصب "صانع الفخار الأول" "قطيته" الأنيقة، تحت شجرة المنتهى، المسكونة بطائر البلدة القديمة الخالد.

قبل مئات السنوات، وعبر هذا النهر، أجلى للمرة الأولى "جنكويز المقدس سره"، أهالي البلدة القديمة، سكان البلاد الأسيرة الأصليين.

وعبر هذا النَّهر نفسه، بعد الجلاء الأول بألاف السنوات، أجلى
"الحاكم الجنكـويزي العام" ما تبقي من سلالات السكان الأصليين
شبه النقية، والتي لم تتمكن حملات التهجين الجنكويزية من إعادة
إنتاجها بالكامل!

هذا النَّهر إذن، ظل شاهداً على مئات ملايين الوقائع والأحداث
الكبيرة والصغيرة، بدءاً بقصص الحب المجهضة، مروراً بجرائم
القتل والغزوات، انتهاء بالحروب العبيثية!

فمن الأعماق السَّرمدية لهذا النَّهر العظيم، خرجت "الحورية
الكنداكة".. أجمل راهبات البلدة القديمة، بخطىً متندة مضت تجاه
صانع الفخار الحفيد، الذي كان مسمراً على قيف النَّهر! أجلسته على
فروة من نبات "السعدة" الذكي، ودنت منه وهي تكرر:

"زوجتكِ نفسي.."

ودون أن ينبس ببنت شفة، أخذ كل شيء فيه يهتف:

"زوجتكِ نفسي.."

وكل فج في البلدة القديمة يرجع الصدى: "زوجتكِ نفسي ي ي
بي ي".. النَّهر، الحوريات صويحبات صانع الفخار، عشبة معونة
النَّهر الفتية، التي كان قد استخفَّ بها الطرب، فأخذت تتراقص على
أهداب المويجات الوسنانة!

كلاهما كان لا يدري كم لبث على تلك الحال! أخذت يدها المتردة، تتحسس شعره الأجدع الكثيف، وجسدها يدنو منه حثيثاً.. لكن ببطء، وحولهما أفراس النَّهر والتماسيح قد خرجت إلى القيف، تحدق فيهما بدهشة!

وجنيات وحيوانات الغابة المجاورة، تراصوا جميعهم صفوف صفوف في شبه دائرة أوقوس يتفرجون! وطائر البلدة القديمة، من عشه في شجرة المنتهى، يفرد جناحيه بطول النَّهر، ويغرد تغريدة عجيبة! على نحو مباغت، كمن يفيق فجأة من نوم عميق، امتد لقرون وقرون..

انتفض الخزين وهو يرنو ببصره، إلى غابته، فأمسكت نينا بيده، وقالت بصوت حزين واهن، كأنها تستجديه:

"كيف يطيب لك العيش بعيداً عني؟ تعال، تعال معي إلى البلدة القديمة، نحن بحاجة إليك.."

"لكن.."

"لكن؟!"

"يجب أن آخذ الإذن.."

"ممن؟!"

"من صاحب الإذن.."

لكن كان الأوان قد فات.. لم يعودوا بحاجة إليه، بعد أن أعلن الجنكويز عن نيتهم، في إجلاء أهالي البلدة القديمة.



الأهالي الذين أُجّلوا، من ديارهم بغير حق، ما أن وطأت أقدامهم أرض الوطن الجديد في قلب الصعيد، حتى تلفتوا حولهم، عسى أن يجدوا صانع الفخار أو الخزين، اللذين لم يبن لهما أثر، منذ وطأت أقدام الجنكويز تراب البلاد الأسيرة.

شعروا بحاجة ماسّة لخطبة مطمئنة من أحدهما، في هذه اللحظة بالذات.. اللحظة التي وطأت فيها أقدامهم أرض الوطن الجديد!

وفي الحقيقة لم يكن لصانع الفخار أو الخزين، وجود سوى في دواخلهم، مخيلاتهم، ملامحهم، قسماتهم، لونهم الأبنوسي، تقاطيعهم، وربما في ذكرى بعيدة، تنقح كجُرح متجدد في أعماق الوجدان!

في هذه اللحظة الحُبلى بالمخاوف الغامضة، التي تمرور في دواخلهم، ممزوجة بشعور خفي، لا يخلو من رغبة الإقبال على الحياة والحب، وفتح طاقات الأمل على مصاريعها..

في هذه اللحظة بالذات، فح الماء صانع الفخار الأكبر، فشملتهم حالة من السكينة والهدوء! وفيما هم على تلك الحال، كان "المقدس

سرّة" يحتفل بتنصيبه ملكاً، على عرش البلاد الأسيّرة الجديدة، التي فقدت ثلثها للتوّ، وبنّت جداراً عازلاً يفصل بين صعيد النّهر وأسفله!

وكان أتباعه الجنكـويـزيـضـجون ويصخبون، وقد نال منهم الشراب كل ميلغ، عندما وصلهم خبر لقاء راهبة البلدة القديمة وصانع الفخار!

ورغم ثمالتهم سرت في أوصالهم رعدة، لم يجدوا لها تفسيراً عندما أفاقوا من سكرتهم، عصر اليوم التالي!

من الجانب الآخر كان أهالي البلدة، الذين تسرّب إليهم الخبر، قد خالجهم نوع غامض من المشاعر والأحاسيس، التي تدور كلها، حول ما تخبئه لهم الأقدار!

وعندما يتأمل "جادين جانو" بعد عشرات السنوات، هذا المجتزأ من المخطوطة، الذي يكشف عن وقائع وأحداث، تكاد تتطابق منذ عرف "إنسان سنجة" البلاد الأسيّرة واستصلح أرضها، إلى أن دهمها الجنكـويـز! بقدر ما يتوقف عند شخصية صانع الفخار، التي يشعر أنها من صنع خيال الخزين، أو هي شخصية الخزين كما يتصور نفسه، وأن ليس ثمة وجود حقيقي لها، خارج مدونات صانع الفخار، أو الهوامش عليها، المنسوبة للخزين، الذي هو المصدر الوحيد، الذي دون عن هذه الشخصية، في هوامشه على مخطوطها! الذي ربما كتبه شخص مجهول، باسم صانع الفخار! إلا أنه، مع ذلك يجد أن الوقائع نفسها التي جرت وتجري، في البلدة القديمة والمدينة الزاهية،

منذ آلاف السنين هي هي، حتى الجدار العازل، لم تكن تلك هي المرّة الأولى التي يُشّاد فيها، فقد سُيد أكثر من مرة خلال آلاف السنين، وكلما تأكله الزّمن، وانمحت آثاره، جاء حاكم جنكـويزي عام فشيدته من جديد!

والحال هكذا، يجد جادين جانو، أن شيئاً لم يتغير بشكل جوهرى، فذات القضايا المطلوبة، التي ناضلت لأجلها أجيال آل صانع الفخار، وكافحت في سبيلها، أجيال آل الخزين هي هي نفسها!

حتى ليبدو الزّمن النفسي للبلاد الأسيرة يراوح مكانه، كما أن الزّمن الفيزيائي، يدور ليصل للنقطة ذاتها، التي انطلق منها، كأن البلاد الأسيرة من دون بلدان الله، تتحرك في إطار قوانين مستقلة، تخصصها وحدها، مفصولة عن القوانين التي يتحرك في إطارها الكون كله، وهذا العالم الذي تنتهي إلى كرتة الأرضية، البلاد الأسيرة، التي تقع أسفل محيطاته وأرخبيلاته، منفتحة على صحارى الجنكـويز التاريخيين الرّهيبية!

وهكذا مضت المخطوطة، التي فك "معهد جار النبي جارو" تلامسها، تكشف عن سر رهيب، الإعلان عنه قد يفضي بلاهوت البلدة القديمة إلى العدم، إذ أكدت على نحو غامض، أن الطائفة السرية، التي كان يقودها الخزين، والتي عاصرت وناصرت صانع الفخار، كانت (هذه الطائفة) قد استبدلت صانع الفخار بشخص آخر يشبهه تماماً الخالق الناطق!

شخص لا يمكن التمييز بينه وبين صانع الفخار! شخص هو الذي تم صلبه، على صليب خشب شجرة اللعوت سينة الرائحة، ونسبت المخطوطة هذا التديير المحكم، لمعلمه الخزين طبله أم جبو، دون علم أولياء الجبل، وهكذا تضع المخطوطة في حاشيتها سؤالين:

من هو ذلك الشخص الذي صُلب مكان صانع الفخار، وما حكايته؟ أين ذهب صانع الفخار الحقيقي، وكيف ولماذا وافق أن يُصَلب شخصًا بريئًا بدلًا عنه؟ هل الخزين هو معلم صانع الفخار، أم أنه ابتدع لأتباعه شخصية صانع الفخار الغامضة؟

الأسئلة حول حاشية المخطوطة، ولدت في عقل جادين، الكثير من الأسئلة الفرعية، خاصة ما يتعلق بتلك (الشفرة) العجيبة، التي ابتدعها الخزين لكتابة مخطوطاته، التي أعيا حلها علماء اللغات لمئات السنوات! ولشد ما تساءل:

لماذا صورته في هوامشه التي وضعها على هذا النحو الخارق!! الذي يتخطى حدود البشر وإمكانياتهم الطبيعي.. أشبه بالإله الأسطوري؟

هل حقًا عندما دخل السجن والعسس على صانع الفخار، رأوه يكبر ويتضخم فلا يسعه المكان!!! فخافوا أن يتقدموا إليه؟! (قال):

ثم أخرجه أمير السجن وجمعه بعلماء البلاد الكبيرة، يناظرونه فيرتدع، فطلب طستًا من النحاس يزن أربعين رطلًا، وألقاه في وسط النار، وانتظره حتى أصبح كالجمر، ثم قام وجلس عليه وقال:

"يا علماء يا فقهاء يا أهل البلاد الأسيرة، من أراد منكم مجادلتني فليأتي ويجلس قربي على هذه النار!".

ففرَّ الناس مرتعبين..

□□□

الخبزين بذكائه الوقَّاد، كان أول من ابتكر فكرة الأسماء الحركية له ولأتباعه.. اسمه الحقيقي (الخبزين) مجهول تمامًا! لا أحد يعرفه بين من عاش معهم في ذلك المجتمع القديم، وإذا كان صانع الفخار، هو أول من ابتدع فكرة الكتابة المشقَّرة عبر التاريخ، فللخبزين يعود الفضل، في تطوير هذه الشفرة، إلى لغة كتابة مستقرة!

الأسماء الحركية، وبلورة الشفرة كانا اختراعه، الذي كرسه لحماية أسرار الطائفة واتباعها، وتسببت كتابته المشفرة هذه، في أن تظل الكثير من أسرار طائفة صانع الفخار غامضة أو مجهولة، رغم المجهودات الدؤوبة والمتضاعفة، لعلماء اللغات والآثار والتاريخ، الذين لم يألوا جهدًا في تجريب مختلف الاحتمالات الممكنة، لحلها دون جدوى إلى أن توصلوا أخيرًا، إلى نوع خلاق من التخمين، في فك رموز المخطوط.

مشكلة هذه الشفرة كانت تكمن، في كونها هجين مزيج، من كل لغات البلاد الأسيرة، تم فيه إبدال المعاني إلى نقيضها، بالتالي تنطوي الوقائع والأحداث، على عكسها تمامًا!

بمعنى أن الحديث عن الحرب في المخطوطة، كان يعني الحديث عن السلام في الواقع.. والحديث عن الانفصال، إنما يعني الوحدة!

الأجزاء التي فشل هؤلاء العلماء في فك طلاسمها، خمنوا أن قوامها لغات انقرضت منذ آلاف السنين، ولم يعد أهل البلاد الأسيرة يتحدثونها، وعلى أية حال، القليل الذي فكوا طلاسمه، كان بمثابة نصوص موازية أو متقاطعة مع الوقائع والأحداث، التي جرت فعلاً.

ومن المؤكد أن الخزين، لجأ إلى كل هذه التعقيدات، ليس لخداع الأجيال القادمة، بتقديم تاريخ زائف للبلدة القديمة والمدينة الزاهية في ظاهره، بينما ينطوي فعلاً على التاريخ الحقيقي!

وإنما كانت الفكرة المهيمنة عليه، هي حماية أسرار طائفته، والمكان الذي يختبئ فيه صانع الفخار، ويدير منه هذه الطائفة المنتشرة، في كل مفاصل البلاد الأسيرة ودولها.. في كل العصور!

ومع ذلك ما جادت به المخطوطة من أسرار، كشف عن رواية أخرى، حول أصل وفصل الخزين أم جبو!

إذ نسبت المخطوطة أبويه "للرحل" الذين لا وطن لهم، وتشير أن المخاض داهم والدته، في أطراف البلدة القديمة، أثناء رحلة قومها القساة، الذين تركوها وطفلها الوليد هنا في الفلاة، ومضوا.

فوجده رعاة البلدة القديمة يبكي في حضن أمه، التي كان قد مضى على موتها، وقت ليس بقصير! وهي رواية تدحض الرواية

الشائعة، التي تنسبه للمبتئين، الذين لا يعرفون لأنفسهم أصل أو فصل، بسبب حملات الاسترقاق المتبادلة، التي كانت تمارسها شعوب البلاد الأسيرة القديمة، ضد بعضها البعض!

هذه الرواية المتداولة، تشير إلى أنه كان قد جيء بأم جدته جدة أمه، في إحدى حملات الاسترقاق، التي خاضها الجنجويد في الصعيد! وفيما "جادين جانو" يغرق في تأملاته، كانت (نيننا) حبيبة آخر أحفاد الخزين، تعبر على الضفة الأخرى من المخطوطة، وتعبّر على خاطرها ذكرى لقاءها الأول بالخزين الحفيد، عندما كانت تستحم في النّهر، تطفئ لهيب عُربها المشتعل!

ضمها الخزين إلى صدره، وأخذت أصابعه النحيلة تتسلل إلى ظهرها، فيتسرّبها شعور زلق دافئ، يشعل فيها بوحًا لا حدود له!

تنقلت أصابعه تجوس في العش بين فخذيها، فأخذت تمور كتنور يغلي! الحرق المشتعلة داخلها تبتل بصهد لزج، واصابعه تمضي بعيداً، تتخلل انكفاءات طياتها بشغف، لتفتح كل شيء فيها على لهفة وشوق عارم—ين! مدفوعان بإحساس همجي، متوحش.. لحظتها، في الجاسر المتفرع من النّهر، مضى نبض انتصابه يغرقها، في أكثر أحاسيس الوجود كثافة وخذراً ولدّة!

في هذا المكان بالذّات، وفي لحظة مماثلة لهذه اللحظة بالذّات، التقى صانع الفخار بالزّاهبة الكنداكة، والتقى المقدّس سرّه بأم

عيون، فكان بينهم جميعاً ما كان! لحظة واحدة تنطوي على شقيقاتها اللحظات!

الآن و(نينا) تمضي لتلحق بالفُلك، لتغادر غروب هذا الجزء من وطنها، لا يخطر ببالها شيء سوى تلك اللحظة الأولى، التي جسدت حياة بكاملها، من المبتدأ إلى المنتهى!

فيما هذا الخاطر يلحُّ عليها، وهي ترمع الإبحار وقومها جهة الصعيد، كان جنود الحاكم العام لحظتها يذبحون الذبائح، احتفالاً بإجلاء أهل البلاد الكبيرة الأصليين، والعثور على خرائط الجدار العازل القديمة، بين مخطوطات الكنيسة، والتي كانت قد اختفت منذ مئات السنوات، وفي الوقت ذاته انشغلوا بإعادة بناء الإندايات القديمة، لتصبح نسخة مماثلة، لإندايات أسلافهم ذات الرّيات الحُمر، في موطنهم التاريخي البعيد، ما وراء بحر مالج، وتخوم الصحراء القاحلة!

وكان إندايات أسلافهم في موطنهم البعيد، جعلوا على خدمتها الأغرّبة والأرقاء وجواري هذا العصر، من كل جنس ولون..

هؤلاء الذين كانوا هم السواد الأعظم من الشعب، الذي تم نهب موارده وإفقاره، فاسترقَّ غالبيته بسبب وضعهم الاقتصادي والثقافي والاجتماعي المتدني، فلم يجدوا سبيلاً للحياة، سوى إندايات الحاكم الجنكـــــــــــــــــــــويزي العام، التي مزج فيها خبرات كل إندايات

الشعوب، التي غزاها أسلافه الجنكويز، مع الخبرة المحلية المتوارثة،
"لفداديات" البلدة القديمة والمدينة الزّاهية..

وعلى أية حال كان هؤلاء المعذبون، من شعب البلاد الأسيرة،
بمختلف درجات عبوديتهم، يجدون في هذه الإندايات، أرواحهم
الضائعة، بين أقبية تاريخ غامض، شفره الخزين الجد بمهارة أعييت
جهاذة "معهد جارالني جارو" لزمان طويل!

فيما هذا الخاطر يُلح على جادين جانو، كانت نينا قد صعدت
إلى الفُلك، وقلبها يتلفت بحثاً عن ثمرة فؤادها الخزين الحفيد، في
دروب البلدة القديمة والجاسر المتفرع من النهر العجوز!

فيما مضى، كان أهم ما يميز البلدة القديمة، معبد صانع
الفخار، الذي كانت روحه تتجلى، وطيفه يتجسد للأهالي الأتقياء
الأنقياء، في المساءات الحاملة.

إذ يخرج طيفه من بين الأشجار، التي تحيط بالمعبد، كالسوار،
تتخللها شجيرات الرّيحان البرّي، التي تمتزج رائحتها مع رائحة
السعدة، وعشبة مياه النّهر، عندما تلمح الرّائحتين تيارات الهواء
البارد، فتدهم خياشيم العابرين إلى المعبد، باعثةً فيهم نوعاً غريباً
من الشعور باليقين!

لم تعد البلدة القديمة والمدينة الزّاهية ذاتهما..

"لا مكان لك هنا!"

"هل ستأتي معي؟".

"لا أستطيع.. عليّ القيام بأمور مهمة.."

"أهم مني؟"..

"هل ستتركني كما ترك صانع الفخار الكنداكة؟!"

"لم يتركها.. كان يحميها مثلما أحاول حمايتك الآن!"

"كيف تحميني وما أنت تتركني ليحملني الفُلك إلى أرضٍ غريبة؟!"

ود لو قال لها الحقيقة.. حقيقة بحث الحاكم العام عن هويته الحقيقية، لحضره.. حقيقة كلابه التي تجد في البحث عنه لتعقله، حقيقة أنهم اقتربوا كثيرًا من إمطة اللثام عن شخصيته المجهولة!

توقفت كلمات متزاحمة، ملؤها العبرات في حلقه، الذي كان جافًا، تجرحه تنهداته الآسية، استجمع في داخله كل قسوة آل الخزين، التي وخزته في هذه اللحظة، عبر ثقوب التاريخ، لتفتح مجاري رفيعة لا تُرى، تنحدر من تلك الينابيع السريّة، تتدفق عبرها.. قطرات صغيرة من العزيمة، لها أثر ندى الفجر الجارح..

استجمع قواه ومضى، دون أن يلتفت وراءه! فيما نواتية الفُلك ينادون على المتأخرين، ليعجلوا بالمغادرة!

في المرّة الأولى وهي تستحم في النَّهر، كانت تعطيه ظهرها.. كان ردفها يتغنج تحت الماء، فتطفو فقاقيع صغيرة، كان يحدق فيها مسلوبًا، تسمرت عيناه على ردفها الهمجي، الذي منحته عناية رب صانع الفخار، طاقة جذب مثيرة وأسرة، تلفه بكل هذا الجنون والدوار! فيتخيل نفسه يمتطيه، كما كان جده الخزين الأكبر، يمتطي الأطباء الحرونة في طفولته!

في وقفته تلك، أخذ يتخيله صلبًا متماسكًا وممانعًا، ينطوي على زغب بري لطيف الرّائحة، فتخطر على ذهنه، كل المآثر التاريخية للأرداف الشبيهة، فيما تواتر عن الخزين الجد.

تلك الإرداف البديعة، التي كما ورثتها الكنداكة عن أصلها الملوكي البدائي الكريم، لجداتها الغابرات، اللائي ملأن خيال الشعراء المجاذيب بالجنون، لهول ذلك الفخر والإعزاز المهيب، الذي يشعل فحولات الأبطال، حتى الرّمق الأخير، من حياتهم البائسة! هذا الردف المدهش، هو أيضًا أثنى ما ورثته نينا، بعد مئات السنوات.

وعندما ودع الخزين الحفيد الفُلك، كان يدرك أن ذكرى هذا الردف، ستظل تطارده إلى الأبد!

□□□

عندما جاءوا به مكتوفًا لصلبه، أوماً بعينيه إلى الحائط، فانفلق.. وبانت فلاةً واسعة مضاءة بنور، أقوى من الشمس والقمر والتّهارمجتمعين، فسأله السجان:

"ما هذا؟".

فرد عليه:

"اذهب وتفرج" ..

فذهب ونظر فإذا باللؤلؤ والمرجان والألماس حصى، وكل الشجر وردًا وفاكهة، ونهر البلدة القديمة مزيج من اللبن والخمر والعسل! هتف السجان:

"والحق، تقدّس سرُّ الحق!".

المقدّس سرّه بقناعاته الرّاسخة، في انتمائه لعظماء التاريخ.. أولئك الأنبياء منذ آدم، إلى آخر نبي مغمور أو منسي أو غير معترف به، لم يكتفِ أن ينسب نفسه إلى ذلك النّبي الجديد، الذي ظهر ما وراء البحر المالح وتخوم الصحراء القاحلة، بل مضى نيافته بإشاعة الحديث، عن قداسة دمه النقي، الذي يتجاوز دماء الأنبياء طهارة ونبلاً وعقّة!

ولذلك كان قداسته يُولي أهمية كبيرة، لمسألة "النسب الشريف" لأصوله المزعومة، لمجابهة الدماء الفاسدة، التي في نظره تجري في عروق أهالي البلاد الأسيرة الأصليين..

هؤلاء السود، الذين داهمتهم جيوشه ذات فجرٍ شاحب، فأحرقت القصر الملكي، في اللحظة نفسها، التي كان ملك البلاد

الكبيرة، يتحرّش فيها بجارية صغيرة سلبته وقاره، في منتصف السلم
المفضي ليهو العرش..

تناولتهما ألسنة اللهب مع أخشاب السلم المتداعية، وهكذا
ذابا دون أسف، متوحدان في النَّار العظيمة، التي انطلقت تلتهم كل
شيء!

وفيما النَّار تلتهم قصر آخر الملوك المحليين للبلاد الأسيرة، كان
الجنكـوزيمـن جند المقدّس سرّه، يغمدون نصالهم في "كجورين"
وحاخامات وكهنة ورهبان وراهبات البلدة القديمة والمدينة الزّاهية،
مشرعين الطريق للدين الجديد!

ثم لم يلبث المقدّس سرّه إلا قليلاً، حتى نصب محاكم العدالة
الناجزة، في كل ربوع البلدة القديمة والمدينة الزّاهية، ليلقى حتفه كل
من يشكك في قداسة دمه، أو مشروعية سلطته وسلطانه على البلاد
الأسيرة!

كان مجرد التشكيك، وليس المقاومة الفعلية، جرماً لا يُغتفر!
وقداسته كان يرى أن هؤلاء السود، لا يستحقون حتى أن يكونوا
مجرد خدم، في بلاط نيافته ذات المقام العالي والدرجة الرفيعة، التي
لم ولن يبلغها رسول أو نبي، من قبل أو من بعد!

وإن حدث وأصبح أحد أهالي البلاد الأسيرة خادماً في قصر
سموه، كان ذلك يُعد فخراً وشرفاً لا يُضاهى، حظي به هذا الخادم
الفريد! ولهذا فكرة أن يكون صانع الفخار أو الخزين، اللذان بدوا له

كشبحين، لا أحد يدري عنهما شيئاً.. فكرة أن يكونا معارضين له، كانت تعذبه كثيراً.

إذ يحزنه أن يكون مثل هؤلاء السود البؤساء، أنداداً له! فضلاً عن كونه يبحث عن شبحين لم يرهما أحد، أو يعرف هويتها أحد، ومع ذلك يردد النَّاس أخبارهما وتعاليمهما!

وما كان يؤرقه أكثر، أن لا أحد يعرف هُوية اتباعهما، أو عددهم أو إلى أي مدى هم منتشرون، ومدى تأثيرهم على أهالي البلاد الأسيرة!

لا أحد بالضبط يعلم الاسم الحقيقي للمقدّس سرّه، فقد سارت عليه الكنية، فقتلت اسمه منذ كان جندياً صغيراً في وطنه البعيد، ما وراء بحر مالخ وتخوم الصحراء القاحلة! وكون سعادته ككل الغُزاة، كان طارئاً على البلدة القديمة والمدينة الزّاهية، رسخ في ذاكرة الناس باسم المقدّس سرّه!

كان قومه ما وراء البحر المالخ وتخوم الصّحراء القاحلة، قبل وقت طويل يعبدون الحجارة، التي كانوا يشكلونها على هيئة الحيوان أو البشر، بل أنهم مضوا بعيداً، إذ صنعوا آلهة من العجوة، يأكلونها عندما يجوعون!! إلى أن بُعث فيهم نبي بتعاليم لم يألفوها!

في البدء حاربوه، ولكن بعد أن التف حوله الفقراء والأرقاء، الذين كانوا يشكلون سواد الناس الأعظم، ثم لحق به القلة من عليّة القوم المستنكفين! مضت رسالته تشق دروباً جديدة، في تلك الصحراء القاحلة!

كان قوم المقدّس سرّه، الذين بدأوا يعانون الاضطرابات والقلق، التي ما فتئت تنخر في كيان دعوتهم التي استباحت، فتحوّلت إلى مُلك عضوض، فأخذوا يسعون جامدين -وقتها- لإعادة تماسك أطرافهم، والتوسع في أراضٍ جديدة، فرمّوا أبصارهم خلف أفق البحر المالح الملوّن، وأرسلوا قبائل بكاملها، لتختلط بشعب البلاد الأسيرة، وتنشر الدعوة للدين الجديد.

بل حتى الهاربون من نزاع الحكم أفواجًا أفواجًا، جاءوا إلى البلاد الأسيرة. وهكذا انفتح الطريق، فجاء الدُّعاة، قطاع الطرق، قادة الثورات المجهضة، الشعراء الصعاليك الهمبارة، وزعماء الممل والنحل، والفرق الدينية السرية، وقبائلهم وأشياعهم، البدو الباحثون عن الكلاً والماء هربًا من الصّحراء القاحلة، التجار الذين لم يعد لبضائعهم طلب، النخاسة والفاشلون الباحثون عن مجد سهل، والخطباء الفاشلون والمجانين الذين تاهوا في دروب الصّحراء ومسالكتها، والعشاق المحطمون بهجران حبيباتهم الخائنات!

جاءوا جميعًا من كل فج عميق، من ثغور البحر المالح، من صحراء دار الريح، من أسفل النّهر، زرافاتٍ ووحداتًا، جوعى منهكين من طول الأسفار ووعناء الطريق، وجوههم معروقة، أجسادهم نحيلة يابسة، تكاد لا تبين داخل أسماهم المتسخة..

ورحب بهم أهل البلاد الأسيرة المسالمون، في أسافل وأواسط النّهر.. رحبوا بكل هؤلاء وأولئك، استضافوهم، وداووا جراحهم

وزوجهم بناتهم وأخواتهم، وهكذا بدأت تتشكّل نواة لشعب جديد، ملامحه تختلف قليلاً عن بقية أهل البلاد الأسيرة.

في الصعيد ودار الرّيح، الذين لم يختلطوا عميقاً كغيرهم من الأهالي أواسط النّهر وسافلّه، إذ كانوا منذ البدء ينظرون إلى هؤلاء الغزاة في ريبة وحنرا!

وُلد المقدّس سرّه، بعد انتشار الدين الجديد، بعدة قرون، ومنذ طفولته الباكّرة، كان بادي الذكاء، لمّا حآ.. وميالاً للقيادة.

لذا عندما اشتد ساعده وقوي عوده، سأل قومه تزويده بجيش قوي لغزو البلاد الأسيرة، فأجابوه وأطلق على هذا الجيش اسم (الجنكوزين)، أي راكبي الجياد المعاتيه! وبسقوط (البلدة القديمة والمدينة الزّاهية) اللتين كانتا تشكّلان عصب البلاد الأسيرة وسرّتها، بدأ عهداً جديداً، افتتحه الجنكوزين باستعباد وقسر النّاس، على تبني الدين الجديد! أو القتل! فلم تنجُ من الاغتصاب سوى نسوة قلائل، كن قد اخترن الموت! وبعض الرجال، الذين فضلوا الهروب إلى فيافي دارالريح أو غابات صعيد النّهر، لاختطاط وطن جديد، بعيداً عن قبضة الجنكوزين!

وقتها كان الخزين الجد قد أحكم تسوير طائفته، الحافظة لتاريخ الأسلاف وعقائدهم، والمبشرة بتعاليم صانع الفخار الأكبر!

وما أن دانت للمقدّس سرّه البلاد الأسيرة، حتى أخذ رجاله ينشرون الكثير من القصص الغريبة، والأساطير التي تجعل منه كأننا

خارقًا، أكثر من كونه بشري محدود القدرات، كغيره من البشر: يأكل ويشرب وينام، ويفشل في مضاجعة النساء أحيانًا، ويتغوَّط ويتبوَّل، ويخاف، ويحزن وربما يموت بسبب مرض لم يجد له الحكماء علاجًا، بسبب عاداته الغذائية الرديئة، أو تناوله طعامًا فاسدًا!

هذه الوقائع المأساوية المتتالية والسريعة في حياة أهالي البلاد الأسيرة، أوضحت مدى الخلل الذي يعانيه عقل المقدّس سرّه، الذي بالمقابل كان يرى حياة الأهالي، ككتان نسجه نساج رديء على نول شابته الكثير من العيوب، ما يجعلهم أقلّ مقامًا من قومه خلف البحر المالح، وتخوم الصحراء القاحلة!

وفي الحقيقة أن معتقدات المقدّس سرّه وجنكـويـزه، كما رآها صانع الفخار، ليست سوى ظاهرة سوء فهم عميق للتاريخ ولمعنى الوطن! والحياة والطبيعة البشرية، بسبب الصحراء القاحلة التي وُلد ونشأ فيها الجنكـويـز والمقدّس سرّه! الذي كان برأي صانع الفخار، وهو يرى الجنكـويـز يقطعـون ويتـرون أيدي الأهالي وأرجلهم ورؤوسهم، ولا تكف عن جلد ورجم النساء والرجال، تجسيدًا لمبلغ ومنتهى الفظاعة وسوء الظن والقبح، الذي لا حدود له!

وبقدر ما أحب الجنكـويـز المتوحشون (الشعر)، بسبب وحشيتهم وقسوتهم، نتيجة الانفعال بسبب غياب الحكمة، كان أهالي البلاد الأسيرة الطيبون، يحبون (الحكايا) و(القصص) التي يتداولونها في العشيّات، وهم متعلقون حول (تقابة) نار، يغلي فيها ورق الشاي القوي، المخلوط بلحاء شجر طيب الرائحة. وبينما يصب

الصبية الشاي، كان أكبر الرجال سنًا يحكي، عن جور الزمان وعن
الأسلاف وعن سواهم!

كانوا حول هذه النار، كثيرًا ما يتداولون سيرة البعض من
الأهالي، الذين بدؤوا يتسللون من البلدة القديمة والمدينة الزاهية،
يلحقون بمن سبقهم هربًا من الجنكوز!

كانوا يغادرون طوعًا، مفضلين الحياة في أرض جديدة، بدلًا عن
العيش هنا كرعايا، مغمورين ومذلولين ومفقرين!

وفيما يتداول الشيوخ حول نارهم في العشيّات أحزانهم، كان
الجنكوز، الذين لم يأتوا بنساء من قومهم، قد طاب لهم المقام..

وبمرور الوقت كانوا قد أنجبوا الكثير من الذكور والإناث، من
الجواري الذين ملكوهم باليمين، وأصبح هؤلاء الذكور قوّة ضاربة في
طليعة جيش الجنكوز المتنامي، الذي أعيد تشكيله في أربعة فرق:

الفرسان، الجنكوز، الهجانة، وحرس المقدّس سرّه، الذين هم
أولئك الذكور، أبناء النساء السبايا من آباء جنكوز!

وبينما كانت نواة الشعب الهجين، الذي أنشأه الجنكوز،
تتنامى، كان الجزء الأكبر من شعب البلاد الكبيرة الأصل، يتعمق فيه
الخوف على الأرض والتاريخ والثقافة!

بعد عشرات السنوات من سلالة المقدّس سرّه، سيأتي حاكم عام، يقرر أخيراً طرد ما تبقى من سكان أصليين، لم يطالهم التهجين، ليلحقوا بـ الذين فروا إلى الصعيد ودار الرّيح باكراً، مفضلين الحياة مع وحوش الغابات والوديان الضارية، على مساكنة الجنكويز الغزاة!

عندما يتأمل صانع الفخار الجد حياته وقتها، يتساءل عن قيمة سنوات عمره، التي دفنها عامًا بعد عام، ماذا تعني لقاء لحظة واحدة مع الكنداكة، التي ماتت تحت تعذيب الجنكويز؟!

الكنداكة اللطيفة، الرّقيقة، المنذورة منذ ولادتها للموت!

حملت كل مقومات الفناء، لكنها بقيت كذكرى ليست عابرة، بل مقيمة، عكس حياتها التي عبرت كطيف، عندما أبلغه الخزين في آخر لقاء لهما، بموتها على يد المقدّس سرّه، الذي شطرها بسيفه شطرين!

شعر لحظتها بحياته تنحدر وتدهور.. كان قد بدأ يفقد الرؤية الواضحة، وهكذا تخلى عن الكثير من الخطط واختفى! وصيفًا تلو آخر، وشتاءً تلو آخر، كان إحساسه بالضعف والقنوط يتضاعف، ولم يتمكن من استعادة توجهه إلا بعد سنوات، عبر عذاب شهد فيه أقصى درجات الألم، ومحنة ظلت تتغذى من مصدر التفكك الغامض، الذي لم يستطع الوصول إلى حدوده..

ومن نهايات هذا التمزّق، بدأت ذاته تلتئم مرة أخرى وتتجدد، كانت غريزة الحياة في داخل الخزين تتجدد، وشيئًا فشيئًا يُشفى من

الجُرح الغائر، الذي خَلّفه رحيل نينا، فيسبح في أحضان أم عيون،
الجارية الحسنة التي أهدبت له، وكانت تلك هي اللحظة، التي تعرف
فيها على نفسه وقدراته، فأدرك أن كل ما مرَّ به، بمثابة ثروة ومصدر
إلهام، وزاد لمجابهة الجنكويز!

الآن يقف الخزين الحفيد موقف كان قد وقفه صانع الفخار
نفسه، في عزلته ووحدته والصَّمْت الكلي، الذي تشرنق داخله، ظلت
تتناهى إلى مسامعه لسنوات طوال، صرخات استغاثة كل الذين
أجلاهم الحاكم العام من ديارهم، فيما كانوا ينظرون لحقهم في هذه
الأرض وتاريخها، كنوع من الخطيئة القاتلة.

موقفه مما حدث ويحدث، كان هو الشيء الوحيد الذي سيكون
الرّهان، على كونه حقيقة وليس وهمًا! من بين هذه الاستغاثات،
تظل استغاثة نينا جُرحًا متقيحًا.. نينا التي لن يتمكن من نسيانها
ليتذكرها!

كان الخزين يدرك أن ليس بإمكانه، تفادي حرب الحاكم العام
بالمغادرة معها، وفي الوقت ذاته لم يكن يريد لها البقاء هنا، حيث
يكاد ينعدم الأمل.

كان بقاؤها يعني أن تكون نقطة ضعفه، وربما ضحية لهذه
الحرب اللعينة، وهو ما حدث بالفعل! لكن لم يكن يعلم بسرعة
حدوثه، وعلى هذا النحو بالذات!

"قتلتها حَيَّ التَّهر، فرمَها فيه" ..

أخبره أحد أتباعه بعد رحيل الفُلك بأيام، في البدء بدى كمن
أصابته صاعقة، ثم أخذ يبكي وهو يردد:

"بل قتلها الجنكوز!".

كان لا يريدُها أن تتورط، دون أن يعي أنها أصلاً متورطة حتى
النخاع، وأنه ليس الهدف الوحيد للحاكم العام! فكل هؤلاء وأولئك،
الذين فاضت دموعهم طلبًا لحقهم في الأرض أو التاريخ أو الاختيار
الحر، لما يريدون، أو طلبًا لأدنى احتياج: "القوت ..".

كل هؤلاء هم نينا.. يدرك الآن وبوضوح أكثر من أي وقت مضى،
أن من دموعهم جميعًا، يتشكل نبع أزلي، سيظل يحرك جذور النَّهر،
ليفيض ويغسل هذه البلاد الوسخة!

الأمسية التي سبقت انقضاء آخر يوم، من المهلة التي منحها
جند الحاكم العام للأهالي، للمغادرة، كانت أمسية غير معتادة! فرغم
أن الوقت كان بدايات الشتاء، إلا أن الجو كان حارًا حرارة غريبة.. بدا
كل شيء في البلدة جنائزًا، فاندفع الأهالي إلى النَّهر، كأنهم يهيئون
أنفسهم للدفن في القبر! مدفوعين برغبة الاغتسال من الدنيا
بحلوها ومرّها! غاصوا حتى أعناقهم!

ما ظلوا واثقون منه، بعد انقضاء سنوات طويلة، أن تلك
الأمسية، كانت هي بداية لنهاية أحلامهم الكبيرة، التي لطالما حلموا
بها! وما أشبه الليلة بالبارحة، فهذه الأمسية لا تختلف كثيرًا، عن
أمسية قديمة، ضاربة في غور التاريخ، عندما دهم الجنكوز الغزاة

الأوائل، أسلاف جند الحاكم العام المدينة الزَاهِيَّة، التي تتاخمها البلدة عند منحدر النَّهْر.

في تلك الأَمْسِيَّة الخانقة، سقط آلاف القتلى تحت سَنَابِك خَيْل الجَنكُوزِ، الذين لم تكف سيوفهم عن القطع والبتر، إلا فجر اليوم التالي، الذي انجلى عن غموضه دفعةً واحدة، كاشفًا عن نهر من الدَّم والدموع!

وقف حارسًا على باب (القيقر: الخندق) أشد الجَنكُوزِ بأسًا وقسوة! لتفتيش الأهالي المذعورين، أثناء هروبهم من المدينة، فأمروا بالبقاء في مكان يتوسط المسافة، بين باب القيقروالبلدة عند منحدر النَّهْر! حيث عسكرت فرقة من الجَنكُوزِ، وترك الأهالي المرهوبين يواجهون قدر بئس، يحاصرهم الجوع والبرد ليلاً، وحر غريبة كتلك الحر، التي أصبح معها مناخ البلدة القديمة، جنائزًا بعد مئات السنوات التالية.

استولى الجَنجويد الغُزاة، على بيوت الأهالي واستهلوا محاكمتهم لهم بالقول:

"حيث إنكم كفرتم برسول المقدس سرّه، حلّ لنا دمكم، ولا سلامة لكم في الدنيا والآخرة، إلا بتسليمنا أموالكم التي خبئتموها.."

وسواءً أذعن الأهالي أو لم يذعنوا، لم يكونوا يسلمون من الضرب بالسياط، ألف سوط للرجل ونصفها للمرأة، مع توثيق

اليدين والرجلين والإلقاء على الأرض، وصب الماء البارد على أجسامهم في الليل!

مما رشح من مخطوطة معهد جار النبي جارو، أيضًا.. بعض المعلومات، التي تشير إلى أن الجنكـويز عندما داهموا ذلك البيت، الذي اشتبهوا في أنه مخبأ لصانع الفخار أو الخزين، الذي كان كل ما يعرف عنه وقتها، أنه شابُّ أربعيني فارغ، وفي واقع الأمر، أن الغالبية العظمى من أهالي البلدة القديمة، هم أربعينيون فارعون!

كان الجنكـويز قد قتلوا كل أفراد الأسرة في ذلك البيت، الذي فتشوه فلم يجدوا فيه مالا، لكنهم عثروا أثناء بحثهم، على صبي صغير كانت أمه قد خبأته، فأخذوه وهددوا بقتله، إن لم تدلهم على المكان، الذي توجه إليه صانع الفخار والخزين، فقد كانوا واثقين أن الاثنىــــن كانا يختبئان هنا! فتوسلت أمه وشقيقاته، وهن يلقين بأنفسهن على الأرض، تحت أقدام الجنكـويز يستعطفن لكي يتركوه دون جدوى، إذ احتد أحدهم:

"كيف نتركه ونحن لم نجد لديكن لا ذهبًا ولا فضة؟".

ثم التفت إلى رفاقه صائحًا يأمرهم:

"اقطعوه ثمانية قطع وأعطوا كل واحدة قطعة منه، إن لم يعترفن بمكان الخزين وصانع الفخار".

ألقى أوامره ومضى غير آبه، ككل جنكـويز التاريخ..

وبعد أن يئسوا من العثور على صانع الفخار والخزين، قاموا
بأخذ تلك الفتيات وأمهن سبايا، وفي الحقيقة لم تكن المرأة أمًّا
لهؤلاء الفتيات، إذ كن ضيفات غامضات حللن عليها، فُبيل مداهمة
الجنكويز بقليل!

كانت الضيفات هن الكنداكة وأم عيون، وسبعة من راهبات
الكنيسة القديمة، هربن أثناء مداهمة الجنكويز للكنيسة
وإحراقها، بعد أن علمن قبل وقت ليس بقصير، أن الجنكويز بدؤوا
في إحراق كل معابد أديان البلدة القديمة، وشرعوا في البناء محلها
معبدًا لإله المقدّس سِرّه، الذي أحضروه معهم على صهوات خيولهم
ونياقهم..

"إنه إله حرب! إله قتل!"

بكى صانع الفخار، عندما أخبره الخزين، ولم يكن كلاهما يعلم
منذ وقتٍ كافٍ، أن الكنداكة كانت بين الفتيات اللاتي سباهن
الجنكويز.

وبالنتيجة، عندما علم الخزين أن المقدّس سِرّه شطرها بسيفه
شطرين، بعد أن رفضت أن تسلمه نفسها، اجتهد في إيجاد طريقة
لإيصال الخبر لصانع الفخار! في الوقت نفسه كان الجنكويز، قد
ألقوا القبض على رجل دلته عليهم عيونهم، بأنه الخزين، لم يملوه
طويلاً، قتلوه! وفي الحقيقة ذلك الرجل الأعرج مهلهل الثياب، الذي
علت الثياب التي يرتديها و(الشقيانة) التي ينتعلها عشرات الثقوب

والرتوق، مستحيل أن يعتقد أحد، أنه الخزين! ما لم يكن مختلاً
كالجنكوز!

كل نساء وفتيات البلاد الأسيرة، اللاتي رفضن الدين الجديد،
قُتلن أو أُخذن سبايا، لم تنجو سوى اللائي أعلن صراحةً إيمانهن
بدين المقدس سرّه!

الأمر نفسه حدث مع الذكور، حتى الأطفال الصغار الذين أنشئ
لهم ملجأ كبير، تمت رعايتهم فيه رعاية عسكرية خاصة، وفقاً
للخطط العسكرية الطموحة للمقدس سرّه، ببناء جيش قوي لا
يهزمه شيء!

بنات الأعيان العذراوات، وزعن على قادة الجنكوز من تطق
الوطء منهن ومن لا تطيقه! فكانوا يتبادلونهن فيما بينهم، حتى لا
يُعرف نسب الجنين المحتمل لأي منهم!

"أي نوع من الأديان هذا!"

بكي الخزين، بكي صانع الفخار!

الفتيات اللواتي أنهكتهن المضاجعة، ولم يمرضن كبعضهن
فتمردن، كن يُضربن ضرباً شديداً وتُحلق شعورهن، بعضهن فضلن
الموت على الاغتصاب المتكرر فانتحرن!

كان أصغر الجنكـويزشأنًا، تجد في ملكه أكثر من عشرين فتاة،
يحل له وطؤها والتصرف فيها كما يشاء، فكل جنكـويزي يظن عن
قناعة تامة، أنه ينفذ إرادة رب المقدس سرّه!

وكان المقدس سرّه ذات نفسه، يفعل هذه الأشياء، ويدبج
المنشورات لشرعنتها، بل مضت منشوراته تحرّم وتحلل وتضع
القوانين لكل شيء، بدءًا بتحريم (التنباك) الذي أدمن الأهالي كيفه،
انتهاء بتحليل الرق.

بل استهل عهده بمنشور، ألغى فيه أي زواج أو عتق، قبل
احتلاله البلاد الأسيرة! فكل شيء قبل الاحتلال باطل! بل أن أهالي
البلدة القديمة، الذين تزوجوا بشرائعهم الموروثة، ما هم إلا أبناء
زنى، على آبائهم إن كانوا أحياء، عقد قرانهم مرّة أخرى بشريعة
المقدس سرّه!

الاحتلال الجنكـويزي لم يكن فاصلاً بين عهدين فحسب، بل بين
عالمين مختلفين تمامًا في كل شيء!

وهكذا مضى المقدس سرّه، يزوج الأسرى الأسيرات، الذين
دخلوا في دينه زيجاتٍ جماعية، كما نتج عن وطء جيشه نساء البلدة،
مواليد بعدد الرّمّل!

وبمرور الوقت أصبحت دماء الجنكـويز، جزء من نسيج الدماء
المتنوعة لأهالي البلاد الأسيرة، وهكذا بدأت شعوب جديدة في

كانت أسئلتها عفوية، وهي تستعيد كل تعاليم صانع الفخار،
عن الحب والرَّحمة والتكافل والحرية والحق في الحياة والأمان
والسلام!

كانت تقارن هذه التعاليم، بمنشورات المقدّس سرّه، وهي تبيح
للجند حرق القرى في دار الريح البعيدة، التي وطأتها سنايك خيله،
فتواترت أخبار الفضائع بما يفوق ما حدث في البلدة القديمة والمدينة
الزّاهية، آلاف المرّات، من قتل الرجال واغتصاب النساء، وتهجير
الأهالي البسطاء، وإحلال فلول قبائل الجنكويز التائهة في الصحارى
الواسعة محلهم، بعد أن هربت ناجيةً بحياتها، من ديارها ما وراء
بحر مالح وتخوم الصحراء، بسبب صراع ملوكها على الحكم!

لم يعد لأهل البلاد الأسييرة وطن، تنهّد صانع الفخار، وهو
يرسف في قيد حبال القد..

"ما عاد لهم وطن!"

بعد أن فرغ أمير الجند من شأن الفتاة، التفت يسأل الحرّاس
وهو يشير إلى الرجل المقيّد بحبال القد:

"من هذا الكافر؟"

الجنكويز الذين نظروا إلى بعضهم البعض مرهوبين، تطوّع
أحدهم يرد في تلعثم:

"نشته أنه صانع الفخار أو الخزين".

قال في غضب والشريقفز من عينيه:

"أو؟؟!!".

أطرقوا عيونهم إلى الأرض، ولم ينبس أحدهم ببنت شفة، فيما كانت أصابع يده تحكُّ لحيته في توتر.

مرت لحظات قليلة كأنها الدهر كله، قبل أن يرفع سبابته تجاههم:

"خذوه عذبه، ولا تدعوه حتى يعترف من هو، أو يدلکم على مكانهما!".

ضربوه ضربًا مبرحًا، حتى فصدت الشياط جسمه، وسال الدَّم يغطيه، ثم تركوه مسجياً على تراب محبسه، غائبًا عن الوعي!

ولأيام طويلة ظلوا يخرجونه كل ليلة، يستجوبونه ويعذبونه، وهو يصرخ:

"لست الخزين، لست صانع الفخار ولا أعرفهما أو أعرف مكانهما، ما أنا إلا عبدٌ فقير على باب الله!".

"أي إله تعني؟ وهل هناك أكثر من إله؟".

"أعني إلهنا كلنا، الذي لا إله غيره، إله المقدس سِرُّه!".

فبيتسمون في غبطة، لكن لا يتوقفون عن تعذيب الرجل:

"اعترف من أنت يا عبد السوء".

فيغيب الرجل في إغماء عميق.. فلما استيأسوا أشار أحدهم
بأخذه، إلى أمير حرس المقدس سرّه:

"إنه داهية من دواهي الزمان، ولا بد أن يجد حيلة لمعرفة ما
تريد معرفته من الرجل".

فكروا قليلاً يقلبون الرأي، ثم أذعنوا لمشورته.. وبعد أن أفاق
الرجل جروه إلى فناء واسع مزدحم بجمعٍ غفير، ما أن اقتربوا حتى
سمع قعقة السيوف، وهي تُجرّد من أغمدها، أدخلوه فرأى نحو
أربعين جنكوزياً، واقفين بمحاذاة الاتجاهات الأربعة للفناء الواسع،
الذي كان زنجاً مشبعاً برائحة الرطوبة والعرق.

ألجمته الدّهشة، وهو يرى تابعه الخزين ذاته! كانت يده على
مقبض سيفه، ويقف على منبرٍ خشبي متآكل، يبدو أنهم جلبوه من
الكنيسة المنهوبة، قبل أن يحرقوها! فابتلع ريقه الجاف، وشعربجرح
في حلقه!

وتذكر اجتماع بعيد بينه والخزين وحواريه، وهو يتفرّس
وجوههم جميعاً ثم يقول:

"أليس أني أنا اخترتكم.. واحد منكم شيطانٌ!".

كان الجمع الغفير ملتف حول رئيس جند المدينة الزاهية، الذي كان مشنوقًا ومثبتًا إلى شجرة السنط اليتيمة في المكان، في وضع غريب إلى حد بدا معه أشبه بفزاعة، كتلك التي يضعها الأهالي، في حقولهم لإخافة العصافير، أكثر من كونه جثة جندي من جنود البلاد الأسيرة!

كان حافيًا عاريًا ليس عليه سوى بقايا (عراقي) ممزق أشلاء، عيناه بارزتان تكادان تقفزان من محجريهما، وأنفه وفمه مشقوقان، وعلى جسده خثرات دم جاف وكدمات وشقوق وحروق، وكما لو أن كل ذلك لم يكن كافيًا، إذ كان واضحًا من خصيتيه المتدلّيتين بين ساقيه، أنهم خصوه أثناء التعذيب!! وكان الذباب يغطي جسمه، في هيئته المشنوقة تلك!

كان كاحلاه رغم كل شيء لا يزالان يرسفان في الأغلال، والجنود الجنكويز لا يفتؤون يخزون جثته بأسنة سيوفهم ورماحهم، حتى لم يعد في جسمه موضع يخلو من طعنة رُمح أو ضربة سيف، والدّم يسيل من جسده، وهم يتبادلون الضحك والسخرية!

انتفض جسد صانع الفخار بشدة، وهم يرمونه تحت قدمي الخزين!

"مات أمير جند المدينة الزاهية كما يموت البعير!"

تنهد صانع الفخار وهو يهمس لنفسه في أسي، ويتطلع إلى وجه الخزين، الذي قال موجهًا حديثه للجنود الجنكويز الذين جاءوا به:

"من يكون هذا الرَّجُل؟".

"نشك في أمره، أن يكون هو الخزين أو صانع الفخار!".

همهم الخزين وهو يتأمل ويفكر:

"الخزين أو صانع الفخار.. خذوه إلى تلك الغرفة وأعطوه شربة ماء وانصرفوا".

تطلعوا في وجهه بدهشة لا يصدقون ما يسمعون، فكرر بحزم:

"نفذوا ما أمرت به، لي أساليبي التي أُجلي بها الأمور!".

التفتوا بحركة لا إرادية إلى جسد أمير جند المدينة الزاهية المسجّى على تراب الفناء، كأنهم يقولون:

"وهل تختلف أساليبك عن أساليبنا!".

وكانه قرأ ما يدور في أذهانهم، فقال بصوت أشد صرامة مما سبق:

"جربتم معه التعذيب أما أنا سأجرب كل شيء!".

نفذوا أوامره وهم يهزّون رؤوسهم وانصرفوا!

رمى صانع الفخار الحفيد بذاكرته بعيداً، يستعيد ذكرى صانع
الفخار الأكبر، في موقف مماثل عندما جاءوا به ليصلبوه، فأوصى
الخبزين برماده:

"إذا رأيتم قد أحرقوني، فخذ من رمادي شيئاً واحتفظ به،
بعد ثلاث أيام يفيض نهر البلدة فتكاد تغرق، فيأتون إليك متضرعين
بين يديك، فخذ الرماد الذي عندك وارمه في الماء وقل له: ارجع من
حيث جئت بحق رب صانع الفخار".

ثم عانقه وبكى معه بكاءً شديداً، الى أن أغمي عليهما وسقطا
على الأرض، حتى ظن الناس أنهما ماتا، وعندما أفاق قال:

"أحببت الموت، ولو أردت لصحْتُ بهم صيحة لا تبقي لهم أثراً!".



في وقفته تلك، كان ردفها قد أصابه في مقتل، وهي تدنو ناحيته،
يتفتت تحت قدميها طين القيف الهش، وجسمها تتناثر عليه حبيبات
الماء كندى الفجر، وهي تنحدر من نهديها حبات حبات! تهادت
تجاهه كطاووسة تغوي طاووساً، فأحس لحظتها، بالبلدة كلها تغرق،
في أضواء هادئة، تنبعث من القمر الزاوي، تحت سحابة متقطعة،
لينعكس على ريشها الملون! وتأوّه:

"هذا ردف عجيب! لا ضمير له! يصرع العشاق ولا يكثرث!".

عندما صافحته نينا، ضغط الخزين على يدها بشدة، كان
يعتصر كفها اعتصارًا، يتغذى من تيار صاعق يبقيها إلى الأبد، في
حُضن كَفِّه!

يود لو يستبقيها.. رغب في عدم إفلاتها.. ولم يكن يدري كم لبثا
هكذا! كل ما يدريه أنه منذ تلك اللحظة، لم يفارقها أبدًا، كانا دائمًا
في كل مكان معًا، وكانت أنوثتها كل يوم في حالة اكتمال للتو واللحظة،
بكرًا، متوحشة.. وهما في كل مكان خلفهما قرص الشمس، أو ضوء
القمر الشاحب، وهي عارية تستحم في النهر.. تدعك تكوراتها
وفجواتها بعناية، ثم تطفو في ظلالٍ من الضوء الخجول، وهو
ينعكس على صفحة الماء!

مشهد واحد متجدد في كل يوم، في كل لحظة، بشكل دوري..
يبدأ وهي عارية، تخلع ثيابها قطعة قطعة، وينتهي وهي تدنو منه
ببطء، وتراب القيف الهش يتهشم تحت قدميها الصغيرتين!

مشهد واحد دوري لا يفتأ يطارده، فلا يصدق أنها لم تعد هنا..
في هذا العالم المهدهد بالزّوال!

□□□

يستعيد صانع الفخار، كل لحظة أغفلتها الذاكرة مرارًا وتكرارًا،
وهو في حالة من الصدمة، لا يصدق أن الكنداكة أجمل راهبات
معابد الكون والبلدة القديمة، قد رحلت عن هذا العالم القاسي،
وتركته وحده لمجابهة قدر رهيب!

لا يستوعب حتى الآن أن ذلك الفجر البعيد، كان فجر الوداع الأخير! ما زال مسكوناً بذات إحساسه بها، منذ الوهلة الأولى، التي كمن فيها يتأمل جسدها، تحت الضوء الشاحب، وهي عارية تستحم.. لحظتها استقر في أعماقه شك عظيم، في قدرة جسده على الاقتراب من أنثى سواها.. الإحساس ذاته ظلت تؤكد له، وهو ينتظر سيرها نحوه..

كانت تمضي نحو قدرها بخطى حثيثة، وكان كأنه ليس هنا! ترى هل سيشعر جسد الخزين بأم عيون، التي أهداها إياه أمير الجنكوز؟! هتفت به:

"زوجتك نفسي" ..

فدنا منها كعوليس وهو يدنو من كاليبسو الجميلة، في مساء قديم، موغل في القدم، كذاك المساء! دنا الخزين من أم عيون خطوتين، فدنت منه أقرب من حبل الوريد، تماهيا في بعضيهما، كليهما لم يكونا هما، بل شيئاً أشبه بروح صانع الفخار الأول، وهي تتأمل عالماً لم يولد بعد وخلقاً لم يُخلق بعد، وتفكر في هذا الخلق، الذي ستغير رأيها فيه بعد خلقه، فتقرر استبداله بخلق جديد!

طوق الخزين نينا، فيما كان صانع الفخار في مساء بعيد يحيط خصر الكنداكة، بذراعيه المعروقين ويقبلها بنهم، يلتهم في شفاهها ثمرة الرغبة السرمدية، التي ولدت في الأزل! وإحدى يديه تنزلق ببطء.. تتسلل تجوس في عشبها الندي! وحببها:

"زوجتكِ نفسي" ..

ويطفو جسداهما في هالة من التوتر والانفعال الحميم، وكل الأحاسيس الغامضة، التي تسرّبت من روح صانع الفخار، لتغطي فضاء البلدة الوادعة عند منحدر النّهر، تغطي على صوت الجنكوز! وفيما هو يشدها إليه يرجع الصدى مرددًا:

"زوجتكِ نفسي يبي.. يبي" ..

فيرتج جسداهما كزلزلة اكتمال الخلق، ثم يرتحيان، ويهدان، تفوح منهما رائحة الثمرة الأزلية، ومزيج القرنفل والقرفة والحبهان والعرق! اغتسلا في ماء الجاسر المحموم، ثم تهالكا على قيف النّهر، كطوايي البلدة القديمة الموعودة بالشجن والجنون!

هذه البلدة التي تواجه في تلك اللحظة، دونًا عن كل لحظات التاريخ، نوعًا غريبًا من الخرائف الغريبة! حيث انتشر البعوض والناموس في أرجائها، وتوالدت الضفادع والذباب بسرعة رهيبه، ووحدت سيمفونيات نقيقتها وطنينها بصورة مفزعة، تكاد تقود الأهالي إلى الجنون!

هذا النوع من البعوض الذي انتشر في البلدة، كان نوعًا غريبًا على الأهالي، لم يألفوا ما اتسم به من جُرأة وخبث، إذ كانت كل أربعة بعوضات، يرفعن أطراف الناموسية، ليتمكن بقية السرب، من الدّخول لتهش أجسام الأهالي النحيله!

لم يعد أهل البلدة قادرين على النَّوم، كانوا عندما يلتقون
يكشفون عن أجسادهم، المملأى بالانتفاخات الصغيرة الحمراء!

كان حال الأهالي ليلاً خوض حرب ضروس مع البعوض، جربوا
فيها كل الوسائل والسبل، بدء بتغطية كامل أجسادهم، بزيت
الخروع — الرّائحة، انتهاء بحرق الحطب المزيج من العشر
واللغوت!

لم يتركوا شيئاً لم يجربوه! إذا كان ذلك هو حالهم في الليل، في
حربهم الخاسرة مع البعوض، فإن حالهم نهاراً لا يسر، إذ عكر الغبار
الكثيف مزاجهم! نوع غريب من الغبار، ظل عالماً في فضاء البلدة،
يتنفسونه ثقيلًا مع الهواء!! وكانت ذرات هذا الغُبار الذي ظل عالماً
في فضاء البلدة لوقت طويل، ترسم أشكالاً غريبة، أشبه بكائنات غير
معروفة، وحتى السحب كانت تشكّل أشكالاً غامضة!

وكل شيء في البلدة القديمة كان غريباً، كأنه إبداناً بحدث خارق!
حتى عندما طلع فجر البلدة، وأشرق الشمس فاجّة بأشعة خيوطها
الذهبيّة الشحيحة، السحب السوداء بدت لهم ليست شمسهم
ذاتها!

كانت هزيلة صلعاء، حتى أن ضوءها فشل في إزاحة الظلام
والعتمة، التي ظلت تبرز من أبواب البيوت المواربة، والأخرى المتاكية
بعود أو (ضُقُل).

كما أن دِيكة البلدة تغيّر حالها، إذ أخذت تغادر البيوت إلى الغابة المجاورة، ولا تعود إلا بعد مغيب الشمس، وتظل على حبال الغسيل، التي علّقت عليها نُسوة البلدة (شرموط البقر)، تصبح حتى الصباح، دون أن يغمض لها جفن أو ينال منها تعب!

الحمام والعضافير التي بعثر صياح الديكة قش أعشاشها ووكناتها، غادرت البلدة القديمة تحمل فراخها بمناقيرها!

حتى الدجاج أصيب بالذعر، بينما انفتحت كل زرائب المواشي، وأخذ النُغَاء يختلط بالنهيق بالخوار، بكل شيء! فيما بدا للجميع اختلاط تام للحابل بالنابل!

كانت تلك هي المرّة الأولى، التي شوهد فيها طيفًا شبيهًا بصانع الفخار يجري من بيت لآخر؛ وهو يصيح:

وربّ صانع الفخار لا تهلعوا، أنها إرادته العليّة، فربما من الخير لكم أن تغادروا، نحن مسيّرون، وهو الذي ليس سواه، لا يقودنا إلا إلى الخير، ستمضون إلى أرض أجمل وأخصب تضربون، فيها جذوركم وتبدوون من جديد!

الأمهالي الذين أخذ الذهول بتلابيبهم، ظلوا يحدّقون مسمّرين في الهواء، الذي انقشع فيه الطيف، كأنه لم يكن!

□□□

على خلاف الرواية الرسمية عن الخزين طيلة أم جبو الجد الأول، التي فك طلاسم مخطوطها معهد جار النبي جارو، ثمّة رواية شائعة لا تفتأ الجدّات في الليالي المقمرة، يحكيها لأحفادهنّ، على وقع رشقات الحليب الدافئ.

تقول الحكاية أن الخزين الجد، هو النّاجي الثاني من ذلك الطوفان، الذي تواتر إلى مسامع أسلافهم خلال مئات السنوات، ولم تفصح هذه الحكاية عن هوية النّاجي الأول، التي ظلت مجهولة وغامضة!

رغم أن هذه الرواية نفسها تلمح، إلى أنه ليس سوى صانع الفخار! لا أحد غيره! هذه الحكاية تنفي عن الخزين الجد، كونه معلّمًا لصانع الفخار، وتؤكد أن طائفة صانع الفخار، وجدت قبل ميلاد الخزين، وأنه عندما نما وبلغ الصبا، التحق بطائفة صانع الفخار، ونهل من معارفها وعلومها، ولازمها لسنواتٍ طويلة، إلى أن اختفى بطريقة غامضة، مدفوعًا بتوتر وقلق عاصفين، لم يُبح بسرّه لأحد!

لكن البعض رجح أنه نوع من الحزن الكلي، بسبب فقدته المفاجئ لنينا، وهو فقد نفسه الذي دفع بصانع الفخار للاختفاء، حزنًا على الكنداكة أجمل راهبات البلدة القديمة!

وفي الحقيقة لم يستكن الخزين للحزن طويلًا، إذ استغل جهل الجنكوبز بهيئته فتمثل هيئتهم، ملتحقًا بفرقة حرس المقدّس سرّه،

حيث تقلبت به الأيام، إلى أن أصبح قائداً لإحدى الحاميات الخاصة
بالمقدّس سِرّه! على حدود دار الرّيح!

والتي ترحيباً به كقائد جديد للحامية، أهداه أمير الجنكويز على
دار الرّيح جارية تدعى أم عيون، تضاهي نينا حُسناً وجمالاً!

كان الجنكويز قد استرقّوا والدا أم عيون، اللذان كانا قد دفعا
بها إلى الرّهينة مبكراً، ولكن أعتقهما المقدّس سِرّه، بعد أن أخبرته أم
عيون بأمرهما، فلمّ شملها عليهما، وأصبح والدها من خاصة الأمير
الجنكويزي على دار الرّيح!

ورغم أن الخزين كان يدرك، إنما أهداه الأمير إيّاها، لتكون عيناً
عليه حتى وهو في مخدعه، إلا أنه وقع في غرامها ولم يعد يأبه لهذا
الأمر!

وكان العبد السابق والد الجارية، قد استاء من فعلة مولاه
الجنكويزي، فأخذ يقول في المجالس:

"إذا وطأت بنتاً بملك اليمين أفلا تكون تحت حرب بدلاً عن هذا
العبد العنين؟".

وتناهى إلى الخزين ما كان من خبر أبيها وأهلها، فلم يوقع بهم أو
ينكل، بل أجزل لهم العطايا، ودسّ عليهم من ينقل إليه أخبارهم،
فجاءته الردود، أن فعله أسعدهم بل أن أم البنت أشاعت:

"الخبزين فوق الأحرار درجة" ..

بل أن والدها أصبح لا يفتأ يكرر في المجالس:

"فعل الفتى أصله!".

الخبزين كان يدرك منذ وقت مبكر، كيف ومتى يجب أن يستغل ذكائه لكسب ود النَّاس، وتجنب عداؤهم، ولم يكن ليعجز عن رعاية الخيط الفاصل الدقيق، بين الطاعة بسبب الخوف أو الحب! فكانت هيئته في نفوس النَّاس، نوعاً من الهيبة الغامضة، بسبب الغموض الذي أحاط شخصيته!

وبقدر ما كان الخبزين الحفيد نقياً تجاه ذاته، مثله مثل آل الخبزين عبر التاريخ، كان يدرك أن الحقيقة ستظل على الدوام محظورة من قبل الجنكـويز الآن، كما كانت محظورة عند أسلافهم، فالجنكـويز ظاهرة أزلية في كل عصر، تتخذ شكلاً مختلفاً..

مبادئ الخبزين الحفيد المستمدة من أسلافه، هي مبادئ صانعي الفخار، الذين تبعوهم عبر آلاف السنين، وهي معارف مستمدة من الينابيع السرية لكنوز الحقيقة.. تلك الينابيع التي لا تنضب، والتي سيظل الحكماء والمناضلين والثوار والمتمردين، يعترفون منها عبر التاريخ والأجيال، فصانع الفخار الذي ألهم بها، لم يكن نبياً كأولئك الأنبياء، الذين اجتمع فيهم مزيج غريب من المراتات، وقسوة الحياة عليهم، منذ طفولاتهم الباكرة، والرغبة في تخطي هذه المراتات، التي تتجدد كجرح متقيح، يضيف على قسوة حياتهم، التي عاشوها المأ

وعذاباً عظيمين! فرغبوا في السلطة كتعويض عن كل هذه القسوة والمرارات، التي حاصرت حياتهم لسنوات طويلة، تدفعهم رغبة ممضة لهدم العالم، وإعادة بنائه من جديد، إذ أبداً لم يكونوا إصلاحيين! كانوا ثوريين حازمين، لا يتورعون عن خوض الحروب لفرض إرادتهم!

لم يكن مثل هؤلاء الأنبياء، الذين في الحقيقة صنعتهم مجتمعاتهم، ولم تصنعهم تلك القوى الغامضة غير المرئية، التي زعموا أنها بعثتهم! ولهذا السبب بالذات، لم يكن راغباً في هداية أتباعه، الذين لم يسع لإقناعهم بشيء لكي يتبعوه، إذ فوجئ بهم يتبعونه دون استئذان، بل مضوا يقرؤون حياته ويدونونها، ويضيفون إليها ويحذفون منها ما عنَّ لهم، حتى تكونت لديهم تعاليم يكاد لا يتعرف عليها! فيتساءل:

"أحقاً هذا أنا أم شبه لي؟ أم شبه لهم؟!"

وعلى الرُّغم من سعيه الدؤوب، في النأي عن غوايتهم، إلا أنهم ظلوا يبحثون عنه، حتى عندما يكون بينهم! فيتساءل:

"أين أنا؟"

الخزين الحفيد مستلهماً كل هذا الإرث الروحي، المتوارث عبر أسلافه لآلاف السنين، مضى متأملاً حال العباد والبلاد، تحت نير حكم الجنكـويزي، فلم يؤاخذ المقدس سره، كفرد بما يعتقد عنه نفسه أو أصله الشريف المزعوم، إذ كان يدرك جيداً أنه سواء ما كان

يفعله المقدس سرّه أو جنكـويـزه، ليس أمراً يتعلق بتشوّهات لحقت بهم وحدهم، بل نتاج مئات السنوات من الأفكار والعقائد الفاسدة.

ولكن في الوقت نفسه كان يشعر بالرغبة في الانتقام من المقدس سرّه وجنكـويـزه، عندما تناهى إلى مسامعه استغاثة الناس، منبعثة من كل مكان حوله، ومن داخله.

يسمعهم وهم يستيقظون، على وقع أوامر الجنكـويـز، تأمرهم بمغادرة البلدة القديمة والمدينة الرّاهية..

الأهالي الذين كانوا ينفقون جلّ أوقاتهم، قبل انقضاء المهلة التي منحهم إيّاها الحاكم العام، في زيارة قبور موتاهم وقتلاهم وشهادتهم في كل الثورات، التي خاضوها معاً.. كتفًا بكتف مع أحفاد الجنكـويـز الأوائل!

على تراب هذه البلدة، لطالما مشوا و(تقالدوا)، وعشقوا خطى حبيباتهم، وركضوا مبتعدين عن الكلاب الشرسة، التي تركض خلفهم.. أليست هذه ذكريات؟ وما الوطن سوى الذكريات؟ كيف يطلب منهم أن يتخلوا عن ذكرياتهم؟

الكلام الذي قاله ذلك الطيف البعيد في لحظة مشابهة لأسلافهم، عندما أمرهم الجنكـويـز بركوب الفُلك والمغادرة، الكلام (التيّ) هاهو يسقط الآن.. هاهنا؛ دون أن يتمكن من دخول عقولهم، سقط على تراب البلدة وهو يطرق مسامعهم؛ دون أن يتمكن من الولوج إلى أفكارهم وقلوبهم!

كانوا قد انتابتهم حالة من اليأس والإحساس العميق بالعجز،
لذا أخذت اللامبالاة تتسرب إلى نفوسهم، فلم يأبهوا للمناخ الغريب،
الذي أحاط البلدة كالسوار، غير مباليين بهذا الخريف الغزير، الذي
بدا كأن مزاريب السماء انفتحت على مصاريعها، لتصب غضب أزلي!

إذن أصبحت مشاعرهم وأجسادهم، غاية في الإنهاك
والإحساس بالتعب! ومع ذلك لا شاغل لهم، سوى زيارة قبور الموتى،
حيث يمكنون في المقابر، بقية نهار كل يوم، وعندما يأتي الليل
يتقدمهم شيخ مسن من أتباع صانع الفخار بفانوسه، وهو يتوكأ على
عصاة معقوفة، زعم أنها من شجرة اللعوت نفسها، التي صُلب على
عيدانها صانع الفخار الأكبر!

لم يكن في تجمعهم يسمع سوى صوت التنهدات البالية، وربما
همس واهن متناهي الأصداء:

"يا رحمن يا رحيم" ..

جميعهم لديهم قتلى أو موتى أو شهداء.. جميعهم يعانون عذاب
الفقد والذكرى، وجميعهم يلعنون جند الحاكم العام، الذي قسمهم
إلى شعبيين وبلدّين، دون أن يأبه لدمهم المتوحد، وذكرياتهم الواحدة!

كانوا يتجولون بين القبور، يتقدمهم الشيخ المسن وجفونهم
تفيض بالدموع، وأصواتهم الناشجة تتحشرج، كأنها نزعًا أخيرًا!
بعضهم كان لا يزال يحدوه الأمل، في رب صانع الفخار، وبعضهم لم
يتورّع في التعبير عن فقدانه الثقة في هذا الرّب، الذي شاءت مشيئته

أن يُنتزعوا من أرضهم.. أرض أجدادهم التي لا يعرفون لأنفسهم وطنًا
غيرها!

هكذا إذن على وقع اقتراب خُطى الرَّحِيل! كان الخزين يشعر
بالبلدة كلها، بكل خفقاتها وسكناتها وآهاتها داخله! كأنها تنبش بحثًا
عن شيء ما أضاعته في غفلة من الزّمن! شيء ثمين لا يمكن أن
يُوصف أو يُعوض!

كأن البلدة كلها داخله، يشعر بنبض قلوب النَّاس، بالدماء وهي
تغلي في عروقهم كأنها خريرماء، على جدول وعر!

يشعر بهم وببكاء أطفالهم الرضع الذين يبحثون لحظتها عن
أثناء أمهاتهم اليايسة.. كان يسمع حتى الهمس المجروح لعشبة
معونة النيل الحزينة، قبل أن تلامس رائحتها خياشيمه!

إذن كان الخزين يرى ليس كما يرى الآخرون، ويسمع ليس كما
يسمع الآخرون، ويعلم أشياء كثيرة، أكثر من غيره ويعلم أنه يعلم!

الخزين لم يكن ناسكًا، لكنه يشبههم.. كان نحيلًا، كثيف الشعر
أجعه يبدو من مظهره في أسماله البالية، كأن روحه لن تنتظر لتغادر
غروب شمس اليوم التالي!

وفي حقيقة الأمر كان هذا المظهر خادعًا -وفقًا لما قالته نينا- إذ
كان الرجل قويًا، استمد البأس من وحوش الغابات التي عاش بينها

منذ طفولته، عندما اعتزل الناس وابتعد عنهم، عاش حياته يرمى مع الطباء ويلعب الفهود و أفراس النهر والتماسيح.

وكانت هذه الحياة نفسها امتدادًا لميلاد صانع الفخار الأول وبعثه فيه هو الخزين الحفيد، مثلما صانع الفخار خلف وحيد مثل كل صانعي الفخار، فكل أسلافه وسلالته ينجبون ابن وحيد لا غير!

فسلالة صانع الفخار ظلت دائمًا تعتمد على آل الخزين الذي يتمثل دوره في إسناد جهود صانع الفخار! الباحثة عن نقاء مطلق حوله، فكان يتبعه ليرشده إلى مواطن الجرح، ومواضع التقيح في أزمنة البلاد الأسيرة، التي تعود دائمًا إلى ما انتهت إليه من قبل، كحلقة شريرة لا تنتهي!

إذن كان الخزين هو الخادم المخلص والمؤتمن الوحيد على أسرار صانع الفخار..

وهكذا فيما كان الجنك—ويزحرقون قصر الحاكم العام، إثر معركة قصيرة مباغته، كان صانع الفخار الحفيد يلوذ بمعتكفه، بعد أن أعياه الحمل الذي ينوء به ظهره، وهو يراقب أنانية أهالي البلاد الأسيرة وانحطاطهم!

هكذا مضى إلى معتكفه المجهول، يتأمل ما آل إليه حال القوم ويدبر ويفكر! في اللحظة نفسها، كان الخزين الحفيد يختفي في مكان غير معلوم!

وهكذا غابا عن مشهد البلدة القديمة في تلك اللحظة الحاسمة من تاريخ البلاد الأسيوية، مخلفين وراءهما الاستغراب والكثير من الأسئلة مثل:

"هل نال منهما اليأس والقنوط، لدرجة إعفاء نفسيهما من مسؤوليتهما تجاه هؤلاء الناس الفقراء الحزاني، الذين لم يحتل الجنكويز أرضهم فحسب، بل كيانهم وذكرياتهم أيضاً!

وفي الحقيقة منذ اللحظة التي احتل فيها الجنكويز البلدة القديمة والمدينة الزاهية، ونشطوا في البحث عن صانع الفخار والخزین، دون أن يعثرا لهما على أثر، كان كليهما صانع الفخار والخزین يعد العدة بطريقته!

فشل الجنكويز في العثور عليهما، ذلك أن قلة مخصوصة فحسب هي التي تعرفهما أو التقت بهما، فأهالي البلدة القديمة رغم علمهما بوجود صانع الفخار والخزین، إلا أنهم لا يستطيعون الزعم أنهم رأوها حقاً، فعادة تصلهم تعاليم صانع الفخار من أتباع الخزین، والذين رأوا الخزین على الأقل لم يكن عددهم يتجاوز أصابع اليد الواحدة، وحتى هؤلاء لم يقتربوا منه كفاية..

أحدهم فقط رآه مصادفة يشرب الماء بكفيه في إحدى الليالي المقمرة، التي دأب على الخروج فيها إلى صديقاته حوريات النهر، ليتسامر معهن حول العوالم التي لا يدركها البشر! فاقترب منه وتعارفا، ومنذها حمل ذلك الرجل تعاليم صانع الفخار، الذي لم يره

بعدها أبداً، وصار لذلك الرجل أتباع كُثُر من أهالي البلدة القديمة، لا يكادون يعرفون بعضهم البعض، إذ كان ذلك الرجل -تابع الخزين- يلتقي بانتظام كل منهم بمفرده، وكل منهم يلتقي آخرين بانتظام فرداً فرداً..

كان نظاماً محكمًا ذاك الذي وضعه الخزين، حتى هؤلاء من أسرار الجنكـويز، فمن يؤسرمهما عذبه لن يجدوا عنده ما يفيد عن الآخرين، فهو حقًا لا يعرف سوى اثنين فقط وبأسماء ليست أسماءهما الحقيقية: الذي يلتقيه ليأخذ منه والذي يلتقيه ليبلغه بما أخذه، أو وصله من صانع الفخار!

الكنداكة أجمل راهبات معبد البلدة القديمة، كانت هي الوحيدة التي تعرف صانع الفخار أكثر من أي شخص آخر، فمنذ تنهى إلى سمعها ما أشاعه ذلك الرجل عن علاقة الخزين بحوريات النهر، حتى انتابتها رغبة شديدة في رؤيته، لتصل عبره إلى صانع الفخار، فأخذت تتسلل في الليالي المقمرة خفية من قساوسة وراهبات الكنيسة القديمة، بعد أن يهجعوا إلى مراقدهم، وتقصد النهر، تختبئ خلف قياف أو أكمة سعدة أو دغل متنائى صغير، كثيف من نباتات الجروف الزاحفة!

وقمر إثر قمر ملت اصطياده، فتخلت عن حذرها وباتت تستحم في النهر، علَّ إحدى الحوريات تبين فتسألها عن الخزين.. إلى أن كانت تلك الليلة وهي تستحم في النهر، دون أن تخلع ثيابها، دون أن تدري

أن صانع الفخار كان يراقبها طوال هذا الوقت، دون أن يفضح مكانه منذ أقمار عديدة!

لم تكن تدري أنه رآها، منذ أول مرّة بدأت فيها تترتد التهرّفي الليلي المقمرة، لكن أبداً لم يفصح لها عن نفسه في مكمنه الخفي، إلى أن كان ذلك اليوم، الذي مدّت فيه الزاهبة الجميلة الكنداكة يدها، وشرعت تخلع ثيابها ينتابها شعور قوي بوجوده حولها في مكان ما!

شعرت بوجوده طاغياً، يبعث فيها كل الأحاسيس التي قمعتها تعاليم الرّهينة ونُساك المعبد القديم، ومع أول قطعة رمتها من ثيابها على قيف التهرّ، صحت مشاعر منسية، مشاعر قوية عميقة مدفونة في جُبّ التعاليم.

وقطعة تلو أخرى كان الماء يرغّي ويزبّد يغطي صدرها، وكان صانع الفخار على بعد رمشة عين وانتباهتها! على صهوة جواد أبيض ذا عرف ذهبي وعينان خضراوان، والجواد يصهل صهيلاً ناعماً وهادئاً وخافتاً، أشبه بألة موسيقية، عميقة الشجن، تتحسس ضوء القمر، وتهب تموجات عشبّة معونة النيل رائحة شجية!

اخترق صانع الفخار ببصره ماء النهر، يحتضن جسمها العاري الذي كان يرتعش، فيخفق الماء وينخفض كدقات قلب، تحملها دواماته الصغيرة المتموجة، التي تهتز لها عشبّة معونة النهر الطافية في ترقب متحفز!

كان ظمأ جسدها العاري تحت الماء متوتراً ومؤثراً، وكان كل عصب أو شريان أووريد في جسم صانع الفخار منتفخاً وموتوراً.

كلاهما غاب لحظتها في تلك الينابيع السريّة الغامضة، التي لا حدود للهفتها وشوقها.. تلك الينابيع التي لا تنطفئ نيرانها الأزلية، إلا وتشتعل لتحرق كل ما يجابها، في لحظة واحدة وخاطفة، وما أن تنطفئ حتى تتجدد كطائر البلدة القديمة، الذي يحترق لينبعث من بين رماد احترقه أشد عنفواناً وقوة!

□□□

مع قرب انقضاء المهلة التي منحها المقدّس سرّه للأهالي، بدؤوا ينشطون في نقل حاجاتهم إلى الفلك الرّابض في قيف النّهر.

الذين اختاروا البر حملوا أمتعتهم على ظهور الدواب، وكانوا جميعاً -هؤلاء وأولئك- قلوبهم تتلفت وهي تقول في أسي:

"وداعاً بلدتنا القديمة" ..

وداعاً موطن الأسلاف والتاريخ والماضي المجيد.

بعد عشرات السنوات ستبقى من ملحمة الرّحيل ذكرى شاحبة لمئات الآلاف من البشر، انتزعهم الحاكم العام من أرضهم، كما انتزعها سلفه الأكبر المقدّس سرّه من قبل! قبل مئات السنوات، فبللت قبل مغادرتهم دموعهم الأرض.. اختلطت بطبقاتها العميقة

وسطحها، وأصبحت جزءاً من كل نبات ينبت أو مطراً يهطل أو بركاناً يتفجر.. أصبحت دموعهم جزءاً من جذور النيل في مدّه وجزره..

وسيدونّ الخزين في مخطوطاته المشفرة ما رأى في الجلاء الأول على عهد المقدّس سرّه، كما سيقراً جادين جانوا الآن على عهد الحاكم العام عن دموع النساء اللاتي يرضعن أطفالهن حليب الأرض، الذي استمد ملوحته من الدموع، وهن يلقمن أطفالهن أثناء هــــن الشحيحة، مزيج الحليب والدمع في مقابرود أم جبو، التي تردد صدى نشيح الوداع الأخير فيتنهد:

"ما أشبه الليلة بالبارحة!"

ثم يبدأ هو الآخر يدونّ حكايا الذين ماتوا على ظهر دوابهم، والنساء والعذارى والأطفال، والصبية والمسنين الذين ماتوا جوعاً وحرناً في الطريق إلى الصعيد، فتم رميهم إلى أفراس النّهر والتماسيح..

سيضع هامشاً زائفاً عن الخزين الذي أصبح أمير حرس المقدّس سرّه، وأبقى صانع الفخار في منزله ومضى يستأذن المقدّس سرّه في أمره!

البلدة القديمة عند منحدر النّهر، لم تكن امتداداً للمدينة الزّاهية فحسب، بل مستودعاً محصناً لأسرار البلاد الأسيرة، فرغم كونها بلدة، وظلت عبر العصور مجرد بلدة، إلا أنها كانت ثرية بتاريخها وأهلها الحميميّين بمشاعرهم الدافئة، وقصص حبهم وحكاياهم

مخطوطة - هو جادين جانو، شخصيًا - من سيشقَرها ويخبئها في مكان
لن يعلمه أحد!

مانشستر، نيوهامشير، فيلادلفيا، بنسلفانيا

2016-2014

□□□

4. المنشق: ريبورتاج المرايا والظلال

نعم، للإمبراطورية.. لا، لشعوبها!

ونستون تشرشل

قد يحصل أن الدولة تأخذ بمظاهر القوّة والبطش، لكنها
إفافة/قريبة الخمود، أشبه بالسراج عند انتهاء الزيت منه، فإنه
يتوهج لكن سرعان ما ينطفئ..

ابن خلدون

□□□

لحظتان لن تمنحيا من ذاكرته: اللحظة التي غادر فيها مسكن
هيلدا بعد سهرة دافئة، فيما كان التّهار يتمطى مشرببًا خلف نافذة
مكتبه، عندما أُعتقل!

واللحظة التي كان فيها التّهار يذوي، والشمس تتهاوى خلف
الأفق الغربي، فيما الجنكـويزيدفعونه إلى داخل الزنزانة، فيطوي
ليل البلدة، آخر التّهارات المسكونة بصمت التّاس وبؤسهم، الذي

انفجرت بغتةً على هذا النحو المدمر! فتلاشي كل شيء داخل انفجارات
تيار غضبتهم العارمة!

طرق على الباب بتوتر.. جاءه صوت هيلدا من الجانب الآخر:

"حاضر، حاضر لحظة..".

وتقدمت خطاها في شرايينه، وقلبه ينتفض بشدة!

وفيما كان جادين جانويسترد أنفاسه من النيران التي أشعلتها
هيلدا، كانت هتافات غفيرة تنعقد في قبة البلاد الأسيرة، والجموع
تعتصم أمام القيادة العامة لقوات "الجنكوز" فيما صوت قطار دار
صباح يهد القضبان هدأً، ويمضي دون توقف.. يبطن ليركب عمال
المدن، كلات المواني، المراكبية، حشاشة القصب، تربية القرى
فلاحين البلدات خارج التخطيط، تلاميذ المدارس، الأفندية، ليفرغهم
جميعاً في ميدان الاعتصام!

وقبل أن يتوقف الهتاف والقصف، كانت الأرض قد زلزلت
زلزالها، وتبين للمريود والمعتقلين الآخرين، إنهيار جدران السجن!

كان الأهالي المغبونين قد اندفعوا يحطمون الجدران المتداعية
للزنازين.. تدفقوا يلتحمون بهذا السيل الهادر، لنهر من أرواح أبطال
عشرات العصور، التي تعاقبت على البلاد الأسيرة.. انبثق في هذه
اللحظة الكونية الخالدة، من مسام القبل الأربعة!

الثوار المسلحون يقودهم الخزين، حملوا أسلحتهم ومضوا،
يحمون الجموع الهادرة، التي كان يقودها صانع الفخار، ويفسحون
لها الطريق، لدك آخر قلاع وحصون، آخر حاكم عام ينحدر من أسرة
المقدس سرّة المالكة، تسبقهم هتافاتهم وهم يحملون طيفاً متلاشياً
على أعناقهم، يشقُّ هتاف روحه عنان السماء، ويرج الأرض رجاً:

انطلق المتظاهرون، ومزیداً من الجماهير الثائرة، تنشق عنهم
تغريدات "ود دبرك" .. تنشق عنهم كتب التاريخ والحكايات والأحاديث..
تنشق عنهم الأرض، ويتقدمون الصفوف، ممسكين بأيدي بعضهم
البعض، وهم يحملون بين جوانحهم أشباح أحبابهم، كانت صدورهم
عارية، وهتافاتهم تشق فضاء البلاد الأسيرة الرّحب، كغضبة رياح
الهببائي الجسورة، وعيونهم تلمع كالبرق العبادي المخاتل!

جاءوا من كل فج..

خرجوا من زقاقات "البلدة القديمة" .. من ساحة صانع الفخار
العتيقة، وميدان الحرّية، وبيوت القش والصفيح في أطراف المدن!

جاءوا من حواري المدينة الرّاهية.. ومن "إنديات" البلاد
الأسيرة.. جاءوا من فرقان و"حلالات" دارالريح، ومن "كراكير"
الجبالي والودياني، جاءوا!

ومن غابات الصعيد، ومن أسفل النّهر، جاءوا..

ومن دار صباح حيث تشرق شمس البلاد الأسيـرة، شحيحة
ومنهكة! وتوحدوا جميعهم: المشردون، السجناء السياسـيُّون
المخضرمون في سجون "الترح وتورالجر" خرجوا من بين سطور
مذكراتهم وسيرهم الذاتية، الكنداكات طالبات الجامعات، الأهالي
الذين فقدوا ملامحهم، فاكتسبوا ملامحَ جديدة. نبلاء "كليوة
البائدة"، الباعة على قارعة الأرزاق، في الطرقات والأرصفة،
الساعاتية الذين كانوا يمارسون إصلاح الساعات، في برندات
المحلات، فلم يعد مجرى الزَّمن مفهومًا بالنسبة لهم، فهجروا
طبلياتهم، وودعوا هذه المهنة اليائسة بحزن، حملوا عدة شغلهم
الدقيقة، واندمجوا في مسارات الجموع.

مفلسو المحطة الوسطى بحري، الذين ينتظرون مواصلات لا
تأتي في محطة المليون عاطل، الفنانون البؤساء في شارعِي النيل
والغابة، و"أنتي" على المصاطب وتحت أشجار اللوعات والأسئلة،
هؤلاء الذين دأبوا على رسم وجوه ملتاعة غامضة، خُدد الحزن
قساماتها، يرسمون الآن وجوه غاضبة، وينحدرون مع السيل..

باعة الكتاب المفروش على الأرض، والباعة المتجولون
والمهوسون من صغارالجنكـويز، الذين يوزعون منشوراتهم
الدينية، في المواصلات العامة، يخيفون الناس من عذاب القبر،
وأهوال يوم القيامة، هذا القبر الذي دفنوا فيه الأهالي أحياءً،
ليقيموا قيامتهم على أرض وقائع ما جرى ويجري من عذاب، أدركوا
للتوهُراء اعتقاداتهم، فاندرجوا في الرِّحام!

الباعة في سوق الفواكه المعطوبة، بائعات الشاي والتسالي
والفول المدمس والطعمية "والدَّكوة" في الأسواق الشعبية،
والمستولون والمعاقون.. ضحايا الحروب الأهلية والأخطاء الطبية
الفادحة، والبيئة الصحية الكارثية، تصدروا الجموع!

بائعات الهوى المنتشرات عند منحنيات الشوارع والدروب، وفي
الرَّحام العام، والميادين التي ضاقت بما رحب الوطن، وزبائن محلات
الفول والأفاشي والشاورما المغشوشة!

كانوا جميعًا كأهل الكهف، يفيقون الآن من نوم عشرات
السنوات، لا يأبهون لعربات الردع الجنكويزي، التي اختبأت في زوايا
الشوارع، والزقاقات، مستعدة لإطلاق آلات القمع في أي لحظة.

تدفقوا كسيل عارم يجتاح كل شيء: مأساتهم الاجتماعية
العميقة، وادي الألام.. قوز المرآئي.. ود أم جبو.. كتب التاريخ
الزائفة.. سهول الأحزان.. شجرة اللعوت سيئة الرائحة.. بيوت
الأشباح في القلعة العتيقة.. القيادة العامة لقوات الجنكويز
المسلحة، المخطوطات الزائفة.. تقارير المنظمات الدولية.. قبور
المقدّس سرُّهم وأسلافهم وأحفادهم، في مقبرة عائلتهم البديعة.

جرف الثوار والمتظاهرون وأحرقوا كل شيء، فلم يتبق سوى
الأثار الدارسة لحياة بكاملها، في عصور بكاملها.. كانت ها هنا ذات
عصر، متداخلة بشكل أربك حياة أهالي البلاد الأسيرة!

من هنا ذات زمان.. ذات مكان، نهضت بلاد كبيـرة أخرى، من
رماد حريقها انبعثت من جديد، شعبًا نبيلًا واحدًا وأرضًا شاسعة
موحدة! لَوَّح لها صانع الفخار بكفه، تلويحة أخيرة واختفى، مبتسمًا،
في المدى اللامتناهي لأفق البلاد، الشجن!

التي وللمرة الأولى عبر تاريخها تصبح وطن! لكن ما الذي جرى
قبلها، وقاد إلى كل هذه الوقائع والأحداث؟



عصبوا عينيه، داخل العربة الصالون المظلمة، واجلسوه
منكفئًا على ركبتيه، فلم يستطع تحديد وجهتهم!

عندما توقفت العربة وسط فناء واسع، رأى جدارًا عاليًا، وشم
رائحة التَّهر، فأدرك أنها القلعة.. سجن القلعة..

أفرغوا جيوبه من محتوياتها، وقادوه من الفناء ذي الأسوار
العالية، عبر دهليز طويل إلى غرفة، لم يستطع في العتمة تحديد
مساحتها أو محتوياتها لوهلة.. ثم تبين فيها أشباح لمعتلين كُثُرًا!
دفعه أحدهم بقسوة، فخطا إلى الداخل وهو يترنح!

دهمت خياشيمه رائحة زنخة.. مزيج من رائحة إفرازات بشرية
وجردان ميتة! شعر باختناق قاس في رئتيه، وبشيء يتسلل داخل
ثيابه، يقرصه بغتةً، فانتفض.

ناداه شبّح أحد المعتقلين:

"تعال هنا، اجلس قربي".

لم تكن عيناه اعتادت العتمة بعد.. مشى ناحية الصّوت بحذر،
خشية أن يتعثّر في أي شيء! عاد الصّوت مرّةً أخرى يسأله:

"أنا علي علوب، ما اسمك أنت؟".

جاهد في اخفاء ارتجاف نبرات صوته وهو يرد:

"جادين.. جادين جانو".

"ما الذي جاء بك إلى هنا؟ دولارات؟".

تحسسه شيء، تبين فيه سيجارة، كان قد مدّها له علي علوب..

"لا، أنا موظف بمعهد جار النبي جارو لأبحاث التاريخ ودراسات
الأثار".

ضحك علوب ضحكةً ساخرة..

سمع صوت احتكاك عود ثقاب وهو يشتعل، ورأى على ضوءه
الوجه النحيل لمحدثه، الذي أشعل السيجارة وأخذ نفساً عميقاً.. ثم
خرج صوته يبدد الدُّخان المنعقد حذاء وجهه:

"قلت لي آثار؟ وهل تركوا لنا آثارًا؟".

فتذكر جادين الشاعر "حُميد" .. ومَرّت على خاطره أشعاره كلها
دفعاً واحدة! أبعد السيجارة عن شفّتيه، وهو يتنفس بحرقه:

"الحقيقة أنا مهتم بالآثار والتاريخ.. أدرس المخطوطات
وأحقّقها".

مرّة أخرى ضحك علوب وهو يسأل:

"ولماذا تدرسها؟".

رد دون تردد:

"لأجد تفسيراً لكل هذا الذي يحدث لي، لك.. لكل النَّاس في هذا
البلد! لا بد أن ثمة إجابة ما في الماضي".

بصوت مقتضب سأل المعتقل:

"وهل وجدتتها؟".

كانت أسئلة علوب مقتضبة، حادة، حاسمة..

ساد صمت عميق وهو يتأمل سؤاله.. أحس بشيء يتسلل
بنطاله، نفّض ساقه بشدة شعر معها بعلوب هو الآخر ينتفض، فقال
بصوت خافت:

"أسف" ..

ضحك علوب ضحكة واهنة:

"لا تتأسف، سرعان ما ستعتاد البراغيث والجرذان، لو طال
بقاؤك هنا.. سيصبحون أصدقاءك الدائمين" ..

سرح جادين بخياله، كان قد شارف، على فك بعض رموز
المخطوطة التي خلفها الخزين وراءه، وربما كان سيتوصل إلى نتائج
مهمة، لكنه الآن هنا.. شأن كل شيء في هذه البلاد المسجونة،
المعتقلة، الممزقة! كل شيء فيها غير قابل للاستكمال! أوليس تاريخها
عبارة عن تمزقات متصلة?!

منذ عرفت هذه البلاد "النظام والسلطة"، ظلت أطر أفها في
الصعيد والسافل ودار الرّيح ودار صباح، معزولة عن مركزها في
الوسط، الذي لطالما ارتبطت به فيما يشبه الاتحاد الواهن!

هذا الاتحاد الذي ظل شعب البلاد الأسيرة في "قبلها الأربعة"
يراقبه في صمت حذر، تتناهشه الهواجس والظنون! مثله الآن،
يتحسب مجيئهم في أي لحظة للتحقيق معه!

التحقيق حول شيء ربما لم يخطر على باله! ترى هل يتهمونه
بالعلاقة مع إسرائيل أو العمالة للغرب؟! فقد أصبحت هذه تهماً
جاهزة، لتبرير إغلاق المراكز الثقافية والمعاهد البحثية!

فقط عليه أن يتحسب، كما ظل شعب البلاد الأسيرة في حالة من التحسب الدائم، طوال تاريخه يتحسب.. ويراقب ما يجري، دون أن يقول كلمته الفاصلة!

متى بدأ ينتبه؛ وتتناسل داخله جرثومة التحسب؟

أهي تلك اللحظة، التي أوعز فيها يهود السلطنة العثمانية، للباشا محمد علي، بالاستيلاء على كنوز البلاد الأسيرة ونهب مواردها؟!

اليهود يشمون رائحة الكنوز أينما وجدت! ولذلك وصل "ديفيد روبيني" أول رحالة يهودي إلى البلاد الأسيرة في 1530م ومن ثم توالى هجرات اليهود..

جاءوا من كل أنحاء سلطنة آل عثمان.. عملوا كممثلين تجاريين، لبعض الشركات المصرية الطامحة للتوسع جنوبًا، وانتشروا حتى وصلوا "دار الرِّيح" البعيدة، حيث تغرب شمس البلاد الأسيرة منهارة، ذاوية! وهناك طاب لبعضهم المقام واستقروا.

بل غيَّر بعضهم دينه واسمه ليعيش وسط النَّاس واحدًا منهم! ولم تنقطع هجراتهم، ظلوا يتوافدون الى أن تكاثرت أعدادهم، فتم الاعلان رسميًا عن تكوين جالية يهودية في 1908 بوصول الحاخام "سولومون مالكا" من مصر، والذي عمل كبيرًا للحاخامات؛ إلى حين وفاته في عام 1949 بينما ظل موسى بيسيوني -مؤسس أول معبد يهودي في أمدرمان- رئيسًا للجالية اليهودية حتى وفاته في 1917.. كل

ما أبقاه على قيد الحياة، فقط انتظار وعد اللورد بلفور؛ بالوطن القومي للشعب المختار! تلقى الرجل الوعد ورحل!

ترى ما الفرق بين "الجنكويز" والصهاينة؟ كلاهما لا يعترف بالآخر، وكلاهما يحاول أن يزرع نفسه بالقوة، وبطرق غير مشروعة في الأرض!

الفكرة نفسها، التي تبناها العرب، بزراعة أنفسهم في شـبـه الجزيرة الأيبيرية! ومع ذلك أخذ الحكام "الجنكويز" المتعاقبين، المتحدرين من سلالة المقدس سرّه، يغذون مشاعر الكراهية بين شعوب البلاد الأسيرة ضدهم!

وبتنسيق أميركي إسرائيلي مصري مع "الجنكويزي" حفيد حاكم عام البلاد الأسيرة وقتها، تم ترحيل اليهود الفلاشا من دارصباح إلى إسرائيل في 1985 ومن ثم تمّ هدم المعبد اليهودي بالخرطوم في 1987 بعد أن استولى أحد المصارف "الجنكويزية" على الأرض، التي أُقيم عليها ذلك المعبد، في صفقة عقارية شابها الغموض!

وبهذا أسدل الستار على نفوذ ووجود اليهود في البلاد الكبيرة؛ مخلفين وراءهم ما هو أسوأ - تركة المقدس سرّه: "الجنكويز!.."

□□□

أنا "ود دبرق بن زرزور الدّوري"، كنت موجودًا صبيحةً أُحرق
صانع الفخار! وكنت موجودًا أيضًا عندما داهم عسس "الجنكويز"
معهد جار النبي جارو، واعتقلوا جادين جانو.

كنت لحظتها أُغرد أعلى شجرة الجهنمية الحمراء، التي تمد
أغصانها إلى مكتب جادين جانو.. أنا الشاهد الوحيد على ما حدث!

ألا تصدقونني؟!

لقد سمعته وهو يقول:

"بعضهم قُتلوا داخل بيوتهم!".

قال بروفييسور محمود، وهو يمعن النظر في وجه جادين، الذي
كان منهمكًا في قراءة التقرير، وقد بدى كأنه لم يسمعه، إذ استمرت
عيناه تلتهم السطور: ... أفاد أن "الجنكويز" وصلوا مع القوات
الخاصة بالقدس سرّه في يوم السوق، حاصروا الأهالي، ثم دخل
بعضهم إلى السوق، لنهب الأموال والمواشي، ومن ثم بدؤوا يقتلون
الأهالي، عشوائيًا دون تمييز.

وقد رأى الناجي الوحيد بعينه الجثث:

"بعضهم قتل باطلاق النار، وآخرون طعنًا بالحراّب" ..

فيما أفادت احداهن:

"لقد كنت مع والدي، عندما وصل الجنكـويز فجأةً إلى القرية، في تمام الساعة السابعة صباحًا، أخذوا يطلقون النَّار في كل الاتجاهات، هربت لأحتبي، ولكن أُصبت في قدمي اليُسرى، وقُتل والدي داخل منزلنا، كذلك قُتل والد زوجي، كان "الجنكـويز" على ظهورخيولهم وجمالهم" ..

ويضيف زعيم عشيرة في المنطقة، مشيرًا إلى إحراق خمسين قرية، وقتل ما لا يقل عن ألفين مواطنًا! في الهجوم الأول، الذي كان مدعومًا بالمروحيات، مؤكدًا أن حاضرة دار الرِّيح، على تخوم الصحراء، والتي تبعد عنهم بحوالي ثمانين كيلومترًا، كانت هي الأخرى مسرحًا للهجمات المتكررة، إلى أن أنقذتها طائفة "صانع الفخار" فاحتلتها وأخذت تدافع عن سكانها، لكنها أمام ضغط الجيش الجنكـويزي بفرقه المختلفة، اضطرت للانسحاب تجاه الصعيد..

"ومع ذلك ظلت المدينة، تتعرض للقصف الجوي، والاجتياح البري من أن الآخر".

وقد بدا واضحًا أن الهدف هو: تفرغ المدينة من سكانها!



أنا المنشق المريود جبرالدار المريود، والمريود جدِّي كان اسمه رجب، لكن نساء البلدة القديمة كنيته بالمريود، وتلك قصة طريفة، إذ كان جدِّي رجب، ماهرًا في نسج شباك صيد السمك، وقتل الحبال، ونسج المشلعييات والبروش والنطوع، التي تُضاهي في نعومتها

الخيثة، وأتباع هذه السلالة، التي وصفها في فوران غضبه عليها بـ
"المارقة!".

ولم يُخفِ أهالي البلاد الأسيرة كذلك غبطتهم لسماع هذا النبأ
العظيم، برحيل العرّاب غير مأسوف عليه، إلى أسفل سافلين، جزاء
ما اقترفت يده الملوثة؛ بدماء الملايين من أهالي البلاد الأسيرة شيئاً
وشباباً وأطفالاً ونساءً! أو هذا ما كان يُقال تحت أسقف البيوت
الواطنة، والأزقة المظلمة!

كان العرّاب قد أصيب بذبحة قلبية، إثر يوم عمل شاق بدار
"حزبه الجنكـويـزي" بُعيد عودته إلى منزله، قبيل مغيب الشمس
بقليل!

ومنذ اللحظة التي بدأت أسرته؛ تتداول مع الأطباء فيما أصابه،
حتى تسرّب الخبر، وانتشروشاع بسرعة البرق!

كأن أهالي هذه البلاد من الحقد، لدرجة أنهم كانوا ينتظرون
هذا الخبر، على أحرمّ الجمر؛ منذ سنوات طويلة!

انتشر الخبر عبر التليفونات، ووسائل التواصل الاجتماعي،
أجهزة الإعلام الجنكويزية الرّسمية، في مشهد لم يتكرر، منذ تأمر
العرّاب وتور الجراحاكم العام الجنكويزي معاً، على اغتيال صانع
الفخار، زعيم مقاتلي الصعيد، قبيل الانفصال!

تقاطر الجنكـويز من كل مكان: جاءوا من ما وراء البحر المالح
وتخوم الصحراء، ومن "القبيل الأربعة".. جاءوا، يعزّون أسرة الفقيد،
ويلقون عليه نظرة الوداع الأخيرة، قُبيل أن يُقبر الثرى وإلى الأبد،
وتنطوي معه أسوأ صفحات تاريخ البلاد الأسيرة!

أوهذا ما توهمه الأهالي، وهم يشيعون جثمانه باللعنات، التي
كانوا يأملون أن يتقلب عليها كالجمر، داخل قبره كثيف الظلّمة،
شديد البرودة والوحشة!

إذا كان مشروع العرّاب هُراء، إذن لماذا يصبر هذا الفرنسي
الغريب؛ في هذه اللحظة بالذات التي مات فيها العرّاب، أن يحتفل
بعيد ميلاد ابنته في أهرام البجراوية؛ ويقيم لها كل طقوس ديانة
بائدة غامضة؟!

وإذا كان هُراء، عندما هُدمت أهرام البجراوية للمرّة الأولى، هل
كان ذلك فعلاً بحثًا عن الذهب، الذي سال له لعاب الباشا الكبير،
أم كان بحثًا عن شيء آخر، لا يعلمه مؤرخو البلاد الأسيرة؟

وتلك "المسلات" التي لا تكاد تخلو منها مدينة من مدن البلاد
الأسيرة، حتى نصب الجندي المجهول في قلب المدينة الرّاهية، هل هو
رمز لدين قديم انطوى كسر في جوف التاريخ؟

وتلك الحمى؛ التي انتابت الحاكم الجنكويزي العام الأسبق،
فأعلن نفسه إمامًا للقرن.. هل هي معزولة عن هدمه لمسلات حوش
الخليفة؟ أم أنها "أم كواكية" نفسها في نسختها الأولى والثانية

بمقولاتها الغربية: هل تتصل فعلاً بالروح العظيمة؟ أم أنها تخفي بين مقولات مقتفي الأثر والجماعة، ديانة قديمة انطوى عليها تاريخ البلاد الأسيرة؟

وما الذي أخفاه الجنكويزي الكبير حين قال:

"... وأخبرني الروح العظيمة بأنني المقدّس سيّرته وأخلفني بالجلوس على كرسيه مراراً".

ما هو مسكوت هذا الكلام؟

وهل هذا الذي ظنه تشرشل هو ما حدث بالفعل، أن الرجل:

"وضع في قلوب قومه الروح والحياة، وحرّز بلاده من الحكم الأجنبي، إن بسطاء الناس الغلابة، الذين كانوا يعيشون شبه عُراة، وقوتهم لا يخرج عن كونه بعض الحبوب الجافة، فجأة وجدوا معنىً جديدًا للحياة، بعد أن استطاع أن يغرس في صدورهم الحس الوطني الجارف، والوازع الديني القوي" ..

إذن لماذا وصفهم في الآن نفسه بأنهم: "أعداء الله؟!.. كيف يكون وازعهم الديني قوي، وفي الآن نفسه يناصبون الله العداة؟!

هل حقًا الأمر كان كما رآه تشرشل، أم كما رواه غردون :

"يجد المرء تسليية في تصور هذا المزيج العجيب، من البشر،
الذي يرافق المقدّس سرّه: أوروبيون قساوسة وراهبات، أغاريق
وضباط نمساويون" ..

أي نوع من الأديان، هذا الذي يجمع ويوحد أديان مختلفة؟
ولماذا اضطرب المقدّس سرّه وتلجج لدى سماعه بمقتل غردون، هل
حقًا كان جادًا في مقايضته بعرايبي؟ أم أن ثمة ما هو أعمق من ذلك
مشتركا بينهما؟

ولماذا مات المقدّس سرّه سريعًا بعد سقوط المدينة الزاهية؟ هل
كان موته طبيعياً؟ أم أن مهمته انتهت فسُمِّم؟ ولماذا أمر كتشنر بعد
استرداد المدينة الزاهية، بإخراج بقايا المقدّس سرّه من القبر العميق،
في الغرفة التي توفي بها، ثم أحرقها وفرّق رمادها في النيل!

هل كان ينتقم لغردون باشا، أم كان يؤدي طقوس ديانة قديمة
كذلك الفرنسي؟ وكيف ينتقم إذا أراد، من بريء! فهو يعلم أن
المقدّس سرّه كان أحرص على حياة غردون؟

وهل قائد بقامة كتشنر، ينساق للانتقام بهذا البؤس؟ وهو
الغازي الذي يرغب في كسب ود هؤلاء الأهالي المساكين، أما كان
الأحرى به الانتقام لهذا الشعب من الجنكويزي ود تورالجر الثاني؟
إذن بموت العرّاب حفيد المقدّس سرّه كانت فضاءات البلاد
الأسيرة تحتقن، وتندربأن ثمة شيء ما.. يفصل بين عصرين سيحدث
في أي لحظة!

□□□

قُبيل الفجر بقليل، تقدم خاتم الدولة بجيشه من أبواب "كليوة" العاصمة التي أنهكتها "عسل الجنة" كُبرى زوجات الملك الزاحل، والتي كانت ترى أحقية ابنتها الفاتنة، بمُلك "كليوة" خلفًا لأبيها، الأمر الذي لم يرقَ لأمرء الأسرة المالكة، الذين تدنفوا بعشق الأميرة ابنة الملك القتيل!

وعندما أدركت "عسل الجنة" أن ما ظلت تحلم به طوال عمرها، في أن تصبح ابنتها الملكة، هو أقرب لسرابٍ يحسبه الظمآن ماء! أصابها الغبن الشديد فقررت الانتقام!

وهكذا أغرت أمرء ونبلاء كليوة بأنها ستزوج الأميرة، لمن استقر الملك بين يديه! فأخذوا يحيكون المؤامرات، ويدسون الدسائس ضد بعضهم البعض!

وفيما هم منشغلون بالصراع على الأميرة والملك، كان جواسيس "ختم الدولة" قد رفعوا إليه تقاريرهم، وهكذا اقتحمت جيوشه المدينة، من كل الاتجاهات.. تدمرو وتحرق كل شيء في طريقها، لتصبح "كليوة" أرضًا محروقة! خالية من الحياة! لم يبقَ فيها ختم الدولة على شيء!

فكل شيء أصبح أثرًا بعد عين: الكنائس، قصور الملك والأمرء والنبلاء.. دُور الأهالي الغُباش.. أياقين العظيم ود دُبرق، تمثال الإله بأداماك وصقر الجديان، اللذان كانا يزينان معابد المدينة المحروقة.. شجرة الجهنمية الحمراء التي بنى فيها طائر الجنة الملوّن عشه!

وبعد أن أسرخاتم الدولة، الأميرات وبنات النبلاء، أمر جنده بإشعال النَّار، في كل أركان المدينة! فانتشر حريق مهول، استمر لأيام يلتهم بألسنته، التي لم يخف أوارها كل أثر: بقايا المعابد والكنائس والقصور.. الحدائق والبيوت والأسواق.. كل شيء تحوّل إلى رماد؛ كأنه لم يكن حضارة، بكل مركبات عناصرها المتنوعة! ذات يوم!

انمحت "كليوّة" من الوجود، وتحوّلت إلى رماد، فيما جيش خاتم الدولة قد غادر المدينة، ليعسكر على مبعدة منها! وكانت كلما تضاءلت شعلة الحرائق، يأمر جنده بتغذيتها من جديد!

بُعيد سقوط المدينة مباشرة، وفرار الناجين من أمرائها ونبلائها، وتفرقهم في جهات دارفازودارالريح والصعيد والسافل، أمر خاتم الدولة جنده بمطاردتهم واللحاق بهم، وألا يتركوا منهم أحدًا على قيد الحياة!

بعض الأهالي الذين أصابهم الرُعب، لهول ما رأوا، أعلنوا تبنيهم الدين الجديد في الحال! والذين فروا في لحظات الهجوم الأولى، ناجين بجلودهم، تفرقوا في أصقاع البلاد الأسيرة، واختلطوا بشعوبها، وبمرور الوقت لم يعد منهم، من يذكر اسم موطنه "كليوّة" وأصله الفازي العريق إلامًا، فقد اندفن داخلهم حنينهم للوطن القديم، وانحرف في وجدانهم نوع غريب من الأسى والشجن! وعندما تثور داخلهم لوعة الذكريات، يقسمون على بعضهم بكليوّة فيقولون:

”أقسم بكليوة القمربوبا، بلد الجد والحبوبة اللي يغطس الحجر، ويطفح الكركعوبة“..

ثم لا تفتأ ذكرياتهم تتراجع، أمام ضغط حاضرمنفى الذي يعيشونه، فيتراءى لهم أمل إعادة مجد أسلافهم يومًا ما.. في زمن ما، مستحيلًا تمامًا!

بعد مئات السنوات الشيء نفسه سيحدث لأحفادهم في دولة "تور الجر" الجنكويزي الثاني، إذ لن يكون غريبًا على الأهالي المناصرين لتورالجر قبل أن تدور بهم الدوائر، أن يتحوّلوا إلى مناوئين، يربطهم على "شعب" الأشجار الجافة، حتى أن العابرين يرثون لحالهم ويسعون لإطعامهم خلسة من جنده، والدموع تسيل على خدودهم المتفضنة!

كان تورالجر يمعن في تعذيب بعضهم، بالجلد بأغصان الشوك حتى الموت، أو يضعهم في غرف ضيقة لا نوافذ لها، تلقى عليهم العقارب داخلها، ويمنع عنهم الماء والأكل، إلى أن تنقطع تأوهاتهم وحشرجاتهم، ويوزع زوجاتهم وجواريمهم على رجاله.

وكان جنده عندما يداهمون أحد قادة الدولة المغضوب عليهم، لا يعطونه الفرصة ليلبس "مركوبه" فيجرونه حافيًا، وفي طريقه إلى السجن يُضرب ويُدفع دفعًا، لا يأبهون لسقوطه.

كان تورالجر حاكمًا عامًا رهيبيًا، صادر أوقات الأهالي وغلالهم لإطعام جيشه من الجنكويز، الأمر الذي دفع المزارعين للكف عن

الزراعة، فما لبثت أن أصيبت البلاد الأسيرة بمجاعة طاحنة، فبحث الناس عن أي شيء يأكلونه، فأكلوا حتى الجلود الجافة وورق الشجر!

كما كان تور الجريحب التقليل من شأن رجاله، الذين لا يستلطفهم، ولا يجد قرينة ضدهم، كالأمير "أبوزنود" الذي كان كلما رآه يخاطبه بسخرية:

"انت يا أبوزنود هُوين أخوانك، لمتين يتدسا من الموت."

وعندما انتقل أبوزنود من جواره إلى إحدى ضواحي المدينة الزاهية، أرسل له أحد مساعديه يرأقه، فكان يسيء إليه كثيرًا، فقد عزله من قبل من الإقطاعية التي كان يحكمها، وأرسل أحد البغاث ليحل محله، كما عزله من سلاح النار، وولى عليه أحد عبيده، وأبدل محصلي الضرائب بعبیده، أو من دفع له أكثر، فانتشرت السرقة والرثوة في سائر البلاد الأسيرة.

وختم على حياة الأمير أبوزنود بالانتحار، بإرساله لغزو الدولة المجاورة أسفل النهر، في جيش قوامه ثلاثة آلاف من الأطفال والنساء، بدون مؤن! فشهد من نجا أبوزنود يصاب بالدوار بسبب الجوع والوهن، بعد أن كبر للصلاة وجلس على الأرض.

يبدو أن تاريخ البلاد الأسيرة، منذ سقوط "كليوة" ظل يدور في حلقة جُهنيّة، سريان الزمن فيها ينطلق من النقطة نفسها، ليعود إليها مرّة أخرى، فيتشابه السلاطين والممالك والجنكوز والأهالي، فلا

فرق بين المكوك والخلفاء والحكام العامين، الذين تعاقبوا على حكم
البلاد الأسييرة!

تتبدى وجوههم جميعًا في فضاء الزنزانة، وكأنهم يُخرجون
السنتهم لأهالي البلاد الأسييرة، وهم يهزّون أذونهم كأطفالٍ أشقياء،
لكن من نوع خاص.. غير إنساني، لا يملك مشروعًا لكل الناس،
خبراته الموروثة.. كل خبراته في الهدم والقمع والنهب!

يبدون جميعهم في التعامل مع هذه البلاد كأنها ضيعة.. ملكية
خاصة ورثوها عن آبائهم، ليس لأحد الحق في مشاركتهم خيراتها، فلا
أحد من أهل البلاد الأسييرة "مواطنًا" في هذا "الوطن" وكما قال أحد
المقدّسة أسرارهم "نحن الملوك وهم الرعية؟!" إذ تعني عبارته
الشعب وليس الغزاة.



فيما كان ود دبرق، يتأمل وقائع ما جرى، كانت عشوشة التي
درجت على انتظاره طوال سنوات عمرها، تحس بوجوده القريب،
الكائن فيها!

أبدًا لم يخب إحساسها بوجوده الطاغ حولها يومًا، ولكن ما من
أحد في قبائل الطيور، كان يُعير انتباهًا لذلك، واليوم تأكد صدق
إحساسها، فما هو ود دبرق يشق عباب الهواء بجناحيه!

منذ أسابيع كانت تسمع زقزقته تحملها الرِّيح، وهي تُلامس
أهداب عَشَّها.. زقزقة حميمة كعادة ود دَبْرُق، تتخلَّل القش، لتلقي
على مسامعها أغنيات الشوق والحنين لجسْمها النحيل وعَشَّهما
الداقي!

وفيما كانت هذه الخواطر تترى على بالها، وهو يحلق تجاهها،
كانت ذاكرة ود دبرك لا تزال عالقة، في الأزمنة المتداخلة للوقائع
والأحداث التي عاصرها، أو شهدها طوال حياته، وهو يكرر لنفسه:

“أنا ود دبرك أقسم بأبادماك، أني سمعت ورأيت كل شيء!..”

نعم رأيت وسمعت كل شيء، من موقعي حيثما أتلصص! من
أعلى نو افذ القصر الملكي، أو غصن شجرة رامية بفروعها على نو افذ
مقار العسس السري، أو تلك الكوآت الصغيرة اليتيمة في زنازين
المعتقلين، الذين “فنقست” بهم الدُّنيا، أو ذلك الرِّف في الغرفة
السريّة لمولانا الشيخ الهميم، أو في الفراغ بين السقف والجدران،
حيث أضم حفيف جناحي على جسدي بهدوء، فلا يشعري أحد، أو..
انسربُ -كما أفعل دائماً- بجسدي في هدوءٍ وأسمعهم، يتجادلون..
ترتفع أصواتهم وتخفت، يتأمرون ويقتسمون الغنائم، ويخططون
لمزيد من النهب والقتل والتعذيب!

رأيت كل ذلك، ولطالما رويته لكم ومخالي الصغيرة تتشبث
بسلك الكهرياء، أو بين فتحات عمود النور، أو الخشبة الباززة من
الفرندة، أو نو افذ بوفيات الصحف.

حكيت لكم كشاهد عيان وأنا أزقزق على حبل الغسيل، أو شجرة الليمون، لكنكم لم تأبهوا! بل عمد أطفالكم إلى رمي بالنبال! لم تفهموا ما أقول! لم تتركوا لي ما أقول!

نفض "ود دبرك" من رأسه هذه الخواطر التي لا تفارقه، واستل جسده النحيل من جسد "عشوشة"، الممددة تحته في نعومة ريشها، بعد أن ارتخت أعصابهما وهمدت، وحلق كطائر البلدة القديمة الخالد وهو ينسلخ، موخوزًا بأشواك شجرة الجهنمية الحمراء، التي نمت محل شجرة (اللעות) سيئة الرائحة، تلك التي صُلب على فروعها (صانع الفخار) الأول وأحفاده عصرًا إثر عصر، وحلّق مثله، يقطر من ريشه الدّم، ومن عينيه الدموع!

في غياب ود دبرك الطويل، كانت أيام عشوشة تمضي على وتيرة واحدة، لا شيء سوى البحث عن قوت لفراخها، الذين لا تتذكر آباءهم العديدين!

لكن ربما تتذكر بعضهم لمأماً، فهي رسمياً زوجة ود دبرك، الذي لا تعرف ماذا يفعل في غيبته الطويلة، ربما حط رحاله الآن في بلاد الثلوج أو عند غابات الاستواء، يضاجع ما يحلوه من عصافير البلاد الباردة أو الدافئة!

فود دبرك الذي تعرفه، يتمتع بذوق بانس، لا فرق عنده بين حسناوات العصافير وبغاها، فهو يؤمن بحكمة الطيور المأثورة "الفحل لا يعاف!" والأمركذلك، لا يضيرها أن تشبع رغباتها مع

الطيور المهاجرة والنازحة من آن لآخر، وتنشغل برعاية بيضها، وإطعام صغارها زُغب الحواصل، وتعليمهم الخطوات الأولى في القفز والطيران، وتقنيات الإفلات من صاندي العصفير!

ومع ذلك لم تكن كل هذه الانشغالات، بكافية لأن تطرد ذلك الإحساس الأليم، الذي كان يملكها شوقاً لجناحي ود دَبْرِك، الذي ليس كمثل فحولته فحولة، بين أجناس العصافير قاطبة، في مشارق الأرض ومغارها!

لاحق ود دَبْرِك لاهتاً، لحظة غامضة؛ يتفلت ضياؤها داخله، فيومض وينطفئ كإشارات "مورس" ترسل رسائل بعيدة؛ إلى عالمٍ آخر مُشْتَبِهٍ، أو كأضواء فنارات البحر الملوّن، في الليالي موعلة الحُلُكة.

في مثل هذه اللحظات الرّاجفة، التي ينهد فيها حيله، يحدث له ما يشبه الكشف! تسلّلت سمعه زقزقة عشوشة في شغفٍ:

"اشتقت إليك كثيراً يا حبيبي".

فرد بصوت متهدّج:

"و أنا كذلك، اشتقت إليك كثيراً يا حبيبي".

"أين كنت كل هذا الوقت؟!".

"سافرت مع الطيور المهاجرة، اكتشف عوالم جديدة".

”أما أنا؛ ظللت انتظرك في عُثَيِّ البيت القديم.“

ثم غرّدت ضاحكةً ضحكها العذبة ذاتها، التي لا تُخطئها مسامعه، كانت فرحة بعودته بعد غيابٍ طويلٍ! فأخذت تتأمل وجهه الصغير، وقد انعكست على منقارها خيوط أشعة الشفق الهادئة:

”ودبرك، هل ستزوجه مرةً أخرى كعادتك، بعد رحيلي أم أنني آخر زوجاتك؟“.

”لم أفكر بذلك مطلقاً.“

”حسنًا، فكر به الآن.“

”الآن؟ لماذا الآن بالذات؟!“.

”لأنني أريد أن أعرف ذلك الآن.“

”حسنًا، إن أقسمت لك على أي إجابة فلن تُصدقيني، لن تصدقي سوى الإجابة التي تتوقعينها سلفًا.“

”إذن، هل ستحبها كما أحببتني.“

”ربما تكون مختلفة عنك، فالطيور لا تتشابه.“

لَمْ يخالج عشوشة أدنى شك، أن في حياة ود دبرك المديدة، الكثير من العصفورات اللاتي مررن دون أن تخلفن أثرًا، وربما خلفن

أثراً، لم تستطع حاستها الأنثوية استشقاؤه، لقدرة ود دبرك البارعة
على إخفاء كل أثر لعلاقاته المتعددة!

كما لم يخالجهما الشك بأنها الوحيدة، من دون كل العصفورات
اللاتي عرفهن، عمّرت معه لعقود طويلة، فقد سمعت عن حبيباته
وزوجاته السابقات، الكثير من الحكايا، لذلك عندما تزن حكاياتهن
جميعاً مع حكايتها معه، ترجح كفتها!

كانت عشوشة قد وُلدت على عهد الاحتلال الأول، الذي
أصبحت مُنذ البلاد الكبيرة أسيرة، يتغير الحكام واحداً تلو الآخر،
لكن يبقى الاستبداد والنهب والظلم والفقْر نفسه، فتمضي البلاد
الأسيرة من السيئ إلى الأسوأ.

منذ تعلمت الطيران في طفولتها الباكرة، لم تعد تعتمد على أمها
في طعامها، أخذت تطير وحدها تبحث عن حبات الذرة المتساقطة
أمام الطواحين، أو زرائب العيش، أو المزارع في ضواحي البلدة
القديمة، حيث التقت ود دبرك لأول مرّة، راكاً على قندول عيش لم
ينضج بعد، تبادلوا التحايا!

ويوماً بعد يوم أصبح بمثابة أب روحي لها! علمها الكثير مما
تحتاجه للنجاة بنفسها في هذه البلاد العرّضة للمجاعات من وقتٍ
لآخر.. علمها ود دبرك الإدّخار، ورغم أنه كان يكبرها بمئات السنوات،
إلا أنها تزوجته، ومنحاً معاً للحياة كثير من العصافير، التي تفرقت في
أنحاء البلاد الأسيرة، فيما هاجر بعضها في قِبَل الدنيا الأربعة.

بعض عصافيرها زُغِب الحواصل، اختطفتم نبال الأطفال
الأشقياء، وبعضها قضى نحبه بالمرض، فيما هددت النسور في
المواسم القاحلة بعضهم.

لكن كل ذلك لم يكن يُحزننا، مثلما كان يُحزننا اصطيد أولئك
الشبان الذين هاجر أسلافهم من غرب إفريقيا إلى هذه البلاد،
فامتّنوا صيد السمك والطيور!

فهي إن تنسَ لا تنسى كيف بيع عشرة من عصافيرها الجميلة،
لأطفالٍ أشقياء بلا قلب!

لقد شهدت عشوشة في سنواه للبلدة القديمة على جثث البغاة
البيض وجيوش المستعمرين المحليين الجُدد بعد الجلاء، وهي تجتاح
الصعيد ودار الرّيح! ولطالما رفعت يديها إلى السماء، تسأل الروح
العظيمة عتق صغارها المسترقّين في الأفاص.

تسحبت الشمس، وغطّت بأشعتها الشاحبة، أسطح البيوت
الواطنة، وبدأت تنحسر عن الأرقّة الملتوية، الصاعدة إلى أعلى
البلدة، والمنحدرة إلى أسفلها جهة التّهر و"الجاسر".

لم تكن بعيدة، هي المسافة الفاصلة، بين مسكن ود دبرك
والعُش القديم، حيث كان يلتقي عشوشة خلسةً، من عيون العوازل
قُبيل هجرته!

حلَّق يشق أجواء البلدة القديمة الموحشة، ببيوتها المظلمة،
المبنية من الطوب الأخضر والأحمر المحروق، وطوب الأسمنت
البلوك، وأبوابها المصنوعة من الصفيح والحديد والزنك، وخشب
السنط، وأشجارها غير المتناسقة، وشوارعها التي تأكل رصفها
الأسفلتي، منذ أزمان بعيدة، ودروبها وطرقاتها المترية، التي تعج
بالمستنقعات، وحيشانها وحيطانها، التي تفوح برائحة الرّوث والبول
والبعر والعرق، ومخلفات البشر، والدجاج، والحمام، والكلاب
والقطط!

كانت البلدة القديمة، أشبه بلوحةٍ قذرة تُجسد فوضى
معمارية، تتداخل فيها أمزجة المستعمرين، والسكان المحليين
المستعمرين، وأذواقهم، وتنبعث منها روائح غريبة، لا تطاق! تداخلت
في تخطيطها ومعمارها وأشجارها، أزمنة غابرة مع أزمنة معاصرة،
وأزمنة لم تأت بعد، ومناخات وبيئات وروائح متنافرة، وكل شيء فيها
كان بقدر ما هو مثير للمخاوف والظنون، كان في الآن نفسه مثيرًا
للأحزان والشفقة!

البلدة القديمة، بلدة يخنقها الخوف والأوساخ، تحلَّق في
الفضاءات التي تحيط، ببيوتها فتشعر بالانحناء والاختناق، وتدهمك
مشاعر مضطربة، ومختلطة لا هوية محددة لها!

عند بداية الشارع الرّئيس لاح لود دبرك مبنى الكنيسة، الذي
تسكن عشوشة في سقف البيت القديم خلفه! مبنى كبير من الطوب
الأحمر المحروق، ينتصب بين أشجار النّيم المتفرقة بمهابة، ولكن

كئيبًا وموحشًا! ربما أن شكله التاريخي الغامض، كان هو ما يُسرِّب إلى النفس، ذلك الإحساس بالهيبة والهواجس والظُّنون، ويدفع بود دبرك للغناء (ببوح) حزين!

كان مبني الكنيسة، يهض وسط مساحة كبيرة من الأرض، مطلقاً على الشارع الرَّئيس، الذي يقسم البلدة نصفين، تمتد خلفه الجروف، التي كانت الكنيسة تعتمد على الخضروات، التي تزرعها فيها اعتمادًا كبيراً، إذ تُطعم منها القساوسة والرهبان والفقراء.

لم تكن الكنيسة تؤجر عمالاً لزراعة جروفها، والاعتناء بها، أو لحصاد خضرواتها وبطيخها وشمامها، إذ كان الرهبان والرهبات، هم من يقومون بذلك!

مبنى الكنيسة من الدَّاخل، تغطت كل جدرانها، بالنقوش الملوَّنة، التي تعود لعصور "كليوَّة" الزَّاهرة، والتي كانت تُعطي انطباعاً قوياً، أنها بُنيت؛ بنية أن تكون أي شيء آخر، عدا الانتماء لدينٍ محدَّد!

ومن الخارج كان أثر النيران على المبنى واضحاً، إذ يبدو أن ثمة محاولات لإحراقه، تمَّت أكثر من مرَّة.. وما يلفت النظر، أن ثمة نوع غريب من أشجار الجهنمية الحمراء، ينمو بطول سور الكنيسة.. بعض الأهالي ترسخت داخلهم قناعة تامة، أن وردة الجهنمية الحمراء، أخذت لونها من دَم المسيح، فهم ليس لديهم أدنى شك، أن "حوار" المسيح الذي أقنع "الكنداكة" بتبني "المسيحية" قبيل

مغادرته عائداً إلى "أورشليم" كان قد أحضر معه شيئاً من دمٍ محفوظٍ للمسيح بطريقة معينة. ودفنه هنا ليلوّن هذه الشجرة، التي عُثرتَ تحتها قبل أسابيع قليلة، على جُمجمة لم يُعرف لها نوع أو صاحب، أثناء محاولة أحد القساوسة حفر حوض جرجير حولها!

ولم يستطع أحد تفسير وجود هذه الجُمجمة هنا بالذات! مع أنه لو كانت قد وجدت في أي مكان آخر، كان السؤال نفسه سيكون قائماً:

"لماذا هنا بالذات؟".

ومع ذلك شجرة الجُهْنمية الحمراء، التي ترمي بأغصانها على حلق باب السنط الكبير، الذي هو المدخل الوحيد للكنيسة، للمفارقة وعلى عكس عادة (صقور الجديان) بنى طائر البلدة القديمة الخالد، عشّه في قلبها! وأشاع الأهالي عنه، أنه يحرس قطرات دم المسيح، التي في الوقت ذاته، تمد تراب الجُهْنمية، بالخصوبة، وتحميها من الديدان والحشرات الضارة بالجذور!

تخطى (ود دبرق) في طيرانه مبنى الكنيسة، كان الطريق العام، لا يزال مبتلاً، لم تتمكن شمس شهر مسري -أغسطس- الجارحة بعد، من تجفيف البرك والمستنقعات الصغيرة، التي تناثرت على مداها!

وجوه متفرقة هنا وهناك، لمارة أنهمكتهم ضغوط الحياة.. نقر على مدخل العش مُصَوِّصاً بتوتر، فأطلت عشوشة، في كامل بهاء

مخالها المحنة، وريشها المغسول، الذي تفوح منه رائحة الأبحوان البري، التي تشبه رائحة الكافور.

عندما يحلق حول الكنيسة، تترى على خواطره كشريط سينمائي وقائع وأحداث ما جرى، فلطالما رأى ود دبرك في حياته العامة بالوقائع والأحداث كثيرون، يتبخثرون في الأرض تيمًا، لا يدرون أنهم لا يملكون من أمرهم شيئًا.

كان يراهم دائمًا كمن يسرون على شفا واد عميق مغمضي العيون، تختطفهم الأقدار أو تذلمهم فجأة، فيسقطون من عليائهم، ليدركوا لأول مرة في حياتهم "كم هم بؤساء!.."

ومن ثم تحوم زوابع الأمراض المنقرضة حولهم، عندها فقط يتذكرون "الروح العظيمة" التي كانوا قد ألقوا بها في غياهب النسيان، فيذهبون للعلاج في الأردن، ليصبحوا قادرين على العمرة والحج وانتظار الخاتمة التي ترصدهم!

حدق بوجه عشوشة، كان واضحًا له أنها كعده بها، تعني بمخالها وريشها ومنقارها عناية فائقة!

تقدم منها في شوق حارق، واحتضنها بجناحيه، وشعر بخدر، كدبيب النمل في المسام، يتسلل خلاياه، خلية خلية، يطلق فيه نازًا لا أول أو آخر لها!

كانت الشمس قد شارفت على المغيب، بعينيه اللتين تدفقت
منهما شهوة عارمة، أخذ يتخلل بمنقاره، ريش عشوشة، يتحسس
جسمها المتناسق، المتفجر بالحياة.

رغم مرور السنوات، لا يزال حبهما يزداد عنفواناً، ولا تزال كما
لحظة رأها أول مرة، عصفورة رشيقة، يفوح منها مزيج الأبحوان
والقمبيل والرَّيحان البرِّي، القوي..

عشوشة حبه المميز، التي اصطفته هو وحده، من بين زحام
آلاف العشاق، من عصافير الحسون والكناري والعندليب والبابل،
الذين تغزلوا فيها جميعاً بأعذب التغريدات دنقاً بعشقتها، حتى طارت
شهرة غزلياتهم في الأفاق، تتخطى حدود البلاد الأسيرة، لتصل مسامع
التَّوارس في البحر الملوّن، فتحملها في رحلتي الشتاء والصيف، عبر
السواحل والخلجان، إلى الشرق الأقصى وسيبيريا، لتغردها مع
البطريق لأولئك "السانات" المجتمعون تحت سقوف "الدوما
والكرملين" من بلاشفة السَّمان، ومناشفة الكساندرين، وطيور
البابل والحجل، والحدأة.. والعصفور الهندي وعصفور السنونو
والطاووس والقطا، وكل سدنة النظام القيصري القديم! الذين
يتعانقون، اثنين اثنين! يبحثون في أصولهم المنبئة!

ثم تطير، لتصدح بها على أسقف المباني المحيطة بميدان تيان
منة، والساحة الحمراء، "للرَّاستات" المنشقين من طيور القبرة
والقططاط واللَّغد، وفلول نظام الأسر الصينية البائد من قنبرة،
وكوكال ولقلق وواق، ويمام، وبقايا الأسر الامبراطورية القديمة، التي

تسعى بجِدٍ لتقويض الثورة الثقافية، يقودها طائر الوروار، ودجاج الأُدغال، وحمّام الصين العظيم، "وأسياد الرّصة والمنصة" من دهاقنة أسرة وقواق، وغرنوق، المتحدّرتين من صلب الطيور المقدّسة التي كان يقتنهما آل بوربون، والتي ألهمت كيم إيل سونغ، وكاسترو وسانكارا العناية بالفلاحين الفقراء والحياة البرية، نكايّة في الاقطاع الأوروبي ومارتن لوثر معاً!

جميعهم هؤلاء وأولئك، يوحدون أصواتهم في تغريدة واحدة "واقفة قنا"، تشق فضاءات سيبريا وغوانتانامو ومنفى ومعتقلات الشرق الأوسط الكبير، لتتلقّفها في عبورها إلى أفريقيا طيور الببغاء، والباز، والباشق، والأوز والبومة والنسر ونقار الخشب، المتواطئون مع الجنكويز وبوكو حرام، وجيش الرّب وألوية كامبوني.

وفيما ترأب طيور الكاريبي الموقف بتحفظ وتوتر شديدين، تأتي طيور "القِبَل الأربعة" تخطب ود عشوشة، التي لا تأبه لهم، وتفرد جناحها لتمنحه هو ود دبرك - شخصياً، وحده لا شريك له، وإلى الأبد قلبها اليانع، النّديان في هذه البلدة الضائعة!

"اشتقت إليك كثيراً".

قال ود دبرك وهو يكاد يعتصرها بين جناحيه، وينسى إرهاق رحلته الطويلة، والجُمجمة والبلدة القديمة وكل شيء!

كعادته، يستيقظ ود دبرك في الصباح الباكر، قبل أن تنشر الشمس جدائلها، فيندفع مزقزقاً في أرجاء البلدة القديمة، شاقاً

الهواء بجناحيه.. يركوهنا وهناك، إلى أن تتسحَّب خيوط الشمس إلى
مر اقدها، خلف الأفق الغامض، تمهد ل الليل كي يُلقى بكلكله.

في الخريف يخلد إلى "وكنته" فكل شيء في البلدة عندها، يصبح
مبتلاً، فالبلدة القديمة كغيرها من مدن البلاد الأسيرة، تخلو من
المجاري، تعاني سوء التصريف..

تركد المياه، وتتراحم جيوش الباعوض والذباب تنهش أجساد
الأهالي، وتفوح الروائح العطنة تحقن رئة البلدة، ويصاب الناس بنوع
غريب من الاكتئاب خريفاً، فلا تستعيد البلدة القديمة حيويتها إلا مع
مقدم الصيف، حين تجفف أشعة الشمس البرك، وتراجع جحافل
النّاموس والذّباب.

كانت أيامه لا تخلو من لهو ومرح، وهو يعيِّث بأطفال البشر
فيجعلهم يطاردونه بنبالهم، تلك اللحظات تبعث في نفسه السرور،
رغم ما يصيبه من إنهاك الكرو والفر.

تمهد ود دبرق بوجه عشوشة في أسي:

من كوة نافذة الزنرانة كنت أسمع حكايا المريدود للسجين
الأخر.. كان هذا في الزّمن الذي كنت أنتقل فيه بكثرة، بين كوّات
زنازين العسس ومكاتيم، وهذا يعني أننا كنا في مطلع القرن الجديد!

وقتها لم أكن قد قررت بعد مغادرة البلاد الأسيرة، إذ كنت لا أزال
مغرماً بك.. كنت تشدّيني إلى هذه الأرض، كأنك لا تزالين تلك الأنسة
"عشوشة" التي التقيتها لأول مرّة في زمان غابر!

لقد وُلدت محروماً من الأبوين، فقد ماتت والدتي عشوشة
الكبرى، ووالدي ود دبرك الثالث عشر، في وقت مبكر من سنين حياتي
الأولى، وتركاني وحيداً تعصف بي الأنواء، لا ملجأ لي سوى قلب شجرة
القمبيل العجوز، في قلب دار الرّيح، حيث أوي إلى عشي الذي بنيته
من القش والورتاب بين أغصانها العتيقة المتكاثفة، التي تفيد
الروايات السريّة، أنها الشجرة نفسها، التي وُلد تحتها سيدنا يسوع!
وهزّت والدته أغصانها، ليساقت القمبيل رطباً جنيّاً، وهي رواية
قطعاً تتعارض مع الرّواية المعلنة عن شجرة النخيل، التي من
المستحيل أن تنمو في هذا الجزء من جغرافيا العالم ومناخه المشبع
بالرطوبة والصدأ!

وبالطبع وقتئذ لم يكن هناك من يقلق لطيراني في ساعة كهذه
أويرتاب فيه، وحتى لو تم رمي بحصاةٍ، "وفرفرت" وفصل ود السُرّة
رأسي عن جسدي وذبحني الأطفال المجرمين، وشووني وأكلوني، أو
حتى ألقوا بجثتي الضئيلة لكلبٍ حاجة السُرّة! فعلى الأرجح لن يلاحظ
ذلك أحد! فجميعهم ابتداءً لا يلاحظون وجودي!

على الدوام منذ فتحت عيناى على هذه الدنيا، كانت مشكلتي
مع الأطفال، الذين لطالما اعتقدت أنهم أوغاد، لا ضمير لهم، فلطالما

"ناشوني" بنبالهم، ونجوت بأعجوبة من حصة مرقق مروق السهم
من الرّمية! وكادت تحطم جناحي الواهنيين!

أنفقت الجزء الأكبر من خبرتي في الحياة، محاصرًا بحشود هؤلاء
الأشقياء الصغار، المسكونين بالخوف والهواجس والظنون، نتيجة
العنف المنزلي، الذي يفرغونه في اصطلياد بني جنسي، تارةً بالنبال
المصنوعة من اللستك الداخلي للدراجات، وتارةً بالشارك المنسوجة
من شعور ذبول الخيول الهرمة، أو العصب الذي يصنع منه صيادين
السّمك شباكهم.

هؤلاء الأطفال الملاحين يختلفون عن أطفال بني جنسي من
عصافير ووزاير أو دوري، كما يحب الشعراء البائسين تسميتنا! فهذه
الأسماء الثلاثة هي اسم للكائن نفسه، الذي هو أنا (ود دبرك)، وربما
تكون هناك أسماء أخرى، يطلقها عليّ الناس في قبَل "الأرض الأربعة".

فمن دون عصافير كثيرة، أنا الطائر المنزلي والبري الوحيد، الأكثر
انتشارًا في هذا العالم الحزين!

فأقاربي وعائلي الممتدة يعيشون من المحيط إلى المحيط، ومن
الصّحراء إلى الصّحراء، ومن الغابة إلى الغابة ومن النهر إلى النهر،
يمكنك أن تجدنا في كل قارات الدنيا، عدا قارة "أنتاركتيكا" الباردة،
وذلك لأننا جينيًا نميل لمجاورة البشر، والسكنى معهم في دورهم، إذ
نبي أعشاشنا في الفراغات الصغيرة بين السقف والجدار، أو في قلب
الأشجار المنزلية.

وجينياً أيضاً، بنو جنسي لا يستنكفون السكنى في بيوت القش أو القصور.. بيوت الجالوص أو أي فجوة داخل غرف البيوت "ورواكيبها وكشاشاتها"، فنحن بمثابة أهم رموز التواضع والمساواة، في ثقافات العديد من دول العالم.

ها أنا الآن في أخريات أيامي بعد عمرٍ مديد، في كل جزءٍ من جسمي أثر لحصاةٍ قاتلة، تمكنت من تفاديها بأعجوبة، أو أثر لشركٍ من شعر ذيل حصان -سبيب- قاطع تخلصت منه بنضالٍ مستميت، فخلف ندوباً بارزة على قدمي وساقِي، فشل الزّمن في مداواتهما.

وأنا في هذه السن الطاعنة الطاعمة في التاريخ، أتأمل في قيلولاتي الأخيرة، أعددنا التي في تراجعٍ مستمر! في شتى أنحاء الأرض، وبوتيرة متسارعة في بعض البلدان الباردة، التي بلغت بها الغبطة أشدها، وهي تمتع بصرها برؤية رفرفة أجنحتي في محلٍ لبيع الطيور، أو في منزلٍ أو داخل أجمّة، أو في قفصٍ معلق على شجرةٍ، أو عندما يروني "راكٍ" فوق أحد حواف أسطح المنازل، أو أسرح وأمرح في إحدى البرك، لاهياً بنثر قطرات الماء حولي!

منذ وقت ليس بعيد، بدأ فضول البشر حولي يتنامى، إذ اكتشفوا فجأةً للمرة الأولى، أنهم لا يملكون معلومات كافية عني، مع أنني الطائر الذي يكاد يكون الوحيد، الذي جاورهم منذ الأزل! لقد انتهى فجأةً أن معلوماتهم حولي شحيحة شح (فأرالمسيد)، بشأن التاريخ التطوري لبني جنسي من (سلالة ود دبرك العظيم).. الذي

لطالما اعتقد البشر في كل أنحاء العالم، أنه بمثابة الأيقونة المقدّسة،
لجلب الرّاحة والسكينة.

فالعالم الجديد الذي اكتشفه كولومبوس مثلاً، مثلما ظلّ وطناً
بديلاً وافتراضياً لبني البشر، كان لبني جنسي من الطيور حظهم في
الهجرة إليه، وفي الحقيقة لم نهاجر إليه كالغزاة الأوروبيين، بل
استجبنا لدعوات أقاربنا، في غابات وأنهار الهند الحمر، هذا كل
شيء!

ومن مقارقاتنا كعصافير دوري، حمل أقاربنا هناك اسم قبائل
الهنود الأساسية، التي يتواجدون في غاباتها، كزرزور الشيروكي،
ودوري النافاهو، عصفور التشوكتاو، وهكذا الأمر نفسه مع زرازير
تشيلي، أباتشي، القدم السوداء، والسو.

ولربما يُدهش البشر الجهلاء، إذا علموا أن قبائل ود دبرك في
غابات الهند الحمر، تحمل سماتهم في الذكاء والحكمة والصفاء
الروحي والشجاعة والإقدام، ولذلك بإمكان ود دبرك أباتشي أن يهزم
نسرًا جبليًا ضارياً، بالسهولة نفسها التي يلتقط بها دودة ماكرة تنزلق
بين مسام الطين!

وفي الحقيقة دونًا عن كل الهجرات العظيمة، كانت رحلة بعضنا
من المخلفين، الذين تأخروا في تلبية دعوة أقاربنا، في غابات الهند
الحمر، مماثلة لرحلات العبيد الذين رست بهم سفن النخاسة على
موانئ الساحل الشرقي للأطلسي الرهيب!

ولأكون أكثر دقة فإن المسؤول عن جليهم بتلك الطريقة المهيينة، هو ذلك النحاس الشهير "يوجين شيفيلين" الذي استمد وليم شكسبير منه، أسماء كل الطيور، التي استعان بأحزانها في مسرحياته السايكوباتية الدّامية!

هذا المدعويوجين، ليس سوى النحاس نفسه المهووس باسترقاق كل طيور العالم الواسع، وجليها لزرعها في العالم الجديد، الذي ادعى المأفونان كولومبس وفاسبوتشي اكتشافه!

ومما هو مثير للدّهشة زعم "مارك رافينيت"، العالم المتخصص في أبحاث تطور الكائنات الحيّة، في جامعة أوصلو، أن تطورنا كأبناء ود ذبرك، لم يُعالج بشكل صحيح!

وانطلاقاً من اسم "باسردوميستيكوس" الذي أطلقه علينا أمثاله، لاعطاء سلالتنا صبغة علمية منذ الملحد سيئ السمعة "داروين" وصولاً إلى آخر عالم أحياء يهودي من معاصريه، ظن هؤلاء وأولئك أنهم قتلونا بحثاً!

ويتوجب هنا أن لا ننسى المثقفين والإنسانيين وذوي الاهتمامات التراثية، الذين ظلوا يكرّسون بني جنسي كرمز غامض، أينما يَمّموا وجوههم مشرقاً ومغرباً!

وما هو محزن حقاً، هو ما لوحظ من تراجع لأعدادنا، لدرجة التهديد بالانقراض، خاصة مع تزايد نشاط أطفال العالم الفقير الأشقياء في اصطيادنا.

فهم خلافاً لأطفال العالم الغني ومتوسط الحال، حُرِّموا من مباحج كثيرة، كالتى يمنحها الكمبيوتر، وقبائله المختلفة من جنس التابلت والآيباد... وهلمَّجراً!

فالفقير المدقع لأطفال كأطفال هذا البلد الجنكويزي الحزين، يحصر مباحجهم فى اصطيادنا، دون رحمة، على سبيل إزجاء الوقت والتسلية!

صديقنا مارك رافينيت فى أبحاثه الأخيرة التى واضبت دورية "ذا رويال سوسيتي"، على نشرها، سلط الضوء بشكل مركز على تاريخ تطوُّر وتكيف بنية جنسنا، أحفاد ودَبْرِك العظيم، وكان رافينيت قد خَلَصَ فى البحث الذى أجراه بهذا الصدد إلى نتيجتين مدهشتين، الأولى: أن السبب فى تأقلم وتكَيُّف أحفاد ودَبْرِك العظيم على العيش بجانب البشر، يتمثل فى الارتباط الذى استمر بينهما عبر الزَّمن.

فمنذ غادر جزء من أسلافنا موطنهم الأصلي "إفريقيا"، إلى أوروبا الفيكتورية، أخذ الفيكتوريُّون الأنجلوساكسون المتفائلون، وخصوصاً أولئك المنحدرين من الفايكنغ الأشرار، ينظرون إلينا بقنزحتهم المعتادة، كأياقين تشعر بأنها لا تزال فى موطنها الدافئ، رغم البرودة التى تكتنف كل شيء فى الجزيرة البريطانية الكئيبة!

وذلك لأنهم استرقُّونا، ووضعونا فى أقفاص الزَّينة، بعد أن بعثت رفقتنا لهم فى الحدائق السرور، وفى الحقيقة تجوالنا فى حدائقهم فى

مبدأ هجرتنا، لم يكن لرفقتهم أو بعث السرور إلى نفوسهم المعدّبة،
وإنما لأننا كنا ككل المهاجرين، مجرد لاجئين مشردين، يبحثون عن
الماوى والقوت والأمان! لا أكثر ولا أقل!

فالرغبات الأخرى تأتي بعد ذلك عادة، والحق يقال فقد طاب
لنا المقام، نظرًا لتعرفنا على طيورهم الحسنات حسنة التغذية،
المختلفات عن طيورنا الغبشاء الشاحبة! وصحيح أننا لسنا بوسامة
عصافيرهم الذكور، إلا أن فُحولتنا دفعت حسناتهم المكتنزات، أن
يغرمن بنا حتى نسينا الأهل والأوطان!

رغم أن الجنكوز الخبثاء، أخذوا يسربون نوعًا من التفكير
الموسوس، يصورنا نحن أحفاد ود دبرك العظيم المهاجرين، كعملاء
ضد أوطانهم المستعمرة!

الحقيقة الأساسية أننا انتشرنا بانتشار الزراعة، بالتالي
الحضارة. وذلك لأننا طيور مدنية بالأساس!

وللمفارقة عندما أجرى رافينيت مقارنة للحمض النووي لنا
كود دبرق منزلي، مع أقاربنا البرية تأكد له تمامًا بما لا يدع مجالاً لأي
شك، أننا المنزليون شعب مدني، تأقلم وتكيّف على العيش جنبًا إلى
جنب مع البشر، بسبب الارتباط الذي استمر بيننا عبر الزمن.

ففي أمسية باردة حالكة الظلمة، جلس رافينيت خلالها في
مكتبه، ليبدأ تحليل هذا الأمر، فوجد أن هناك جينين "مورثين"
مختلفين، وبعد بحث مضمّن أدرك أن الجين الأول، يلعب دورًا في

تحديد شكل الجمجمة وهيئتها وبنيتها ومظهرها الخارجي، وهو ما رفع من ترمومتر حماسته للمضي قُدُمًا في التعرف على الجين الثاني بمجرد رؤيته، لأنه جين موجود في الكلاب والبشر!

وهذا يعني أننا والبشر والكلاب أقارب بحكم الجينات المشتركة! وهذا يفسر تكيفنا والبشر والكلاب، مع النظام الغذائي النشوي.

هذه المعلومات الجديدة عن أصولنا، عندما نقلناها إلى أقاربنا في إفريقيا، أثارت بلبلة في قبائل وبطون و أفخاذ وعشائرود دبرك، وجعلتهم يستعيدون التفكير في نمطنا الغذائي، وهم مستاءون من علاقتهم المكتشفة بالبشر!

فغالبية أحفاد ود دبرك العظيم، تتغذى على الحشرات عندما تكون في فترة رعاية صغارها، كالانسان في ميله لأكل حشرة الجراد!

وتميل للتغذي على الحبوب طوال العام، باستثناء فترة التكاثر.. ومن هذا المنظور، ربما يكون تطوّر جماجمنا مرتبطًا بتحول في النظام الغذائي ليصبح مؤلفًا من الحبوب، التي تنمو في الأراضي الزراعية، وهكذا يرجح صديقنا رافينيت أن الشكل الذي تتخذه جماجمنا، ما هو إلا "توافق" مع طبيعة التغذية.

وهكذا، أقاربنا في إفريقيا لا يزالون منشغلين بالتفكير على نحو مختلف، في بنية جنسنا كعصافير، وقرابتنا بالبشر والكلاب! خصوصًا سلالتنا المتحدرة من ود دبرك العظيم، آخر أحفاد طائر الجنة المقدس، الذي هبط مع أبو البشر آدم، وكان أنيسه وجليسه

قبل عثوره على حواء، وتجاهل آدم وجوده بعد ذلك، كما يحدث اليوم معنا من جيراننا البشر، الذين نساكنهم المنازل!

ولأن جدنا هبط مع آدم، تجد جنسنا شائع الوجود ومألوف بشدة، في الديانات والتاريخ البشري، والذي ربما يرى البعض الآن أحد أبناء جنسنا، في هذه اللحظة خارج نافذته، وربما أن ذلك سيدفعه، للتأمل في الكيفية التي يتشابه بها تاريخ تطور أقاربه، من بني جنسنا بشكل وثيق للغاية!

إن إحساسنا بهوموم البشر فائق الشفافية، وربما لذلك أجد نفسي مدفوعاً دفعا للإطلال من نافذة تلك الزنزانة، على أولئك السجناء أغرد لهم، علني أسري عنهم بعض الشيء، في محنتهم الجنكويزية القاسية!

□□□

أخبرته "هيلدا"، أنه بالكشف الأثاري على الجُمجمة، المزيج من جُمجمة ود دبرق وكلب وإنسان قديم، عثر الأثاريون "البيض" على ذرّات فضيَّة دقيقة تحشو الأضراس السفلى.

علماء "معهد جار النبي جـارو"، الذين عثروا من قبل، في أحد بيوت البلدة القديمة على عُرفة، في امتداد الأرض التي تنهض عليها الكنيسة العتيقة، على بعض الكتب والمخطوطات القديمة، والأثاث المكسور، وصندوق خشبي صغير من الأبنوس، مغلق بالمسامير بإحكام.. فكــــانوا يعولون كثيراً؛ على نتائج الفحص على تلك

الجُمجمة، لفكِ الطلاسم المتعلقة بكشفهم في ذلك الصندوق القديم، الذي عندما قاموا بفتحه، وجدوا شيئاً غريباً: جُمجمة غريبة الشكل، ترقد في قاع الصندوق، على قماش غير معروف، يرجح أنه لنوع منقرض من نسيج دودة القز!

ما لفت نظرهم، أن هذه الجُمجمة، أصغر حجماً من جُمجمة الإنسان الطبيعي المعروفة! كما أنها تعرضت للكسر أعلى الجبهة، لكن المذهل حقاً، ما وجدوه من منحوتات غريبة، محفورة على الجزء الأمامي من الجهة اليمنى للجُمجمة، ولكن الشيء الأكثر إثارة للاهتمام، أن هذه الجُمجمة تكاد تكون مطابقة للجُمجمة، التي تم العثور عليها مؤخراً، تحت شجرة الجهنمية الحمراء، برفقة بيضة متحجرة لأنثى عصفور "ود دَبْرِك!" وبعد الفحص والتحليل، توصل علماء "معهد جار النبي جارو"، إلى أن هذه الجُمجمة، عمرها يصل إلى أكثر من ثلاث آلاف سنة!

لكن لاحظوا أن عظام هذه الجُمجمة، أرقُّ من المتوسط، على الرغم من أنه، يبدو أنها تنتمي لذكر، تجاوز الخمسين من عمره! وقد كشفت اختبارات الحمض النووي، أن الجُمجمة تحتوي على الكروموسوم إكس وواي، ما يُدلل على جنسها البشري، ومع ذلك يُشير البعض، إلى أنها لذكر مهجن، من إنسان وكائن آخر غير بشري استوطن هذه البلاد!

الباحثون المتعجلون استبقوا فحص العلماء، واستدعوا إلى أذهانهم تلك الحكاية القديمة، عن أن صانع الفخار، أمه إحدى

حوريات النَّهر، مستنتجين من الحمض النَّووي للأُم، أنه لشيء غير بشري!

قساوسة كنيسة البلدة القديمة، رغم شكوكهم في الشيطان، كان رأيهم مختلفًا، لكنه عضد في الوقت نفسه رأي علماء "معهد الأئمة والدُّعاة" إذ رجحوا أنها جُمجمة "نبي تلك الدِّيانة القديمة الغامضة"، التي سبقت ميلاد يسوع بآلاف السنوات، وبعثها "أرتكني فرعون كليونّة العظيم" من جديد، للقضاء، على ديانة "عمّون" في "ووشك" البائدة، وأن ذلك الرّجل الذي هدّم مرم "الرجاوية"، إنما كان يبحث عنها هي، لتأكيد شكوكه حول الإله "درماس".

لكن مجموعة أخرى من الباحثين "الزّنج" المتحدرين من مملكة "كليوّة" البائدة كانت "هيلدا" قد تابحتت معهم، يعتقدون أنه بالفحص والتحليل، تبين أن هناك ما يشير إلى طفرة جينية! ربما تعود للمجموعة الغامضة، التي يُنسب إليها "بعاعيت" "مملكة فاز"!

قالت هيلدا و أنفاسها الدافئة تُلهب وجه جادين:

"اقترح العلماء (البيض) إعادة الحفريات، في المنطقة حول البلدة القديمة والمدينة الزّاهية، التي تضم بعضًا من الكهوف الحجرية والجيرية والأسمنتية العديدة، وكذلك المنطقة حول جبل الرّاهبات!".

مرّر جادين أصابعه النحيلّة على خدّها:

”فعلاً تلك المنطقة، مليئة بالأسرار، فقد تم العثور هناك من قبل، على بقايا أجزاء هياكل عظمية، لخمسة عشر رجلاً، في مقبرة جماعية، على عمق ستة أمتار، يرجح أنهم الأولياء الذين اجتمعوا، بُعيد صلب صانع الفخار مباشرة!“.

وقتها كانت قد راجت حكاية، تفيد أن جنكـويـز المقدس سرّه، داهمومهم في اجتماعهم ذاك، وقتلوهم فوراً!!! لكن كانت النتائج، التي توصل إليها العلماء البيض مختلفة!

إذ كشف التآكل على الأسنان، وخطوط النمو في عظام الجُمجمة، أن تلك الهياكل عمرها أكثر من ثمانية عشر ألف سنة، كما أنها تعود لإناث بالغات، وليس ذكور، كما تكشف خصائص عظام الحوض والساق!



الأهالي الذين فقدوا القدرة على الخوف، لهول ما عاشوه على عهد الحاكم الجنكـويـز العام، الذي خلق مناخاً مروّعاً، مشحوناً بالشك والرّيبة..

ولكثرة ما شكوا وارتابوا في بعضهم البعض، ما عادوا يأبهون، من هو الخائن أو العميل أو المخبر الحقيقي بينهم! ولم يعد يهمهم من هو المناضل، الذي يحمل على كتفه حماسة بيضاء، وغصن زيتون أخضر، أو المقاتل الثوري الجسور، الذي يحمل مدفعاً رشاشاً!

لم يعد يهمهم من هو المتواطئ، أو المثقف أو المتآمر أو السياسي.

إذ تكثفت كل مشاعرهم وإحساساتهم بما حولهم، وما عانوه لبعودٍ طويلة، وتركزت في بؤرةٍ واحدة: الغضب الذي تفجّر داخلهم بغيته، كأنفجارٍ مدوي، لركام أحزان وبؤس مئات السنوات!

لذا كانوا أشبه بسيلٍ جارف، ليس بإمكان شيء إيقافه! فبغته تلبستهم روح جديدة، تختلف عما ألفوه في أنفسهم، ما عادوا هم أولئك الناس، الذين لطالما تجنبوا الاحتكاك ببعضهم، على غير ما كان عليه أسلافهم، في أزمنتهم الغابرة، يتفاعلون مع بعضهم البعض.. يأمنون لبعضهم البعض، ولا يخشون إيداع أسرارهم: صدور بعضهم البعض! تغيّر كل ذلك، على عهد الأسر الجنكويزية المالكة، التي أسسها المقدّس سرّه الأول، صاروا أشبه بالغرباء، حتى داخل بيوتهم، وبين أهليهم وأبنائهم وأشقائهم!

لا يعرفون بعضهم! تحييتهم عابرة.. فهم دائماً على عجلةٍ من أمرهم، وبالكاد يهتمون لما يحدث حولهم! لم يكن لأي عينٍ "نجيضة" أن تُخطئ من أول نظرة، رؤية ما يعمل في صدورهم!

كان واضحًا بجلاء، أنهم تعبير فاضح، عن وطن مثقل بالهموم والديون.. وجوههم تنطق بذلك.. هؤلاء الناس طُفح بهم الكيل، فهبوا يحطمون قوالب الجنكويز، التي أعادت صياغتهم، على هذا النحو البشع!

□□□

إذن في تلك الظهيرة الكالحة، المقبورة في أزمنة سحيقة منسيّة، حمل أعيان "البعاعيت" إلى حفيد فاز خُططهم وأفكارهم، تصطرع داخلهم مفاهيم متصارعة، بمثابة المخاض لمشروع نمت بذرته الأولى، وشبّت تدفع خُطواتهم للقاء أبورُكبة، على بُعد مسيرة يوم من جبل الرّي، حيث عسكر بجيشه، قادمًا من رحلة طويلة في دارالريح.

وما أن وصلوا ووجدوه جالسًا على (ككّره) في خلوته البديعة كأنه ينتظرهم، حتى لاذوا جميعًا بالصمت وانتظروا حتى يأذن لهم بالحديث، وطال صمته وصمتهم، إلى أن سألهم:

"وجوهكم تحمل خبرًا".

فردوا:

"نحن هذا (المك) (أبيناه) فما تديرك فيه؟".

فقال لهم:

"أنا قبل ده قلت ما يبقى ليكم (مك) ولا لنا "سيد" لكنكم تركتم تديري والآن جيتو تجقلبو، فأشيروا بشوراكم".

سكتوا لبرهة من الزّمن ثم قالوا:

"نفصل لك لو أذنت لنا"

"أذنت لكم"

”كما تعلم نكل السلطان أب كردوس باتباعك كلهم، حتى نحن لم ننحُ في غيابك“.

”جننا نبايحك على عزله، والحلول محلّه“.

تململ أبوركبة في مجلسه وقال:

”لكن هذا لا يجوز، فالموانع كثيرة“.

”بل قل إن كل أسباب عزله متوفرة وأهالي السلطنة في صفنا“.

أطرق أبوركبة قليلاً وحكَّ ذقنه، فسأله أحد الأعيان:

”يبدو أن لأميرنا رأي آخر غير ما نرى؟!“.

زفر أبوركبة بعمق وقال:

”إن ما يشغلني الآن هذه الأزمات؛ التي تكاد تعصف بالسلطنة، فقد نهي إلى علي أن الأتراش في طريقهم إلينا بجيوشهم، فيما الملك والأمراء منشغلون بالصراع على السُّلطة والنساء، ويشغلني أكثر صراعنا مع دارالريح، وأتساءل هل هذا الوقت مناسب لعزل الملك، وكل هذه الأخطار تحاصرنا من كل اتجاه؟!“.

□□□

ها هي ظلالهم تخرج الآن من مركز العتمة: صانع الفخار، ود
دبرك بن زرزو الدّوري، حامد القطي، المريود، جميعهم.. جميعهم من
كثافة الغبار، يخرجون..

يتسللون موجات الانفجارات، خلل التراب وثمار الطوب المتفتت
عبر النوافذ، التي أصابت وجوههم وأجسادهم.

كان القصف قد أدى إلى انخلاع باب الزنزانة، وسقوطه عليهم..
خرجوا من شدّة الخوف يتحاملون على أجسادهم المنهكة، كانوا
مصدومين! وهم قاب قوسين أو أدنى من بؤرة الظلّة العمياء!

شعر جادين جانوبالم في رأسه.. تحسسه.. وجده جرحًا يسيل
دمًا، وقتها كان القصف قد توقف، فتلفت حوله ليرى المشهد:
تصدعت جدران الزنازين، وانخلعت حتى الكؤّات، الصغيرة، التي
كانت بمثابة نوافذ.. فيما ود دبرك مغمى عليه، وهو مستلقٍ في
استسلام على ظهره، حمّله ودسّه في جيبه!

بعض المساجين يهربون، ولم يكن هناك أي من "الجَنكـُـويز"
ليوقفهم.

فيما رفاقه يفرّون متفرقين، لا يلوون على شيء! تجوّل جادين في
أنحاء المكان المهذّم بحذر.. كان أغلب المعتقلين مصابين بإصاباتٍ
بالغة، وقد بدا كل شيء حوله، أشبه بـ "أطلال دارسة!" فقد كان
واضحًا أن البناءات، دُمّرت بإصابات غاضبة، في هذا الفضاء المنهار!

لم تُبق الانفجارات الرهيبة، سوى على جُدر من عتمة آلافِ
السنوات، تحيط بخصر البلدة القديمة.. تحصر ضوءًا غامضًا،
يسعى حثيثًا لفتح ثغرة يَفِلت منها، ليهشّم هذه الجدران الصماء،
ويبدد هذه الظلمة الكثيفة، التي تستمد حُلكتها من الأفكار الماكرة
والمراوغة للشيخ الهميم العرب!

ومن منبع الحكايا الخرافية، والأساطير ضاربة القدم! كان وقتًا
حاليًا جدًّا، لكنه غير محدد بليل أو نهار، فقط حُلكة.. وجد نفسه
يمشي فيها غريبًا ووحيدًا!

خطى في شارعٍ طويلٍ مترب، متعرج، مظلم المباني، لا يذكر أنه رآه
من قبل!

من ضعف أهالي البلاد الأسييرة، استمد الجنكـويز قوتهم!
أرهقتهم وأرهبتهم الفظائع التي ظلوا يرتكبونها، فاستسلموا.. بل
أصبحوا أشبه بموتي، إذ لا ترى عندما تجوب في شوارع هذا البلد
المنهار، المهْدّد بدمارٍ وشيك، سوى رجال العصابات والمجرمين
والمحتالين والانتهازين والمتاجرين بالأخلاق والساسة العطالى
والسوقة!

تُرى هل كان كل هؤلاء مضطرين لارتكاب ما ارتكبوا من جرائم؟
وإن يكن ليس بالإمكان تغيير الماضي، لكن بالإمكان صناعة حياة
أفضل، من ركام هذا السقط المرير!

زحف جادين، مبتعدًا عن الانفجارات التي باتت أصواتها تبتعد وتناى، فتأتي خافتة خلال أغبرة الرّماد وانهيار الأبنية، التي يتدفق خلالها ضوءٌ شاحب، لا هوية له! فيمشي حثيثًا، حثيثًا في وجلٍ، قاصدًا البيت حيث تُقيم "هيلدا"، لم يخطر على باله رؤية أحد سواها!

خلال الأغبرة ودخان الانفجارات، كانت تتبدى له الوجوه والبنيات والنَّهر العكر، المختنق بالطَّي ونباتات "المعونة"، حتى لا يكاد يتعرَّف عليه، وهو يعبرُ تحت الجسر، إلى الجانب الأخر من البلدة!

كل شيء بدى غريبًا: أشباح الجبال البعيدة في قفا البلدة، التراب، أشجار "النَّيم" التي تظلل الشوارع، والجهنميات الملوّنة، التي تتدلى لتحتضن أسوار وأبواب المنازل القديمة، وجوه الأطفال المدعورين، الذين فقدوا ألفتهم وبراءتهم، هي الأخرى بدت كأنها شاخت فجأة!

البلدة بكاملها كانت غارقة في غلالة غريبة من الهواجس والظنون! يتدفق منها الغموض على نحوٍ محيّر، فيغرقه في نوع غريب من الذكريات والمرارات، التي لم يكن واثقًا، إن كانت جزءًا من تجربة حياته أم هو يتوهمها! إذ كان لها طعمًا غامضًا ومحيّرًا هو الآخر..

في العزلة الأبدية التي سيَّج بها الجنكوز أركان البلاد الأسيرة، فقدت الأنهار والوديان التي على امتداد البلاد، قدرتها على الجموح

كما كانت قبل مئات السنوات الخوالي، وأخذ كل شيء يفقد ملامحه
وطعمه ورائحته بمرور الوقت!

وهو يعبر الجسر، شعر بنهر البلدة تتجدد فيه الحياة، كأن
الكائنات التي تسيح داخله، تنهض من غيبوبة آلاف السنوات،
فتتدفق في شرايينه المتوفرة..

خرج من المعتقل، أشبه بكائنٍ غريب.. حاول أن يتخيّل نفسه في
مرآة خياله، وعند نهاية الجسر، مضى بخطواتٍ واسعة، قوية، تكاد
تهزّ الأرض تحته!

بدا مديد القامة كشجرِ البان، عيناه غائرتان، يلوّح في قاعهما
طيف بُيٍّ خفيف، كان بتقاطيعه الحادّة، التي لا تتلائم مع حجم
وشكل أذنيه، وحاجبيه الكثّين اللتان يكادان يدفنان جفنيه العلويين
تحتهما! يُعطي الإحساس بالانتماء إلى عالمٍ آخر، غير هذا العالم،
الذي يتكبدون عناء العيش فيه!

لطالما اعتقد الذين يرتادون "الإندايات" من أهالي البلدة
القديمّة، بعد أن تعبت "المريسة" برؤوسهم، أن فجر ملايين
السنوات، ليس بإمكانه تبديد هذا الظلام الذي يحسونه حتى في
الدُروب، والأزقة، والشوارع، التي تخرج من البلدة القديمّة، وتقود
بمكرٍ في تعرجاتها المراوغة إلى أطراف البلاد الأسيرة، دواخلهم التي
انطفأت على أحلامٍ مجهضة! تقود "شبابيك" البيوت الواطئة وكل
شيء!

ورغم أن الشّمس تشرق في ميقاتها كل يوم، دون أن تتغيّب يوماً واحداً، ورغم أن القمر ينبثق في مواعده دون تأخير، إلا أن احساسهم بجُدر عازلة، متلفعة بظلمة كثيفة السواد، ظل يتعاظم كلما تقدّم بهم العمر، وأصبح مجرد "عَبَّار" واحد من أردأ أنواع "المريسة"، بإمكانه أن يأتي بأخرهم!



"الخُطى التي مشاها "أرتكني العظيم" بعد مئات السنوات، تنعطف في منحنيات زمن البلاد الأسيّرة" ..

قال جادين جانو وهو ينفث دخان سيجارته، ويُراقب تموجات الدُخان، التي أخذت تنبثق، من دوائرها المتلاشية، وجوه زملائه في "معهد جار النبي جارو لدراسات التاريخ وأبحاث الآثار" وهم يتأملون أحوال البلاد الأسيّرة في التقارير الفاجعة! ويرونها وهي تنحدر، إلى قاع الهاوية ببطءٍ مميت، دون أن يملكو شيئاً لإيقاف هذا الانحدار!

"البلاد الأسيّرة الكبيرة تموت، تلفظ أنفاسها الأخيرة، تقضي شعوبها على بعضها البعض!" ..

قال بروفيسور محمود موجهاً حديثه لجادين جانو، الذي أطرّق رأسه قليلاً قبل أن يقول:

”طوال تاريخها كانت حروبها تلد إحداهما الأخرى، ابتلعت دويلاتها بعضها البعض، وظلت تبلع إلى أن أُصيبت بالتخمة، فتفجرت“.

”المشكلة الآن هي الجنكـويز، فهم لا يقبلون بالآخرين، مشكلة البلاد الأسيـرة أن يقبلوا بعضهم، أن ينتموا لهذه الأرض، ويفتخروا بانتمائهم لها، دون أشواقٍ لأرضٍ هاجر منها أسلافهم.. تركوها وراءهم منذ عصور سحيقة، هذا هو الحل“.

مدّ بروف محمود يده بملفٍ أحمر اللون لجادين وهو يقول:

”هل اطلعت على هذا التقرير: (نظام يقتل شعبه؟)“.

أخذ جادين يُقلب صفحات الملف، قبل أن يقول:

”مررت عليه مرورًا عابرًا، لم يكن لدي وقت لكن سأقرأه الآن“.

كان التقرير عبارة عن إفادات اللاجئين، والنازحين من مناطق الحرب، لمدنوبي "منظمة الحقيقة والسلام" التي كشفت مؤخرًا عن استخدام نظام المقدس سره، لأسلحة محظورة ومحرمّة، في حربه الشرسة ضد هوامش البلاد الأسيـرة!

كذلك أشار التقرير، لاستخدام الرُصاص الحيّ والمطاطي، ونوع غريب من الغاز، يؤكد الخبراء أنه نوع نادر الوجود، تم استخدامه في قمع التظاهرات الطلابية!

أخذت عينا جادين تجربان على السطور بسرعة خاطفة، إلى أن
تخطى المقدمة، وأخذ يقرأ بصوتٍ مسموعٍ لاهث، ثم أخذ صوته
يخفت شيئاً فشيئاً، إذ كان ما يقرأه من إفادات يبدو مرعباً حقاً!

بدأ التقرير بإفادة يائسة لأحد المهجرين داخلياً:

”لقد فقدت كل شيء، ولم يعد لدي سوى أصابع اليدين“..

وقال آخر بغضب وقد تسائل الزَّيد من شذقيه:

”لا أرغب في العودة، ما دامت لا توجد ضمانات، لسلامة
أسرتي“..

وفي خوف مريع روى صبي يبلغ من العمر ثلاثة عشر عاماً، أن
مليشيات وجهاز عسس الجنكـويز، اختطفته من أحد الحقول،
واقادته إلى مخيمٍ بالقرب من حدود الصعيد، وهناك جُرد من
ملابسه وتعرض للجلد المبرح!

فيما أكد آخر بأسى، أنه تعرض للاغتصاب واحتُجز، في أحد
المخيمات الخاصة بـ الجنكـويز لمدة ثلاثة أسابيع، إلى أن تمكن من
الهرب.. ووصف أحد زعماء القرى في غبن، صوّر العنف ضد النساء،
خلال الحرب التي أعلنتها الحاكمة الجنكـويزي العام، لنظام المقدّس
سرّه:

”كانوا يأتون ويأخذون نساءنا وبناتنا، ويتلذذون باغتصابهن على مرأى منا“..

فيما حكّت امرأة بصوتٍ منكسر، أن مجموعة من المهاجمين، يرتدون ملابس مدنية وعسكرية، اقتادوها مع مجموعة من الفتيات، حيث تعرضن للاغتصاب مرارًا، على مدى ثلاث أيام، وقالوا لهن:

”عندما تأتي المرّة القادمة سوف نُبيدكم جميعًا، ولن نُبقيَ طفلًا واحدًا على قيد الحياة!“..

وعلّقت منظمة الحقيقة والسلام، على الجزء الأول من التقرير قائلة: ”إن نظام المقدّس سرّه، يتحمّل مسؤولية ما يجري من (تطهير) في دار الرّيح، وأنها ستعمل على توثيق القتل الجماعي للشعب، بل قتله حتى أثناء أدائه شعائره الدينية، وتدّيس مقدّساته. كما ستوثق أيضًا الإعدامات السريعة للأهالي البسطاء، وإحراق المدن والقرى، والإخلاء بالقوة، لأهل الأرض وإحلال غرباء محلّهم تم استجلاهم من غرب إفريقيا، والاستيلاء على ممتلكاتهم وأراضيهم الزراعية الشاسعة..

سنوثّق لكل شيء ولن نترك فرضًا ناقصًا“.

□□□

في تلك الظهيرة الكالحة، المقبورة في أزمنة سحيقة منسيّة،
وفيما تحرّك عدد من أعيان البعاعيت الذين بلغ بهم الغضب مداه،
على ممارسات السلطان أبو كردوس، وجهتهم مقر إقامة الوزير أبو
ركبة بالقرب من جبل (الرّي)، حيث يعسكر جيشه، أخذوا يغذون
الخُطى لا توقفهم حتى الحوجة لشربة ماء! مدفوعين بالأمر الجلل!

كان واضحًا أن (مملكة فاز) تعيش أسوأ مراحل حياتها، بعد أن
خبأ بريق الرّقابة العسكرية ونفوذها، الذي لطالما كان العضد، الذي
يسند أعمدة الدولة، كلما هبّت عليها أعاصير الدّاخل أو الخارج.

هذه الرّقابة العسكرية الصارمة، التي عزلت من قبل السلطان
(أونطّة الثالث)، بسبب استهتاره وظلمه للنّاس، وانهياره الأخلاقي
المرعب، ولا مبالاته بالأعراف السائدة!

هذه الرّقابة التي أجبرت "جبور الخامس"، على النزول عند
رغبة الجيش، وإحقاق العدل بين النّاس، فانصاع مُكرهًا، خشية
ثورة الأمراء الرّنج أحفاد ملوك (كليوة) البائدة ونبلائها الغابرين! هذا
الجيش الذي لطالما تصدّى للمؤامرات، داخل الأسرة المالكة، وخاض
حروب السلطنة ضد التمردات في جبال (فاز)، والصعيد بين قبائل
(الجلك!) وفي دار الرّنج لإخضاع أهالي الهشابات وقبزان المرافعين ..

هذا الجيش المتمرّس في الحروب الدّاخلية، خاض الحرب تلو
الأخرى ضد الأتراش الغُزاة أيضًا! لم يكن ثمة سلطان من سلاطين
فاز المتعاقبين، لا يخشى غضبة هذا الجيش، الذي لطالما خبر التأمّر

والحروب والتمردات هنا وهناك، في البلاد الأسيرة مترامية الأطراف! فلطالما خلع السلاطين، بسبب سوء الإدارة والحكم، والاستهتار بمقدرات الشعب والدولة، لكن اللحظة التي يواجهها هذا الجيش الآن، على عهد السلطان أبوكردوس، تختلف عن كل ما واجه من لحظات!

ففيما كان أعيان (البعاعيت) يقتربون من مقر إقامة قائد الجيش أبوركبة على مقربة من جبل الرّي، كان التجار الجدد، الذين تمكنوا بدأب صبور من تفكيك احتكار السلطان أبوكردوس لتجارة السلطنة، قد استصحبوا اتباع صانع الفخار، كدرعٍ واقٍ، تحسبًا لأي مواجهة محتملة، مع سلطان ضعيف كنمر جريح، أخذ نفوذه على قطاعات نافذة في شعبه ينحسرو ويتبدد!

كان هؤلاء التجار، قد التقوا في وقتٍ سابق، باتباع صانع الفخار النّافذين، ومن ثم التقوا بأعيان البعاعيت وتباحثوا معهم جميعًا، في أمرٍ انتشال السلطنة من تداعيتها المتسارع، الذي كان السبيل الوحيد لإيقافه، هو إزالة السلطان أبوكردوس، وتنصيب أبوركبة محله!

كانت هذه الحركة الدؤوبة، بمثابة إعلان عن مولد "قوى جديدة"، عازمة لا على تفكيك الاحتكار المزمع للسلطان لثروات السلطنة فحسب، بل أيضًا عازمة على القضاء على أي مظهر للنفوذ الأمومي، الموروث من "كليوة البائدة"، التي فيما ورثت فازموا وقع

سلطتها، ظلت هي تسعى جاهدة إلى إلغاء والقضاء على كل موروثاتها الأخرى، التي سادت لآلاف السنوات!

هؤلاء التجار الذين رأوا العالم، بحكم حركتهم في الجغرافيا الواسعة للبلاد الأسيوية والجوار! كانوا مدفوعين بغبائن شتى! فالنظام الأمومي الذي حكم السلطنة، وقف سدًا منيعًا بوجه بعضهم في الاقتران بحبيباتهم من الأميرات، إذ كانت السلطة تنتقل من السلطان لابن أخته، إذا لم يكن له ولي عهد من صلبه، ولا يكون السلطان سلطانًا، إلا إذا كان من نسل بنات "الجور". وكان الخال شقيق الأم والمكّي بـ "سيد القوم" ذا سلطة عظيمة في البلاط الملكي، إذ يقوم بإدارة القصر وتعليم الأمراء، وله وحده تسند مهمة قتل السلطان إن أرادوا عزله.

وبموجب هذا النظام لم يكن أي "مانجلك" ليصبح ملكًا أو أربابًا في (مملكة فاز) إن لم يكن متزوجًا بإحدى بنات "الجور" وهذا ما سبب انغلاقًا في الأسرة المالكة، إذ إن أبناء الأرابيب لا يصبحون أرابيب، إذا لم ينجحوا في الزواج بإحدى حفيدات "الجور" من سلالة البعايت المنحدرين من الجوار في السافل!

وبذا كثُر الأرابيب "السابقين الفاشلين" في استعادة أرابيبيتهم، ما خلق غبائن وسخطًا، على العُرف والتقاليد، فقد وجدوا أنفسهم في منزلة بين "الأتباع" و"السادة!" وهؤلاء كانوا هم الرّصيد الذي نهل منه صانعو الفخار، فحصدوا كثيرًا من الأتباع المدفوعين بغبائن لا حدود لها!

لذا عندما اجتمع التجار مع كل هؤلاء، بأعيان البعاعيت، كانوا محتقنين بعشرات الأفكار، التي تجد دعماً من فئات عدّة، ذات مصلحة في الانقلاب على النظام السائد، الذي أعطى السلطان والأسرة المالكة كل شيء، وحرّمهم من كل شيء!

لكن لم يكن "السلطان- الإله"، هو ذاته! فقد خُففت قدراته منذ انقلاب "أرتكني" قبل مئات السنوات، فصار كسلطان، مجرداً من قدراته الماورائية، كملك للشمس والظلّ، المخفي والظاهر، المحسوس وغير المرئي، وانحصرت سلطته على الأرض وما عليها، محتفظاً بالقدرة على قتل مخالفه متى رغب ذلك!

وخفّت هذه القدرات أكثر، باتساع نفوذ الأديان الجديدة التي بدأت تغزو مملكة أرتكني مترامية الأطراف، من آنٍ لآخر! إلى أن هيمن آخر الأديان الغازية على مملكة فاز البائدة، التي تحدّرت منها الملوك والحكام العامين الجنكوز!

□□□

انكمش المريود في ركن قصي من الزنزانه، وهو يستعيد في ذاكرته المضطربة، التي تتداخل فيها وقائع التاريخ، فتختلط الممالك والجُغرافيا والنّاس، وتتداخل الأزمنة!

لأنه يسقط في ثقب زمني منه وإليه.. يرى وجه الخليفة "تور الجر" كالحا متجهماً يخلو من أي علامة صلاح!

يرى خراب العامر.. يرى أمراء (أم كواكية) فلا يستطيع تمييزهم
عن الجنكوز، ويرى البلاد الأسيرة بسنواتها القاسية العجاف،
المتجددة في كل عصر، فيتهدّ بحسرة.

يتمعن جادين جانو الحفيد وجهه بإشفاق ويقول معزناً:

”لست الوحيد.. جرثومة الضلال والاستبداد ورثناها من
أسلافنا في التاريخ الغابر، والتاريخ الذي نعيشه الآن!“.

ثم يصمت لبرهة ويتابع:

”هؤلاء جميعاً منذ عصر كهنة كليوة البائدة، أصبحوا بمرور
الوقت، طائفة دينية مهمتها قلقلة الأهالي وإرهابهم وتخويفهم،
جميعهم يمثلون عقلاً واحداً، لهذه البلاد الحزينة! إنه تحالف تاريخي
رهيب؛ تجده في مملكة قرضاية، وفي دولة "تورالجر"، وتجده في
الدولة الممتدة منذ منتصف القرن الماضي، وقدر صانع الفخار في كل
زمان مواجهة، هذا التحالف!

وأرتكني وعرقلة، وكسار ركب أم كواكية، وصانع الفخار
الحفيد، ما هم إلا الشخص نفسه، الذي قاد هذه الثورة المجيدة،
واستشهد في اعتصام القيادة العامة، لتحلق روحه، وتتماهى في روح
صانع الفخار.. مع كل الأرواح التي تماهت على مر العصور، في روح
صانع الفخار الخالدة!

□□□

من خلال أغصان الجُهَنَّمِيَّةِ الحمراء، رأى ود دَبْرِكُ الغيوم الرمادية، وقد حجبت ضوء الشمس الوهاج، والأرض المفروشة ببساطٍ ضبابي، وتنبَّه من شروده على زقزقة عشوشة، التي كانت تسعى جاهدة لإطعام فراخها الجُدد، وبطبيعة الحال لم يتجرأ ليسألها السؤال المتوقع:

”أبناء من هؤلاء؟“.

فهو يعلم قد يكون والدهم أحد طيور الموائ، التي ”تُرِكُ“ على السفن، أو طائرًا مدجنًا لا يفارق سقف منزل قديم، وربما أحد تلك العصافير التي تتخلف سهوًا عن أسراب هجرتها، فتقطع بها السبل عن الأهل والأوطان.

وفيما هو منشغل بهذه الخيالات، كانت عشوشة تويخ أحد فراخها، الذي لا يريد أن يفتح منقاره، ليتلقى منها الطعام، كان قد بدئ شاحبًا كالعليل، وتساءل ود دَبْرِكُ ترى هل يشعر بأن حال عشوشة يزداد سوءًا، وهي تراه على هذه الحال المزرية!

□□□

أنا ”ود دَبْرِكُ بن زرزور الدَّوري“، ها أقعي الآن وحيدًا، في عُشي بقلبِ شجرة ”الجُهَنَّمِيَّةِ الحمراء“ أتأمل أحوال العالم والناس، في هذا البلد ”القرودود“ غير آبهٍ لزمهريرِ شتاء، أو ”صيفٍ قيطوني“.. لا مباليًا ”ببرقٍ عبادي“ أو زفيف ”الهبابيب والكتاحات“ التي تدفع ”اعصار الشيطان“ ليحاصر عالمي الصغير، ويبعثر عشيَّ قشَّة قشَّة!

لم يعد في هذا العالم، ما يثير اهتمامي، حتى نَحَّ "مطر العينة"،
على غير عاداته، في وحدتي البديعة، يتخلى عن مسؤولياته التاريخية،
ويحصر هطوله في ذاكرتي.. يُغرقني فيما مضى من وقائع حياتي
وأحداثها المؤسفة!

من بين كل أفراد سلالاتي عبر التاريخ، عشت طويلاً جداً،
عاصرت أنبياء لا يعرفهم أحد، ولفنت انتباهي تعاليم "هرمس ومانى
ومزدك"، هؤلاء الذين لربما لم يكونوا يعرفون أنفسهم، كرسل لهذه
البشرية المعذبة!

في مراهقتي الباكرة، قبل مئات السنوات، أحببت (عشوشة
الأولى)، عندما سمعتها تزقزق عند (قيف) التهر:

"أنا نرجس السنونو، سوسنة الأودية، بين الشوك، كالتفاح بين
شجر العُشرواللعوت، كذلك حبيبي بين الشبان".

يا لتلك اللحظات، عندما أتذكر تلك الشهوات.. الآن، رغم مرور
مئات السنوات، أشعر كأنها تحدث للتو، فمهيج في الشجن، ويتوتر
فكري، وينتفض وجداني، وتحمر عيناى وتغرورقان شبقاً!

ثم كالاتي من إحدى الرحلات الطويلة، طائراً لآلاف الأميال دون
توقف، أصوصو بصوتٍ أكثر رخامة، من صوت طائر الكستناء!

ذلك الطائر الوحيد بين الطيور، الذي يعتقد البشر في قدرته
على ترتيب الأصوات! بحيث تحمل معاني أورسائل مختلفة على

التواصل فيما بينها! الكائن البشري المغرور، يظن أن ما يصدرعنا،
ليس سوى، مهممات غامضة لا معنى لها!

سيمضي وقت طويل، قبل أن يعرف، أنها أصوات مرتبة..
منسقة.. كما اكتشف "سُلَيْمان الحكيم" ذلك من قبل!

بهذه الأصوات نتواصل مع بعضنا بعضًا، نُعيد ترتيبها في نظامٍ
معين، حسب مقتضى الرّسائل، المُراد تمريرها لبقية الطيور أو طائر
معين أو حيوان محدد! وغالبًا لا نحتاج لمترجمين، في تواصلنا مع
بعض الزّواحف والمواشي!

تُرى كم من الوقت سيمضي، ليُدرك بني الإنسان، أن الأصوات
التي يصدرها أبناء جنسنا من قبائل الطيور، هي لُغتنا في التواصل مع
هذا العالم، المسكون بصمت الحقيقة، والغارق في مآسي البشر!؟

وأنهم ليسوا الوحيدين بين الكائنات، الذين يفكرون
ويستطيعون الكلام!

□□□

ثم ماذا عني أنا المنشق المربود؟

باختصاريا سادتي أنا كغيري مثل كثيرين عبرتاريخنا القديم
والحديث، كنت مجرد أداة.. أحد الأدوات التي تُريد إلغاء هذا التاريخ،
وكتابة تاريخ جديد، من وحي أفكار الشيخ الهميم وكهنته، الصادرة

منهم هم كبشريين، والمستلهمة لتاريخ من الجبر والاستبداد
الصَّحراوي البدوي.

الهميم العرَّاب مثله مثل أي بشري طامح في السلطة والهيمنة،
يرغب أن يكون مختلفًا عن الآخرين.. كنت تلميذه النجيب، الذي
يعيش أشواقه وتهاويمه وأحلامه وطموحاته البشرية! كانها أوامر
إلهية..

هذا ما كنته أنا المريود جبر الدَّار المريود، وكما علمتم، أني لم
أنحدر من أسرة من أعيان البلدة القديمة، أو عائلاتها الجنكوزية
الكبيرة، فسلالة أبي عبر تاريخها القديم؛ بعد أن فقدت نبالتها، ظلَّت
تمتهن صناعة الفخار.

وعندما ضربتها رياح التطوُّر، امتهنت صناعة مشغولات السعف
بدءًا بـ "قتل" الحبال وصناعة ("البروش والنطوع والمقاشيش
والمشلعيبات وتجليد البنابر والعناقريب")، مرورًا بحفر الآبار والزراعة
في مشاريع وضع اليد -خارج التخطيط- وبناء "القطاطي والرواكيب"
و"ربيط" "عروش" بيوت الطين!.. ومع ذلك كنت واحدًا من أعضاء
"حزب العرَّاب" المهمين القلائل!

منذ حادثة سني! لم أمارس مهنة أجدادي، ولم أتعلم في
الخلاوى، بل لم أقرأ أي من الأناجيل أو التوراة، التي آمنوا بها في
الماضي السحيق، ولم ينتابني أي نوع من الفضول، للتعرف على

إليهم "أبا دماك" بل نلت تعليماً مدنياً رفيعاً، اقتداءً بسنة العراب
الذي نال تعليماً تخطى إجازة القانون!

□□□

عندما كانت السُرّة في ريعان شبابها، كان غاية حُلْمها الرّحيل
عن هذه البلاد الأسيّرة، وفي الحقيقة لم يكن ذاك حُلْم السُرّة وحدها،
فقد حلم شباب وصبايا البلدة القديمة جميعهم الحُلْم نفسه.

في صباها خرجت ذات مرّة من البلدة القديمة مقرّرة الرّحيل،
ولكن فكرت بأن توجّل هذا الأمر، إلى أن تختطف يد القدر والدتها،
التي تعاني من كل علل البلاد الأسيّرة.. أحسّت السُرّة وقتها أن
انتظارها لن يطول، فالزّمن المرتقب في طريقه إليها.

السُرّة تعدّبت في حياتها كثيراً.. خدمت طويلاً في بيع الكسرة
والطعمية واللقيمات، وقبل أن تتركّن إلى دُكانتها، التي تباع فيها
التوابل والعلاجات الشعبيّة، كانت قد عملت قبلها لسنواتٍ في بيع
الشاي، الذي تركته لتخدم في البيوت.

ذات مرّة عملت خادمة عند إحدى العائلات الثريّة، إلى أن قرّر
رب العائلة الملتحي المتخّم، أن يتخذها عشيقّة بمنأى عن عيون
زوجته، فصممت على إنهاء خدمتها، وغادرت البيت، مخلفة وراءها
مرارة قاسية، ومن ما أدخرته في سنواتٍ معاناتها، افتتحت محلها
الخاص للتوابل والأعشاب والأدوية البلديّة.

وقتها كان أهل البلاد الأسيرة قد هبُّوا إلى ثورتهم الثانية، فأحرقوا بيوت الجنكويز والتجار الجشعين، والعسس السَّري، ورجال الدولة الفاسدين، كان كأن ألف شيطان انطلق من الجحيم، ليحل في أجسادهم النَّاحلة وأرواحهم المعذَّبة.. يحرقون ويضربون من يعترض طريقهم، ولسان حال كل منهم يقول:

“لا أستطيع أن أتحمّل الظلم بعد اليوم.”

كانت أخبار الثورة قد انداحت وتمددت، تملأ أركان الدنيا الأربعة، وأخبار الأهالي الثائرين الرهيبة، تُغرد بها طيور الخلاء، ويحملها عواء الذئاب وأصوات زواحف الأرض وحشراتهما.. حتى الهوام التصقت في جلود الدواب، وتطوعت لتحمل الأخبار من مكان إلى مكان..

الرُّعاة الرُّحل الذين تقطعت بهم سباسب الصحاري ووهابها، سمعوا بما جرى! وما من أحد لم يكن يتوقع أن ما حدث سيحدث، فقد تفجرت أخيراً قلوب الأهالي، بما انشجنت به من آلام وعذابات قرون طويلة، ضد هؤلاء المستعمرين المحليين، الذين لطالما اعتقدوا أن السوط سيخمد النيران المشتعلة في قلوب النَّاس، أو ربما ستكون الخناجر أو المشانق، أو حتى البيع بالمزاد العلني، في ساحات أسواق النخاسة، وسماسرة العقارات والأراضي في القبل الأربعة، سيكون كل ذلك رادعاً لنقمتهم الجامحة، والغضب لما حل بهم وبثرواتهم!

خطر في ذهنهم أخيرًا، أن المعاملة اللطيفة، من شأنها أن تحد من اندفاعهم، فما كان من الحاكم العام وزوجاته العديداً، إلا أن تخلوا عن كبرياتهم الزائف، وقصدوا زائرين مبتسمين، بعض الأهالي ممن كانت تربطهم بهم صلات فيما مضى، قبل استيلاء الحاكم العام على السُّلطة، لكن كان الوقت قد تأخر كثيراً على الاعتذار أو الندم!

لطالما تساءل ود دَبْرِك فيما إذا عاش هؤلاء جميعاً، بمختلف ملهم ونحلمهم! حياة مشتركة، لكانوا سعداء؟

لكن الأمور لا تمضي على النحو الذي يتخيله، أو تبشر به حكايات الجدات، وهن يسردن على أحفادهن، انتصار الخير على الشر في نهاية الأمر، ليطرذن من أذهانهن شبح الصراع على سقط متاع الدنيا، ويعدن بالخير الوفير في خاتمة المطاف، والأمن من الخوف والجوع.

ما رآه ود دَبْرِك في الثورة الثالثة، في ذلك اليوم، كان حكاية من نوع آخر، فهي حكاية لا يمكن أن يطويها النسيان، فقد بزغ فجر يوم طالما توقعه، ويدرك أن كثيرون حلموا به! يوم شهد هروب الجنكويز، ولعلعة الرُصاص في الأجواء!

فما أن رك في ذلك اليوم ينضوع ريشه وعشاء الطيران، وإنهاك التحليق، حتى خُيِّل إليه أن ما يحدث هو يوم الحساب العظيم، فيما كانت عشوشة وقتنذ قابعة في عشها مذهولة متسائلة عن سِر هذا اليوم الغريب، الذي انشقت فيه الأرض عن بشرٍ لا عد ولا حصر لهم،

حتى حُيِّلَ لها أن الأموات عبر آلاف السنوات بُعثوا من جديد،
وتدفقوا مع الجموع الهادرة.

□□□

لم يكن ثمة من يتوقع هذا التفكُّك المريع لـ”نظام الحاكم العام“
الذي لطالما زعم أنه لن يُسَلِّم السُّلطة، إلا للسيد المسيح المنتظر!

حتى أنظمة الجوار كانت تنظر إليه ”كسوبر نظام“ لم تهدّه هبّات
الجماهير ولا انتفاضاتها.. لم تهدّه الانقلابات والتحركات العسكرية
المناوئة.. لم يهدّه غزو القوى المسلحة، التي توغلت داخل أحياء
حاضرته.

كان كالقط ينجوي في كل مرّة أشد تماسكًا، أو هذا ما كان يطفو
على السطح، الذي يُخبئ تحته ”ميت بحر“ لم تنقذه قشّة، ولا كل
نباتات عُشبة معونة النيل الوديعة!

فجأة أو كما اعتقد كثيرون، أن ما حدث حدث فجأة، انقسمت
الأجهزة الأمنية والجيش والمليشيات، في اللحظة ذاتها التي تفجرت
فيها شوارع حاضرة البلاد الكبيرة ومدنها!

تلاميذ المدارس، طلاب الجامعات، ربّات البيوت، المزارعون
السابقون، أرباب المعاشات الإجبارية، والمحالون إلى الصالح العام،
القرى والفرقان.. الحلالات والبلدات.. ضحايا التعذيب والاعتقالات
التعسفية..

أرواح كل "فطائيس" الحرب! قتلى حرب الصعيد الطويلة..
الكنداكات.. ضحايا الاغتصاب والنظام العام والعنف المنزلي!

لم يكن ثمة أحد لم يخرج ليملاً الشوارع بالهتاف ضد الرُصاص المضاد، للشعارات الغفيرة التي تُرددتها الجموع، التي جاءت من كل فجٍّ من فجاج البلاد الأسيرة.. مشياً على الأقدام.. على ظهر الحمير والخيول والجمال! المواطر، الرُكشات والبصات، حتى القطارالذي يقسم البلاد الأسيرة بطولها وعرضها، أخذ يتغشى مُدن الصعيد.. السافل ودارصباح، التي تُزاحم سُكانها تلبيةً للهِتافات المدوية، التي حاصرت القصرالجنكويزي العام، وقيادة الجيش ومباني العسس السري!

كان الأعمى يحمل المكسر.. رجال الطُرق الصوفية وكبارالسِن والجدّات.. كل هؤلاء وأولئك ضربوا بخروجهم على الحاكم "الفتوى التي كفرتهم جميعاً" عرض الحائط، وخرجوا يلتحمون مع الجماهير التي سبقتهم؛ لا تخشى دوي الرصاص الذي هطل كالمطر، ومألت دماء الشهداء ميدان الاعتصام أمام القيادة العامة للجنكويز، والشوارع.. الأحياء المحيطة التي تفضي إلى قاع المدينة.

لم يتراجعوا.

كان الجميع مصراً على إسقاط الحاكم العام ونظامه أو الموت!
وهم يهتفون ملء حناجرهم الهيبة: "الحرية أو الموت!".

وهو يُحَلِّقُ في سوق السَعَف، رأى عَوَجَ الدرب يدخل راكوبته،
وقد اندفع وراءه عدد من صبية الورنيش المضطربين وعمال الدِّبَاغَة،
وصرخوا جميعًا بصوت واحد:

”انهض يا ود البصير.. انهضي يا خالتي السُرَّة، وشاهدي
الخلاص لقد أصبحنا أحرارًا“.

أمسك أحد صبية الورنيش بيدي السُرَّة، التي لطالما أطعمته،
والدموع تنساب على خديه. لفحت السُرَّة ثوبها وسوَّته، واتجهت نحو
الطريق لتشهد اليوم العظيم.

في ذلك اليوم رأت المتكبرين والمتعجرفين يخرون أذلاء، تضرب
جنوبهم المسكنة، وقد ألقيت من نوافذ دورهم ملابس الحرير
الخضراء والمخملية!

كما رأت العديد من المشردين، يسحقون حديقة القصر الكبير،
بأقدامهم، ويشرعون البوابة الكبيرة على مصراعها..

كان في داخل ذلك القصر الكبير أحد سادة الجَنكُويز العُتَاة
وزوجاته وأهله، انتزع هذا القصر من أحد الأهالي الأثرياء، واستولى
عليه بوضع اليد، وجعل الحرس على أبوابه..

ها هو يسقط الآن تحت هتافات الأهالي، الذين لا شيء يمنعهم
من عبور كل بوابات الدنيا، في هذه اللحظة المجيدة!

حزم ود البصير ما تيسر من منهوبات في قطعة من القماش،
ووضعها على رأسه وخرج باتجاه السافل!

□□□

ذلك الصباح القارص، والشتاء يتثاب في الخلايا والعظام،
لمحت نطعًا من السعف.. كان نطعًا مزركشًا بألوان "التفتة" والحناء،
ومحلى في ذوائبه بالودع وصدف البحر الملوّن!

بدئ واضحًا من زركشته البديعة، أنه صنع بأيدي نساجات
ونساجين متعددي الخبرات، في دار الريح والسافل، فزخرفته لا تشبه
أية زخرفة رأيتها من قبل.

حدثتني نفسي بضرورة الحصول على سعفات من هذا النطع
الجميل، أهديها لعشوشة تزركش بها عشنا.

وفيما كنت اتفحص النطع، قفزت إلى خاطري ذكرى بعيدة،
ليومٍ عابر، في تاريخٍ غابر، من سنةِ المجاعة الأخيرة، في الأعوامِ
السبعة، التي تلت فيضان النهر.

وقتها انتشرت الأمراض والأوبئة والحشرات، و أقحلت الأرض
حتى صارت بورًا وجف الماء.. تفشت الكوليرا والمالريا بين الناس،
وأسقطت النساء أحمالهن، وتدهورت حال الحياة، فتجمع الأهالي
تحت شُرْفَةِ قصر الحاكم العام يستعطفونه، وهم يستعيدون في
ذاكراتهم مبتدى انقلابه، وما بذل من وعود، بعد أن رمى بالحاكم

العام السابق خراب العامري في السجن، حيث قُتل وهو يحاول فضّ
عراكٍ مفتعل نشب بين سجناء عنبره!

ومن ثم قُبيل أن تنتهي شهور عدّة زوجة الحاكم العام السابق،
تزوجها ودخل عليها! وكنت أنا ود ذبرق الشاهد الوحيد على كل ما
جرى، رأيته وسمعتة، من أعلا أغصان الجُهنّمية وهو يهدئ الأهالي..
ويعدّهم، ورأيتة بعد انصرافهم من قصره، الذي كانوا قد حاصروه،
وهو يأمر عسسه السّريّ خلسةً، بقتل من "حان أجله" واعتقال
النّاجين!

مثلاً رأيته وسمعتة قبل عقود خلت، وهو يتلو بيانه الأول على
مسمع الأهالي، يبشّرههم بفجرٍ جديد! نعم، مرّةً أخرى رأيته، في ذلك
اليوم البعيد، عندما حطيت على السلك الشائك، أثناء تفقده ثكنات
الضباط الجديدة.

رأيت عينيه وهما تتناهشان جسد امرأة جميلة، تعبر أمام
إحدى الدُور، أخبره عسسه السّريّ أنها، زوجة صديقه قائد الجيش،
ولم تمض سوى أيام قلائل، حتى انفجرت طائرة ذلك القائد أثناء
عودته، من أحراش الصعيد..

سيسألني أطفالكم وهم يطاردوني كعادتهم بالنبال:

"وماذا فعلت زوجة القائد؟"

صه! إنَّها ليست قصة قبل النَّوم! إنَّها الحقيقة، لقد فرحت
فرحاً شديداً، فقد أبدلتها الرُّوح العظيمة، ما هو خير من زوجها!

□□□

عندما سمع الحاكم العام شكوى النَّاس، الذَّين أحاطوا القصر
كأسورة، أرسل صديقه المقربَّ الترح قائد العسس السري، إلى منزل
الشيخ العزَّاب "كبير كهنته" فأبلغه كبير الكهنة، أن البلاء لن يرحل
عن هذه الدولة، إلا بعد القصاص من قاتل قائد الجيش!

فأرسل الحاكم العام إلى كاهن يدعى "حاضر الغائب" كان على
علمٍ بقصة قتل قائد الجيش، لعله يصل إلى دليل محبوبك لقاتل
آخر، وكان "الغائب" في أخريات أيامه، يريد أن ينأى بنفسه عن
الأكاذيب، التي لطالما صاغها، ليستخدمها الحاكم العام، لدحض
أكاذيب هذا الشعب المفتري، فتهرب عن الإجابة!

لكن قائد العسس السري هدده وأصرَّ عليه، فقال له:

"لقد تعبت من الأكاذيب، وأرى أنكم لستم بحاجة لمن هو مثلي،
فقد فُتتموني، يمكنكم تليفيق أي شيء بسهولة وسيصدق النَّاس
كما اعتادوا، لكن، أبلغ الحاكم العام عني، أنه هو القاتل، وما لا
يعلمه أن القتل شقيقه".

فصعق قائد العسس السري وأرغى وأزبد وهاج وماج:

“أنت كاذب”

“لقد أنفقت عمري كله في الأكاذيب، حتى لم يبقَ منه شيء، وهذه هي الحقيقة الوحيدة، وإن شئت فاذهب إلى العراب الهميم كبير الكهنة، فستعلم حينها صدق روايتي.”

نعم، أنا ود دبرك رأيتَه بأَم عينيَّ وسمعت ما دار بينهما من

حوار!

بل قبل عقود خلت، خلدت إلى أعلى سور أحد البيوت المطلّة على كومة قمامة كبيرة كجبلٍ صغير، ورأيت امرأة ترمي بطفل، ذلك الطفل أصبح في مقبل الأيام قائداً للجيش! نعم، شاهدت كبير الكهنة، وهو يلتقط طفلاً حديث الولادة، ملقى في كومة القمامة تلك، فحمله وتبعته حتى وصل إلى داره، وكان أن وجد الغائب هناك بانتظاره في شأن من شؤون الدنيا!

وهكذا لم يعرف أحد سوى الشيخ الهميم كبير الكهنة والغائب، حتى هذه اللحظة التي صعب فيها الترح قائد البوليس السري، الذي لطالما توهم أنه يعرف الشاردة والواردة، وما تسرّبه أنفُس الأهالي ولا تعلنه، وهو على كل شيءٍ قدير!

□□□

في أمسية من أواخر الصيف اللوح، لذلك العام الكئيب،
جلس ود دبرك على غصن شجرة الجهنمية ليبدأ في استعادة ذاكرته
وما ارتبط بها من وقائع وأحداث، لعصافير في مشارق الأرض ومغاربها،
ربطته بهم صلوات طيبة!

كانت أفكاره قد ترتبت تمامًا في ذهنه، واختفت تلك السُحُب
التي كانت تُحيطها، وكما جرت العادة، أخذ يضرب الهواء بجناحيه،
دون أن يطير، علّه يبعث شيئًا من النشاط إلى جسمه المتلهف، منذ
أيام للقاء عشوشة!

وفي اللحظة التي شرع فيها "ود دبرك" باستعادة ذكرياته التي لا
قيمة لها، كما ظن وقتها! ولكن بعد عشرات السنوات، سيعثر على
هذه الذكريات فريق من المستكشفين القادمين من عالم آخر بعيد
جدًا، ويقرؤون ما خطه ريش ود دبرك على قشر بيض عشوشة
المتحجر، الذي وجدوه مغمورًا تحت أمتار من رماد أسود، غطى سطح
أرض البلدة القديمة بالكامل.

وبذا يكون "ود دبرك" قد تمكّن أخيرًا من تحقيق الخلود
لاسمه، بوصفه الكائن الذي استعاد ذكرياته على قشر البيض الذي
لم يكتب له التفقيس، فكان شاهدًا على انقراض، آخر شهود
محتملين لعصورٍ بائدة.

في الحقيقة، لم تتجاوز ذكريات ود دبرك سوى أسطر زرقية
قصيرة، فيما انطوت عليه مخطوطات الخزين، التي جاء فيها:

”في البدء كانت الروح العظيمة، خلقت الديناصورات، بكلمةٍ منها، فجاء الكهنة وسائر الحيوانات، ثم الطيور، فالبشر الذين اخترعوا آلات الدّمار، التي قتلوا بها بعضهم البعض، ثم لم يبقَ شيء سوى بيض عشوشة المتحجر! الذي ربما يجده عالم آثار مغمور بعد مئات السنوات، فيظن أنه حصل على الإجابات الشافية حول ما جرى! فيُترجم كل العبارات، التي على قشر البيض إلى معانٍ لم تخطر على بال ود دبرك مطلقاً!

حتى تلك العبارات التي تصف حال العميان، يظن أنها تتحدث عن قومٍ بوسعهم الرؤية إلى مدى أوسع من راحة البال!



وفيما روى (الهُدُهد بن زرزور الدّوري) على هامش مخطوطة ”صانع الفخار“، نقلاً عن الخزين، أنه وقبيل سقوط (مملكة كليونّة) بقليل، كان ثمة شعب من كهنة الإله (أبادماك) بعائلاتهم وخدمهم وحشمهم، يعيشون في ثكنة منفية، ظل ملوك الرُّماة يخصّصونها لهم.

هذا الشعب الصغير، كانت ثكنته أشبه بمدينة صغيرة بمسرحها الدّيني، وشعرائها الفحول، ومغنيها ذوي الأصوات العذبة، ونسائها الجميلات، لكن ودون توقع، اختفى هذا الشعب الصغير، قُبيل سقوط كليونّة بقليل، ولم يُعثَر له على أثر. بل لم يتم العثور على أي شيء، منحوت أو مدوّن يشير إليه!

بل عبر عشرات الأجيال، كان بعض الأهالي يتداولون عن أسلافهم الحكايا، بأن هذا الشعب الغائب، تفرّق في أركان الأرض، وسيأتي ذات يوم بكل العلوم، التي جمعها عبر مئات السنوات، من مختلف الحضارات، ويُقيم حضارة لم ولن يشهد العالم مثلها!

فيما أفراد عائلة الببغاء العريقة، يتفقون على أن هذا الشعب وحضارته مفقودان، وأن صانع الفخار عندما يظهر، ستقوده طيوفه، طاوية المكان والوقت، إلى حيث تعيش أجساد طيوف هذا الشعب مفقودة في منحنيات الزّمن!

بحث المربود في كتب المؤرخين، و(القوالين) من كتبة التراجم والسير والمذكرات، الذين دونوا مشاهدات عصرهم ومشاهد حياتهم، عسى أن يجد ما يشير إلى هذه الحكايات، التي أوردها الهدهد في هوامش بحثه الشهير!

تلك الليلة تعشى ودَبرك مع عشوشة.. وعلى الضّوء الوردي الحالم لحشرات الخنفس المضيئة، التي كانت تحلق في فضاء العُش الصغير، بدلاً عن أن يتحدثا عن الحب، تحدثا حول هذا الأمر، الذي عندما أخبر عشوشة عنه، قالت وهي تهز جناحها:

”من أين جئت بهذه الحكايا“

فقال:

”هوامش الهدهد على مخطوط صانع الفخار“.

وفي الحقيقة هذه الهوامش والمذكرات جميعها، كتبها الخزين، زاعمًا أنه سمعها من منقاري الهدهد وود دبرك، حيث تناهت إلى أذنيه مباشرة، مؤكدًا على إمامه الواسع بلُغة الطَّير والحيوان!

وهكذا، منذ سمعت عشوشة بما ورد في المخطوطة؛ لم تعد المخطوطة شاغل ود دبرك وحده، إذ بدئ أنها انغمست فيها أكثر منه! إلى درجة أن فوجئ بها، في عطلة نهاية الأسبوع، تدخل عُشَّه ليرافقها إلى حيث عثرت مصادفة، على حقيبة بلاستيكية مهترئة، لم تدر محتوياتها لوهلة، فابتسم شاديًا كالبلبل، وهو يمسخ بعينه الكتب واحدًا تلو الآخر، ثم هدَّل كالإمام مجيبًا على التساؤل، الذي أطل من عينها الحائرتين:

”كتب تاريخ.. تاريخ البلاد الأسيرة“.

فقالته مذهولة:

”لم؟“.

”يبدو أن الصدف تريدنا أن نعرف حقيقة ذلك الشعب الصغير، الذي اختفى، دون أن يترك خلفه أثرًا! قد نجد إشارة أو معلومات ما في هذه الكتب“.

وهكذا شرعا في صفيير خافت يقلبان بمخالهما في صفحات الكتب:

البلدة القديمة عبر القرون: لحمام بن يمام البطي، تاريخ البلاد الكبيرة: لطاووس بن بطوط الهدهودي، مدخل إلى تاريخ دارالريح: للبوم بن أبي الجديان الشاهينشاهي، تاريخ دارصباح الحديث: لحسون بن زرزور بن أبي عقاب الجبلي، إلى آخره من دراسات وأبحاث محققة لجهابذة مؤرخين وأثريين شعوب الطيور المقيمة والمهاجرة، والتي شارك في تحقيقها، بعضاً من البعثات الهامة لعلماء التاريخ والآثار، من ممالك طيور الحباري، والنسور، والعقبان، والدوري وأبومركوب في الشرق الأقصى وسيبيريا والهند والسند وفارس!

الذين قاموا في الحقيقة بترجمتها أيضاً إلى لغات الطير الحيّة، في مراكز تفكير الباكير، ومعهد أم حكمتي للتاريخ المعاصر!

وعلى مدى أكثر من شهر، قلب ود دبرك بجناحيه صفحات تلك الكتب، التي ظن أنه ربما يجد ثمّة ممراً، يلوح منه ضوء فيعبراه إلى حيث يجدان معلومات وافية، حول ما حكى الهدهد! لكن دون جدوى!

ليس ثمّة ما يُشير، إلى أن ما أورده بروفيسور هدهد، ينطوي على أي قدر من الصحة! الأمر الذي يشكك في نزاهة أولئك المحققين من أثريين وعلماء تاريخ!

□□□

سأل الجنكويزي راكب الفرس السوداء، الأهالي المتجمعين على
مبعدة من الأنقاض المحترقة لكنيسة البلدة القديمة:

”من رأى منكم صانع الفخار الحفيد؟“.

فرد أحدهم:

”لقد مات مقتولاً... منذ اليوم الأول للغزو..“.

تعالى صوت متوتر من خلفهم:

”يُقال أن بعض الأهالي عثروا على جثته، على مبعدة من
(الjasر) فدفنوها محل شجرة اللّعوت، التي حلّت محلها النخلة!“.

ارتفع صوت أحدهم:

”لا بل يقولون أنه غادر إلى دارالريح، قبل الغزو بأيام!“.

”بل غادر إلى الصعيد يا رجل، جميعهم يقولون ذلك!“.

”ومن ذاك الذي دُفن تحت النخلة، أليس هو؟“.

”كيف يكون هو؟.. هو لا يموت؟!“.

كانت رأس الجنكويزي تستدير تجاه كل متحدّث، وعيناه
تتسعان دهشة، لا يصدق ما يتحدث به الجمع!

جزَّ أسنانه.. نفرت عروق جبينه وعنقه.. ترجَّل عن فرسه،
وانتصب وسطهم كمارد ممشوق. ولشدَّة خوفهم، خيل لهم أن عنقه
تستطيل وتستطيل، حتى يختفي رأسه خلف السحاب!

ارتعدت فرائصهم من الخوف، وهو يصرخ في وجوههم
كالمجنون:

”هل جننتم؟ لا يموت؟ أي أنسي هذا الذي لا يموت؟“.

فقال أحدهم في خوف:

”أنه مربع القامة“

فقاطعه آخر:

”لا بل طويل جدًّا، حتى يُقال أنه يمد يده يشوي السمك، الذي
تهبه له صديقاته حوريات النَّهر، في الشَّمس!“.

تحسَّس الجنكويزي سيفه، وهو يستشيط غضبًا:

”جميعكم كفرة كاذبون، ويبدو أن أحدكم لم يره، أو يعرفه!“.

فأكد أحدهم:

”كل من رآه للمرَّة الأولى، كانت تلك هي المرَّة الأخيرة!“.

فقاطعه أحدهم قبل أن يسترسل:

”بل لم يره أحد لا أولاً ولا آخرًا، فهو لا يلتقي البشر! فكيف يتحدث معهم؟!“.

كان واضحًا أن الجنك——ويزي، قد أصابه اليأس والقنوط، فاستسلم، شد لجام فرسه، وقفز على صهوة، وانطلق مبتعدًا يتمتم بكلمات مبهمة، تاركًا الأهالي خلفه يصطخبون، حول أمر صانع الفخار!

وفيما هم يتغالطون، كان الهدهد الحفيد، يلتقي لحظتها صانع الفخار، ويخبره عن قتل الجنكويزلحبيته ”الكنداكة“!

اتكأ صانع الفخار على ذاته، وهو يشعر بنصلٍ حاد يخترق قلبه.. تماسك قليلاً قليلاً قبل أن يسأل الهدهد:

”من يجيئني بقاتلها؟!“.

لم يجد الهدهد جوابًا، وود لو قال له:

”أنا آتيك به قبل أن يرتد طرفك“.

لكنه لم يجرو، فأشاح بوجهه الشاحب، حتى لا تقع عينيه على عيني صانع الفخار، كانت أعماقه مرتبكة، مهزوزة، نكس رأسه ثم عاد فرفعه، وجاهد بمنقار مرتعش كي يقول كلمة واحدة، لكن جهاده لم يُثمر، فخرّمتهالگًا على جناحيه، حتى تخلّعت بعض ريشاته، فأخذ يتمتم بهدهدة غير مفهومة!

حدّق فيه صانع الفخار مليئاً، وهو يتراجع إلى الخلف، دون أن
ينبس ببنت شفة، وكفقاعة في ذلك المساء الحزين انطفاً!

كان قد اختفى تاركاً الهدُّهُدُ وحده، الذي ما لبث أن انفجر في
عاصفة من الهدَّهَدَّةِ الأسيانة، تتناهشه المخاوف والهواجس
والظُّنون!

□□□

فيما الأفكار تشتعل داخلي، كان صديقي طائر الكستناء الملكي
يصوصو "جج.. جك، جكجك.. جك..) أثناء إطعامه لفراخه! كان
يقول أنه سيعاقب كل من لم يأكل منهم، ودُهِشت كثيراً حين التفت
إلى قائلاً:

"جكجج..كج..كجكج.."

كان يسألني إن لم أكن مرتبطاً فجر الغد، لنطير معاً، إلى مكانٍ
وفير الغذاء اكتشفه، مصادفة، أثناء طيرانه، بحثاً عن طعام لفراخه
حديثه التفقيس!

رُبما يعتقد الإنسان —المغرور— باستعلائه، وسعيه لإلغاء
اللغات الأخرى، وإحلال لغته محلها.. إن لغتنا، البسيطة، ليست
سوى ظاهرة بدائية من ظواهر الأقليات والشعوبيين، في شعوب وأمم
الطير! فالإنسان كعادته يحب مغالطة الأرقام، ولي عنق الحقائق،

وطمس هوية كل ما هو ثابت علميًا بالدليل، إذا تعارض مع توجهات ثقافته السائدة!

□□□

انكمش "المريود" في رُكنِ قَصِيٍّ من الزنزانة، وهو يستعيد وقائع حياته، في ذاكرته المضطربة، التي تتداخل فيها وقائع التاريخ، فتختلط الممالك والجُغرافيا والنَّاس وتتداخل الأزمنة!

لكأنه يسقط في ثقبٍ زمني منه وإليه! يرى وجه الخليفة (تور الجرانثاني) كالحًا متجهماً! يرى أمراء "أم كواكية" فلا يستطيع تمييزهم عن "الجنكويز" فيما البلاد الأسيرة، هي ذاتها بعجفها المتجدد في كل عصر! يتنهد بحسرة، وتَجري على خديه دمعتان مشنوقتان!

يتمعن جادين جانو الحفيد وجهه بإشفاق ويقول معزياً:

"الأمر لا يستحق، يا مريود، الأمر لا يستحق يا عزيزي".

□□□

"نعم مستحيل"..

أنا المنشق المريود رجب المريود، أؤكد ذلك، فجذوري تمتد إلى كليوة، أسلافي هم أولئك الأمراء والنبلاء، الذين فروا بجلودهم،

ليتحالف أحفادهم مع أحفاد جلاذيتهم الغزاة، الذين خربوا موطنهم
البديع!

لذا عندما أتساءل الآن، إنما تتفجر أسننتي، من منبع جراحات
قديمة، لم تستطع مئات السنوات، التي عبرت على أجدادي، أن
تطمرها بالنسيان فتندمل!

تُرى هل كنت الوحيد الذي مرَّ أسلافه، بهذه التجربة؟.. أبداً، لا،
لا.. فالجنجويد الهاربين من قمع أبناء عمومة نبي الدين الجديد،
الذين دانت لهم السُلطة، على إرث ذلك النَّبي، هربوا من صحاريمهم
القاحلة، وحلُّوا ضيوفاً— لاجئين، في القبَل الأربعة للبلاد الأسيِّرة.

هؤلاء الجنكويز، كالمُهمين من قُوى خفيَّة، فجأة نشطوا في كل
أنحاء البلاد الكبيرة، التي لجأوا إليها، يصاهرون رؤساء القبائل
والأعيان!

ومثلما تمكنوا من القضاء على كليوَّة، يمثل هذا النوع من
المصاهرات، التي انبنت عليها تحالفات، يسعون الآن لتأسيس مملكة
خاصة بهم على أنقاض فاز!

وهكذا من العدم على أنقاض كليوَّة وفاز نهضت (مملكة
قرضاية السمرء) بتحالف هؤلاء الجنكويز مع النبلاء والأمراء، الذين
لفظتهم كليوَّة البائدة، بسبب تكاليمهم على المُلْك، للحصول على قلب
امرأة تأكل وتشرب وتتغوط، وتحيض ككل النساء!؟

تحالفوا مع الغُزاة، رغبة في الانتقام، من مملكة كَلِيوَة التي حرمتهم الزواج من حبيبتهم، دون أن يعلموا، أنهم في هذه اللحظة، يكوّنون الجنين الذي ستنجبه دولة تورالجرالجنكويزي، بعد مئات قليلة من السنوات!

وما حدث في الصعيد والسافل ودارصباح، هو الشيء نفسه الذي حدث في دارالريح، إذ نهضت ممالك القبَل الأربعة للبلاد الأسيرة، في تحالف الجنكويز، القادمين عبر الصحراء الكبرى ودرب الأربعين.. والأخدود الملوّن، لتشكيل هذا اللقاء الفريد بين دارالريح ودارصباح.. ولحكم كامل تراب البلاد الكبيرة، في "دولة الخالد تورالجرال!".

كيف ننظر لكل هذه التحالفات الثنائية، في منعطفات مصيرية، عبر خلالها تاريخ البلاد الأسيرة، فوسمته بما نراه الآن؟!

هل كنت أول المنشقين؟ لا، ولم أكن آخرهم، فكثيرون مثلي، كرهوا رؤية هذه التحالفات، التي زادت النَّاس فقراً وقهرتهم، فزرعت فيهم الخوف من كل شيء، وتسببت في كل ما حل ويحل بهم، ابتداءً من جرائم الزَّني واللواط، وانتهاءً بحالات الطلاق والانتحار، فالبلاد الكبيرة التي لم يكن بها سوى حلفين فقط: "المقدّس سيره" و"صانع الفخار؟!" انقسم الحلفان لعشرات الأحلاف الموالية والمعارضة، يميناً ويساراً ووسطاً!

في كل زقاق من أرقمتها حزب موال ومعارض، في كل بيت.. في
المحال التجاريّة والميادين والمركبات العامة، وتحت الأرض وفوقها!

وعلى فروع الأشجار، وأعماق النّهر! أحلاف وجواسيس في كل
مكان! وجميعها تدّعي الإيمان بوحدة مكونات الشعب من إنسان
وجُغر افيا، وشجر وحجر، طير وزواحف، ونباتات ومُشاة على قدمين
وثلاث وأربع!

أوليس ود دبرك من مكونات هذا الشعب؟

إذن لماذا تتفقون جميعًا على اصطيداه؟!

بل حتى شعوب البلاد الأسيرة المتوحشة، التي هجرت الغابات
والأودية والأنهار، بسبب الحروب الأهلية طويلة الأمد، التي وجد
جنكويزها في الغابات والوديان والجبال، ملاذًا آمنًا، تعهدوا بإعادتها!

كيف لا أكون انقساميًا، في وطن كل ما فيه منقسم؟! كل شيء
ينشق عن كل شيء، مع الفساد الذي خلق مجتمعاتٍ مأزومة، ضد
نفسها!

أحلاف دمرت مشاعر كل كائنات البلاد الأسيرة الحيّة.. أينما
تلفت لا تجد صديق أوفيق، حتى أخوة الحلف الواحد، أصبحوا
أعداء يتحنيون الفرص للانقضاض على بعضهم!

أنا المربود لَمْ يَعُدْ عندي رَفِيق! ولذلك انشقيت؛ وفي نفسي حُلْم
أن أُكُون "حلقًا للمنشقين"، أنا رئيس الحزب وأنا كل الأعضاء، ولن
استعد بالله من هذه "الأنا" فمن مثلي؟

ليس ثمة ما يخيفني سوى شيء واحد، أن أنشَقَّ عن حلفي الذي
كوّنته بنفسي كما فعل العرّاب الهميم، وكما كان "تورالجر" سيفعل،
لولم يمت بعد استرداد البلدة القديمة ومحاكمته وبطانته بأشهرٍ
قليلة!



"العرّاب- الهميم" الذي ورث عن جدّه المقدّس سرّه الأول، كل
جينات الخبث والدهاء، بعد كل ما صنعت عائلته المجيدة، من
أمجاد؛ عبر تاريخ البلاد الكبيرة، ها هو يموت الآن؛ كجيفة بانسة دون
وريث! مخلّفًا وراءه أتباعه يتامى، لا وجود لهم دونه!

سلالة المقدّس سرّه على أخريات عهودها، اضمحلت خصوبتها
في إنجاب الذكور، ولم تعد تنجب سوى الإناث، لذا فكر آخر
المقدّسين في ملء الفراغ، بالبحث عن طفلٍ يتبناه، ويُنشئه على
مبادئ سلالته الأيلة للانقراض، فوجد ضالته ذات صبيحة غامضة،
عندما كان متوجهًا خارج البلدة القديمة..

إذ رأى على إحدى أكوام القمامة لفافة بيضاء تتحرك، كان
بداخلها شيء حيّ، وعندما التقطها وقعت عيناه على طفلٍ حديث
الولادة، فتبناه في الحال.

كان هذا الطفل الجنكويزي الصغير، هو ما سيصبح ذات يوم
تورالجر الثالث قائد الجيش، الذي كان من نعومة أظفاره، لا يكاد
يرفع عينيه بوجه أحد.. دائماً يبدو مكسوراً ومنكسراً منذ وعى الدنيا
في كنف العرّاب!

والذي بالفعل سيصبح بفضل هذه الرّعاية الخاصة، قائداً
عاماً لجيش البلاد الأسيرة! ولسنواتٍ طويلة، أكثر مما كان متوقعاً،
قبل أن تقضي على حياته قنبلة انفجرت بغتةً في الطائرة التي نقله إلى
الصعيد، ومن ثم تدك بعدها، شعوب البلاد الأسيرة عرش الحاكم
الجنكويزي العام إلى الأبد!

لم يكن يخطر على بال العرّاب أبداً، أن الحاكم العام، سيتولى
قيادة الجيش أيضاً بعد أن قتل قائده، محتفظاً في الوقت نفسه
بسلطاته كحاكم عام.

كما لم يخطر على باله أبداً، أنه سينقلب عليه هو نفسه ذات
يوم ويذيقه الدُّل والهوان، إلى أن تُوفِّيَ كمدّاً! ترا فقه مرارة لاحد لها،
وآلاف اللعنات تودعه مثواه الأخير، غير مأسوفٍ عليه!

الجموع الغفيرة التي شاركت في تشييع جثمان العرّاب إلى
المقابر، كان بعضها يريد أن يستوثق أن الرّجل قُبر فعلاً، ولن يعود
بعد الآن لممارسة هُوياته القبيحة، في التلاعب بمشاعر النّاس
ومصائيرهم، كانت قد أربكت حركة السير والمرور في المدينة الرّاهية،
بعد أن أغلق الجنكويز، الجسرين الرّئيسيين على النّهر!

تصدَّر الجموع أنصاره وتلاميذه الجَنكـُـويـز، الذين توزعوا بين
حزب الحاكم العام الذي انقلب عليه، فانشق عن حزب الجنكـُـويـز
الرَّئيس، الذي ظل العرَّاب يتزَّعمه، الى أن وافته المنيَّة!

الأحزاب الجنكـُـويـزية المتوالية والمتعارضة على السواء، شاركت
في التشجيع! والمفارقة أن عددًا من حركات صانع الفخار المسلحة،
أرسلت برقيات تعازي، رُبما لندَّر الرَّماد في العيون، أو درءًا لشماتة، أو
رغبة في الظهور بمظهر العقلاء المتسامحين مع العرَّاب، على كل ما
ارتكب من جرائم في حق شعوبهم، التي حملوا لانتهـُـزاع حقوقها
السلاح!

كان في مقدِّمة المعزِّين، عشية مواراة جثمانه الثرى، الحاكم
العام الجنكـُـويـزي، الذي نعاه أيضًا على صفحته بالفيسبوك، مُرفقًا
ذلك بتغريدة على تويتر، مبللة بدموع تماسيح إلكترونية، فاقت
خيال الخوارزميات الكمبيوترية للهكرز الهنود!

لكنه بناءً على نُصح مقربين، سرعان ما غادر إلى قطر في طريقه
إلى "إستانبول" قبيل التشجيع، بقليل، وقبل أن يسترسل في أحزانه
الرَّائفة على صانعه، الذي انقلب عليه!

جنكـُـويـز حزب العرَّاب انشغلوا ببعيد الدَّفن مباشرةً، بالإجابة
على سؤال:

من سيخلف العرَّاب؟

خاصة أن المقبور، هو آخر أفراد سلالة المقدّس سِرُّه! ورغم كفاحه الطويل، لم يُرزق من صلبه بمن يخلفه، لذا سارعت الأمانة العامة لحزبه، إلى الانعقاد!

ووفقًا للنظام الأساسي، اختارت فجر اليوم التالي للوفاة، أحد شائهي الوجوه من صنائع العرّاب، لطالما لقبه أعدائه داخل حزب العرّاب نفسه، بالشيخ "الضبع" كأمين عام مؤقت، لحزب العرّاب المقبور، إلى حين انعقاد مجلس شورى الحزب، الذي كان بعض أعضائه، قد نفاهم الحاكم الجنكويزي العام، في صفوفات غامضة إلى إسرائيل ودول أخرى غربية، تربطه بمخابراتها، صلات سرّية غير معلنة! لتستفيد تلك الدول من معلوماتهم، عن حركات الإرهابيين المتطرفة، التي أسسوها فيما مضى، أو تلك التي رعوها أو يديرون ملفاتها!

وهكذا أعلن الأمين العام الجديد، أن مجلس الشورى سينعقد، بمجرد وصول أعضائه من المنفى!

ولم يمض على هذا التصريح سوى يومان، حتى وصل الحاج "خابور" أحد المنفيين من القيادات البارزة، بعد غياب دام عشرون عامًا، إثر انقلاب الحاكم العام على عرّابه!

جموع الأهالي، كانت لا تزال تملؤها وساوس، بأن العرّاب على قيد الحياة، رغم أنهم شهدوا مواراته الثرى بأعينهم! فهم لا

يصدقون لشدة ما عاشوه من بؤس وأحزان، بسبب فكرته المدمرة
عن بناء الدول!

أحد رؤساء الأحزاب الجنكويزية التاريخية، ورئيس وزراء آخر
نظام جنكويزي، اختاره شعب الجنكويز، كان العراب قد دبرضده
الانقلاب، الذي أطاح به وجاء بالحاكم العام محله، قال متبجحاً:
"حفاظاً على إرث الآباء، استبدلنا قبضة رخوة، بقبضة
محكمة!".

وفي الحقيقة رئيس الوزراء الجنكويزي السابق، الذي لم ينس
هذه العبارة أبداً، كان يجاهد لإخفاء غبطته، فقال وفي داخله يعتمل
حقد مريع على المقبور:

"إن البلاد فقدت مفكراً وعالمًا، جمع بين الفكر والعمل".

وأشار إلى اتفاهه معه في مواقف عدّة ضد الانقلابات، التي
ظلت تهدد استقرار البلاد الأسيرة! ولم ينس أن يشير إلى خلافه معه،
حول عدد من قضايا شعب البلاد الأسيرة..

فيما كانت هذه الأمور تجري، طالبت حركات صانع الفخاري
البلاد الأسيرة، الجنكويز أن يتخذوا من رحيل العراب، مناسبة
للعودة إلى صوابهم، ويكفوا عن الاستبداد واستعباد الأهالي
المساكين، فانبرى محللين وصحفيين وكتاب القوى الجنكويزية،
الموالية للحاكم العام والمعارضة له، للتصدي لمطالب حركات صانع

الفخار، وذهبوا مذاهب عدّة، في استعادة ماضي العرّاب وحاضره،
قُبيل وفاته، وتأثيره على حياة البلاد الأسيّرة، منذ بلغ الحُلم وخلف
المقدّس سرّه الأب الرّهيب!

و"شرّقت" أفكار هؤلاء و"غرّبت" بما أسألوا من مداد، كما عنّ
لهم! مع إدراكهم التام، أن الرجل لم يكن وقومه وحزبه، سوى عبئاً
ثقيلاً على كاهل هذه البلاد الحزينة! وأنه لا يستحق سوى اللعنات!

وفي الحقيقة أن موت العرّاب، بقدر ما أطلق أحلام الطامحين في
الحلول محله، من قادة أحزاب الجنكويز، إلا أن ما لا شك فيه، أن
قداسته كان عبئاً كبيراً، انزاح عن كاهل الحاكم العام، الذي أدرك
أنه سينجح في تعزيز قبضته في مقبل الأيام، بقوة النياشين التي
تقلدها على جماجم الأهالي، ويكرّس انفراد حزبه بالساطور، دوناً عن
سائر أحزاب الجنكويز في البلاد الأسيّرة التعيسة!

وبين كل هؤلاء وأولئك، كان ثمة تلاميذ وأنصار حقيقيين
للعرّاب يفتقدونه، ولا يفتؤون من أنٍ لأخريقصدون بيته، ليكون على
جدرانه، التي باتت أشبه، بـ أطلال معبدٍ قديم، لطالما ذرفوا على
حوائله دموع التماسيح، رهبة وخشية لله!

□□□

نعم، أنا المريود رجب المريود، آخر المنشقين من حزب العرّاب،
وفخورب انشقاقي، ستسألونني:

”هل اعتُقلت وعُدِّبت وقتلت النَّاس؟“.

سأجيب:

”نعم.. فعلت ذلك في سبيل الله كما ظننت!“.

”ما الأشياء التي فعلتها؟“.

”بل ما الشيء الذي لم أفعله! فعلت كل شيء لإعلاء كلمة الله،
أوهكذا ظننت: أن الأمر يتعلق بإعلاء كلمة الله!“.

”لماذا تبدل ظنك؟“.

”اكتشفت أنني إنما أعتقد في كلام العرّاب، أفكار العرّاب..
اكتشفت أن كل ما كنت أفعله؛ لا علاقة له إلا بإعلاء كلمة العرّاب!
اكتشفت أن كل ما فعلته من وحي أكذوبة محض!“.

”هل أضلك العرّاب، كما أضل المنتظر أهالي البلاد الأسيرة؟“.

”لا؛ لم يُضللني، كغيري ضللت نفسي، أنا المسؤول الوحيد عن
أفعالي، ولكن هل استحق القصاص وحدي؟“.

”لا..“.

”هل تعتقدون أنكم أفضل مني؟“.

وضحك وهو يتألم من التعذيب، ثم أضاف بصوتٍ واهن:

”إدًا صدقوني، إن كان حزب العرَّاب هو كهنة معبد آمون، فأنتم لا تختلفون عن أركماني كثيرًا“.

”ماذا تعني؟“.

”أعني أن قدر هذه البلاد أن يكون زمنها دائريًا، يبدأ لينتهي إلى حيث بدأ“.

”لكننا لا نبتدع دينًا جديدًا“.

ابتسم ساخرًا:

”ستقولون لي وسأقول لكم.. أنا المنشق المريد، آخر أحفاد النبيل ”أبوركة“ المتحدِّر من ”كليوَّة“ العظيمة البائدة، إلى هذه البلدة الكئيبة السبخة، التي أرهقت النائحات!“.

□□□

تمهد ود دَبْرِك:

ما قاد لهذه الوقائع والأحداث، إن طائفة صانع الفخار الأم، حسمت خيارها.. اختارت الحرب، لأن الحرب دخلت بيوت النَّاس، على طول البلاد وعرضها لا تخلو أسرة من قتيل..

ملايين المفقودين والقتلى والمنفيين والمعتقلين والضحايا، الذين
حصد رصاص الجنكويز أرواحهم، لم تكن الحرب الخيار الأفضل،
لكنها كانت أفضل الخيارات السيئة!

لذا قرر صانعو الفخار الحرب، لأجل وضع حد ونهاية لهذه
المأساة، التي لم تلوح يوماً في أفق البلاد الأسيرة، نهاية لها!

□□□

انكمش المريود في ركنٍ قصيٍّ من الزنزانة، وهو يستعيد في
ذاكرته المضطربة، التي تتداخل فيها وقائع التاريخ، فتختلط الممالك
والجغرافيا والناس، وتتداخل الأزمنة!

لأنه يسقط في ثقبٍ زمني منه وإليه.. يرى وجه "تورالجر" كالحًا
متجهماً! يرى أمراء "أم كواكية" يتوسطهم الترح، فلا يستطيع تمييز
الجنكويز عن الجنكويز، ويرى البلاد الأسيرة، بسنواتها القاسية
العجاف، المتجددة في كل عصر، فيتنهذ بحسرة.

يتمعن جادين جانو الحفيد وجهه بإشفاق ويقول معزناً:

"لست الوحيد.. جرثومة الضلال والاستبداد ورثناها من
أسلافنا في التاريخ الغابر، والتاريخ الذي نعيشه الآن!".

ويصمّت لبرهة ثم يتابع:

”كيف قرأنا علاقة كهنة أرتكني بالمقدّس سرّه، وعلاقة أبوركبة بأبي كردوس بتورالجر بالترّح.. كيف قرأنا العلاقات التي ربطت بين هؤلاء وأولئك ممن صاغوا وجودنا الحي؟! جميعهم يمثلون عقلاً واحداً، لهذه البلاد الحزينة..

أنه تحالف تاريخي رهيب؛ هذا الذي كان قدر صانع الفخار مواجهته، على مر العصور والأزمنة.. كيف ننظر إليه؟“.

لذا عندما أتساءل الآن، إنما تنحدر أسئلتي من منبع جراحات قديمة، لم تستطع مئات السنوات التي عبرت على أرماس اجدادي، أن تطمرها بالنسيان فتندمل!

هل كنت أنا المريد الوحيد الذي مر أسلافه من هنا؟ فهناك في جهة السافل ودار صباح، مر العابرون، فتأسست مملكة زُمردة على أنقاض مصاهرة بني ذهب لرؤساء "قبائل الهبياي" الشيء نفسه الذي قضى على كليوّة، لتتأسس على أنقاضها فازوقرضاية السمرء من العدم، بتحالف "خاتم الدولة" مع النبلاء والأمرء "في قرضاية الواعدة" أولئك الذين لفظتهم كليوّة بسبب تكالبهم على الملك، للحصول على قلب امرأة لا تختلف كثيراً عن ملايين النساء؟!!

صمت المريد، وكل الوجوه تتغصّن ملامحها وتنفرد في السكون الذي خيم على الزنزانة.. أشاح جادين وجهه عن المريد، وتنهد تنهيدة عميقة، قاطعاً الصمت، الذي هيمن على فضاء الزنزانة بكلكله، قبل أن يقول:

”هكذا بدأت الحكاية، من منتصف مسافة التاريخ، في تلك الظهيرة البعيدة الحارقة، من ظهيرات يوم من أيام قبل الميلاد، حيث اجتمع كهنة معبد آمون، على جبل البركل، يتداولون في أمر الملك أركاماني "ارجمنيس" الذي بات لا يأبه لسلطانهم عليه، ولا يرجع لهم في القرارات المهمة، ولا ينفذ ما يأمرونه به، هم كهنة آمون العظيم، قال كبير الكهنة:

”لطالما تخلص كهنة آمون من ملوك أعظم شأنًا من أركاماني، فما بالننا نحن نتردد الآن“.

فرد كاهن آخر:

”أركاماني ليس كالمملوك الآخرين، لم يمر على "كوش" العظيمة مخادعًا متمردًا مستبدًا مثقفًا مثله“.

قال أحد الكهنة الحكماء:

”كان خطأ كبيرًا أن تركناه يرى العالم؛ فيسافر لطلب العلم في أصقاع الدنيا.. لا بد أن ذلك غيره كثيرًا“.

”إذن..“.

قاطعهم أحدهم:

”إذن ليس أمامنا سوى الحيلة“.

فانتفض كبير الكهنة في مجلسه على ذكة الصخر؛ وقال

بغضب:

”نحن الآلهة، كهنة الإله العظيم آمون، الذي يخشاه كل من في الأرض، يجب أن يسمعنا، اكتبوا له أمرنا“.

نظر الكهنة في وجوه بعضهم البعض، ولم يستطع أحدهم أن يتفوه بحرف، بعد أن أمر كبيرهم بما أمر. ترددوا لبرهة، قبل أن يشرع أحدهم في الكتابة على ورقة بردي طازجة، رسالة إلى أركماني يأمرونه فيها بالانتحار كما جرت العادة، تنفيذًا لإرادة الإله العظيم آمون!

وعندما أدخل الحاجب الرسالة إلى أركماني، وقرأها الأخير، شعر أنهم أعطوه فرصة التعجيل بموتهم، فلطالما كره ادعاءهم احتكار الدين، وهم في الحقيقة يستغلونه لاحتكار الدنيا، ولذلك بدلًا عن الانتحار، أصدر في الحال مرسومًا، يجرّد الكهنة من سلطاتهم الإلهية، وإلغاء الاغتتيال الطقوسي للملك، ومن ثم زحف بجنوده على معبد آمون في جبل البركل، حيث ما زالوا مجتمعين، وقام بقتلهم جميعًا! وهدم المعبد على جثثهم!

ومن ثم أمر بتشييد هرمه في مروى (البجراوية) بدلًا عن نبتة (نوري)، منتقلًا بمركز الدين والثقافة والحضارة من موقعهم القديم!

بعد أن اخترع كهنته الجدد، الذين انتقاهم بعناية "الكتابة المروية" وابتدع الإله دماس الفيل إله الشمس والخبز والحرية! الذي يضاهي آمون قوّة، وانكفأ على "كوش" يبني ويطور ويجدد في كل شيء!



بعد جدال طويل وأخذ ورد نهض أبوركبة؛ ونادى المنادي في قادة العسكر! وفيما كانت حدّة الصراع بين فازودار الريح تشتعل، والتزاع داخل الأسرة الفازية الحاكمة تتسع هوته، نشط أعوان أبو رُكبة يهيئون الأوضاع لعزل الملك، مستعينين بنبلاء فاز الساخطين!

وهكذا أخيراً اجتمعت سائر العناصر المتضررة الأخرى حول "دعوة البعايت" بقيادة النبيل الشاب أبوركبة، الذي التف حوله "أتباع صانع الفخار" الذين هم عناصر شتى من أجيال جديدة من "نبلاء كليوّة البائدة" و"أمراء الحرب" و"الجنود" من "العبيد" و"التجار" و"الفقرا".. وكان قائدهم "أبورُكبة" النبيل الشاب من "فاز"، قد شقّ طريقه إلى قمة القيادة العسكرية في "دارالريح" ودار صباح "بجلده وحنكته وعزمه.

الالتفاف الذي وجدته "حركة أبوركبة التصحيحية" ما كان ليتم إلا لفساد الحاكم الجنكويزي الفازي أبوكردوس، وانفراده بالسلطة وقتله بقية "الأسرة المالكة من نسل السلطان خراب العامر".

كما أن أبا كردوس غير وَّبدل في الأنظمة، التي تحكم وتنظم "السلطنة" وتجراً على أفعال ذميمة، أهونها القتل والنهب، كما قتل أحد صانعي الفخار، ممن كانوا أهالي فازيكتون له الحب والتقدير! وبالجملة قد ظهرت منه أمور شنيعة، نفرت منه قلوب رعيته!

لذا ظهر أبو رُكبة، الذي كان قد شكّل مركزاً محوريّاً بعد انتصاراته المجيدة، التي تغنّت بها الحكامات، في حروبه في دارالريح والصعيد، بما أظهره في المعارك من قدرات عسكرية مبدعة! كما أنه كان صاحب شجاعة خطابية، وقدرة فذة على المواجهة رغم أنه (كان متمماً)!

قصد "أبوركبة" فاز بعد "اتفاقه" مع "أعيان البعايت" على عزل "أبو كردوس" ومع الجيش و"العبيد" ومهمشين أطراف البلاد الأسيرة و"أمراء الدولة" ونزل "بقوز التنباك" حيث أخذ المواثيق والعهود، وأرسل مناوئاً، إلى "مرجان" ابن "أبو كردوس" يلوح له "بأن يحل محل أبيه!".

وعندما جاءه الردّ إيجاباً، تحرّك بجيشه قاصداً "فاز" التي أرسل وهو على أبوابها "للسلطان أبو كردوس" الأمان، فخرج الأخير إلى "قمر بوبا" في ذلة ومسكنة!

حركة أبوركبة التصحيحية؛ كانت أول انقلاب أبيض في تاريخ البلاد الأسيرة! أمسك فيها بمقاليد الأمور عملياً، بينما ولي اسمياً ابن

السلطان المخلوع، قبل أن يقتله فيما بعد، ليعين جرّاب الفيل شقيق
السلطان المخلوع محله!

سعى أبوركية لإزالة المظالم، وعدّل في الرّعية وأحسن إلى أتباع
صانع الفخار، وهكذا استمرّت سلطنة البعايت على انقاض مملكة
فاز، إلى أن سقطت تحت سنابك خيل الغزاة الأتراش.

صمت جادين، فحك المريد رأسه وهو يقول:

"لكن لم تتوقف القصة هاهنا، على الأقل بالنسبة لي أنا
المريد، الذي عاش حياة البلاد الأسيرة في تاريخها، ورأى الجنكوز
الذين جيّشهم العرّاب، وهم يموتون تحت المجنزرات في الصعيد ودار
الريح، لينزع عنهم العراب في خاتمة المطاف صفة الشهداء، ويصفهم
بـ"الفطائس!"..

هؤلاء الفدائيين كانوا رفاقي، هل كانت أرواحهم رخيصة، لا..
لقد آمنوا بأفكار العرّاب، كما آمن الفقراء والمستعبدين بصانع
الفخار! فلم تهمهم الحياة.. انتحروا في سبيل ما آمنوا به، يمئنون
أنفسهم بحوريات لا مثيل لجمالهن، في عالم آخر غير هذا العالم!!

لكن حقًا هل كان مشروع العرّاب هُراء؟! هل كان منبئًا، أم
حلقة متصلة بحلقات سلفت؟

□□□

البلدة القديمة، على عهد النظام الذي أسسه المقدس سرّه الأول.. هذا النظام الذي تعاقب عليه حكام عامين، من أسرة المقدس سرّه المالكة، عهداً أثر عهد، ظلت نموذجاً مصغراً لكون البلاد الأسيـرة، فقد كانت مركزاً للمدينة الزّاهية، ولبلدات والقرى والفرقان والحلالات حولها، التي ظلّت بمثابة هروامش، تعكس عليها البلدة القديمة أزمتها.

ثمّة تفاعل غريب، خفي بين البلدة القديمة وهروامشها، إذ يتجاوز الثراء والفقر، رفعة المكانة والضعفة، المعرفة والجهل.

لذا أصبحت البلدة القديمة، بمثابة مختبر غريب، يمكن خلاله دراسة كل شيء عن البلاد الأسيـرة، ومفارقاتها وعواملها البائسة!

فانخفاض مستوى حياة أهالي البلدة القديمة، وانخفاض مستوى أحلامهم، هو المستوى المنخفض نفسه، في كل جزء من البلاد الأسيـرة، ليس هذا فحسب، بل فقدان الشعور بالمسؤولية، والرغبة في إحداث فرق، تجده في وجوه الأهالي، بطول البلاد وعرضها.

درجة مروعة من البؤس واليأس، فكل النّاس تركيزهم انحصروا في نقطة واحدة: اللّهث خلف لقمة العيش، التي باتت عزيزة وبعيدة المنال!

فرغم الخيرات المهولة، التي حظيت بها البلاد الأسيـرة، إلا أن أهلها ظلوا يعيشون ضنكاً مفرغاً! أدّى لتفسخ مخيف، وتفكك

للروابط التي تربط الناس ببعضهم، بدءًا بالأسرة، مرورًا بالمجتمع الكبير، وصولًا للعلاقة بالبلاد الأسيّرة كوطن!

فأول ما تلاحظه العين بنظرة عابرة: ضعف الانتماء! فقد فقد الأهالي ثقتهم في النظام والدولة؛ منذ أمدٍ سحيق، بسبب إرغامهم على أداء واجبات، لا تقابلها حقوق يستحقونها!

وربما هذا هو الشيء الوحيد، الذي نجح فيه النظام، الذي أرسى قواعده المقدّس سرّه الأول: إخماد روح الانتماء لهذه البلاد السمراء الجميلة، وقارتها السوداء النبيلة، بكل السبل!

□□□

كانت مليشيات الجنكـويز، قد استهدفت الأهالي بإيعاز من الحاكم العام، الذي اتهم طائفة صانع الفخار في دار الرّيح، بدعم ثوار الطائفة المسلّحين في الصعيد، فبدأ الجنكـويز عملياتهم بسرقة المواشي، وخطف الفتيات، للتمتع بهن كسبايا أو كخدم في المنازل، أو في أعمال الزراعة، أو كرعاة دون أجر، وهو نوع من الاسترقاق لم تشهده البلاد الأسيّرة حتى في أشد عصورها المظلمة حلّكة!

□□□

فيما بروف محمود غارقًا في مقعده الوثير، خرج جادين عن صمته وأخذ يقرأ التقرير بصوت مسموع:

وفي إفادات ناجية، تمكنت من الهرب من المدينة المحترقة، أنها قطعت أكثر من أربعين كيلومتراً، لتصل إلى دولة الجوار، على رجليها، وأكدت أن هناك إعدامات سريعة نفذها الجنكويز، عندما اقتحموا المدينة صباحاً، وكسروا المتاجر وأخذوا الأموال والسكر، وجميع البضائع.

كما قتلوا كل من رأوه، ثم اقتحموا بعد ذلك على الأهالي بيوتهم:

"إنهم يأتون إلى المنازل، بحثاً عن الرجال والصبية لقتلهم، لقد قتلوا شقيقي، صاحب متجر عمره ثماني عشرة سنة في السوق، لقد قطعوا أشجار الفواكه في مزرعتنا لتغذية جمالهم".

و أفادت امرأة أخرى كانت قد رأت الجنكويز يداهمون قريتها:

"نهبوها، وأحرقوها، بينما كان الرجال في الخارج.. زوج ابنتي كان نائماً في المنزل، فأيقظوه وضربوه ضرباً شديداً بكعوب السلاح، والعصي حتى فارق الحياة"..

فيما قالت أخرى:

"وصل الجنكويز، فأمروني بمغادرة المكان، جلدوا النساء والأطفال، وقتلوا طفلة صغيرة عمرها سنتان، طعننا بالسكين على ظهرها".

وشاهدت امرأة ابنها يُسحب من منزله:

"لقد قيدوا قدميه ويديه، ثم ذبحوه على مرأى من النَّاس، كانوا يرتدون الزي العسكري الرَّسْمي، ويحملون الأسلحة، ويمتطون الخيل والجمال، كان ابني أعزل عندما قتلوه، وكنت ذاهبة إلى الصلاة عندما أصابني شظيتان، إحداهما في كتفي اليسرى، والأخرى في بطني، فحملني أخي إلى المستشفى في المدينة، أعرف أناسًا أُعدموا، مثل كرشوم كوكو.. عندما كنت في المستشفى جاء الجنكويز بحثًا عن الرجال الذين لم يموتوا، ليُلجِّقوهم بالذين قتلوهم" ..

كان الجنكويز يهتفون وهم يرددون:

"أنتم معارضون للحاكم العام، والمقدِّس سِرِّه، سوف نسحقكم. أنتم عبيدنا.. سوف تبقى دار الرِّيح كلها بأيدينا، نحن الجنكويز! الحاكم العام إلى جانبنا، وطائراته إلى جانبنا، تمدنا بالذخائر والمؤن، وأنتم ليس لديكم شيء!" ..

ويمضي التقرير في وصف الهجوم الأول على تلك المنطقة:

"حاصر الجنكويز القرية وأطلقوا النيران، على المواطنين العزَّل، فقتلوا كل من وقع في أيديهم، بعضهم قُتل داخل المنازل، فيما هرب الباقون. أما في الهجوم الثاني، كانت القرية خالية من المواطنين، فقام الجنكويز بسرقة الممتلكات وحرق المنازل، وتدمير ما بقي منها، وفي نفس توقيت هذا الهجوم، تعرَّضت قُرى أخرى للهجوم أيضًا!" ..

وأدلى أحد الناجين بشهادته قائلاً:

"كان ذلك في يوم السوق.. عدد الجنكويز كان كبيرًا جدًا، ومن لهجات بعضهم، كان واضحًا أنهم من جنكويز الجوار، غالبًا غرب إفريقيا، وكانوا مزودين بعربات كثيرة، فاجؤونا بالهجوم عند الفجر. وقتلوا كل من وجدوه بالأسلحة المحمولة على العربات" ..

وتعرضت قرية أخرى، في التوقيت نفسه للهجوم من قبل جنكويز آخرين، أخبر أحد سكانها وفد المنظمة قائلاً:

"الجنكويز أحرقوا منازلنا، وسرقوا مواشينا وممتلكاتنا.. سرقة المواشي تحدث منذ عهد المقدس سره الأول، ولكن حرق القرى أمر جديد!

لقد جاءوا على ظهور الخيول والجمال، مزودين بالكثير من الأسلحة المدمرة، هذا غير الألغام التي زرعوها، في أماكن متفرقة، لا يعلمها أحد سواهم، فقد مات بها أو بُترت أطر أفهم خلق كثيرون، إننا نعرفهم، فبعضهم من نفس المنطقة، ولد أسلافهم هنا وعاشوا بيننا، ونعرفهم أبًا عن جد.. واحدًا واحدًا، كنا أكثر من أخوة، ولطالما تزوجوا منا وتزوجنا منهم، لا ندري ما الذي حدث لهم، فأصبحوا يقتلوننا، بعضهم لا نعرفه، فقد جاءوا من دول أخرى، حتى لهجتهم نفسها مختلفة، لكنها لغة الجنكويز ذاتها!

لقد هاجموا الرجال العزّل واغتصبوا النساء، وقتلوا الأطفال.. نحن مرعوبون!" ..

وأضاف آخر:

"كذلك كانوا يركزون على قتل الشباب، لكن ذلك لم يمنعهم من قتل المسنين والعجزة، الذين لا تسعفهم عاهاتهم وصحتهم على الهرب!".

المقدّس سرّه وجنك—ويزه لطالما رغبوا في فصل الصعيد ودار الرّيح، كانوا يشعرون بهذه الأجزاء من البلاد الأسيرة عبئًا على هُويتهم المقدّسة وعرقهم النّقي! فشيّدوا الأسوار العازلة..

وقتها، لم يكونوا يعلمون، أن في باطن أرض هذه الأجزاء، من البلاد الأسيرة، تكمن ثروات ومعادن لا حصر لها!

وعندما علموا، قرروا إبقاء هذه الأجزاء جزءًا من البلاد الأسيرة لكن كيف، وقد ظلوا يُشيّدون الجدران العازلة طوال تاريخهم، كيف يقنعون هذه الشعوب، هؤلاء الأهالي الطيبين، الذين عبروا أنهار المذابح إلى شواطئ العبودية والمجاعات، وحروب الموارد في أوطانهم المنهارة، ومع ذلك يتحملون عبء النزوح عبر الحدود، من الجوار نتيجة الجفاف والتصحر.

هذا الضغط السكاني المروع لنازحين من الخارج وجنك—ويز الدّاخِل، على هذه الموارد الشحيحة، ولد مآسي لا يمكن تصورها! كيف بإمكانهم إقناع هؤلاء، للتوحد معهم مرّة أخرى.. ألم يستمعوا إلى غنائم الحزين، الذي يحمل شكاوى آلاف السنوات، ألم يسمعوا شعرهم، وهو يكشف عن أثر لا ينمحي للمأساة؟

هؤلاء النَّاسِ.. هؤلاء الناس لقرون طويلة، تشبثوا بهذه الأرض المنبسطة دون أسوار، لم تعد هي الأرض ذاتها، عندما سُيدت الأسوار متطاولة، تبلغ عنان السماء، لم يقرروا المغادرة.. لم يقرروا الانفصال.. كان الجلادون الجنكويز، هم الذين يقررون كل شيء عبر العصور، ومع ذلك ظلت حياتهم رغم قسوتها تمضي، متشبثة بالحلم بغدٍ أفضل، إلى أن بدأ القتل المنظم باسم الدين والأرض والهوية! فكيف ينتهي هذا.. كيف؟!



في رأس جادين جانو، تومض وتنطفئ على نحوٍ متقطع كل الحوارات، التي دارت بينه وبين زملائه المعتقلين، في هذه الزنزانة الضيقة، المنفية في التاريخ والجغرافيا..

تمر بخاطره حركة النَّاسِ والشارع.. هؤلاء النَّاسِ الذين هيمن الشك والرَّيبة علي نفوسهم، حتى لم يعودوا مباليين بشيء، كانوا ينتظرون العيد بفارق الصبر، ليزوروا الأحبة، ويعانقونهم وهم مملوئين بالشوق والحنين، ويصافحون الغاشي والماشي، ويبتسمون بوجه الأعداء ولسان حالهم يقول:

"الدنيا عيد" ..

كان "كلامهم أنغام، ولغومهم بسَّام، وحين يتقابلون ينطقون بالسلام" .. حتى أغنياتهم كلها كانت شوقًا وريد، يملأ سرورهم القلب منه وإليه!

من الغباء أن نتساءل عمّا حدث لهم، فالحاكم العام منذ بيانه الأول، بعد نجاح انقلابه العسكري على المقدّس سرّه أكد بوقاحة، أن من أراد إسقاطه، فليحمل السلاح، وكشف عن نيته في البقاء على صدور النَّاس، كاتمًا أنفاسهم، إلى أن ينمحي من ذاكرة الأهلالي، كل أثر لتاريخهم الغابر المجيد.

محو اسم صانع الفخار والخزین وأركماني، وبعانخي، الكنداكة، والشايب جقندي حافظ تاريخ البلاد الأسيرة.. محوهم من مصلحة الآثار ومن دار الوثائق، ومن المقررات المدرسية، وسحق ما تبقي من آثار لمعبد البركل، وكل المعابد القديمة في البلاد الاسيرة!

ومع ذلك، هذا السحق المنظم، انعكس كنصل صدئ، ضد نظامه الشائه، فظلت التظاهرات تخرج، والجماهير تهتف في شعاراتها، بكل الأسماء التي حاول محوها من ذاكرة النَّاس ووجدانهم.

بعثوا تاريخهم المجيد، من غياهب الاستبداد والتواطؤ والتأمر والنسيان، وأخذت كل قطاعات الشعب تعمل سرّاً، على كنس الجنكويز ونظام المقدّس سرّه، إلى مزبلة التاريخ!

النحاتون والرّسامون، الذين هجروا فنهم ملوّوا الشوارع بمنحوتات ولوحات رموز التاريخ الغابر، السياسيون والمثقفون والمقاتلون، وزعوا مناشيرهم في كل مكان، حتى قصر الحاكم العام نفسه، كانت كل الشواهد تقول، أن شعب البلاد الأسيرة ينتفض،

فالأهالي الذين أخذوا يطلقون، على تظاهراتهم أسماء رموز التاريخ المجيد، استعادت أرواحهم ذواتها، من الأسر، فانطلقوا يتظاهرون في جمعة الكنداكة، وفي تظاهرة خميس أركماني الغاضب، إثنين صانع الفخار الولي الصالح، ثلاثاء الشايب جقندي حافظ التاريخ، أربعاء النبيل أبوركبة..

وهكذا شحذت ذاكرة الأهالي ذاتها، تُحيي وجدانها السليب، وتشيع مناخات من التوتر، تعم البلاد الأسيرة، فتمتلئ الشوارع والطرق بمدرعات الجيش الجنكويزي وحزب المقدس سرّه!

في الزّزّانة، التي لا يعرف موقعها بالضبط من جُغر افيا البلدة القديمة، بعد أن رحلوه واثنين من زملائه، إلى وجهة غير معلومة، إلى هنا هذا المكان..

يتكئ جادين برأسه على جدار الزّزّانة، وصوت تنفس المعتقلين وغطيطهم، لا يفتأ يشوش أفكاره المنهكة، التي يحاول استجماعها جاهداً، يعود بذاكرته للوراء، إلى تلك اللحظة التي داهم فيها الجنكويزمكتبه، في تلك الصبيحة الغائمة.

كان قبل أن يتهالك جسده الفارع، الذي لا زال يحمل آثار سهرة ليلة البارحة مع هيلدا، على المقعد المتحرّك خلف مكتبه، قد سمع صوت جلبة خارج المكتب، وقبل أن ينهض ليستوضحها، داهم مكتبه خمسة من الجنكويزمسلحين بأسلحة أوتوماتيكية قصيرة، انتهره أحدهم بحدّة:

"أنت جادين جانو؟".

اتسعت عيناه المتسائلتين، فشحذ قدرته المدهشة، في الحفاظ
على هدوء أعصابه، في الظروف العصيبة، ورد بهدوء:

"نعم أنا جادين".

وبعد أن بعثوا كل شيء في مكتبه ومكتب بروف محمود ومكاتب
زملائه، ونقبوا في كل بوصة في المكان، أشار الرجل بمقدمة سلاحه، إلى
الباب في حزم:

"تعال معنا".

لطالما كان يتحسب لهذه اللحظة، كما ظل شعب البلاد الأسيرة
يتحسب، ويراقب ما يجري!

كان يراقب كل شيء.. لذا عندما أعلنت كنيسة البلدة
القديمة، أنها تراجع عن إحراق تلك الجُمُمة، التي وجدها
القسيس غبوش كُوءة تحت تراب شجرة الجُهنميّة الحمراء، وقررت
إهداءها لمعهد جار النبي لدراستها، متخذةً بذلك قرارًا ثوريًا، نال
استحسان المعهد، في الحقيقة لم يكن القس غبوش يأبه كثيرًا
لعقيدة الكنيسة في عدم نبش قبور الموتى!

لكن من الجانب الآخر، أخذ مس—————يحْيُو البلدة القديمة
المتطرفون، يتساءلون عن مدى تجذر الإيمان والورع ومحبة سيدنا

يسوع، في وجدان هؤلاء القساوسة العلمانيين الكفرة! مندها قاطعوا صلاة يوم الأحد في الكنيسة، التي قل زوارها أساسًا منذ زمان بعيد!

ولم يصدق علماء المعهد أنفسهم، والذين كانت تدور حولهم شبهات كثيرة، بأنهم أخيرًا حصلوا على الجُمُعة، هذه الهدية الغالية التي منحتها لهم الكنيسة، بعد أن تمكن القس غبوش كُوة، من إقناع رهبانها وقساوستها، بإهدائها للمعهد!

وما أن حصل عليها المعهد، حتى بدأت المراسلات بينه ومراكز البحوث الأثرية في العالم الواسع، ومن ثم حملتها هيلدا بعناية وطارت بها إلى ألمانيا!

زفر جادين جانوزفرة حارة، وانتفض على صوت باب الزّزّانة يُفتح بشدّة، مفسحًا لصوتٍ غليظ، أجش:

"جادين جانو".

"نعم".

"تعال معنا".

تعامل جادين على جسده، ونهض متكئًا على الجدار، جرجر رجليه، اللذيذ — شعربهما ثقيلتين، لا تقويان على حمله، من أثر الجلوس على الأرض مقعبيًا!

عند مدخل الباب، دفعه أحد الجنكويز إلى الخارج بعنف، فوقع على الأرض وهو يتأوه من الألم.. جذبته الجنكويزي بقسوة وهو يصرخ فيه:

"انهض يا بن الكلب.. أنت لم ترى شيئاً بعد".

كانت يده الثقيلة؛ قد أحكمت قبضتها على ياقة قميصه، دفعه أمامه وهو يلطمه، ويركله من أني لآخر.

شعر جادين بذل ومهانة لا حدود لهما، كان يتأوه وهو يسمع صرخات غاية في الألم والعذاب، تنبعث من الزنّازين حوله، وكانا كلّما تقدّما ومرّاً بأحد الجنكويز يضربه بقبضة يده أو يركله..

لا أحد هنا يسأل المعتقل عن جريمته، فهو مستباح للجميع، الكل يضربه، يشتمه، يبصق على وجهه! لا يستطيع حماية أي جزء من جسده المستباح..

كانوا يجدون لذّة في محاولة كسر روحه!

متعتهم.. غاية متعتهم انتهاك كرامته وإذلاله.. شعر بكم هو منكم ومنتهك وحزين! إلى حد يطغى على الاحساس بالألم! وكانوا يردفون ضربهم له بالبذاءات:

"عميل.. صهيوني.. متمرّد.."

"سنريك جزاء الخيانة.."

"ستمنى لو لم تولد!.."

قاده الجنكويزي عبر الساحة، خلال سلسلة معقدة من الممرات والأفنية الصغيرة، ذات الاضاءات الشاحبة، وكانت رائحة النَّهر من آن لآخر، تنبثق في هذه الأفنية خايبة، لا تكاد الأنف تتحسسها!

أفضى بهما أحد الممرات إلى بابٍ موارب، أوقفه الجنكويزي لبرهة وتقدّم هو إلى الداخل، ثم عاد يجذبه.

كان أنفه وفمه ينزفان، وهو يخطو خلال الباب، وكان ثمّة رجل خمسيني، يجلس خلف مكتب أنيق، رفع رأسه عن ملف أمامه وسأل الجنكويزي:

"فتشه مرّة أخرى جيداً!.."

أمره الجنكويزي بخلع قميصه وبنطاله، وأخذ يفتش ثيابه الدّاخلية، بدى له ما يحدث عبثياً، ولم يخطر على باله أبداً.. أنهى الجنكويزي تفتيشه العبثي وهو يقول:

"إنه نظيف سيادتك!.."

"ارتد ثيابك!.."

قالها دون أن يرفع عينيه عن الملف، وظل الجنكويزي واقفاً.. خيّم صمت عميق لفترّة ليست قصيرة، لا يُسمع فيها سوى صوت

على حين غرّة تقدم الجنكويزي الواقف على الباب، وهوى على صدغه بصفعة قوية، جعلت رأسه يدور، فاستحال كل شيء حوله، إلى ضبابي ملوّن غائم!

"البلدة القديمة يا كلب؟ البلدة القديمة؟ أتظننا لا نعرف عناوينك الأخرى؟".

كان وجه جادين متورّمًا، داميًا، وذهنه مشوشًا يكاد لا يعي ما حوله.. قال الضابط كلامًا كثيرًا، وتفوّه العسكري بشتائم أكثر، وصفعاته تتوالى على وجهه وصدغه، فترج أذنه ويشعر بطنين طبلتها، وكل شيء حوله يبدو لعينيه، مثل نيجاتيف لفيلم رديء التصوير، كما بدت لمسامعه الأصوات، أشبه بأصداء باهتة، لا تكاد الأذن تمسك بتلافيقها!

لم يكن قادرًا على أن يسمع أسئلتهما، أو ما كانا يقولان! بجهد يفوق طاقة احتمالته، التقط سؤال الضابط الجنكويزي:

"ما هي طبيعة عملك في المعهد؟".

"أنا باحث.. باحث في الآثار والتاريخ".

قال الضابط في غضب:

"عن أي شيء تبحث؟ هل تقصد أننا مزيفين للتاريخ، وأننا لا ننتهي لهذه البلاد، وأنت تريد إثبات ذلك؟".

"لا؛ لا أنا لم أقل ذلك.. أنا مجرد موظف في المعهد، موظف
كباحث هذه مجرد وظيفة".

همهم الضابط الجنكـــــــــ ويزي وقال بصوت حاول أن يجعله
لطيفاً:

"أرى أنك شخص متعاون، أليس كذلك؟ وستخبرنا عن الجهات
التي تموّل المعهد، وعلاقة المعهد بالنزاعات في البلاد "الأسيرة"..

"لا أدري عما تتحدّث، المعهد منظمة مدنية تطوّعية، تموّل
نفسها من عائد مشاريعها، إضافة إلى أنها تُكَلّف بأبحاث أو تقترح
مشاريع بحثية، ميزانيتها بتمويل من الجهات البحثية المعنية بهذه
البحوث، وبعض هذه الجهات حكومية، المعهد قانوني ويعمل تحت
سقف القانون، ولا علاقة له بالنزاعات والأزمات"..

"نحن نعلم عن جهاتنا الحكومية، أنا أسالك عن المـــــــــانحين
الأجانب: من هم وما هي أهدافهم.. وكيف تفسر وجود تقرير كالذي
وجدناه على مكتبك: نظام يقتل شعبه، نحن نقتل الشعب؟".

"كما قلت لك أنا مجرد موظف، لا أعلم شيئاً عن الأمور
الادارية، وكل ما أعلمه ذكرته لك.. هذه هي حدود معرفتي كموظف..
أما التقرير فهو مبذول في الشبكة العنكبوتية، ليس سراً، واهتمامي
به جاء من اهتمامي العام كأبي مواطن بما يدور في وطنه، بشكل عام".

"أنت كذّاب.. يبدو أنك ستتعبننا معك".

وكان كلمة (كذاب) بمثابة كلمة سر، إذ مرة أخرى تقدم
العسكري الجنكويزي، وهوى بصفعة مدوية على وجه جادين، وهو
يصرخ في وجهه:

"عميل، ماسوني، جاسوس.. صهيوني".

بصق جادين أحد اسنانه المهشمة، وصوت الضابط، يأتي
كصدى مشوه، كأنه يخرج من قعر بئر عميق:

"أنت تُهدر وقتنا، اعترف بالحقيقة، بكل ما تعرف أفضل لك،
والإسأخذك هذا العسكري إلى غرفة التعذيب.. اعترف إن أردت أن
تخرج من هنا حيًّا؟".

"بماذا اعترف؟ بماذا أقسم لك لتصدّقني! لقد قلت كل ما
أعرف في حدود علي".

"تقسم؟! وهل أنت مؤمن لتقسم؟ في أي دين تعتقد يا عميل يا
كافر.. هه.. أي دين؟".

ود جادين أن يقول له:

"أنتم العملاء، أنتم الذين لظالما تأمرتم على هذه البلاد وروحها
وتاريخها وأديانها وثقافتها وشعوبها!".

عندما دكت جيوش محمد علي باشا المصري الألباني، قياقر
وطوابي البلدة القديمة في 1821 وأصبحت البلاد الكبيرة مفتوحة

على مصاريعها لخيولهم، ماذا حدث؟ أصبح الجنكـويز عملاء لهم،
يوالونهم في كل شيء، لا يريدون لمصالحهم أن تتضرر!

وما أن بدأت مصالحهم تتضرر، حتى تهافتوا.. جاءوا لشعب
البلاد الأسييرة وقالوا:

"نحن أمة واحدة، أمنا واحدة، لم نأت من ما وراء البحر المالح
وتخوم الصحراء بنساء، تزوجنا هنا ووُلدنا هنا، أسلافنا ماتوا هنا،
تعالوا نقاتل معًا كتمًا بكتف هؤلاء الغُزة، ونهدِّم الجدار العازل!".

تناسى شعب البلاد الأسييرة كل ذكريات الماضي البائس: الرِّق،
التعذيب، القتل، الإذلال.. وقاتل معهم كتمًا بكتف، حتى هزم
الغُزة! ماذا حدث؟ عاد الجنكـويز سيرتهم القديمة!

وعندما جاءت جحافل الأوروبيين البيض، واجتاحت البلدة
القديمة، مضوا في طليعة جيش الغزو، يقودونه دليلًا معرفتهم دروب
ومسالك وسباسب ووهاد هذا الوطن الشاسع؛ وأصبحت أرض
البلاد الأسييرة مشرعة على مصاريعها، لسنا بك خيلهم! ماذا حدث؟
تحالف الجنكـويز مع الغُزة البيض؛ نظير الامتيازات التي منحت لهم،
وصاروا السوط الذي يجلد به الغُزة، شعب البلاد الأسييرة!

وكانوا في طليعة المقاولين، استغلوا حاجة الأهالي الفقراء
للقوت، استخدموهم عمالًا لتمتين الجدار العازل، مثلما
استخدموهم من قبل أدواتٍ لتجارة الرِّق!!

ثم أخذت تطلعاتهم تتنامى، حنوا لماضيهم القديم في حكم
البلاد الأسيرة، فجاءوا مرّة أخرى لشعوبها.. جلسوا معهم في التكايا،
في سجن القلعة، في الأحرّاش، في الأندايات في الوديان، تحت أشجار
القمبيل وتحت سقوف البيوت الواطئة، أو العراء، حيث لا سقف!

جلسوا معهم في كل مكان وقالوا:

"نحن أمة واحدة، الدّم نفسه يجري في عروقنا، فتعالوا نُخرج
هؤلاء الطغاة من بلادنا".

تأمل شعب البلاد الأسيرة وجوههم الخادعة، ولا تفتأ ذكريات
الخوازيق التي نصبوها له تطارده، قال:

"نحن لا نثق بكم".

فبكوا وقالوا:

"بل نحن صادقين هذه المرّة، أعطونا فرصة واحدة".

وهكذا قاتل معهم كتفًا بكتف، الى أن حمل القطار الغُزاة
تودعه الأغنيات:

"يا غريب يلاي بلدك".

ثم ماذا حدث؟ عاد الجنكـويز سيرتهم القديمة! كانوا يخاطبون أهالي البلاد الأسيـرة بلسان كشعب واحد، وعندما يجلسون إلى بعضهم البعض في جلساتهم الخاصة يقولون:

"لا، نحن جنكـويز.. هؤلاء العبيد السود ليسوا قومنا، نحن أصحاب دم نقي ونسب شريف، جدنا ذلك النبي المقدس خلف تخوم الصحراء".

بل هتف شاعرهم التقدمي الأممي الأكبر:

"نحن جنكـويز الجنكـويز!.."

يقصد أنهم جنكـويز أقحاح أكثر من بعض بني جلدتهم؛ ذوي الدّم المخلوط، خلف تخوم الصحراء والبحر المالح!

وقال أحد مفكريهم بعد عودته من غياب طويل، في بلاد الفرنجة بوقاحة وجحود:

"لقد امتلأت البلدة القديمة بذوي العقائد المشبوهة، والسحنات السوداء الغربية، هذا الحزام الأسود يخنق البلدة القديمة!".

"الحزام الأسود؟!".

منذ أول حاكم عام كان واضحًا، أن الجنكـويز سيظلون يستأثرون بالبلاد الأسيـرة وخيراتهما، مثل كل مرّة.

السنوات الطويلة التي قضوها في الحكم، راكمت تجاربهم وخبراتهم وأساليبهم في الغشّ والخداع، فأخذوا يبتدعون طرقًا جديدة، لتكريس كل شيء بيدهم.

كانت أهم أدواتهم بذل الوعود.. الكثير من الوعود لشعب البلاد الأسيرة، التي لا يُنفذ منها شيء! إذ يقبض الأهالي الرّيح بعد كل اتفاق!

ومع ذلك ظلّت شعوب البلاد الأسيّرة، بصبرٍ شديد تشرح للجنكوز، أن قيمهم الجنكوزية لا تناسب حقيقة حياة النّاس في هذه البلاد، وأنهم ليس باستطاعتهم تبنيها بالكامل، كما أنهم لا يتعمدون رفضها، بل يحاولون أن يكونوا أنفسهم، وأن محاولات فرض ثقافتهم الصحراوية القاحلة عليهم، لم تؤدّ سوى لتشوّهم، وتحطم أي أمل كي يكونوا أمة واحدة، لا تتنازعها أفكار لم تنبت من تربتها، وفي مناخها وتحت سمائها، وبماء هذا النّيل وهذه الأودية، وفي (كراكير) هذه الجبال، وبين تلال هذه القيزان، وفي أدغال هذه الغابات، وانبساط الأرض القردود الشاسعة!

لكن الجنكوز لم يأبهوا! حاولوا أن يشرحوا لهم أنهم عرفوا الأديان، قبل أن يُبعث نبي، إلى البدو ما وراء البحر المالح، وتخوم الصحراء القاحلة بألاف السنوات! وأنهم عندما عرفوا الحضارة ونظم الدولة وإدارتها، كان الجنكوز مشردون في الصحراء، يتوسدون الرّمّل! حدود معرفتهم لا تخرج عن صوى الساري وعلامات الطريق

إلى منعرج اللّوى، الذي لا تفتأ قلوبهم تتلفت بحثًا عنه، وهم يطوفون.. يقبلون ذا الجدارا وذا الجدارا!

ظلوا على الدوام في كنف ما يكفي من الأديان، بالقدر الذي جعلهم يدركون، أن هذه الضمائر الشقيّة المعدّبة، لهؤلاء الأهالي الطيبين، لم تعد قادرة على تحمّل مزيد من الألم والتمزق، الذي تُحدثه تناقضات أفكار الجنك—ويز المربكة! ورؤيتهم الممزّقة للعالم، والتي تمزّق كل شيء حولهم! بقدرتها الرّهيبه على تبديد التاريخ والإنسان والجُغرافيا!

كان الأهالي يتحدّثون عن الجنك—ويز لكنهم غير راغبين في الحديث إليهم! لقد يئسوا منهم وظلوا مع ذلك متنازعين: كيف بإمكانهم التسلح بثقافة الثورة، دون أن يقطعوا مع الماضي!

هذا الماضي بعضه عزيز عليهم! هناك في الغابات كانوا يستضيئون بنارهم هم لانا الجنكويز، لا يتحدّثون إلى الجنكويز بل يتحدّثون إلى أنفسهم عن الجنكويز وأصواتهم ترتفع وتنخفض.. وهم يقولون:

من ظلام هذه الغابات حتمًا ينبجس فجر جديد، تكنس فيه آثار هذه الثقافة، التي تريد إخضاع النّاس وتجريدهم من إنسانيتهم.. القضاء على تقاليدهم ولُغتهم.. هذه الثقافة التي تجعلهم يزرعون لتأخذ زرعهم وماشييتهم وأرضهم، من يقاوم يموت ومن يخضع يتشوّه!

"اعترف".

وأغرقوه بأسئلتهم النهمة، استفرغ كل الإجابات الممكنة، شعر في أعماقه بخواءٍ مربع، كأنه يهوي من مكان عالٍ، عالٍ ويسقط في هُوةٍ لا قرار لها! أوقفوه لساعاتٍ طوال في الشمس اللاهبة، كان يشم في جسده رائحة مزيج من الشواء والعرق اللزج، بسبب الرطوبة العالية قريبًا من النهر، وكان الغضب العارم داخله ينكتم، لا يقوى على الانفجار!

"اعترف".

وهوى الجنكويزي مرّةً أخرى يصفعه بقوة، فأغمي عليه! ورآها في إغمائه.. هيلدا، تلوّح بكفها في قلق، وبعيونها نظرة متسائلة لكن أسيانة، حزينة.. أين أنت يا هيلدا؟ لا تقلقي، ففي الرّزّانة المعتقلين أهل بعضهم، قريتهم المأساة وسياط الأسئلة، التي تلسع الذاكرة، والهرارات التي تفري الظهور، واللّكمات التي تجعل الوجه منتفخًا بالكدمات.. أحبك هيلدا.. أحبك...

لا يشبعون من فري لحم المعتقلين، ولا يرتوون من دمائهم المتفجرة، انتفض باب الرّزّانة بشدّة، لينشق عن جنكويزي ضخم الجثة، اقتحم نُعاسهم، قبض على قفا جادين وشدّه بقوة، ركله أمامه فاصطدم رأسه بالجدار، فقوّم مساره بلكمة، على فمه، دفعته لابتلاع دمه! وهو يصرخ:

"استقم أيها العبد الأسود".

هؤلاء النَّاسُ غريبون حقًّا، اخترعوا النظام الدلالي للألوان، فقط ليزرعوا في وجدان النَّاس أن اللَّون الأسود كريه، ويجب إذلاله واستعباده! لوقتلا كل من يرونهم سودًا في البلاد الأسيـرة من سينظف أوساخهم، ومن سيزرع لهم ليأكلوا، من سيقا تل طوائف صانع الفخار نيابة عنهم، لتظل السلطة في يدهم يُعزّون ويذلون من شاءوا!

الثوار المقاتلين لم يتحولوا لوحوش، إلا للقضاء على وحشية الجنكويز، الحاكم العام يعرف ذلك، لذا دسَّ بينهم ليقتلوا بعضهم بعضًا، حتى يفشلوا في مجابهته هو.. والآن هم يعرفون ذلك، لذا تدنو أطرافهم، لتلتقي في طائفة واحدة.. طائفة صانعي الفخار المتحدة.

كالطوابي غربي النَّهر، وهي تنهدت تحت ضربات مدافع الإنجليز، تحشج صوت جادين في الفضاء الملعوم، للزّزّانة الوجلة: الخليفة ود تورالجر الثاني، كان لا يحب الرجال الأقوياء، كان يجمع حوله الضعفاء المتملقين، الذين لا يعارضونه، ويرغم زواره على الجلوس على الأرض، مهما علا شأنهم! بينما هو جالس على العنقريب!

لم يكن ثمة من يجرؤ على الحديث أمامه دون إذن، أو الحديث إليه وهو يتطلع في وجهه! أحد الشوام الذين أسلموا بالقوة، -كان أحول- كاد أن يفقد رأسه، لأن الخليفة ظن خطأً، أنه ينظر إليه!

كان ود تورالجر الثاني، عندما يبعث رسوله إلى أي شخص، يقف الرسول أمامه ويصفق، ثم يستدير جاريًا، فيتبعه الشخص مهرولًا أيًا كان مقامه، دون أي اعتبارات للتراتبية الاجتماعية!

هؤلاء النَّاس الذين جعلهم الخليفة يهرولون، صفعوا أبو ابهم بوجه رسل ود تورالجر بعد هزيمته في البلدة القديمة، رافضين دعوته لهم بالهروب معه إلى دار الريح، ليلقى حتفه في أم ضروس وحيدًا، فتنطوي معه صفحة استبداده إلى الأبد!

تنهد المريدون:

"حقًا كان مستبدًا لا نظير له، لا يتورّع عن ارتكاب أي جُرم، حتى أنه سمّم شقيق حامد أب روكو بالشراب، رغم أنه لم يكن يقدّم شرابًا لزواره! فقد كان شديد البخل!"

همهم جادين:

"هذا يفسر سلوك الجنكويز ضد السكان الأصليين في دارالريح، في هذه الحرب الدائرة الآن، ويشرح سلوكهم على عهد دولتهم بقيادة ود تورالجر الثاني في البلدة القديمة ذلك الزمان!"

□□□

وبعد أن انصرف حامد أب روكو قال لأهله:

"بعد الشربتو عند ود تورالجر، أنا ماني صايح لي بكرة!"

فقالوا له:

"انت وكنت عارف شربتوليه؟".

فرد:

"خفت كان ما شربتو، يسوي فيني شي، يمكن ما أقدر عليه،
يخجلكم".

وفعلًا لم يصبح على أب روكو صباح آخر.. صبح ميت!

وكذلك قتل رجب عبد الدايم بالسُّم، عندما علا شأنه وصار
محبوبًا ومنع جنوده من نهب النَّاس، حتى أصبح مضرب المثل:
"رجب عدل والجداد قدل".

الأمير حسان قائد سلاح المدفعية، وكما قال سالم الدهنون
لكباسة مهددًا البعاتي حمدان:

"باكريجي أبقرجة وتقيف الهرجة".

والذي كان له القدر المعلى، في حصار وفتح المدينة الزاهية،
أرسله ود تورالجر في مهمّة وهمية لبلبل درمنقرة حيث أُعتقل ووضع
في القيود، ولم ينقذه سوى احتلال الفرنسيين لا بشي إذ سلموه
لنصارى فمات بعد الاحتلال الإنجليزي..

كباشة الفارس المغوار، الذي هزم شواطين بيك في معركة السفروك، وفتح دارالريح لود تورالجر، قتله أبو درقة بأمر منه، لأن ود تورالجر لم ينسَ أن كباسة قد جلده، عندما كان عبداً، قبل أن يلتحق بخدمة شواطين بيك، وهكذا أرسل إليه رأس البطل كباسة.. وكباشة حتى الرّمق الأخير، كان يضحك في وجه جلاّديه..

البعاتي أب جيقة، الذي كان متطرفاً، واجه نفس مصير كباسة، إذ اتهمه ود تورالجر بالكفر والزندقة معاً! وشنقه لأنه تجرأ وقال رأيه في المجازر التي أوقعها الجنكوز في ديار البعاعيت، والمجازر التي قادها تورالجر بنفسه، في دار صباح والتي دفعت الأمير أب درقة إلى الفرار والاحتماء وعشيرته في جبال "كتري".

ومن أسوأ الحوادث، تلك التي علق عليها كسبان قائلاً أنه لا يريد أن يعمل شيئاً، يُسب به بعد موته:

"وجعتني شرده الكنجس الزول كان بيتنبرويقول بياكل الجمر، كلوطلع كلام ساي".

بعد الهزيمة ساق ود تورالجر نساء عشيرة الكنجس سبانيا عاريات! من ديارهن إلى البلدة القديمة! وكانوا يعطونهن العيش الحب لأكله مثل الغنم، واختار تورالجر اثنتين من الكنجسيات كمحظيات وسراري، رغم أنه كان يمتلك عشرات الخلاسيات من كل قبائل البلاد الأسيرة..

يحكي كسبان:

"ذهبت مع محبوب الجراداة لزيارة العامل محمد ود الطينة
لمرضه، وجدنا معه ملازميه: الأمير عبد الصمد وعبد العاطي
والرضوان، وكلهم من البعايعت وأمامهم كفتيرة الشاي، وفجأة
سمعوا صوت البابور الآتي بنساء الكنجس اللاتي أُسرن بعد المجزرة،
فضرب محبوب الجراداة فخذه قائلاً:

"كب لي سريع.. أنا ماشي لتور الجريديني كنجساوية أسويها
سرية".

فما تمّ كلامه إلا ونهض ود الطينة المريض، وصفعه على وجهه
صفعة كادت تلقيه على الأرض، وضرب الكفتيرة برجله قائلاً:

"وكمان تشرب الشاي في بيتي تشرب السم".

فغضب الجراداة:

"يا محمد تضربني؟!!!".

فرد عليه:

"و اقتلك.. وهل تور الجريقدر يعمل الكنجساويات سراري؟
وهل يقدر يعملهم.. إذن ما البلدة القديمة تقيد نار؟".

وخرج الجراداة غاضبًا، وتبعه الأمير عبد الصمد فزعًا، ورجع ود
الطينة لسريره وهو يبكي، فنهض الرضوان وقال:

"والله يا ود الطينة تورالجرما يرضى يجعل الكنجساويات
سراري".

وبعد أن خرجوا قال كسبان:

"في مثل هذه الأيام، تعمل مثل هذا العمل، وتتكلم مثل هذا
الكلام؟".

فرد:

"أنا عارفك جبان، ماذا يريد الجنك—ويزان يعملوا لنا أكثر من
هذا، وما قيمة الحياة بهذه الحالة؟!".

وذهب الجراداة متهيجًا، شاكياً للمقربين من تورالجر.

وعندما تأخر البعايعت في الحضور للبلدة القديمة تنفيذًا لأمر
تورالجر، أرسل الأخير جيشًا أوقع فيهم مجزرة بشعة، وأخذ سبعة
وستين من رؤسائهم ونسائهم وأطفالهم إلى البلدة القديمة، وقام
ثلاثة من أكبر جلاديه، بقطع أيديهم وأرجلهم، وشُنقوا بعد ذلك!

وبالرُغم من أن الضحاك كان من أصدقاء المقربين، وهو الرُّكن
الرُّكين بين أركان وأعيان دارفاز، إلا أن تورالجر، أجبره على حضور
قتل أهله البعايعت، وعندما تأخر الأمير "بركاوي" في الحضور،
تعرضت قبيلته إلى مجزرة بشعة، وأرسل أطفال ونساء قبيلته سبايا

إلى البلدة القديمة، وبيعت قطعانهم بريالين أو ثلاثة للثور أو الجمل،
بدلاً عن ستين ريالاً مجيدياً.

وبعد قتله لأهالي الصعيد أخذ الكثيرون منهم كعبيد في صنادل
مقفولة، فمات أغلبهم اختناقاً.. وبعد هزيمة قبيلة الردوك استباح
ممتلكاتهم، وأباح دماءهم، الأمر الذي جعل كثيراً من أقسام الردوك
ينتسبون إلى القبائل المجاورة.

كانت أنفاس جادين لاهثة، متلاحقة، والعرق يقطر من جبينه،
على صفحات التقرير، وبروف محمود صامت لا ينطق بحرف!

□□□

جذبه العسكري الجنك—ويزي من ياقة قميصه، وهو يدفعه
أمامه، في شبكة من الممرات، إلى أن أفضى أحدها إلى باب صغير،
فأخرج مفتاحاً من جيبه، فتحه ودفعه عبره بعنف، حتى وقع على
الأرض غائباً عن الوعي!

آخر شيء سمعه، صوت الباب يغلق من خلفه!

عندما أفاق، تبين زنزانه ضيقة ومكتظة، شاحبة الضوء! كانت
إضاءتها تتسلل من كوة يتيمة، صغيرة تكاد تلتصق بالسقف، تبين
خلال ضوئها الشاحب، وجوه ناحلة مرهقة، تضج بالألم والحزن
والعذاب!

كانوا جميعهم مثله، يحملون آثار التعذيب في وجوههم المتورمة،
التي خددها الألم، وعيونهم التي تنطق بالحزن والخوف والعذاب!

انتظر أحدهم يسأله، يقول أي شيء، لكن لم يسأله أحد، ولم
يقبل شيئاً لأحد.. جرَّ جسده على الأرض الخشنة، يبحث عن متكأ على
الجدار، الذي احتله المعتقلون بظهورهم، أفسح له أحدهم مكاناً
بينهم، دون أن ينطق بكلمة.

كانوا جميعاً مسكونين بخوف ورُعب، ربما، خوف من كل شيء..
يواسون بعضهم في صمتٍ قاتل! قطع صوت متحشر الصّمت:

"هل سيقتلوننا؟".

رد أحدهم:

"لا أدري".

تذكر صانع الفخار، وتساءل:

"ترى هل ربما يمر به هو الآن؟ ترى هل عذبه هكذا، قبل أن
يقطعوا جسده أشلاء، ويحرقونه مصلوباً على صليب شجرة
اللوعوت؟"..

هو جادين جانولم يعد يفهم شيئاً، لا يجد إجابات لأسئلته، لا
يفهم لماذا يعتقلونه؟ ولا لماذا ظلوا يطاردون صانعي الفخار،
ويستهدفونهم بالقتل؟ ولا كيف يجيبون عن هذا السؤال؟

هل اعتقاد صانع الفخار، بقتلهم لتاريخ البلاد الأسيرة، وسعيه
الدؤوب لإعادته إلى الحياة، جريمة؟

هل نهله من روح هذه البلدة القديمة المعذبة، وتعطشه
لتخليدها كنموذج للبلاد الأسيرة، عمل يُعاقب عليه؟

حكى الأهالي عن ماضيهم العريق لآلاف السنوات، قبل أن تُخلق
أمة الجنكويزي في موطنها الأصلي وتظهر للوجود.. قالوا:

على هذه الأرض، ظل أسلافنا يلعبون أدوارًا عظيمة في الدراما
الإنسانية للعالم القديم.. هنا على هذه الأرض ازدهرت حضارات
وقامت دويلات وتوالت هجرات في فترات متعاقبة، جعلت من هذه
الأرض الشاسعة، مسرحًا كبيرًا للعقائد والأفكار وللحياة!

اشترك الأهالي عبر التاريخ، في تشكيل ملامح البلاد الأسيرة،
بالقدر نفسه الذي أثروا به في أحداث الجوار وتأثروا بها، وهكذا ظلت
نقوشهم على الصخر والحجر والفخار، توثق لحياتهم في السجل
العام للفعل الإنساني! وقوته وقدرته وحضوره المهيمن!

الفرنسي فرديريك كلود الأب الروحي لاكتشاف آثار البلاد الأسيرة،
أغرى الباشا الكبير بالذهب، في هذه البلاد الشاسعة، لم يخبره عن
نواياه الحقيقية، في تعقب آثار هؤلاء الناس السود، وتاريخهم
الغامض!

الأمر نفسه فعله بورخارد وفيرليني، بذريعة البحث عن الكنوز،
التي كان الباشا يتعطش لنهبها!

هذا القناع الذي راح ضحيته أحد الاهرامات العظيمة لمروي!
أخبروهم أن قوى العالم الكبرى، وهي تتبادل الأدوار عبر التاريخ،
ظَلَّت تنظر لهذه الأرض، تتطلع إليها.. فها هو ملك بروسيا فريدريك
وليم الرابع، يبعث ريشارد لبيس خصيصًا، لرسم خرائط مناطق
الأثار، وهو ما فعله متحف الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس.

ظل علماء الأثار والتاريخ والمجتمع، يتوافدون دون انقطاع
خلال عشرات السنوات، لفك طلاسم الرموز المفقودة، لحضارات
وشعوب البلاد الأسيرة، المتسمة بحزن شقي! وأسى ولوعة لا شبيه
لهما!

كانوا يحاولون اكتشاف منابع هذا الحزن.. مصدر هذا الأسى..
مسارب هذه اللوعة.. كانوا يحاولون المحاولات ذاتها، التي يحاولها
جادين جانو الآن! لاكتشاف هوية هؤلاء الأقوام السود، الذين تركوا
فؤوس يدوية كمخلفات حضارية، لأكثر أزمنة العصور الحجرية
قَدَمًا.. هنا في هذا الموقع، الذي سيصبح اسمه بعد مئات الآلاف من
السنوات "خورأبو حجل" على مبعده من مقرن الأودية..

كانت هُويتهم لا تنتمي لأي عنصر أسود عرفه التاريخ! فهُويتهم
مصبوغة بلون ورائحة وطعم هذا المكان!

مثل هذه المخلفات تم العثور عليها في مختلف وديان وسهول
البلاد الأسيـرة، من أقصى دارالريـح حتى دارصباح، ومن أقصى
الصعيد حتى السافل.

بل أقدم إنسان "بورتو- بثمان" في هذه القارة، عُثر على
جمجمته هنا بين النهر والسهول المنحدرة من الصعيد ودارصباح،
حيث ينحدر التهر العكر من أعلى هضبة الشمس، ويعبر السهول
الواسعة ليلتقي قرينه على مقربة من "أبوحجل!" في قلب دارصباح!
جوار البلدة القديمة!

من مخلفات هؤلاء القوم، عرف العالم أن أهل البلاد الأسيـرة في
أزمنتهم الغابرة، كانوا صيادين مهرة، حيث لم تكن هناك، في هذه
الأرض الشاسعة، قبل خمسين ألف سنة صحراء كما الآن!

فالتهر.. هذا النهر غير مجراه عبر العصور، لينحدر من الصعيد
للسافل، في مجرى جديد!

التهر، هذا التهر كانت له مئات الروافد فيما مضى، تتخلل
الغابات والأراضي الزراعية القردود.. لم تكن هناك صحراء واسعة
كما الآن، فالنبات يكاد يغطي كل شبر!

وعلى طول فروع التهر وروافده، عاش أهالي البلاد القدماء في
العصر الحجري. هناك.. حوالي 48 كلم أسفل البلدة القديمة، حيث
تم العثور على مركز حضاري، قائم على صناعة الفخار، ذي الحواف
السوداء!

عرف العالم من مخلفاته، أن أهالي البلاد الأسيّرة، في عصورهم
الحجرية القديمة، عرفوا الزينة والحلي، ونوع معين من السهام.. كما
عرفوا استئناس الحيوان، ومبادئ الزراعة والصيد من البحر والبر
والغابات!

كل من اطّلع على تلك المخلفات، التي تعود إلى أكثر من أربعة
آلاف سنة، وقف مشدوها، يشعر برهبة غامضة، مصدرها طيف
ينبثق من هذه المخلفات، يشكل وجهًا غامضًا في المدى اللامتناهي،
ليريك جادين جانو، المنكفئ على مخطوطات الخزين، بالتساؤل الملح:

تري هل هو طيف صانع الفخار الأول!

تراقص نور باهت في آخر الممر الطويل، أخذ العسكري
الجنكويزي يجره على البلاط الأسمتي الخشن، لتمتزج حشرجة
جسده على البلاط، مع صرير الأبواب الحديدية، وهي تُفتح وتُغلق.

لكزه حذاء الجنكويزي الشرس، وهو يدفعه ويغلق الباب وراءه،
امتدت أيدي زملائه المعتقلين، من نبع الألمهم وأحزانهم تسنده،
وأصواتهم الواهنة تهمس في ألم:

"تجلد بروفيسور جادين.. تجلد.. سينتهي كل هذا العذاب
قريبًا".

ثلاثتهم، بوجوههم النَّاحلة، التي لا يمكن أن يخطئها في هذه
الظلمة.. بأصواتهم الواهنة التي تتدفق حزنًا..

الزّمن في المعتقل يتوقف، تتسرّب الذكريات البعيدة،
والحكايات التي خلفوها وراءهم.. تسلّل صوت مرتعش وفي نبرات
متوترة أخذ يحكي:

"كنت شاهداً على عشرات المجازر في دار الريح، رأيتهم وأنا
طفل يحرقون قطار الركاب، الذي يحمل أهالي الصعيد، ويرقصون
بفرح على صهوات جيادهم حوله! فتذكرت تورالجر الأول! لكم كانوا
يشبهونه!

رأيتهم يكونون المليشيات، يسلحونها، يحرقون القرى والفرقان
والحلالات، رأيت مليشيات الجنكويز وجهاز عسسهم يعتقلون منات
الأهالي، رأيتهم يعذبونهم ويقتلونهم ويدفنونهم في مقابر جماعية!
رأيتهم يحرقون القرى ويغتصبون الفتيات والنساء أمام أزواجهم،
آبائهم، أشقائهم، أبنائهم..

كانوا يقصفون القرى والحلالات بطائرات الانتوف، ثم تحاصر
مليشياتهم القرى باللاندرورزات واللاندروفرات، كانوا يهجمون على
صهوات جيادهم وهم يهتفون بغبطة، وألسنة النار تشتعل لتحرق
كل شيء.

رأيتهم أنا المريدو..

كنت واحداً منهم، أنا شاهد الإثبات الجنكويزي المنشق.. حامد
القطي، لذلك أنا معكم هنا! ولذلك أفهم ما تقول يا رجل!

ران على فضاء الزّنانة صمت عميق، أصيب الجميع بهاء
السكت، وأخذ رأس جادين جانو لحظتها، يدور بشدّة، كأنه يحلق في
ظُلْمَة لا حدود لها!

تنهد جادين في حزن وأسى! هؤلاء المشوّهون يغتصبون النساء،
ثم يمضون إلى الحج لغسل خطاياهم، وهم يكثرون من الصلاة على
النبي!

يقتلون الأطفال والشيوخ، ثم يصلون الصبح حاضراً في جماعة!

أي جنون واختلال وتشوّه هذا!

□□□

أنا المنشق المريود، لطالما أصبت بالحزن وأنا أقرأ الأشعار على
شاكلة:

الرجال تخشى وتهاب مرقتنا

فرش البيت حيرترقد عليه فرختنا

هذه الأشعار البائسة، الناضحة بالتمييز، والاستعباد، التي
تذيعها على الملاء أجهزة إعلام الحاكم العام.. أوتلك الأشعار التي
تنضح بالحسرة والانكسار كقول شيخ العرب:

”ناساً قُبّاح من دار غرب يوم جونا

جابوا التصفية ومن البيوت مرقونا

أولاد ناسًا عزازمتل الكلاب سوونا

يا يابا النقس، يا الإنجليز الفونا..

إذ أتساءل عن مقدار الظلم والألم الذي تنطوي عليه هذه الكلمات، وهي تستجير بالغريب، هل كان ذلك قُبيل فرار شيخ العرب الشاعر من البلدة القديمة، وإرساله لنديمه لشراء غطاء من السوق، يقيم شر البرد في فرارهم..

عندما عاد النديم بعد وقت ليس بالقصير، وكان صبر شيخ العرب قد نفذ، وقد تناهشته المخاوف والظنون، فخاطبه باستياء:

"ها زول ها عايز تكتلنا عشان غطا، الزول ده يمكن يغير رأيو البطانية خلها، النبقى مارقين".

وتور الجر كان قبلها قد ندم علي السماح لبعض شيوخ العرب بمغادرة البلدة القديمة، فأرسل في طلب بعض الذين عندما بلغهم مرسال تور الجر قالوا له:

"قول لي تورك العربان خالفوا رأيك".

فغضب تور الجر وأمر باعتقال أقاربهم الذين يعيشون في البلدة القديمة، وصادر أموالهم وأخذهم محمولين علي العناقريب، إلى سجن التأبيدة.

وعندما مرّت بوارج الإنجليز بعد معركة "أم صيقعون" بضواحي البلدة القديمة خرج أهل "الكويك" لملاقاتها بالزغاريد والتهليل، إلا أن البواخر كانت مسرعه نحو البلدة القديمة، فلم تتوقف لتلقّي امتنانهم.

فقامت كتيبة من كتائب تورالجر، بالانتقام من أهل الكويك، وساقوا الشيوخ والنساء والأطفال أمامهم، ونهبوا كل شيء، حتى الثياب من أجسام الأهالي. إلى أن تمكن شيخ العرب الشاعر من خداع كتيبة تورالجر، وإقناع قائدها بإرجاع النساء والأطفال والشيوخ، حتى لا يشاركوهم الزاد والماء، وهم قد يواجهون جيشًا غزيرًا، ثم غافله ومن معه فهربوا في الليل وعبروا النهر.

في عهد تورالجر عانى كل الأهالي الذين عضدوا دولة تورالجر ودعوتها، منذ ميلادها على عهد الغزاة الأتراش، لكنه اضطهدهم فيما بعد، وأذاقهم من الكأس نفسها التي أذاقوها للآخرين، الذين احتقنوا الغبن المتراكم!

كان تورالجر لا يقل إدعاءً عن المقدّس سرّه، الذي رفض أن يسلم ويرد على خطاب "وود هاوس" قائلاً:

"إذا قتلناكم فسنجد كل ما وعدنا به، أما إذا قتلنا فلن تجدوا إلا جبة متروزة وحرية مركوزة".

من اعترض على هذا الاضطهاد، عُزل أو سُجن أو ضُرب، ولقد اجتمعت الثلاثة لبعض الأهالي الأوفياء، إذ لا يمر يوم إلا ويأمر تور

الجر يضرب أحدهم خمسمائة سوط، على صلبه إلى أن يتقرح، ثم على ظهره إلى أن يؤتى به منبطحًا على حمار، فلا يهتدون إلى مكان يُضرب عليه، فيضربونه على لسانه ووجهه.

وعندما طفت شكوك البعض إلى السطح حول صدق دعوة المقدّس سرّ الرّاحل، وخليفته تورالجر وقال النّاس:

"المقدّس سرّ غشانا وتورالجر كذب علينا".

ضرب تورالجر أعناقهم، وصادر أموالهم وسجن البعض، وكان الواحد منهم في طريقه إلى المشنقة، يرفض شرب الماء، الذي يُقدم له، ويأخذ الحبل بنفسه ويضعه حول عنقه.

وكان دماس أحد الرجال القلائل الذين تصدوا لرغبات تورالجر في إهانة الآخرين، إذ رفض أن يجري عندما طلب منه تورالجر ذلك.. وقال:

"يا تورالجر، الكرعين البتتعلم الجري ما بتقيف!".

فنكل به وقبيلته، ووضع كبارهم في الأغلال حتى ماتوا..

وهكذا لم ينقض عهد "المقدّس سرّ" وتورالجر، إلا ومات ثلث أهل البلاد الأسيرة بسبب الحروب والاستبداد، وسوء إدارة الدولة!

وعلى الرّغم من حرص بعض الوجهاء على انتعال "الشقيانة" وارتداء الـ"جبة" المرقعة التي يتميز بها أتباع المقدّس سرّ، إلا أنهم

عندما يمرون بجنكوز "تورالجر" يهجمون عليهم ويفتشون جيوبهم، ويأخذون الريالات التي داخلها! ثم يقومون بركلهم وضربهم.

وذات مرّة رأى تمساح شقيق تورالجر، الأمير دماس على حماره، فأمره أن ينزل منه لأنهم يحتاجونه لأحد العبيد، الذي كان ماشياً، برغم أن دماس كان يلبس ملابس أتباع المقدّس سرّه المميزة، ويعلق "التركاش" الذي توضع فيه الحراب الصغيرة، على سرج الحمار!

ثم زفر حامد القطي في وجه جادين والمريود، زفرة، خرشت أذون المعتقلين الذين انكفأوا على أكبر مآسيهم الوجودية لحظتها!



في الساعات الأولى من الفجر، جاء عدّة عساكر جنكوز، أخرجوهم جميعاً، ودفعوهم باتجاه سيارات مظلمة مستعدة للتحرك، كانت جائمة في الفناء الواسع، عصبوا أعينهم واثقوهم، ودفعوهم ثلاثة ثلاثة إلى داخل السيارات، بدى لجادين أن الجميع يشعرون في هذه اللحظة بدنو أجلهم، كان ذلك واضحاً في وجوههم المنتفخة المتورّمة، التي جفت عليها بقايا الدماء، قال أحدهم بصوت هامس باكي منهاز:

"قلت لكم سيقتلوننا، ويرمون جثثنا في النّهر أو في أي خلاء".

رد آخر:

"سمعت أن لديهم آبارًا أسمنتية بغلاف سيراميك، محكمة الغلق لهذا الغرض، يدوبون فيها الناس بحامض الكبريتيك".

صرخ في وجوههم أحد العساكر:

"في ماذا تتحدثون.. اصمتوا يا كلاب".

وانهال يشتمهم بكل ما توفر له من بداءات..

في مثل هذه اللحظات، تتوارد على الخاطر كل ذكريات المرء، منذ الطفولة حتى اللحظة الراهنة.. يتذكر كل شيء، حتى الجرائر الصغيرة والفتيات، اللاتي أحبهن في سنوات المراهقة! وكل شيء!

شعر جادين وهو منكفئ داخل السيارة، أنها تسير على طريق متعرج كثير المنحنيات، وتنتقل من طريق مسفلت لأخر وعر، ربما لأكثر من ثلاث ساعات، وتتوقف أحيانًا لأكثر من ربع ساعة، ثم تعاود المسير، حتى توقفت لفترة تزيد عن ثلاثين دقيقة، ثم فتحت أبوابها وأمروا بالنزول:

"انزلوا يا عملاء يا فجرة يا كفرة".

أوقفوهم صفًا واحدًا، وهم يلكرونهم بأفواه أسلحتهم القصيرة، دون أن يفكوا وثاقهم، أو يحلوا العصابات عن عيونهم!

مضى الوقت ثقيلًا، وخيم صمت قاتل، مشبع برائحة النَّهر.. كانوا في مكان قريب من النَّهر، الذي أثار دعاشه كل هواجس وظُّنون ومخاوف البلاد الأسيرة، في رأس جادين دفعةً واحدة..

حاول جادين أن يتماسك، أن يصرف عنه الأفكار السوداوية عن المصير المتوقع، بالتركيز في شيء آخر، أي شيء سوى هذه اللحظة، فسرح في المخطوطة وهوامش الخزين، سرح في هذه الأرض، التي قبل ميلاد المخلص يسوع بثلاثة آلاف سنة، ازدهرت فيها صناعة الفخار، ازدهارًا منقطع النظير، وازدهرت إلى جانبه صناعة النحاس أيضًا، حيث كانت الكتابة في أطوارها الأولى بالرمز والصور، فتم نحت صقر الجديان في كل أبواب المدينة.. طائر البلدة القديمة الخالد، رمزًا للإله الملك.

وحفظت النقوش التي تصور أسرى مثلهم الآن، في هذه اللحظة، على صخور الجبال أسفل البلدة القديمة، ذكرى معارك وحروب، خاضها أهالي البلاد الأسيرة ضد الغزاة.

كانت النقوش التي تشكّل رموزًا دائرية وخطية، تكشف بجلاء أن معارك دارت هنا، على مقربة من النَّهر، دائمًا معارك البلدة القديمة، حول النَّهر!

وتمضي النقوش في شكل دائرتين، داخل كل منهما خطين متقاطعين عمودياً، وفوق أحدهما طائر يشبه صقر الجديان، وفوق الأخرى علامة غامضة، والرّمز بمجمله ربما يعني كلمة "مدينة"

بمعناها القديم، وربما المقصود أن القتال؛ الذي دار انتهى بخضوع
العصاة! هكذا فكر جادين!

وحملت النقوش صورًا لأشخاص ملتحين، تشبه سحتهم
الجنكويز الأوائل.. كانوا في مظهرهم، المحفور في النقوش على
الصخر، أثر البؤس والتعب والخوف العميق، الذي كشفته نظراتهم
الزائغة، وقرفتهم فيما يشبه الجب، والشيخ الوقور الذي يقف
بعيدًا ينظر إليهم عابس الوجه، وهو يشير بسبابته في حركة تهديدية
واضحة! كأنه يحقق معهم!

ما يشي عن نبوءة غامضة! كأن الشيخ كان يحذّر من هؤلاء
الملتحين، ذوي السحنة الغريبة، الذين سيحيلون حياة البلاد الكبيرة
شقاءً وضجر، بعد آلاف السنوات!

لكن ما يلفت الانتباه، قرفتهم في الجب، كأنهم بانتظار
محاكمة، ما يشير مع عبوس الشيخ الوقور، وحركة سبابته، أنهم
أقتلوا اقتلاعًا! وتم الزج بهم هنا! في المكان الوحيد الذي
يستحقونه، كما تشير النقوش!

ما يلفت النظر حقًا، أن هذه السحنات هي نفسها سحنات ما
عرفه الأثاريون "بالمجموعة الغامضة" والتي برزت إلى السطح، بعد
سقوط حضارة مروى، والتي يزعم البعض، أنها المجموعة نفسها
التي، بعد آلاف السنوات يتحالف المنحدرون منها، مع "نبلاء كليونّة"

في جنوب النهر، والكيرا في دارالريح، وغيرهم من أهالي البلاد الأسيرة في قبلها الأربعة، لتمتلى بالدويلات!

هذه المجموعة لم يبذل الآثاريون والباحثون، ما يكفي من مجهودات لمعرفة، واكتفوا بوصفها بالغموض، ربما لقناعتهم بعدم جدوى الكشف عن هذا الغموض، والزهد في معرفتها بتحديد أكثر، حتى اعتاد الدارسون على هذا الوصف!

لكن جادين ظل يعتقد، فيما يشبه الإلهام الخفي، الذي لا تسنده أدلة، أنهم أصل الجنكـويز! وذلك لأن حضارتهم الغامضة، اعتمدت في اقتصادها على صناعة التوابيت والاعتياش من تحنيط الجثث، بل وانصرفت أيضاً لممارسة الاغتياش بالأجر!

لذلك كل ما خطرت قراءاته عن هذه المجموعة على باله، يقارن بين عاداتها السيئة كدفن الاتباع مع سيدهم، عند وفاته، وقتل الأب لبناته، بدفنهن أحياء! وعادات الجنكـويز!

كذلك سحناتهم كما تبينها النقوش، مشابهة "لسـحـنات" سلاطين فازوالحكام العامين؛ وأمراء البلدة القديمة والمدينة الزاهية والعرب، وسحنة هذا الضابط الذي حقق معه، وعساكره الجنكـويز الذين عذبوه!

قبيل اعتقاله بأيام قليلة، كان علماء المعهد، قد عثروا على العديد من المقابر الجماعية، وشبه الدفن بالجملة، تحوي آلاف

الضحايا، الذين قُبروا مع أسيادهم، إلى جانب القبور، التي بينت
الكشوفات أنها لإناث صغيرات!

وكان جادين قد افترع مقارنة، بينها وبين المقابر الجماعية، التي
دفن فيها الجنكوز كثيرون من أهالي الصعيد ودار الريح. بل وحتى
أعضاء المحاولات الانقلابية الفاشلة!

هذه الدراسة المقارنة، عندما نشرتها المعاهد المعنية بتاريخ
إنتهاكات حقوق الإنسان في البلاد الأسيرة، جلبت جادين إلى هنا.. هذا
المعتقل الرّهيب!

الذاكرة عذاب.. تعمل في المعتقل ضد النسيان، عكس عقارب
الزّمن، فيتدفق القلب بالحنين إلى هيلدا، الحكايا، الصور، المشاهد
والوقائع الصغيرة في حياة عاشقين، وتضاريس الوجوه العديدة التي
تخلّلت مسيرتهما..

الذاكرة في الزّنازة تستعيد الأحداث وترتب الوقائع، وفي صبر
دؤوب تنسجها حدثًا تلو آخر، وواقعة تلو أخرى.. وهي تنهل من روح
هؤلاء المعتقلين المعدّين، الذين آخر حلم يحلمونه، هو الخروج على
قيد الحياة أو سالمين، ومع ذلك يغنون في ليل السجون الصباحات
الحييئة المتوارية خلف أفق لا نهائي الحُلْكة.

كانوا يغنون، يفلتون أحلامهم من عقالها، بكل جنون الحزن،
وبكل الأسى والعذاب.. هؤلاء المعتقلون الذين عاشوا جهنم في كل

مكان منذ ولدوا، ظلوا يولدون في أغنيات محبوب شريف.. ليل
السجون كأبطال الأساطير القديمة، دون أن يأتوا للصعيد بسيرة!

ينسون حياتهم التي كانت في الصعيد، السافل، دار الريح وو..
وينسون جهنمهم الآن، في هذا المعتقل الرهيب، فلا يعودوا يتذكرون
سوى أغنيات الشمس والخبز والحرية، فتتسع داخلهم مساحات
الأمل في الخروج ولقاء أحبابهم..

أمل يضيء حياتهم الوعرة، المظلمة، التي لطالما بحثت عن معنى
للحياة، في هذه البلاد الأسيرة القاسية!



توجه نفر من أقرباء المقدّس سرّه، يشكون تورالجر ويطلبون
إليه إعفاءه! فجاء رد المقدّس سرّه أن أمرهم بطاعته والتأدب معه،
بمنشور كُتب وقرئ بالبلدة القديمة، وأُرسل إلى أنحاء الدولة، فهو
بالنسبة له بمنزلة الصّديق للنبي الكريم -كما قال- إذن فعل تورالجر
كل ما فعل، برخصة من الله ورسوله، ومباركة من المقدّس سرّه!

فالله والمقدّس سرّه هما اللذان أمراه بارتكاب ما ارتكب من
جرائم، وليس للمقدّس سرّه مانعًا في ذلك! فتورالجر ليس سوى أداة
تنفذ إرادة الله والمقدّس سرّه!

أوليس هو مشروع العرّاب نفسه، الذي لقي بسببه الملايين من
أهل البلاد الأسيرة حتفهم، وانتهى بمن بقى حيّاً إلى التشرذم
والتمزق، والفقر والفساد والانحطاط!!

□□□

خلعوا عنهم العصابات، وفكوا وثاقهم، حالما اعتادت أعينهم
الضوء، أخذ جادين يتفحص المكان، الذي بدى كدائرة من الأبنية
الملتصقة، التي يتوسطها فناء واسع، تنتصب في مركزه شجرة نيم
هرمة.

كان العساكر الجنك—ويز جميعهم بأزياء مدنية، تقدّم منهم
أحدهم، وهو يقول في تشفٍ:

"من يجيئنا هنا مفقود، ومن يخرج مولود، هذا إذا خرج".

قال آخر في صوت ينمُّ عن حقد غريب:

"لا يرسلون أحدًا إلى هنا، إلا إذا قرروا تصفيته، ماذا فعلتم
لتتوجب تصفيتكم، ما هي جرائمكم؟!".

ظل ثلاثتهم صامتين، لم يفه أحدهم بكلمة، فهجم عليهم
العساكر الجنكـويزو انهالوا عليهم لكماً ولطمًا وركلاً، وهم يشتمون
ويقولون:

"عندما نسألكم يجب أن تردوا".

"وهل يضيرك الجوع والعطش، وأنت هنا محكوم عليك بالموت.. اصمت".

وتقدم عسكري آخر، لطمه بقوة، حتى انكفاً على ظهره! لم يفه بعدها أحدهم بحرف، استسلم ثلاثتهم للجوع والعطش! وسرح جادين بخياله لا يصدق نفسه، ويتساءل:

هل حقاً نحن أحفاد أسلافنا الذين وصفهم الخزين، الأسلاف الذين عاشوا حياتهم معززين ومكرمين، يغضبون لمجرد إهانة شعب آخر للخيول، ويجتاحون بلداناً بكاملها لرفع الضيم عنها؟

هل نحن حقاً أحفاد صانعي الفخار، أولئك الذين عاشوا في الحاضرة الحدودية أسفل النهر، في "أرض الأقواس" حيث يجري النهر مسرعاً إلى مصبه، في البحر المتوسط، هناك حيث تم الكشف عن مدينة أثرية كاملة، تعود لآلاف السنوات..

كشفت الآثار عن أهلها، أولئك الأهالي المهرة في استخدام القوس، والذين ستطلق عليهم جيوش الجنكوز في الغزو الثاني بعد آلاف السنوات، لقب "زُمة الحدق" تعبيراً عن هذه المهارة، التي ضعفت معنويات جيشهم، فجنحوا لعقد اتفاق للسلام!

هل حقاً نحن أحفاد هؤلاء؟

وإذا كنا فلماذا نصمت، على هذا الذي يفعله الجنك—ويزبنا؟
أحذية الجنك—ويتنغرس، في خاصرة جادين كالخناجر، تدهسه على
الأرض، وتطحنه، فيتدفق نهر من الألم.

قيده، ألقوا به في قعر بئر وتركوه، لا يدري لكم من الوقت لبث،
وهو يشعر بحياته تنطفئ كعود كبريت، فتح عينيه وأغمضها، وأخذ
يكرّر إغلاقهما وفتحهما عله يحس بالحياة، فتجيء هيلدا بحزنها،
نجمة تتلألأ في فضاء البؤس والاكتئاب، يشعر بانكسار رويهما في
قعر هذه البئر المظلمة! مثلما يشعر بتناقضات أفكاره، في هذه
اللحظة التي يشتد فيها الألم.

لطالما تقدم على الدرب ذاته دون مساومة، يتبع خطى صانع
الفخار، مثله.. لا يساوم، متواضعًا متشددًا، ومتوحّدًا، مولعًا
بالرفاه.. الرفاه لكل الناس، ولا يحب الأغنياء، الذين يستأثرون دون
الفقراء بكل شيء، زاهدًا ومع ذلك لا يتحمل الفلوس، يبشر بالشيء
نفسه، الذي يحكم حياته وسلوكه..

فهو كصانع الفخار، كالمسيح أو محمد أو ماركس.. ككل الأنبياء،
الذين بشروا بالشيء نفسه، الذي حكم سلوكهم بين الناس! يفعلون
ما بشروا به، ويبشرون بما رغبوا في فعله.. طالبوا أنفسهم
بالمستحيل، وتساهلوا مع الناس، بل لم يطالبوهم بشيء، سوى
لأنفسهم! لا أحد يحبهم ويكرهمهم في الوقت نفسه، إذ لم تكن سيرتهم
تخضع لاحتمال ثالث بين الاحتمالين!

هكذا كان صانع الفخار، وحاول هو جادين جانو أن يكونه.. أن
يتبع خطاه فتلقفته السجون!



كان جيش الغزو الإنجليزي منهكًا، متشرزمًا هرب منه الكثيرون،
ولم تكن قيادته ذات كلمة واحدة، ولكن ما كان يجول في أذهان
هؤلاء الغُزاة المحققين بالصلف الوريثي، وما كانوا يقولونه
لجنودهم، إنهم سيواجهون "دراويش" لا علم لهم بفنون القتال،
وإنهم معزولون قليلو العدد!

لكن عندما صعد جندي الاستطلاع أعلي الشجرة، رأى شيئًا لم
يتوقعه!

رأى جيشًا كامل العُدّة والعتاد، رأى آلاف البشر علي مد البصر،
أناس يرفعون الرّايات، ويقفون في صفوف متناسقة، لم يصدق
عينيه ففركها ثم فتحها..

فرأى أناس من مختلف الأجناس؛ ومن مختلف الديانات! رأى
حتى الرّاهبات في ذلك الجيش، فعلم أن قائده غرّر بهم، وأن جيشه
سيهلك، وأنه لا محالة هالك فيمن سيهلك! فوقع مغشيًا عليه!

وفيما بعد، العكس تمامًا!! جيش كتشنر الذي انتصر على تور
الجر، كان يضم الكثيرين من جنود المقدّس سرّه وتورالجر، أولئك
الذين تم أسرهم، ورجعوا مع كتشنر، ليحاربوا رفاق السلاح

القدامى، فما أشبه الليلة بالبارحة، فالحاكم العام يواجه فيمن يواجه الآن، رفاق السلاح من قدامى الجنكويز المنشقين!

ما الفرق إذن بين المقدّس سرّه والعرّاب؟.. يحكي تورالجر لأصفيائه:

"فيأتي النبي ويجلس معي ويقول: "شيخك هو المقدّس سرّه فيقول إني مؤمن بذلك، فيقول: من لم يصدق به كفر، قالها ثلاث مرات".

ويذكر في منشور عُرف بمنشور الدعوة، شبيه بمنشورات العرّاب "وأعلمني النبي بأني المقدّس سرّه وأخلفني بالجلوس على كرسيه مرارًا، بحضرة الخلفاء والأقطاب والخضر، وجمع من الأولياء الميتين وبعض من الفقراء الذين لا يُعبأ بهم، وقلدني سيفه، وأيدني بالملائكة العشرة الكرام، وأن يصحبي عزرائيل دائمًا، في ساحة الحرب أمام جيشي، وفي غيره يكون ورائيا، وأن يصحبي الخضر دائمًا ويكون إمامنا سيد الوجود، وخلفاؤه الأربعة والأقطاب الأربعة، وستون ألف وليّ من الأموات".

لقد صرّح المقدّس سرّه يا سادتي، أن تورالجر وليّ من أولياء الله، وشهد له بالعصمة فقال:

"واعلموا أن جميع أفعاله وأحكامه، محمولة على الصواب، لأنه أوتي الحكمة وفصل الخطاب".

وحوَّف من عارضه بخسران الدنيا والآخرة، حين قال:

"ومن تكلم في حقه ولو بالكلام النفسي جزماً، فقد خسر الدنيا والآخرة؛ ذلك هو الخسران المبين، ويُخشى عليه من الموت على سوء الخاتمة، والعياذ بالله.. وإن رأيتم منه أمراً خالفاً في الظاهر، فاحملوه على التفويض بعلم الله، والتأويل الحسن".

لذلك كرهه علماء عصره! كما يكرهه جادين الآن!

□□□

سمع صوت التَّكَّة الغليظة للمفتاح، في الباب الخارجي، ومن الفتحة الضيقة للباب الثاني، نادى العسكري:

"هاكم..."

وقف اثنان من المعتقلين بسرعة، وتقدَّما نحو الفتحة، مدَّ العسكري لفافة كيس بلاستيك، وجرانة زيت مليئة بالماء، وكوب من الصفيح، هو في الحقيقة، علبة صلصة قديمة فارغة، مثل جرانة الزيت الفارغة، التي أعيد تعبئتها بالماء العكر!

كانوا ظمأين يكاد يقتلهم العطش، صبَّ أحدهم الماء في كوب الصفيح الصديء، وأخذ يديره عليهم! كان طعم الماء غريباً، كأنه ممزوج بعرق أعضاء الإخراج البشرية!

فضوا اللُفافة، وجدوا فيها أرغفة محشوّة ببول مالح جدًّا، يكاد يكون المملّح أكثر من الفول نفسه! وأصبحت تلك هي الوجبة اليومية اليتيمة، كل يوم في نفس التوقيت، يمد العسكري اللُفافة بالكيس نفسه، والجركانة نفسها، والماء نفسه والفول المالح نفسه، حتى فقدوا إحساسهم بالزّمن!

كان كل شيء يتم بطريقة آلية، كل شيء هو نفسه، الوجوه النحيلة، التي تكاد تشارف على الموت، بقايا الدّم المتجمدة في الوجوه، الشفاه اليابسة المقشرة، حشرات البق والبراغيث والفتران الصغيرة، التي تتجوّل على الجدار خلف ظهورهم، رائحة النّهر المكتومة، الزحام.

لم يكن بوسع أحدهم أن يمدّ رجليه، ينامون مقرفصين، يستندون على بعضهم وعلى الجدران.. هذه التجربة القاسية وحّدتهم، جعلتهم أكثر شفافية في الإحساس بالأم بعضهم، بهذا العذاب الذي تنضح به وجوههم، وهذا الإعياء الرهيب، الذي تنطق به كل خلية، في أجسادهم النحيلة المنهكة، المملّأى بالتقرحات، يشعرون كأنهم كل واحد في هذه المأساة، التي فُرِضت عليهم!

كان جادين يشعرون البؤس والحزن، اللذين يعيشهما الآن مع رفاق الرّزّانة، همّا حزن وبؤس العالم كله! حزن فريد، ينبع من أعماق تاريخ البلاد الأسيرة ووجدانها الجريح! فيتساءل:

هل، إلى جانب كل القيم، التي اتسمت بها البلاد الأسيـرة عبر
تاريخها، كان الحزن والبؤس، قيمًا متجذرة كبقية القيم، كما يشعر
بها الآن؟

□□□

ابتلع جادين صوته، إثر دخول جنكوزيان انتصبا فوق رأسه،
ثم جاء المحقق وطوح بجنته فوق الكرسي، خلف مكتبه، أشعل
سيجارًا فاخرًا، وقذف عود كبريت بوجه جادين، رنَّ جرس التلفون،
أخذ يستمع وعيناه تتفجران غضبًا، لم يقل سوى عبارة واحدة:

"مظاهرة.. مسلحون!"...

ثم قفز من كرسيه بغتةً، ومن عينيه ينبثق شرر مدمر، ثم أشار
إلى الجنكوزيان بنظرة خاطفة، وقفز تجاه الباب يغادر المكتب، كقط
مفزع..

شعر جادين أن ثمة أمر عظيم يدور بالخارج!

□□□

في غالب الأوقات، لم يكونوا يستطيعون، تمييز الوقت أثناء
اليوم، العساكر الجنكـويزلا يخبرونهم، كانوا يعرفون الوقت خلال
القادمين الجدد، أو عندما يتم اقتياد أحدهم لتعذيبه، أو التحقيق
معه، حتى هؤلاء ليس مؤكّدًا معرفتهم بالوقت، لأي سبب من

الأسباب، التي أهمها الخوف الشديد، الذي يفقد المرء، القدرة على التركيز، في أي شيء آخر عدا ما سيحدث!

بالقدر نفسه كان تعاقب الفصول على معتقل القلعة الرهيب فظيغاً، ففي الصيف اللاهب، تصبح الجدران الحجرية فرناً لا يحتمل.. قطعة من الجحيم، خاصة في شحّ الحصاة اليومية من الماء، الذي لا يتعدى جرعات قليلة لكل معتقل، بالكاد تكفي بل ريقه وخلاياه.. الاغتسال هنا حلم بعيد المنال.

بمرور الوقت كانوا يشعرون، أن جلودهم اندبغت بالعرق و إفرازات الجسم، التي تزكم الأنف برائحتها، كانت أظـافرهم وشعورهم قد طالت، وفروات رؤوسهم أصبحت مستعمرة للقمل والصيبان، وأشكالهم تبدلت.. أصبحوا أشبه بسعالى أو أشباح..

كانت دورة المياه داخل الزنزانة نفسها، في ركن منها، ليست دورة مياه فعلية، مجرد جردل كبير صدئ، يفصله عن مرأى المعتقلين، ساتر قماش متسخ ومهترئ!

إن كان ثمة معانٍ مختلفة للقذارة والاتساخ، فهذا أسوأها على الإطلاق! هذه البلاد الواسعة، لا ينقصها العراء الشاسع، الذي لطالما استخدمه الأسلاف، في عصورها السحيقة، كدورات مياه.

ورغم أنه كان عراء، إلا أنه كان يحميهم من الأنظار، خلف دغل أو تلة صغيرة أو أكمة شجيرات متكاثفة..

وهذه الأرض الرّحبة، لم تعوزها يوماً المياه، فحتى في وديان دار
الرّيح البعيدة، المرء ليس بحاجة لأكثر من نبش التراب، ليحصل على
الماء من "المشيّش، الجمّام" فيقضي حاجته أمناً دون خوف، فكيف
لهم هنا جوار النّهر؛ وفي هذا العصر الذي يعج بالمنظمات الحقوقية،
يعيشون هذا النمط الغريب من الاعتقال؟

هل تعيش البلاد الأسيرة، في منحى زمني آخر، هل تعيش عصرًا
آخر؟؟! من أين جاء هذا النمط من التعذيب، من أين وفد إليها؟
بابتلاع دويلاتها الواحدة تلو الأخرى؟

ضيف جديد، قذفوا به وسط زحام الرّزّانة المكتظة، جثة تكاد
تكون هامدة، ووجه مغطى بالكدمات والنزيف، كان واضحاً أن ثمة
أكثر من كسر في يديه ورجليه، الألم والدماء المتخثرة، أعادا رسم
ملامحه من جديد..

لملم أطرافه قرب زاوية الجدار، كان زائغ العينين، مرعوبًا
بشدة، وغير راغب في الحديث.

انطفأت حكايات الجميع، سكنتهم الرّيبة، والوجوم، تبادلوا
فيما بينهم نظرات ارتياب مفهومة، ثم انفجروا مرة أخرى يغنون..
ويشعلون فتائل الحكايا، التي تنفجر في وجوههم المنهكة.

تجاسر جادين ودنا منه، قرر اكتشافه، ربت على كتفه وقال:

"أسمح لي بالجلوس قريك؟".

فلم يرد، اكتفى بالنظر إلى جادين في ذهول، ويده غير المصابة تتحرك بتوتر، وقد كشفت كدمات وجهه عن عصبية وحدة، تختبئ خلف بقايا الدم المتجمد..

"اتركني في حالي".

قال الرجل، فدنا منه جادين كأنه لم يسمع شيئاً، وقال بلطف:

"نحن هنا أشبه بأسرة واحدة، ليس لنا سوى بعضنا، ما اسمك؟".

غرس الرجل رأسه بين ركبتيه؛ بعد أن قال بصوت مرتجف:

"حامد.. حامد القطي، جنكويزي منشق"...

ثم ابتلع لسانه، وساد صمت عميق!

□□□

كان الجنك—ويزيجرون الناس على الصلاة، لا يهمهم إن كنت حقاً تصلي أو لا، فقط عليك أن تصلي، فالمعتقل فرصتك للتوبة!

البعض كان يتيمّم والبعض الآخر كان لا يأبه، بل كانوا جميعاً لا يأبهون، يقفون صفّاً للصلاة.. فقط تفادياً لغضب الجنكويز!

إذا تجرأ أحدهم وطلب ماء للوضوء، كان يُقابل بكل أنواع

التحقير:

"هل لديك رب.. هل لديك دين.. تصلي لمن؟".

كان المعتقلين دائماً ممزّقين؛ فإن صلوا مشكلة وإن لم يصلوا مشكلة؛ ففي كل الأحوال لا يفلتون من الشتائم والإهانات وربما التعذيب!

عندما تتداعى مثل هذه الوقائع إلى ذاكرة جادين، يشعر ببرد يخز عظامه، لهول الفارق الكبير، بين ماضي هذه البلاد وحاضرها، بين المستنيرين الذين كانوا حول أركماني، والرجرجة والدهماء، الذين أحاطوا بالعزّاب والحاكم العام الجنكويزي كأسورة.

فيحقد في وجه القطي، الجنكويزي المنشق، وهو يحيي:

"كانت النساء يتعرضن للاغتصاب كل يوم، وهن في طريقهن لجلب الماء، فالجنكويز حول الآبار وفي الوديان، لا يتركونهن يأخذن الماء، الذي يحتجن إليه إلا بعد اغتصابهن".

غطى وجهه بكفيه وبكى.. وهو يكرر:

"كنت معهم.. نعم كنت معهم".

ربت جادين على كتفه، أراده أن يستمر في الحكي، كانت ذاكرته توثق كل حرف ينطق به حامد القطي.. قال له بصوت عميق:

"لست وحدك من تم تضليله، لقد ضلّلوا شعباً بكامله، شعب بكامله متورط، لست وحدك!".

"لكنني كنت معهم، قتلت، واغتصبت وسمّمت آبار المياه، وأحرقت القرى، كنت أنفذ كل ما يأمر به العرّاب وتورالجر".

وانخرط في بكاءٍ حار..

□□□

كان المعتقلون في حالة تغير دائم، بعضهم يموت، بعضهم يُطلق سراحه، بعضهم يُنقل إلى زنازين أخرى، ويحل محلهم معتقلون آخرون، أسرى المعارك الدائرة في دار الرّيح، أو جنوب النّهر الأزرق والجبال أدنى دار الرّيح، وكانوا غالبًا مصابين بشظايا أو طلقات نارية.

لم تكن تُقدم لهم أي رعاية طبية، ولا تضمد جراحهم، يلقون بهم إلى زنازين الاعتقال يزفون دمهم قطرة فقطرة، يواجهون مصير الموت أو الموت!

كان المعتقلون أمثال جادين يتعدّبون كثيرًا، وهم يرونهم يتألّمون ويتأوهون ويتعدّبون، وتتعفن جراحهم، وتتخثر فتصبح منبئًا للديدان، وتصبح رائحة الزّنزانة، أسوأ من هذا العذاب نفسه!

كانوا يتلوون من الألم، ولا أحد يملك شيئًا لتخفيف عذابهم وآلامهم، كل خرق ثياب المعتقلين المهلهلة المتسخة، كانت لا تكفي لتضميد جراح الواحد منهم، وإذا استجدى أحدًا الجنكوز لإحضار طبيب، كان ذلك يعني أن قيامته قد قامت! ترك هؤلاء الجرحى لمواجهة الموت، الذي كان أرحم من الجحيم الذي يقاسونه!

وكان جرحى المعارك هؤلاء مكوّتهم في المعتقل لا يطول، فمن ظل على قيد الحياة، كانوا سرعان ما يأخذونه، إلى التحقيق ثم لا يعود مرّة أخرى، ولم يكن العساكر الجنكـويز يخفون أنه يتم قتلهم ودفنهم جماعياً، في حفر أعدت خصيصاً لهذا الأمر!

فـالجنكـويز كانوا مغرمين بالقتل الجماعي، والقبر الجماعي! القتل والقبر الجماعي سمة لازمت تاريخهم في البلاد الأسـيرة، منذ غزوها أول مرّة قبل مئات السنوات!

متى بدأ تاريخ البلاد الأسيرة ينعطف عن مساره؟

عندما تحالف نبلاء فاز، المتحدرون من كـليوّة البائدة مع الجنكـويز، وتمخّض هذا الحلف عن دولة تورالجر، هنا في قلب دار صباح، مركز البلاد الأسيرة..

سيبدأ تاريخ البلاد الأسـيرة وحضارتها العريقة منذئذٍ، في الانعطاف إلى مسار زمني خارج سياقها التاريخي، وتبدأ في انحدار لا يتوقف.

تبدأ عقائد النّاس في الاضطراب، ولُغاتهم في الانحسار، الأمر نفسه حدث في دارالريح ليصبح الطريق سالكاً لتحالف "الجنكـويز" مع "بيوتات أهالي البلاد الأسيرة" وتأسيس أسرهـم الحاكمة في دارالريح ودارصباح والسافل.

حكى الأهالي وفي الحقيقة، كان الجنكـ ويز ليسوا بحاجة إلى
حكاياتهم فهم يعرفونها، بل عاشها أسلافهم ويعيشونها الآن!

قال حامد القطي:

"في المرة الأولى أرسل الحاكم العام، عدّة ألوية من الجنكـ ويز
بحجة تفريق القبائل وفض الاشتباك، في دار الرّيح، والقضاء على
عصابات النهب المسلح. قامت هذه القوات بحرق وتدمير أكثر من
عشرين قرية، وإحراق امرأة مع مولودها، الذي لم يبلغ خمسة أيام
بعد؛ ونهبت أموال زوجها، الذي أصيب بعدها باختلال عقلي، لهول
ما حدث له ولأسرته، في نفس التوقيت، كانت قوات أخرى بقيادة أحد
الجنكـ ويز في ضواحي المنطقة، وأثناء صلاة الظهر، قد قامت بإغلاق
أبواب مسجد المنطقة، وإطلاق النّار من كل الاتجاهات على المصلين،
فقتل أكثر من خمسين شخصًا في الحال.

ارتكب الجنكـ ويز هذه المجازر، تحت مسمى "الخطة الأمنية لدار
الريّح"!

خلال هذه الأحداث، تم حرق وتدمير وتهجير أهالي القرى
والحالات والفرقان، دون رحمة، تلازم مع هذه الأحداث، القبض
على أعضاء حركة صانع الفخار، كما تم اعتقال أحد قادتها،
والتحقيق معه في كبرى حواضر دار الريّح، ومن ثم تصفيته سريعًا
دون محاكمة، تحت إشراف حاكم دار الريّح، المفوض بسلطات
مطلقة، من الحاكم العام الجنكـ ويزي تورالجر الرابع!

اجتمع حاكم دار الرِّيح، مع قيادات طائفة المقدّس سرّه، للبحث في كيفية تصفية الأُسرى، فاستقر الاجتماع على دفن كل هؤلاء أحياء في مقابر جماعية، ناحية وادي المــــرفعين، على مقربة من قوز المطاليق".

كانت ذاكرة جادين تدون كل حرف ينطقه حامد القطي، كأنها تتشرب أنفاسه اللاهثة، وهي تزفر الكلمات والحروف المتلاحقة، ولكن الحاذة والمشبعة بالحزن.

واصل حامد القطي:

"ثمة مجزرة أخرى تمت خلف "قوز العرديب" إذ قُتل العشرات بوابل رصاص الجنكويز، كانوا يطلقون الرصاص دون هوادة.. بعد هذه المجزرة بيومين كعادتهم، تم إبلاغ الشرطة وبعد أن نُقل الضحايا إلى المشرحة، تجمع الآلاف من الأهالي، للتظاهر ضد هذه الجريمة البشعة، إلا أن السلطات الجنكويزية قامت بمحاصرتهم بكل أنواع السلاح، وأمرت أسر الضحايا باستلام الجثث، وإلا ستكون العواقب وخيمة.

وتضامن مواطنو دار الرِّيح مع أسر الضحايا، وطالبوا بمعرفة الأسباب، إذ لم يُعرف للضحايا أي انتماء، سواءً لطائفة صانع الفخار أو غيرها، كما طالبوا بمحاكمة المجرمين منفذي هذه المجزرة.

ولكن السلطات رفضت ذلك وأعلنت تهديداتها، عبر مكبرات الصوت، وأمهلّت المواطنين ربع ساعة فقط لمغادرة المكان، وإلا سوف

تُطلق عليهم النَّار من الأرض، ومن الجو بواسطة إحدى مروحياتها،
التي كانت تحلق وقتها فوق رؤوس النَّاس.

وعندما انقضت المهلة، وتحركت المروحية تجاه المواطنين،
اضطروا للهرب، خوفاً من الهلاك".

"وليس هذا فحسب".

قال القطي:

"فعلى الجانب الآخر من وادي المرفعين، اعتقل عسس النظام
الجنكـويزي ثمانية مواطنين، قاموا بتوثيقهم بالحبال، ثم جرّهم
بواسطة عربات لاند روفر، إلى أن تنصلت أطرافهم، فتُوفي اثنان
منهم في الحال.

أما البقية فقد أدخلوا رؤوسهم في إطارات سيارات قديمة، بعد
أن سكبوا عليها مواد حارقة، وأشعلوا فيها النَّار، فماتوا جميعاً
متأثرين بالحرق!

وعندما علم ذووهم بالأمر، قاموا بفتح بلاغ، ولكن السلطات
قالت بأن الجناة من عصابات النهب المسلح، وطائفة صانع الفخار،
وأنهم قاوموا سلطات الجيش الجنكويزي.

□□□

حين نقلوه من سجن القلعة، إلى هذا المعتقل المنفي في التاريخ
والجُغرافيا، ودفعوه إلى هذه الزَّنْزانة، وأغلقوا الباب خلفه، تعرف
بعضًا من النزلاء السابقين، الذين كانوا معه في معتقل القلعة..

كانت وجوههم بشوشة ومرحبة على ما بهم من كرب، كانوا
يعلمون بالضبط ما يشعر به، ثمّة كيمياء غريبة تربط المعتقلين
ببعضهم البعض، يتكثف إحساسهم بالأم وأحزان بعضهم.

حاولوا أن يبددوا وحشته، فقد مروا بتجربة الانتقال من
معتقل لآخر، لذا كانوا يدركون تمامًا ما يشعر به الآن، سأله أحدهم:

"هل اعترفت؟"

"بماذا اعترف؟ لم ارتكب جرمًا اعترف به، ما يطلبونه لا أملكه."

ابتسم آخر وهو يربت على كتفه معضدًا:

"عفارم.. عفارم."

سأل آخر:

"هل وجدوا لديك وثائق؟"

"وثائق؟ أي نوع من الوثائق؟"

"كل المعتقلين هنا سبب اعتقالهم؛ انتماءهم لحركات صانع
الفخار المقاتلة؛ في أطراف البلاد الأسيرة."

"لا، ليس لدي صلة بأي نوع من الحركات والطوائف، أنا بروفيسور جادين جانو، مجرد باحث.. باحث في التاريخ.. مجرد موظف".

كان أكثر ما يؤرق المعتقلين؛ الجواسيس الذين زرعهم الجنجويد وسطهم، وأكثر ما يزعجهم إنكسار أحدهم تحت وطأة التعذيب، ومع أنهم كانوا لا يجدون صعوبة، في اكتشاف الجواسيس والمنكسرين، إلا أنهم يظلون لا يشعرون بالأمان بسهولة، فكل معتقل هو محل شك زملائه، إلى أن يثبت العكس.

المعتقل الذي ربت على كتفه وهو يردد: عفارم، وضع كفه على كتفه مرةً أخرى، وهو يقول بحنو:

"أنا عتّام، عتّام ابراهيم، نقيب عمال السكة الحديد، لا تخف، الحوش ليس فيه بلوم، لا تخش شيئاً الدّار أمان".

ثم لم يزد، تأمل جادين وجهه طويلاً، كانت ملامح وجهه وتقاطيعه ونظراته الهادئة كنسرٍ عجوز، وكل شيء في قسماته يؤكد أنه خبر المعتقلات والسجون لسنواتٍ طويلة.

"هل أحضروك هنا وحدك؟".

قال عتّام، فرد عليه جادين باقتضاب:

"لا، معي اثنان آخريّن، لا أدري أين ذهبوا بهما".

"إحضارك إلى هنا يعني أن بقاءك سيطول، فكيف نفسك على ذلك".

"لماذا؟ أنا لم أفعل ما يستحق ذلك!".

"ولا أي منا هنا فعل ما يستحق ذلك، إنهم كنمر جريح؛ الآن يتخبطون ويضربون في كل اتجاه، فقد انفتحت عليهم كل الجبهات بعد الانفصال، الذي هيأ لهم قُصر نظرهم؛ أنه سيترتب عليه توطيد سلطانتهم إلى الأبد، فخاب ظنُّهم، فالمشكلة لم تكن يوماً الصعيد، المشكلة منذ بدايتها الجنكويز".

"أليس هناك أمل في إطلاق سراحنا؟".

"نحن لا نفقد الأمل أبداً".

للمرة الأولى وعندما شعر الإنجليزي، السكرتير الإداري للمدينة الرأهية، حاضرة البلاد الأسيرة بنذرا اضطراب؛ قد يقوِّض مصالح الامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، دعا إلى عقد مؤتمر في حاضرة الصعيد، هدفه بحث تمثيل أهالي الصعيد؛ في مجلس البلاد الأسيرة وإنشاء مجلس منفصل لهم، كان يحاول إشراكهم في السلطة، لتحقيق سلام دائم، فجاء إلى المؤتمر قادة طوائف صانع الفخار في الصعيد؛ والموظفون المتعلمون، وفي غضون ثلاث سنوات من هذا الحدث؛ تم الشروع في هدم الجدار العازل!

لكن بعد أقل من خمس سنوات أخرى، بدأ واضحًا لطائفة صانع الفخار، أن ما تم كان زائفًا، فبدأت "نقارة الورل" تعزف للحرب، فتمردت للمرة الأولى إحدى طوائف صانع الفخار، التي وُلدت في أحراش غابات الصعيد.

فإحدى الأورطات، التي كان يقودها أحد أحفاد الخزين طبلية، تحمل الرقم صفر، ضمن أورطات جيش الجنكويز، ثارت وقتلت كل القادة الجنكويز ثم زحفت بسلاحها وعتادها إلى داخل حاضرة الصعيد، التي شيدها الجنكويز والغزاة البيض على شاكلة البلدة القديمة، وقتلوا كل من ليس من الصعيد!

"كانت مجزرة رهيبية!"

"نعم راح ضحيتها أكثر من مائة وعشرين جنكويزيًا، وأربعين من الإنجليز والأغاريق والطلبيان!"

كان واضحًا أنهم قد فاض بهم الكيل، وأنهم يستهدفون الغزاة وحلفائهم الجنكويز! وهكذا لتسعة عشر عامًا أخرى لم يتوقف القتال، وبعد أن غادر الغزاة البيض، وانفرد الغزاة المحليين بالحكم، رفضوا أن يجلسوا إلى طوائف صانعي الفخار.

رفضوا الاستجابة لمطالبها العادلة واختاروا الحرب، ولذّر الرّماد في العيون استنادًا إلى خبراتهم العميقة في تفتيت الأهالي، وشق وحدتهم، منحوا بعض قادة طائفة صانع الفخار المتهافتين المتأثرين بأفكار الخزين، مناصب رفيعة..

كان تعيينهم اسمياً، رمزياً مضللاً، إذ كانوا عاجزين عن فعل أي شيء لصالح الأهالي، وفي الوقت نفسه كان الجنكويز يقولون للأهالي:

"هؤلاء هم أولادكم، احملوا مطالبكم إليهم، نحن لا دخل لنا".

فانصرف الأهالي إليهم، يسألونهم عن مطالبهم حقوقهم، فكيف يقابلهم أبناؤهم؟

يزجرونهم، يعتقلونهم، يعذبونهم، يقتلونهم.. انقسمت طائفة صناع الفخار إلى طائفتين إحداهما تتبنى تعاليم صانع الفخار الأصل، وأخرى تتبع خطى الخزين طيلة!

وهكذا بدأ واضحاً لطائفة صانع الفخار الأصل أن لا سبيل أمامها سوى إعادة ترتيب صفوفها، وهكذا كثفت من نشاطها في المنفى ضد الحاكم الجنكـويزي العام، لكنها انقسمت إلى فصائل أخرى، حملت أسماء مختلفة كاتحاد طوائف صانع الفخار، الذي رأى: أن الخير لشعب البلاد الأسيرة في انفصال الصعيد، بدلاً عن اتحاده مع أسفل النَّهر، إذا أصر الجنكـويز على الانفراد بحكم كامل البلاد الكبيرة؟

أدَّى هذا الإعلان إلى مزيد من العنف والقمع والحرب بين الطرفين، ومن ثم من داخل هذا الفصيل ولدت طائفة "أفعى صانع الفخار" التي صعّدت الحرب، فأصبح الجنكـويز في الصعيد يعيشون تهديداً دائماً.. فقدوا إحساسهم بالأمان، وأصبحوا في خوفٍ مقيمٍ من الهجمات المباغطة، التي كانت تشنُّها أفعى صانع الفخار السوداء.

هذا الخوف دفع الجنكـويز إلى تبني تكتيكي؛ لسياسة تسامحية زائفة، فدعت إلى مؤتمر آخر، في حاضرة الصعيد بعد عامين من بداية التصعيد لحل مشكلة الأهالي مع الجنكـويز، وتنازعت المؤتمر رؤيتان:

فبينما تبنت طائفة صانع الفخار الأصل بقاء الصعيد موحدًا مع السافل، كدولتين بجيش موحد القيادة، رأت الأفعى السوداء أن لا بديل عن تقرير المصير تمهيدًا للانفصال التام!

لكن لم يولّ الجنكـويز أهمية لما طُرح، لم يدرسوه، لم يناقشوه، إذ اكتفوا بالإصرار على فرض إدارة إقليمية من عناصرهم، من أهل الصعيد، أولئك الذين رمزتهم إسميًا فيما مضى؟

وهكذا اتسعت فجوة الثقة أكثر! فاستعرت الحرب أكثر! بل مضت طوائف صانع الفخار في الصعيد خُطوة أكبر، بتكوينها لحكومة الصعيد المؤقتة، التي أصبح اسمها "جمهورية النهر، في المنفى" والتي استنفرت لدعمها أهل القبل الأربعة!

كانت هذه المرحلة من التصعيد إيذانًا بمجيء حاكم عام جنكـويزي جديد، سعى منذ بداية حكمه لحل هذه المشكلة، التي ظلت تهدد وجود الجنكـويز ووطنهم في حكم البلاد الأسيرة فأعلن في البدء اعترافه بالتباين والفوارق بين صعيد النهر وسافله، وحق أهالي الصعيد في تطوير ثقافتهم وتقاليدهم في نطاق البلاد الأسيرة الاشتراكية العظمى الموحدة.

لكن كان هذا إعلانًا تكتيكيًا مؤقتًا من الجنكـويز، عن التخلي عن نشر ثقافتهم ودينهم في صعيد النّهر، ولذلك جاء رد طوائف صانع الفخار في الصعيد مفحمًا:

"نحن ضد الشيوعية والتدخل الشيوعي الأممي!".

ومع ذلك وقعت طائفة صانع الفخار مع الحاكم الجنكـويزي العام، على اتفاق في "الزهرة الجديدة" عاصمة هضبة الشمس، التي كانت تحتضن ثوار الصعيد، يقضي بأن يحكم الصعيد نفسه! في إطار البلاد الأسيرة الموحدة.

دمج هذا الاتفاق مقاتلي الأفعى السوداء، في جيش الحاكم الجنكـويزي العام، هذا الاتفاق لم يرقّ لطوائف صانع الفخار في دار الريح، فوصفه أحد زعمائهم القسيسة، من داخل "كركوره" في الجبال أدنى دار الريح قائلاً:

"إنه خيانة لأهالي البلاد الأسيرة الأصليين!".

وانتقدما صانعو فخار آخرون بأنها:

"سلطة مفرغة المحتوى، فالقرارات المصيرية لا تزال بيد الجنكـويز بنص الاتفاق!".

ومع ذلك بقدر ما التزم المقاتلون السابقون بالاتفاقية، بقدر ما كشفت الاتفاقية تهافتهم، إذ بدا واضحًا أن رفاق الأمس، أضحوا

يتنافسون منافسات حادة، لا تخلو من الأبعاد الذاتية والشخصية، بل وتعمق فيهم الإحساس القبلي الضيق، الذي وظفوه في هذا التنافس، لترجيح كفة مآل السلطة لمن!

وما هو أخطر أنهم كانوا يعانون نقصاً حاداً ومزمناً في مهارات الإدارة، بسبب انعدام الخبرة والتجربة، وترتب على الاتفاقية حركة تبشيريديتي حادة، رمى فيها حلفاء كل طرف بثقلهما.

فيمّا طائفة صانع الفخار الأم مشدومة ترأى ما يجري في ذهول تام! إلى أن انفجرت الأوضاع بإعلان الحاكم الجنكويزي العام، عزمه على تطبيق قوانين منسوبة للدين، وهكذا لم تجد طائفة صانع الفخار الأم بدءاً عن الخروج عن صمتها! إذ بلغ الاحتقان ذروته! فأوعزت لإحدى فرقها العسكرية بالتمرد، وتوحيد طوائف صانع الفخار في طائفة واحدة، وبالفعل رفضت هذه الفرقة تنفيذ أوامر صادرة من "أسفل النهر" بمغادرة موقعها في "الصعيد" والانتقال إلى السافل.

وقتلت ضباط الفرقة الذين ينتمون إلى السافل وفرت إلى الغابات، فأرسل الجيش الجنكويزي قائداً من أهل الصعيد لإقناع المتمردين بفض التمرد، لكنه انضم إليهم بل أصبح هو من يقود التمرد!

وكان هذا التمرد إيذاناً بميلاد "الجيش الأهلي لتحرير البلاد
الأسيرة!" الذي ظل يخوض حرباً شرسة ضد الجنكويز، تكبد فيها
الجيش الجنكويزي هزائم متوالية وخسائر فادحة.

كان واضحاً أن الأمور بدأت تخرج عن يد الجنكويز! فأصبح
التدمير داخل جيشهم ومؤسساتهم حالة عامة، وتدهورت العلاقة
بين الجيش والشعب الذي لم يكفَّ عن التساؤل:

"لماذا البنادق موجهة دائماً الى صدور أبنائه في الدّاخل، ولا
توجه لدحر الغزاة؟!"

ومن جهة أخرى تتالت الإدانات واللاتهامات المتبادلة، بين
الجيش والحاكم الجنكويزي العام وطاقمه! وبات مقاتلو صانع
الفخار أقرب من أي وقت مضى لتحقيق أهدافهم!

شعوب البلاد الأسيرة التي لطالما جنحت للسلم أعيتهما الوعود
الكاذبة والاتفاقات الزّائفة!

"لم يعد للكلام جدوى.. لم يكن الصّمّت ممكناً".

قال عتّام مقاطعاً القطي:

"هؤلاء الناس أشعلوا نيران حرب بشعة، منذ قرروا انتزاع
أراضي أهالي دار الريح من مُلاكها، ومنحها لقبائل الجنكويز المترحلة
من مكان لآخر، عبر تاريخ البلاد الأسيرة، ما أدى لأعمال العنف

والعداء، وجعل دار الرِّيح ترزح تحت وطأة حكم عسكري وإجراءات استثنائية، اتسع خلالها نطاق الاعتقالات، ومورست فيها أنماط غير مسبوقة من التعذيب، والتمثيل بالجنث.

سرح القطي بذاكرته قليلاً، قبل أن يستمر في الحكى:

"كُون حزب الحاكم العام تحالفًا من كل قبائل الجنك—ويز، استهل نشاطه بمهاجمة قرى دار الريح فقام بحرقها وتدميرها جميعًا، قتل آلاف المواطنين منذ بداية الهجمات، وتمت سرقة ونهب كل المواشي، معظم هذه الهجمات كانت تتم ليلاً، فعند وصولهم للقرية يبدأ الجنكوي في إشعال النيران في كل القرية.

والمواطنون الذين يهربون، تحصدهم النيران، وتتوافق الهجمات مع مواسم الحصاد، وبهذا تقوم المليشيات بتعريض الأهالي، لخطر المجاعة، وإجبارهم على هجر أرض أجدادهم.

"كانت بعض الطائرات التي تقصف الاهالي، تنتمي للجوار العربي، وكان يقاتل معنا جنكوي من دول عربية عديدة، يعتقدون أن هذه الحرب لنصرة عقيدتهم وعرقهم".

الحرب لم تستثن أي جزء من جُغرافيا دار الرِّيح، كانت يوماً بعد يوم تتصاعد بصورة أسوأ من اليوم الذي سبق، وكانــــت المليشيات تستخدم اللاندكروزرات المحمّلة بالمدافع، وتستخدم الخيول، وإثر كل غارة كان الأهالي الناجون يتعرضون للتشريد، فيفرون إلى دول الجوار.

وقد بدأ واضحًا أن نظام الحاكم العام يسعى لإبادة أهالي دار
الريح، لتحل محلهم قبائل الجنكـويز التائهة في الصحراء الكبرى
والجوار..

فبينما كان الحاكم العام يمد مليشيات الجنكـويز بالسلاح
والمعدات والعربات، والتدريب، كان في الوقت نفسه ينزع سلاح
الأهالي، الذين بالأساس يقيد قانون الطوارئ حقهم في الدفاع عن
أنفسهم وحرّيتهم في الحركة، كما يعرضهم هذا القانون العرفي
للاعتقالات الجماعية، والقتل خارج نطاق القضاء.

كان واضحًا أن ما يجري هو تطهير عرقي مكتمل الأركان، وهو
الأمر الذي دفع طائفة صانع الفخار إلى حمل السلاح، دفاعًا عن
الأهالي العزل الأبرياء، خاصةً بعد أن تم اتهامهم بجريمة لم
يرتكبوها، بقتل عدد من زعماء قبائل الجنكـويز، الذين قتلوا في
الحقيقة نتيجة صراعات داخل تحالفهم، تتعلق باقتسام ما استولوا
عليه من أراضي.

فصرّح الحاكم العام باعتبار كل الأهالي خارجون على القانون،
ما لم يسلموا أعضاء طائفة صانع الفخار إلى السلطات، التي
اعتبرتهم طابورًا خامسًا، مناهضين لنظام المقدّس سرّه.

وحتى تكتمل أركان الإبادة تم إغلاق المنطقة، وحُطِرَ على أي
مواطن مغادرتها، حتى لا ينجو أحد من الهجوم الكاسح، الذي تم
الإعداد له من قبل الجنكـويز.

فضلاً عن الأرواح التي أزهقت، والمعاقين وذوي العاهات
المستديمة من ضحايا الحرب.

خسر الأهالي مساكنهم التي أحرقت ومواشيهم وأموالهم التي
نهبت، وشهد قطاع البستنة الصغير، لكن القوى والحديث، في
اقتصاد دارالريح نكسة خطيرة؛ إذ اقتلعت أشجارالفاكهة، وفُقدت
استثمارات كبيرة من السيارات وطمبات المياه والمحارث والمطاحن،
وما يمكن تسميته "القطاع الحديث الصغيرالنّامي في اقتصاد دار
الريح".

□□□

سأل جادين زميله المعتقل، الذي كان يُكثّر من الأسئلة:

"وأنت من وين، وما قصتك؟".

"أنا من "كتري"، كنت أُهرب الأسلحة والذخائر من دارالريح، إلى
جنوب النّهر، لكن عندما اعتقلوني لم يضبطوا معي شيئاً يؤكد
نشاطي.

مررت بنقطة تفتيش أمروني أن أجنب، فتشوا البوكس الذي
كنت أفوده، ولم يجدوا شيئاً! كنت أعلم مسبقاً أن هناك خائناً وشي
بي، لم يكونوا يعلمون أنني بدلت العربة، وفي اللحظة التي كانوا
يفتشون عربتي، كانت العربة الأخرى قد وصلت للطائفة في الجبال
أدنى دارالريح.

كانوا يدركون أن ثمة خديعة حدثت، فهم متأكدون من مصدر معلوماتهم، لكن لم يكن بيدهم دليل فرموني هنا، هذا كل شيء!".

والتفت جادين بوجهه إلى معتقل آخر:

"وأنت، ما قصتك..".

صمت لبرهة قبل أن يقول:

"قصتي لا تختلف كثيرًا عن قصته، أُهرّب السلاح إلى الثوار في الجبل صعيد دارالريح، لم يكونوا متأكدين من أمري، لم يستطيعوا إثبات شيء، فقد اعتقلوني في حملة عشوائية، طالبت كل من يشتبه في انتمائهم لثوار الجبل، رأيت أبرياء، أعرف أنهم أبرياء قُتلوا أمام ناظري".

"لماذا قتلوهم؟".

"تواجدوا في الزمان والمكان الخطأ!".

منذ أكثر من سبعة عقود بدأت الأحداث في دارالريح تتداعى، فبعد أن نعى إلى علم أبناء دارالريح، المبتعثين في القبل الأربعة، عن نية الغزاة البيض في فصل دارالريح، عن البلاد الأسيرة، وضمها إلى مستعمرات مجاورة، لتكوين كومونولث.. أرسلوا وفدًا من أربعة من زملائهم، عُرِفوا بانتمائهم المتطرف لطائفة صانع الفخار، لتقصي الحقائق.

ومن ثم تسارعت الأحداث التي وصلت ذروتها، بأن قامت جماعة من طائفة صانع الفخار، بإحراق علم الغُزاة المستعمرين.. وهو ما لم يحدث في أي مستعمرة أخرى!

من جهة أخرى تسرّبت شائعة، أن الغُزاة ينوون تنصيب أحد الجنكويز ملكًا على دارالريح، وهو أمر سيصبح تقليدًا يتبعه الحكام الجنكويز في المدينة الزّاهية، إذ سيظلون في كل عهودهم، يصدرون نوابًا جنكويز إلى الصعيد ودارالريح وغيرها كممثلين لهم!

الأمر الذي أثار حفيظة الحكامات والميارم، فانطلقت التعبئة العامة والحشد الشعبي.

لكن بعد عام من استبدال الغُزاة البيض بمستعمرين محليين، انقسمت جماعة من طائفة صانع الفخار في دارالريح، أطلقت على نفسها اسم لهيب صانع الفخار!

ولم تهدأ الأمور قليلًا، حتى أعلن مقاتلون متطرفون من طائفة صانع الفخار حربهم المقدّسة على الجنكويز، وتوالت الانقسامات في طائفة صانع الفخار الأم بدارالريح.

وجميعها من حملت السلاح ومن لم تحمله، التقت حول خيارين:

"الحرية أو الموت" ..

وهي مطالب الصعيد ودار صباح وأطراف البلاد الأسيرة نفسها،
التي كانت ترفعها طائفة صانع الفخار في كل مكان!

وهكذا توالى عبر السنوات الحركات الانقسامية والاحتجاجية
والانتفاضات، التي وصلت إلى مرحلة متقدّمة، بدعمٍ من طائفة
صانع الفخار في الصعيد، بثورة صانع الفخار، الذي صُلب على
إحدى أشجار النّيم في قلب المدينة الزّاهية، ليلحق بمن صُلبوا من
أسلافه الميامين.

عبرت انتفاضة صانع الفخار المجيدة الأخيرة، عن تحرر طائفة
صانع الفخار بدار الرّيح أخيراً، من الوهم وخيبة الأمل، التي أصابت
الطائفة في الصعيد من قبل! بانكشاف الخديعة وسقوط أقنعة
النفاق الجنكوية!

ورغم فشل هذه الثورة إلا أنها مثلت منعطفًا حادًا، إذ شكلت
الأساس الذي مهد خيار القتال في دار الرّيح، بتحوُّل كامل لطوائف
صانع الفخار في هذا الاتجاه!

هذا ما كان يجري في دار الرّيح، فما الذي جرى في الجبال أدنى
دار الرّيح وصعيد التّهر العكر، قال حامد القطي:

"تم التكريس لحالة الطوارئ، ومُنِع دخول الإغاثة وأطلق
الجنكويزيدهم في دخول الأماكن العامة والخاصة، والتفتيش دون
إذن أو أوامر، وتحديد إقامة وحركة المواطنين، والاستيلاء على

الممتلكات الخاصة، بحجة استخدامها في ملاحقة الجُنَاة، من عصابات النهب المسلح.

كما تم التشهير بالمواطنين باسم الدين، في قضايا أخلاقية بزعم المحافظة، وإيقاف حركة المواطنين بالسيارات، فيما عُرف بصمت الحركة، في كل أسبوع ابتداءً من ليلة الأحد وحتى صبيحة الثلاثاء!

فتعطلت مصالح النَّاس، وكان ذلك بحجة توفير الوقود، "استعداداً لتحمل المشاق ومحاربة الغرب الكافر" ..

ثم أصبح السماح للمواطنين بالحركة في يوم الصَّمْت "الإثنين" كل أسبوع عن طريق تصديق برسم مالي، كما تمت إزالة منازل بعض المواطنين، لأغراض بيع الأرض في خطط استثمارية دون سابق إنذار، وعندما أوقفت المحكمة المختصة تلك الإجراءات، لم تعترف سلطة الطوارئ بأمر المحكمة.

وتدخل الجنكـويـز في أخص خصوصيات المواطنين، إذ أخذوا يهاجمون بيوت النَّاس، ويدخلون على الرجال وهم على أصلاب زوجاتهم! وكادت أن تحدث فتنة دينية! عندما لاحـة—وا هؤلاء أحد المواطنين، من أبوين مختلفي العقيدة، وحكموا عليه بالجلد لعلاقته بفتاة ليست على عقيدته، أفضت إلى الزواج.

□□□

بعد أن كَفُّوا عن استدعائهم للتحقيق لأكثر من أسبوعين،
عادوا مرّة أخرى، يأخذون منهم في كل يوم إثنين أو ثلاثة للتحقيق،
وما أن ينتهوا من التحقيق مع الجميع، حتى يعيدوا التحقيق مرّة
ثانية.

كان المعتقلون يعودون من التحقيق، في حال مزرية، من شدّة
العذاب والإرهاق، وجوههم متورمة دمداة، وأسنانهم مهشمة،
والحروق تكاد تحتل كل جزء من أيديهم وأجسادهم!

وجاء دور جادين.. نادوه باسمه فخرج من الرّزّانة، بصحبة
جنكويزي أخذ يدفعه دفعًا بمقدمة سلاحه، وكان بانتظاره أربعة من
الحرس، أحدهم يرتدي اللّباس المدني المميز لعسس الجنكويز، قيده
وعصبوا عينيه، وأخرجوه من المبنى، وألقوا به في سيارة لاند كروزر،
ومشوا به مسافة قبل أن يتوقفوا، وينزلونه في بناء آخر لم يستطع
التعرّف عليه!

استقبلته صرخات الألم المرعبة، التي يطلقها الخاضعون
للتعذيب في هذه اللحظة! كانت صرخاتهم شديدة الألم، تنفذ من
أذنيه إلى عظامه، فتصيبه بقشعريرة مخيفة، وتنفذ إلى روحه
فتشربها، وإلى قلبه فتشخره، وتُدخل في نفسه روعًا لا حدّ له!

كانت صرخات المعذبين والجلادين تمتازان، التأوهات والبكاء
والشتائم المقذعة، التي تطفح بالغل والتلذذ والظفر! مشهد من
الأصوات المعدّبة والمعدّبة يخترق الذاكرة والوجدان، فلا ينمحي أبدًا!

أدخلوه في غرفة تكاد تكون عارية، إلا من كرسي، وطاولة رُصَّت
عليها كل أدوات التعذيب، التي يمكن تخيلها! وأخذوا يركلونه
ويضربونه بكابلات الكهرباء، وبعد وقت لا يدري كم دام، أدخلوه عبر
باب جانبي، على محقق بادره بالأسئلة:

"قبيلتك؟".

"قبيلتي هي البلدة القديمة، البلاد الأسييرة... كل البلاد
الأسيرة..".

"أتريد أن تتحاذق؟!".

قال المحقق في غضب، وهو يهوي على صدغه بصفعة مدوية،
العسكري الجنكوبيزي هو الآخر هوى على ظهره بسلك كهرباء وأخذ
يجلده بغلٍ! فأخذ يصبح ويتلوى من الألم.. قال المحقق مرّة أخرى:

"تريد أن ترتاح أم تريدنا أن نزيدك؟ اعترف وسنريحك من
العذاب!".

"ليس لدي قبيلة، لا أعرف لنفسي قبيلة، هكذا وجدت نفسي".

"كما تشاء، يبدو أنك ستتعبنا معك، يجب أن تعترف، لا أحد
بإمكانه أن يصمد، فاختر على نفسك العذاب وجاوب إجابات
محددة.. يجب أن تعترف، لتخرج".

جذبه أحدهم ودفعه بعنف إلى غُرْفَة أُخرى؛ كل ما استطاع
تمييزه فيها ثلاثة عساكر، بدت وجوههم مألوفة! ألقوا به على
الأرض، وأوثقوا رجليه بعضاً وحبل ورفعوهما، ثم أخذوا يضربونه
بسلك غليظ..

تمالك نفسه قليلاً مع الضربات الأولى، لكنه فشل في الاستمرار
في تحمل الألم، فأخذ يصيح من شدة الألم..

اشتد ضرب الجلاد وامتد، فشعر برجليه تتقدان بنارتسري
حرّهما وتصل إلى دماغه، الذي كان يغلي.. أعادوه مرّة أخرى إلى
المحقق الذي قال له:

"بيدو أنك الآن صرت أعقل وستخبرني بالحقيقة.. ستخبرنا عن
قادتك في التنظيم السري".

"لم أكذب عليك لم أذكر سوى الحقيقة، أنا مجرد موظف في
معهد...".

ولم يتركه يكمل إذ هوى على صدغه بصفعة مدوية وأخذ يصرخ
في وجهه كالمجنون:

"يجب أن تكفّ عن هذه الأسطوانة المشروخة، كذاب! من
تعرف من القيادات الميدانية لحركات صانع الفخار، وكيف يتم
التنسيق الميداني بينها؟ أجب".

وبصوت آلي منهك وهويكاد يفقد الوعي أجاب:

"لا أعرف أحداً، أنا مجرد...".

"كذّاب! قل: من تعرف من قيادات الحركات المسلحة وكيف يتم التنسيق بينها؟".

"لا أعرف أحداً، صدقي لا أعرف أحداً.. أنا مجرد باحث في التاريخ..".

"اعترف.. هل تلقيت تدريباً عسكرياً، وكم قتلتَ منّا، اعترف".

"أنا مدني، لم أقاتل يوماً ولم أرى القتال إلا على شاشات التلفزيون، وصفحات الكتب لا أفهم في القتال؛ ولا أؤمن به كوسيلة للتغيير، فكيف سأقتل؟!".

"اسمع يا طرطور! ستعترف وإلا فما رأيت من الفيل إلا ظلّه! اعترف كيف يتصلون بك وتتصل بهم اعترف يا كافر".

كان جسده يشتعل من الألم، وكلماتهم تحفر في وجدانه جراحاً غائرة، لا تندمل! لم يكن لديه ما يقوله لهم! هجم عليه أحدهم، وأطفأ سيجارته على رقبته. فصاح متألماً، وهم لا زالوا بإصرارٍ عنيد يلحون عليه بالاعتراف، في تلك اللحظات لو كان يملك شيئاً للاعتراف به لفعل، لعله يخفف من العذاب.. هذا العذاب الذي جعل الموت

قاب قوسين أو أدنى، يتراءى أمامه.. هيمنت عليه فكرة الموت..
أخرجوه وقال أحدهم:

"ستعترف الآن وإلا قتلناك".

ووضع فوهة البندقية في جبهته وهو يفك التأمين ويقول:

"ما رأيك تعترف أم أنني حياتك؟".

"والله ما عندي أي شيء أعترف به، وإلا كنت اعترفت".

وأطلق النَّار.. شعرجادين بالبارود يلسع وجهه، ويصم أذنيه..
لوهلة ظن أنه مات.. لكنه لم يمُت بعد، كان في حال من الرُّعب والهلع
لا يدري أهو حيٌّ أم ميت، ثم انتبه لما حدث.. لم يطلق العسكري
الجنكـويزي النَّار على رأسه، إذ حرف بندقيته في آخر أجزاء الثانية،
فمرّت الطلقة بجانب أذنيه.

في المرّة الثانية التي أخذوه فيها للتحقيق، كان المحقق هذه المرّة
أقل عنفًا.. لم يعذبونه، أخذت لهجة المحقق تلين، وجّه له الأسئلة
ذاتها التي سأله إيّاها في المرّة السابقة، ثم قال له:

"عرفنا كل شيء بشأنك ولا داعي للإنكار، عرفنا قبيلتك
ومسؤوليك والخلايا التي تديرها، عرفنا كل شيء، الأحسن لك أن
تخبرنا بالحقيقة بنفسك، قل لنا من تعرف من القيادات وأخبرنا بما
تعرف، إذا أخبرتنا وكنتم ترغب بالتعاون معنا، وعد مني أن نطلق

سراحك، لا تظن أننا ضعفاء! نحن الآن باسطون سلطتنا على الأرض، والبلاد والعباد كل شيء في قبضتنا، وكل جيوب صانع الفخار والعملاء نعرفهم! وعمًا قريب سنقضي عليهم دفعة واحدة، نحن الآن نحاصرهم، وقريبًا ستمسح أننا أخضعناهم لو كنت لا تزال حيًا! سنعدمهم جميعًا، وأنت قبلهم! لأنك باشتراكك معهم خائن مثلهم! سنطعم جثتك الكلاب! الأفضل لك أن تتعاون معنا فنحن الأقوياء، مقابل عدم إعدامك.. حرّيتك، وسنعطيك وضعًا مهنيًا مميّزًا، وستصبح ثريًا جدًّا، هذه الأرض أرضنا نحن، نفعل فيها ما نشاء، وليست أرضهم، ولا يجروون على مجرد الحُلم بها سنهزمهم، مثل كل مرة، فأفضل لك أن تقف في صفنا وتتعاون معنا، ماذا قلت؟".

"والله مثل ما قلت لكم في السابق أنا مجرد موظف، باحث في معهد بحثي، وإن كنتم قد عرفتم كل شيء عني، المؤكد في الأمر أنكم ستعرفون أنني بريء من هذه الاتهامات، ولا صلة لي بأي طرف في الحرب".

يبدو أنهم كانوا قد تيقنوا من صحة كلامه، وأنه لا صلة له بأحد، فلم يلجوا عليه بعد ذلك في التحقيق كثيرًا، ولعلمهم لم يحضروه إلا ليعرضوا عليه التعاون معهم، ليصير جاسوسًا ضد أهله وقومه، ولمَّا لم يجدوا منه تجاوبًا أعادوه إلى المعتقل.

الاعتقال الذي طاله، كان ضمن حملة اعتقالات، بسبب التصاعد المفاجئ لوتائر الحرب في الجبال أدنى دار الرّيح، فيما يشبه حربًا أهلية ثالثة، فما جرى ويجري هناك كان نسخة بالكربون عما

جرى ويجري في الصعيد وأعلي دار الرّيح، فالحرب المقدّسة للجنكوز
في الجبال كما في غابات الصعيد، ليس ثمة فرق.. ذات القمع
والوحشية!

رغبة الجنكوز في الاستيلاء على الموارد والثروات، جعلتهم
يجعلون من هذه الأجزاء من البلاد الأسيرة أرضًا محروقة!

فبعد الهدوء النسبي الذي ساد البلاد الأسيرة، إثر البروتكول
والاتفاق اللذين رعاهما الغرب، فأفضيا لفصل الصعيد عن البلاد
الأسيرة، اندلعت الحرب بين طوائف صانعي الفخار والجنكوز
مجددًا، وقبل استقلال الصعيد عن البلاد الأسيرة، أنشأت طائفة
صانع الفخار الأصل، تحالفًا واسعًا مع كل طوائف صانع الفخار في
البلاد الأسيرة، وهكذا اعتبارًا من تلك اللحظة، تضرر أكثر من مليوني
شخص من الأهالي، وفرّ أكثر من مليون إلى بلدان الجوار مع اشتداد
القتال!

وقبيل انتخابات الجنكوز المخجوجة التي درجت على تنصيب
خراب العامر الثاني في كل دورة انتخابية، منذ أُستبدل الغُزاة البيض
بمستعمرين محليين، تصاعدت وتيرة الحرب في توقيت الاستفتاء،
لمنع الأهالي من إبداء رأيهم حول الوحدة والانفصال.

لذا وقبيل الاستفتاء بقليل، أنشأ الجنكوز طرقًا ترابية
وخزانات لنقل النفط، ومن ثم بدؤوا ينشرون مسلحيهم في
المنطقتين، خصوصًا صعيد النهر العكر، حيث المنشآت العسكرية

أسرار كهذه التي تكشف عنها قسّمات وجبّي المربود والقطي،
هذان الوجهان البائسان الباحثان عن عُفْران يستعصي حتى على
الأنبياء.

تلفت في الوجوه حوله وهمهم:

"ليس ثمة أنبياء هنا!".

بقي ورفاقه في المعتقل، كالمعتاد يعانون الجوع والقذارة والقمل
والنمل والحشرات، وكان كلما تمعّن وجوههم حوله، ينتابه شعور
صادم، إذ يبدو، مختلفين عن اليوم الذي سبق، كأنهم يهرمون
ويشيخون بسرعة يصعب قياسها، أو ملاحظتها!

لطالما تألم وحده، لكنه لم يشعر يومًا بالألم، على هذا النحو،
الذي يشعر به الآن، في هذه اللحظة الشائخة، كوجوههم التي
تكشف عن ألم ومهانة لا حد لهما!

وفيما هو غارق في هذه التأمّلات، قطعت الكهرباء فجأة وأظلم
كل شيء، ثم لم تمضِ برهة حتى انتزعه انفجار مفاجئ، انخلعت له
قلوب الجميع! كان السجن يتعرض إلى قصف مباشر وعنيف، بدا
واضحًا انهماؤه، من كل الاتجاهات!

أصوات انفجارات القذائف القوية التي أصابتهم برُعب شديد،
دفعت بهم للالتصاق ببعضهم، كأنهم يجدون في ذلك حماية من
الموت، أو الإصابة!

سأل صبية في ظل الغبار عن معلم بارز محدد، اعتاد أن يعرف
موقع بيت هيلدا منه، كان يعلم أنه هنا في مكان ما، لكن الغبار
يحجب عنه معالم الأحياء السكنية، التي تغطت برماد الانفجارات،
فأشار أحدهم:

"من هنا..".

وقال آخر:

"لا يبعد كثيرًا، إذا سلكت هذا الطريق".

كان طريقًا ضيقًا متسخًا، محترق الأشجار، ابتسم وهو يتذكر
مصريين وسط البلد عندما تسألهم عن مكان ما تقصده، ولا
يعرفونه، فيقولون:

"بُصْ حضرتك، تاخذ أول يمين في شمال في يمين..".

يرمون بك بحسن نية في متاهة انعطافات لا نهائية يمينًا
وشمالًا، فقط لأنهم يجدون صعوبة في أن يردوا على سؤالك، بأنهم لا
يعرفون المكان الذي تقصده!

رائحة النهر التي تغزو خياشيمه الآن مشبعة بالدخان، تستعيد
إلى ذاكرته بعض الذكريات.. أخبرته هيلدا:

"قهوة عمك عوض، مسكني خلفها بشارعين".

يدفعونه إلى داخل الرّزانة، فيطوي ليل البلدة، آخر النهارات
المسكونة بصمت النّاس وبؤسهم الذي انفجر فجأة على هذا النحو
المدمر! فتلاشي كل شيء داخل انفجارات تيار غضبتهم العارمة!

طرق على الباب بتوتر.. جاءه صوت هيلدا من الجانب الآخر:

"حاضر، حاضر لحظة".

وتقدمت خطاها في شرايينه، وقلبه ينتفض بشدّة!

بنسيلفانيا، تكساس،

فيرمونت، ميتشيغان

2021–2016

□□□

روابط مهمة لكل كاتب، ستساعدك على
تنمية مهاراتك الكتابية.



شروط النشر في دار بسمة للنشر الإلكتروني

اسأل سؤالك هنا

اشترك في النشرة البريدية الآن

دار بسمة للنشر الإلكتروني

دار مغربية، رقمية، تأسست في 2017

دار بسمة للنشر الإلكتروني من أهدافها مساعدة الشباب المغاربة والعرب على نشر إبداعاتهم، وإيصال أصواتهم وتغريداتهم إلى العالم كله، كما تطمح لاكتساح عالم النشر الإلكتروني في كل الأقطار العربية..

كما أننا -في محاولة منا لتغذية شريان الثقافة- نسترشد بالضمير الحي من أجل نشر المحتوى الثمين، حاملين على كواهلنا رسالة التنوير الحقيقي، ومدركين كل الإدراك لقيمة القلم النبيلة، لذلك كنا حريصين على نشر كل ما هو قيم. في دار بسمة للنشر الإلكتروني نساند المؤلفين وندعمهم لإيصال إبداعاتهم لملايين من القراء، ونرشدهم إلى آليات فنية تعينهم على تحسين أساليب الكتابة والإبداع. وتقريباً لهذه الغاية تقوم الدار بتنظيم مسابقات متعددة، والإشراف عليها مجاناً من أجل اكتشاف المواهب الشابة التي تستحق أن تُنشر أعمالها بين القراء والمثقفين، وذلك تشجيعاً لهم على الاستمرارية في الكتابة الإبداع.



المحتويات

- الإهداء 6
1. آلام ذاكرة الطين 8
2. ود دبرك بن زرزور الدوري 155
3. المقدّس سرُّه 192
4. المنشق: ريبورتاج المرايا والظلال 299

لتحميل جميع مؤلفات الكاتب أحمد ضحية [اضغط هنا](#).



أحمد ضحية

- مواليِد مدينة كوستي (السودان) 1 نوفمبر 1971.
- تخرج عن كلية الآداب والعلوم شعبَة الترجمة، جامعة أم درمان الأهلية 1998.
- صدرت له عدة روايات ودراسات نقدية في الأدب والثقافة والفكر والسياسة عن دور نشر سودانية وعربية.
- له إسهامات راتبة في السرد والنقد الأدبي في الصحافة الورقية والالكترونية السودانية.
- مقيم بالولايات المتحدة الأمريكية منذ العام 2006.

صانع الفخار

في هذه الرواية يتقاطع الفني والرمزي بالتاريخي والسياسي، حيث يستمير الروائي السوداني أحمد ضحية، مهنة صناعة الفخار كأداة لإعادة تشكيل الذاكرة والهوية والانكسارات الوطنية. تدور أحداث الرواية في فضاء كثير التحولات وكثيف الخيبات، حيث يقف "صانع الفخار" كشاهدٍ على التشققات الكبرى في الجدار الجمعي السوداني. الرؤية السردية في الرواية تنبني من مزج الواقعي بالأسطوري، والتاريخي باليومي، في بنية لغوية شعرية تُحاكي بنية الطين نفسه: يَبْنِ في ظاهره، لكنه يكتنز صلابة بعد اكتمال حرقه. هكذا تبدو شخصيات الرواية، هشة ومتصدعة، لكنها مشبعة برماد الأسئلة الوجودية الكبرى.

بسم الله الرحمن الرحيم



bassmabook   
00212771814934  
bassmabook@gmail.com